

التفسير الكشاف

محمد بن عبد الله بن عباس

المجلد الرابع
من التوبة الى اخر النحل

دار الأنوار

التفسير الكاشف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة

دار الأنوار

طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان

Email: daralanwar2009@yahoo.com

محمد هبّار مَفِينَة

النَّفْسِ الْكَاشِفِ

المجلد الرابع

من التوبة إلى آخر النحل

دار الأنوار

سورة التوبة

سورة التوبة

وتسمى أيضاً براءة والفاضة لأنها فضحت أمر المنافقين ، عدد آياتها ١٢٩ ، وهي مدنية .

واتفق الصحابة والقراء على اسقاط البسملة من أولها ، لأن السورة نزلت لرفع الأمان ، والبسملة أمان ، لمكان الرحمن الرحيم ، وقيل : انا والأنفال سورة واحدة .

براعة من الله ورسوله الآية ١ - ٤ :

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ وَجْهٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لَلِئِمِّ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتِينَ *
الْمُتِينَ *

اللغة :

المراد بالبراءة هنا انقطاع المصمة . والسَّيح السبر على مهل . والاختزاء الإذلال .
والاذان الاعلام

الإعراب :

براءة خبر مبتأ محذوف أي هذه براءة . واربعة أشهر ظرن متعلق بفسيحوا .
واذان خبر مبتأ محذوف أي وهي اذان . ورسوله مبتدأ والخبر غنوف أي ورسوله
بريء ، ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في بريء لأنه اسم فاعل . الا الذين
عاهدتم (الذين) منصوب على الاستثناء من المشركين . وشيتاً مفعول مطلق .

المعنى :

في العام الثامن للهجرة فتح النبي (ص) مكة ، وفي التاسع نزلت هذه السورة ،
وفي العاشر حج النبي حجة الوداع ، وفي الحادي عشر توفي صلى الله عليه وآله .
فهذه السورة ليست آخر سورة نزلت من القرآن ، ولكنها من الأواخر ، ولذا
تضمنت أحكاماً نهائية في العلاقات بين المسلمين والمشركين .. قال طه حسين في
كتاب « مرآة الاسلام » :

« زاد اقبل العرب على الإسلام بعد الحجة التي حجها ابو بكر سنة تسع ،
ففي هذه الحجة أرسل النبي علياً ليلحق بأبي بكر ، ويتلو على الناس قرآناً ،
فكان فصلاً بين عهدين : عهد كان يقوى الاسلام فيه شيئاً فشيئاً ، وكان للشرك
مع ذلك بقى في بعض قبائل العرب ، وعهد آخر خلصت فيه الجزيرة كلها
للإسلام .. وهذا القرآن — أي الذي تلاه عليّ على الناس والذي فرق الله به بين
هذين العهدين — هو هذه الآيات الكريمة من سورة التوبة ، فأعلن فيها براءة الله ورسوله
من المشركين وحرّم فيها أن يقرب المشركون البيت ، أو يلجأوا به ، أو يطوف
به عريان » .

الجزء العاشر

(براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) . قدمنا ان هذه السورة نزلت في العام التالي للفتح ، حيث عظم أمر الاسلام ، وانتشر في الجزيرة العربية كلها ، وكانت له للكلمة العليا ، ومع ذلك بني للشرك جيوب في بعض قبائل العرب ، وكلا تكون هذه الجيوب طابوراً خامساً في المجتمع الاسلامي أمر الله نبيه - في هذه السورة - أن يعلن البراءة من المشركين ، وبالأصح أن ينذر بالحرب كل مشرك بقيم في الجزيرة العربية ، حتى يقول : لا إله إلا الله ، ويدخل فيما دخل فيه الناس . ويشمل هذا الانذار جميع المشركين ، حتى الذين عاهدكم النبي (ص) على المدنة والمسالمة إلا في حال واحدة أشار إليها سبحانه بقوله : (الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً) ويأتي التفسير .

(فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وان الله غجري الكافرين) . فسيحوا أي قولوا أيها المسلمون للمشركين : سيروا في الأرض آمين طوال هذه المدة .. بعد اعلان الحرب على المشركين أمهلهم الله سبحانه أربعة أشهر يتنقلون فيها آمين ، حيث يشاعون لا يمسهم أحد بسوء ، فإن أسلموا بعدها فقد سلموا ، وفازوا دنياً وآخرة ، وان أصروا على الشرك فجزاؤهم القتل في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة ، ولن يجدوا من ذلك مهرباً .

وتسأل : ان قتال المشرك ، حتى ينطق بكلمة التوحيد لا يتفق مع قوله تعالى في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة : « لا اكراه في الدين » وقوله في الآية ٩٩ من سورة يونس : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .. ان الاسلام دين السلم لا دين الحرب ؟

الجواب : أجل ، ان الاسلام لا يُكره أحداً على قول لا إله إلا الله ، وانما يدعو اليه بالحكمة والدليل : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - ٢٩ الكهف » . ولكن قد تستدعي مصلحة المجتمع الاسلامي في ظروف خاصة ان لا يكون فيه مشركون ، لأنهم يسون في الأرض فساداً .. وفي هذه الحال يجوز للمسلمين أن يكرهوا المشركين على النطق بكلمة التوحيد .. ومشركو الجزيرة العربية كانوا آنذاك طابوراً خامساً في المجتمع الاسلامي الجديد . ومن أجل

سورة التوبة

هذا كان الحكم فيهم القتل أو اظهار الاسلام ، وبه يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . وبكلمة ان الحكم خاص بمشركي الجزيرة آنذاك ، لسبب خاص ، وتقدم الكلام عن ذلك في ج ١ ص ٣٩٦ عند تفسير الآية ٢٥٦ من سورة البقرة . (واذا ن من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله فلان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) . يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، أي العاشر من ذي الحجة ، وكان ابتداء الأشهر الأربعة بهذا اليوم من سنة تسع للهجرة . وانتهائها في عاشر ربيع الآخر من سنة عشر ، وبعد هذه المهلة تعين مصير المشركين في الجزيرة العربية الاسلام أو القتل ، والخيار لهم بين هذين ، لأن الأوضاع في الجزيرة آنذاك كانت تستدعي ذلك كما أشرنا .

وذكر المفسرون ، ومنهم الطبري والرازبي وابو حيان الأندلسي : انه لما نزلت سورة التوبة امر النبي (ص) علماً ان يذهب الى اهل الموسم في مكة ليقراها عليهم ، فقليل له : لو بعث بها أبا بكر . فقال : لا يؤدي عني إلا رجل مني . وقام علي يوم النحر عند جمره العقبة ، وقال : ايها الناس اني رسول رسول الله اليكم ، وتلا الآيات .

(الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين) . بعد أن امر نبيه ان يمهّل المشركين اربعة اشهر ، حتى الذين نقضوا عهد المسلمين وغدروا بهم - بعد هذا استثنى سبحانه من المشركين قوماً كان بينهم وبين المسلمين عهد المهادنة والمسالمة الى امد ، وحافظوا على هذا العهد ، ولم يغلدوا ويخونوا ، استثنى هؤلاء ، ولم يمهّلهم اربعة اشهر فقط ، بل امهلهم الى مدتهم ، مها بلغت جزاء على وفائهم . وقال كثير من المفسرين : ان هؤلاء المشركين الأوفياء هم قوم من كنانة ، وكان قد بقي من عهدهم تسعة اشهر ، فأتم النبي (ص) لهم العهد .

وتدل هذه الآية على ان المعاهد لا يجب عليه الوفاء بالعهد إلا إذا وفى به الطرف الآخر نصاً وضوحاً ، فان اخل بشيء منه يُعدّ خائناً وناقضاً له ، ولا عهد لمن خان العهد (ان الله يحب المتقين) وهم الذين يتقون نقض العهد ، وسائر المقاسد .

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ
وَاخْذُواهُمْ وَأَحْصِرُواهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَأْبُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ
أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ
مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ
عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا
اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ
يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ
وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ *

اللغة :

انسلخ الأشهر انقضاءها . والحصر المنع من الخروج . والمراد بالمرصد هنا
المر والمجاز الذي يرصد فيه . وظهر عليه غلبه وظفر به . والمراد بالمراقبة هنا
المحافظة . والإل الجوار وقيل القرابة . والذمة والذمام العهد .

الإعراب :

كل مرصد منصوب على الظرفية متعلقاً باقعدوا ، تماماً كالصراط في قوله :
لأعصن لهم صراطك المستقيم . وأحد فاعل فعل محنوف دل عليه ما بعده ، أي

سورة التوبة

وان استجارك أحد من المشركين استجارك . كيف يكون (كيف) خبر كان، وعهد اسمها . فما استقاموا لكم (ما) مصدرية ظرفية، والظرف متعلق بفاستقيموا لهم ، والتقدير فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم . وكيف وإن (كيف) خبر كان محذوفة هي واسمها أي كيف يكون لهم عهد . وإلاّ مفعول يرقبوا .

المعنى :

(فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) . وجدتموهم ادركتموهم ، وخذلهم ائسروهم ، واحصروهم احبسوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد راقبهم وترصدوهم في كل طريق يمرون به ، ولا تدعوا أحداً يفلت منهم . أما الأشهر الحرم فقد ذكرنا عند تفسير الآية ١٩٤ من سورة البقرة : ان الله حرّم القتال في أربعة اشهر : ذي القعدة ، وذى الحجة ، والمحرم ، ورجب . وهذه الأشهر غير مرادة هنا، وانما المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية الأشهر الأربعة التي حرّم الله فيها قتال مشركي الجزيرة العربية ، وأباح لهم طوال هذه المدة ان يسبحوا في الأرض آمين ابتداء من عاشر ذي الحجة سنة ٥٩ الى عاشر ربيع الآخر سنة ١٠ هـ ، وبعدها أمر المسلمين بقتل المشركين وأسرهم وحبسهم وملاحقتهم انّى اتجهوا اذا لم يسلموا او يهاجروا من الجزيرة قبل انتهاء المدة اتقاء لشركهم وفسادهم .

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) . أي ان اظهروا الاسلام قبل انقضاء الأجل المضروب لهم، واقاموا الشعائر الاسلامية راحمها اقامة الصلاة ، وابتاء الزكاة ، ان فعلوا ذلك فهم في أمن وامان ينجري عليهم ما ينجري على المسلمين ، دون تفاوت .

(وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم بلغه مآته) . ان اي مشرك ممن يجوز قتله إذا استجار وطلب الأمان من المسلمين فعليهم ان يمجروه ويعطوه الأمان على نفسه وماله ، وان يدعوهم إلى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، فان قبل جرت عليه أحكام المسلمين ، وان رفض فلا يحل قتله، ويجب

الجزء العاشر

أن يوصله المسلمون إلى مكان يأمن فيه على نفسه (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) ذلك إشارة إلى اجارة المسلم للمشرك ، وإسماعه كلام الله ، وإبلاغه مأمنه، وقوله : (بأنهم قوم لا يعلمون) بيان للسبب ، وهو جهل المشركين المستجبرين بالإسلام وحقيقته .

وأفتى الفقهاء بأن للمسلم ان يؤمن حين القتال آحاداً من المشركين المقاتلين شرطة عدم المفسدة في الأمان بأن لا يكون المستجير جاسوساً ، ولا يتعطل الجهاد والقتال بأمانه .

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) . هذه الآية مكمله للآية الأولى والرابعة من هذه السورة ، فقد أوجب سبحانه في الآية الأولى نقض العهد مع المشركين الذين خانوه ولم يفوا به ، وهؤلاء الناكثون هم المعنيون بقوله تعالى هنا : (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) . وأوجب سبحانه في الآية الرابعة الوفاء بعهد المشركين الذين وفوا بالعهد ولم ينقضوا منه شيئاً ، وهم قوم من كنانة كما أشرنا ، وهؤلاء الأوفياء هم المعنيون بالاستثناء في قوله تعالى : (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين) . أي ابقوا معهم على عهد المهادنة والمسالمة ما بقوا عليه ، لأن الله يكره أهل الخيانة والغدر ، وبحب الأوفياء والانتقاء ، وقوله : عند المسجد الحرام يشير الى المكان الذي تم فيه الاتفاق مع كنانة ، لأن النبي (ص) عاهدهم مع من عاهد في الحديبية ، وهي قرية من مكة المكرمة .

(كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا) ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) . ضمير يظهروا ويرقبوا يعود الى الناكثين ، وقد وصفهم عظمت صفاته أولاً باللؤم والشراسة ، لأنهم لو قدروا على المسلمين لفعلوا بهم الأفاعيل في غير مراعاة لعهد ولا لانسانية ، ووصفهم ثانية بالنفاق وانهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، وثالثاً وصفهم بالفسق ، وكل صفة من هذه الثلاث تقضي عليهم بأشد العقوبات ، وإسقاطهم من جميع حقوق الانسانية ، لا من حق الوفاء لهم بالعهد فقط ، فكيف إذا اتصفوا بالردائل الثلاث مجتمعة ! وتساءل : ان الكفار كلهم فاسقون ، لأن الكفر فسق وزيادة ، فكيف استثنى سبحانه البعض بقوله : (وأكثرهم فاسقون) ؟ .

سورة التوبة

الجواب : ان معنى قوله (وأكثرهم فاسقون) . ان اكثرية الكفار يستمرون على الكفر والفسق ولا ترجى هدايتهم بحال ، وقليل منهم من يرجع عن غيئه ، وعلى هذا يكون المراد بالفسق هنا الاستمرار عليه وعدم الرجوع عنه ، وهذا النوع من التعبير كثير في القرآن الكريم .

اشتروا بآيات الله الآية ٩ - ١٥ :

أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْجُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَأِخْوَانُنْكَ فِي الدِّينِ وَتُفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ يَخْرَاجُ الرُّسُولَ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

الإعراب :

ساء فعل ماضٍ ، وما مصدرية : والمصدر المنسبك فاعل لساء أي ساء عملهم . وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف أي فهم إخوانكم . وأول مرة منصوب على الظرف متعلقاً ببدأؤكم . والمصدر المنسبك من ان تخشوه مجرور بحرف جر محذوف ، والمجرور متعلق بأحق أي فإله أحق بالخشية . ويعذبهم مجزوم جواباً للأمر ، وهو قاتلوهم . ويتوب بالرفع . لأن الكلام مستأنف ، ولا يجوز عطف يتوب على يعذبهم لأن قبول التوبة ليست جواباً للقتال كالتعذيب والخزي .

المعنى :

(اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون) . الضمير يعود الى المشركين الذين أمر الله بقتلهم ، والمعنى ان هؤلاء رفضوا الاسلام وحاربوه وصدوا عنه خوفاً على مصالحهم التي آثروها على ما جاءهم من آيات الله وبياناته .. ولا تختص هذه الآية بالمشركون وأهل الكتاب . بل تشمل الذين يحرفون الدين وفقاً لاهواء المستعمرين والمستغلين ، وسبق نظير هذه الآية في سورة آل عمران الآية ١٨٧ ج ٢ ص ٢٢٦ .

(لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون) . وتساءل : ان هذه الآية نظير الآية السابقة ٨ ، وهي (وان يظهرواعليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة) فلماذا اعدا ؟ .

الجواب : خاطب الله سبحانه في الآية السابقة صحابة النبي (ص)، وقال لهم : لو ظفر المشركون بكم لفعلوا الأعاجيب .. وربما توهم متوهم ان المشركين يضمرون الحقد والعداء للنبي والصحابة بالخصوص ، أي لأشخاصهم فقط ، فدفع سبحانه هذا التوهم بأن عداة المشركين للمسلمين آنذاك هو عداة مبدئي لا شخصي ، لانه عداة الكفر للإيمان ، والباطل للحق : وما تقموا منهم الا أن يؤمنوا باقه حمزير الحميد - ٨ البروج .

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات

سورة التوبة

لقوم يعلمون). تتفق هذه الآية مع الآية الخامسة من هذه السورة في فعل الشرط، وهو (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) وتفرق في جواب الشرط ، فالجواب في السابقة (فخلوا سبيلهم) أي دعوهم وشأنهم ولا تتعرضوا لهم بسوء، والجواب في هذه الآية (فاخوانكم في الدين) أي أنتم وهم سواء في الحقوق ، لا سيد ومسود ، وأكل ومأكول ، كما كانت الحال بين المشركين . ومع الاختلاف في جواب الشرط ينتفي التكرار ، على ان التكرار في القرآن غير عزيز.

(وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أثمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) . الايمان بفتح الهمزة العهد والمواثيق ، والإمام هو السيد والقائد ، وعبر سبحانه عن قتال أهل الكفر بقتال أثمتهم لأنهم هم الذين يقودونهم إلى الحرب ، وينكثون العهد ، ويطعنون ويجرؤون أنبايعهم على الطعن في النبي والقرآن ، وقوله تعالى : (لعلهم ينتهون) يشير إلى ان القصد من القتال هو ردع المشركين عن الاصرار على قتال المسلمين : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا - ٢١٧ البقرة » .

(ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدأوكم اول مرة) ألا أداة طلب مثل هلا ، والخطاب موجه للمسلمين ، وضمير نكثوا وهما وبدأوا عائدا الى كفار قريش لأنهم عاهدوا رسول الله (ص) على ترك القتال عشر سنين ، بأمن فيها الفريقان على أنفسهم وحلفائهم ، وكان ذلك سنة ست للهجرة ولكنهم لم يلبثوا ان نكثوا العهد، وايضاً هم الذين هموا بقتل الرسول حتى اضطروه إلى الهجرة ، وهم الذين بدأوا القتال يوم بدر .

وبعد ان ذكر سبحانه المسلمين بما فعل المشركون من نكث العهد ، واخراج الرسول وبدء القتال - حثهم على الجهاد والقتال، حيث لا رادع سواه ، ثم أذهب سبحانه الخوف من قلوب المسلمين بقوله : (أنتخشونهم فانه أحق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين) . وقوله : (ان كنتم مؤمنين) يشير إلى ان الخوف من الله حقاً وواقعاً لا يكون ولن يكون إلا لمن يؤمن بالله حقاً وواقعاً ، اما غيره فانه لا يخاف الله إطلاقاً ، وان خافه فخوفه خيال عابر . قال الإمام علي (ع) : « كل خوف محقق إلا خوف الله فانه معلول » أي ان خوف الانسان من غير الله له واقع

ملموس ، أما خوفه من الله فلا واقع له ، وإنما هو مجرد خيال يعبر ويزول بأدنى شاغل .

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم) . هذه الأوصاف تناسب فتح مكة ، لأن الله أذل واخزى به صناديد قريش ، ونصر المسلمين ، وشفى صدور المؤمنين الذين استضعفهم جبابرة الشرك قبل الهجرة ، وأذاقهم ألواناً من العذاب والتنكيل .

(ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) . كانت مكة عاصمة الحجاز ، ومركز كل نشاط في الجزيرة العربية ، وكان سادتها يشهرون سيف النبي والارهاب على كل من تحدته نفسه بالانضمام إلى محمد (ص) ، وبعد أن فتحها انتشرت عليها ظلال الاسلام واستسلم أولئك السادة الطغاة ، بل ان بعضهم أسلم طوعاً ، لا خوفاً ، وظاهراً وواقعاً ، وهؤلاء هم الذين تاب الله عليهم ، وأنابهم على اخلاصهم وصدق إيمانهم .

وبعد ، فإن كل حكم تضمنته هذه الآيات فهو خاص بمشركي العرب آنذاك ، لأنهم هم الذين أخرجوا الرسول (ص) وحاربوه وخانوا عهده .. وعلى افتراض انها توجب جهاد المشركين في كل زمان ومكان : فإن هذا الجهاد لا يجوز إلا بقيادة دولة اسلامية برئاسة المعصوم أو من ينوب عنه .. فأين هي الآن ؟ . وقد دعا اليها من دعا ، وألف حزباً من أجلها بزعمه ، ثم تبين انه عميل ، فحوكم على عماله وخيانتة للأمة والوطن ، وتخلّى عنه من خدع به من المغضلين ، ولم يعرف أين مكانه الآن .. أجل ، ان جهاد الانسان ودفاعه عن حريته وماله ووطنه لا يتوقف على وجود دولة اسلامية ، ولا يحتاج إلى الإذن من المعصوم ، وغير المعصوم ، لأن الدفاع عن النفس والوطن ، ونضال المستعمرين والمستعمرين حق تقلسه جميع الشرائع والقوانين ، وأشرنا الى ذلك في ج ١ ص ٢٩٩ و ج ٢ ص ٩٠ ، وعند تفسير الآية ٤٩ من الأنفال ، فقرة: هل القديثيون مغربون ؟ .

أم حسبم أن تركوا الآية ١٦ - ١٨ :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ* مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ* إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ*

اللغة :

وليجةُ الرجل خاصته وبطانته من دون الناس ، والمراد بها هنا بطانة السوء وتعلق على الواحد والكثير .

الإعراب :

قال الطبرسي : أم حسبم معطوف على قوله : الا تقاتلون في الآية ١٣ . وشاهدين حال من فاعل يعمرُوا . وفي النار متعلق بخالدون ، وفيه تقديم، والأصل وهم خالدون في النار .

المعنى :

(أم حسبم أن تركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) . تفهم تفسيره في ج ٢ ص ١٦٥ الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

الجزء العاشر

(ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) . أفضل الطاعات عند الله جهاد المبتلين أعداء الحق والانسانية ، وإلى هذا الجهاد أشار بقوله سبحانه : (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) . وأكبر المعاصي الركون اليهم ، واليه أشار تعالى بقوله : (ولم يتخذوا من دون... الخ) ، وكل من يلجأ الى أهل البغي والعدوان ويربط مصلحته بمصالحهم فهو عدو لله ولرسوله وللمؤمنين ، وعلى كل مخلص أن يشهر به ، ويكشف عن دوره في التخريب والعمالة ، ليميز الناس بينه وبين المكافح الأمين ، ويضعوا كلاً في المكان الذي يستحقه . (والله خير بما تعملون) . أجل ، انه خير علم ، ولكنه لا يعاقب أحداً على ما يعلم منه ، بل على ما تكشف عنه بفعله وسلوكه .

(ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله) . جاء في كتب اللغة . يقال : عمر المنزل بأهله أي صار مسكوناً بهم ، وعمر فلان ربه أي عبده . وشاع على ألسنة الناس : المساجد عامرة بذكر الله . وفي الحديث : « قال الله : يبوتي في الأرض المساجد ، وان زواري فيها عمارها » . وعلى هذا المعنى يحمل قوله تعالى : (يعمرُوا مساجد الله) أي ليس للمشركين أن يدخلوها ، ويقيموا فيها عبادتهم الوثنية ، كما كانوا يفعلون أيام الجاهلية ، وبالأولى أن لا يكون لهم التولية عليها ، ويؤيد ارادة هذا المعنى قوله تعالى : (شاهدين على أنفسهم بالكفر) لأن عبادتهم الأصنام ودعاءهم اللات والعزى شهادة من أنفسهم على أنفسهم بأنهم كافرون بالله ، ومن كفر بالله لا يحق له ان يدخل بيوت الله (اولئك حبطت أعمالهم) لأن الله لا يقبل مع الشرك عملاً (وفي النار هم خالدون) لأن الشرك أحبط جميع أعمالهم ، حتى ما كان حسناً لولا الشرك .

(انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) . أي لا يجوز لأحد أن يدخل المساجد ويتعبد فيها أو يتولى شيئاً من أمورهما إلا اذا اجتمعت فيه هذه الصفات ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر ، وإقامة الشعائر الدينية ، وأهمها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والخوف من الله أي الاخلاص له في الأموال والأفعال (فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين) إلى الحق والعمل به ، وكلمة عسى من الله تفيد اليقين ، لأن الشك محال عليه .

أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ *
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *

اللغة :

تطلق السقاية على الآلة تُتخذ لسقي الماء ، وايضاً تطلق على سقي الناس الماء ،
وهذا المعنى هو المراد هنا .

الإعراب :

سقاية الحاج على حذف مضاف اي اصحاب سقاية الحاج . ودرجة تمييز ،
وخالدين حال من الضمير في لهم .

المعنى :

(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد
في سبيل الله) . المراد بسقاية الحاج سقي الناس الماء في الحج ، وبعمارة المسجد

الجزء العاشر

هنا خدمته . وجاء في أكثر التفاسير ، ومنها تفسير الطبري والرازي والسيابوري والسيوطي :

« ان العباس بن عبد المطلب كان يسقي الناس في الحجّ ، وان طلحة بن شيبه من بني عبد الدار كان يحمل مفتاح الكعبة ، فقال طلحة : انا صاحب البيت معي مفتاحه ، وقال العباس : انا صاحب السقاية ، فقال علي بن ابي طالب : لا ادري ما تقولان ، لقد صليت إلى القبلة ستة اشهر قبل الناس ، وانا صاحب الجهاد . فأنزل الله أجعلتم سقاية الحاج الخ » .

فعلي هو المقصود بقوله تعالى : (كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله) هذا هو ميزان الفضل عند الله : الايمان به والجهاد في سبيله ، اما الوظائف والمناصب فكثيراً ما قادت اصحابها إلى المفاسد والمهالك (لا يستون عند الله) في الجزاء والثواب (والله لا يهدي القوم الظالمين) بعد ان دعاهم إلى الهدى ، فرفضوا بسوء اختيارهم .

(الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفاترون) . واين تقع سقاية الحاج وعمارة المسجد من الايمان والمجرة والجهاد ، ومرّ نظير هذه الآية في سورة الأنفال الآية ٧٢ . وكلمة اعظم هنا لا تعني المفاضلة ، وإنما تعني مجرد ثبوت الفضل للمؤمنين ، لأن الكافرين لا شيء لهم عند الله من الدرجات .

(يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابداً ان الله عنده أجر عظيم) . قال صاحب (البحر المحيط) : « انصف المؤمنون بصفات ثلاث : الايمان والمجرة والجهاد فقابلهم الله بثلاث : الرحمة والرضوان والجنان » . واطال الرازي الكلام في بيان الفرق بين هذه الأوصاف .. اما نحن فرى انها هي الفوز والأجر تعبّر عن معنى واحد ، وهو ان المؤمنين العاملين هم في رعاية الله وامانه ، وكلمة رضوان الله تعني عن الجميع : « ورضوان من الله اكبر » ولكنه جل شأنه اراد التعظيم من شأنهم ، وترغيب عباده في الايمان والعمل الصالح .

لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء الآية ٢٣ - ٢٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِنْ
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ
مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

اللغة :

استحب وأحب بمعنى واحد، مثل استجاب واجاب . والاقتراف هنا الاكتساب .
والتربص الانتظار . والمراد بأمر الله هنا عقوبته .

المعنى :

(يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على
الإيمان) . المراد بالولاية هنا النصرة . لقد امر الاسلام بصلة الرحم ، وحث
عليها ، واعتبر حقوق الوالدين من الكبار ، واوصى بالجار ، وبالوفاء للأصدقاء
وبكل عقد وعهد ، وابعح للمسلمين ان يبروا ويقسطوا إلى المشركين ،
كل اولاء جائر على شريطة ان لا تحرم حلالاً ، او تحلل حراماً ، فإذا وقف
الأب في جانب الباطل - مثلاً - فلا يجوز للابن ان ينصره في موقفه هذا ، بل
عليه أن يقاومه ويردعه ان استطاع ، فقوله تعالى : (ان استحبوا الكفر على

(الإيمان) . يشمل كل معصية بطبيعة الحال ، فإذا كان أبوك أو اخوك مسلماً ، وظلم سواء فعلبك ان تنصر المظلوم على الظالم ، وان كان أباك أو اخاك (ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون) . جاء في الحديث : « العامل بالظلم والمعين عليه والراضي به شركاء » . وبكلمة ان الحق فوق القرابة والصداقة .

(قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقربتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) . قيل: نزلت هذه الآية في حادثة خاصة ، وقد يكون هذا حقاً ، ولكن لفظها عام ، وكذلك حكمها ، فهي تحمد المؤمن بحمد واضح ودقيق ، فن أثر الحق على مصلحته الخاصة عند صراعها واسطدامها فهو مؤمن وطيب ، ومن أثر مصلحته على الحق فهو منافق وخبيث .. هذا هو مفترق الطريق بين المؤمن وغير المؤمن ، كما حددته الآية ، وما جاء فيها من ذكر الأرحام والأموال والمساكن إنما ذكر على سبيل المثال لمن قدم منفعته على الحق الذي عبر عنه تعالى بحب الله ورسوله ، وإلا فإن هناك منافع أخرى كالحرص على الحياة . وحب الجاه والسلطان ، وما إليها . .

والانسان بفطرته يحب نفسه واهله وامواله ، والدين لا يأبى ذلك : ولا حرج على احد ان يستمتع بما يشاء ، ويحب من يريد ، شريطة أن يتقي الله في هذا الاستمتاع والحب ، وان يكون على حساب جهوده ، لا على حساب الآخرين .. فمن البخاري ان عمر بن الخطاب قال للنبي (ص): «لأنت احب اليّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبي ، فقال النبي (ص) : لا والذي نفسي بيده . حتى اكون احب اليك من نفسك التي بين جنبيك » . ولا معنى لحب النبي (ص) الا طاعته والعمل بشريعته . وتكلمنا عن هذا الموضوع في ج ٢ ص ٤٥٧ عند تفسير الآية ١٣٥ من سورة النساء .

لقد نصركم الله الآية ٢٥ - ٢٧ :

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَوَعَدَ لَكُمْ خَزَائِنَ مَا نَعَدَكُمُ إِنَّ اللَّهَ وَاعِدٌ لِّمَنْ وَعَدَ وَإِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ

قَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ
مُذَبِّرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ
جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ
يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

مواطن جمع موطن . وهو مقر الإنسان ومحل إقامته ، واستوطن بالمكان
اتخذ موطناً . وحنين وادٍ بين مكة والطائف . والرحبة السعة . والسكينة الطمأنينة .

الإعراب :

مواطن ممنوع من الصرف لأنه على وزن مفاعل . ويوم معطوف على محل
مواطن ، لأن كل مجرور لفظاً فهو منصوب محلاً . أي ونصركم يوم حنين .
وإذ بدل من يوم . بما رحبت ما مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور بالباء متعلقاً
بمحذوف حالاً من الأرض . والباء هنا بمعنى مع . ومدبرين حال من الضمير
في وليتم .

قصة حنين :

حنين وادٍ بين مكة والطائف ، وتسمى غزوته بغزوة حنين ، وغزوة أوطاس
وغزوة هوازن ، وكانت في شوال سنة ثمان للهجرة .

لما فتح النبي (ص) مكة خافته هوازن وثقيف ، فجمعوا لحربه الألوف ، وبلغ
رسول الله ما أجمعوا عليه ، فتهيأ للقائهم بانفي عشر ألف رجل ، عشرة من

الجزء العاشر

أصحابه الذين فتح بهم مكة ، وألفان من الطلقاء ، ومنهم ابو سفيان وابنه معاوية . وتوجه النبي (ص) إلى هوازن ، وكان طريقه على وادي حنين ، وكان ضيقاً منحدرأ ، وكان جيش العدو قد سبقهم إلى احتلال مضايقه ، وكمن فيها ، وما ان وصل المسلمون الى قلب الوادي ، حتى أمطروهم العدو بوابل من سهامه ، فانهزم الناس . وأولهم ابو سفيان . قال الشيخ الغزالي في فقه السيرة : « وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله ، فقال ابو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، ولا عجب فإن الأزلام التي كان يستقسم بها في جاهليته لا تزال في كنانته » .

وثبت مع رسول الله علي شاهراً سيفه بين يدي رسول الله (ص) والعباس أخذأ بلجام بقلته ، والفضل بن العباس عن يمين النبي ، والمغيرة بن الحارث بن عبد المطلب وزيد بن أسامة ، وأيمن بن أم أيمن ، وقتل بين يدي الرسول (ص) . وحين رأى المشركون انهزام المسلمين خرجوا من شعاب الوادي ، وقصدوا رسول الله ، فقال لعنه العباس ، وكان جهوري الصوت : ناد القوم . وذكرهم العهد ، فنادى بأعلى صوته : يا أهل بيعة الشجرة ، يا أصحاب سورة البقرة اين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله ، فلما سمع الأنصار نداء العباس عطفوا وكسروا جفون سيوفهم ، وهم يقولون : ليك . ليك فاستقبل بهم النبي الاعداء واقتتل الفريقان قتالاً شديداً .

وكان حامل راية المشركين وطليعتهم رجل يدعى أبا جرول ، فكان يكر على المسلمين وينال منهم ، فبرز له علي بن أبي طالب وقتله ، وبقلته تفرقت جموع المشركين ، وتم النصر للنبي والمؤمنين . ولما علم الطلقاء بانتصار المسلمين وكثرة الغنائم رجعوا إلى رسول الله . وفي تفسير البحر المحيط ان الطلقاء فروا وقصدوا بذلك إلقاء الهزيمة في المؤمنين . وقال الشرقاوي في كتاب (محمدرسول الحرية) : « إن الفين من قريش ، على رأسهم ابو سفيان أسلموا خوفاً أو طمعاً قد جاءوا اليوم لا لينصروا الاسلام ، بل ليخذلوه ، وليشيعوا الانهزام بين المجاهدين القدماء !! » .

وهكذا المنافقون والانتهازيون يتظاهرون بالاخلاص . ويندسون في صفوف الأحرار يدبرون المؤامرات . فان نجحت بلغوا ما يريدون . وان نجح الأحرار

قالوا لهم : نحن وأنتم شركاء . وتقدم الكلام عن هؤلاء في ج ٢ ص ٤٦٦ .
 (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) منها وقعة بدر وقريظة والنضير والحديبية
 وخيبر وفتح مكة (ويوم حنين إذ أخرجكم كثرتكم) قال الرازي : « ان رجلاً
 من المسلمين قال : لن نُظلب اليوم من قلسة ، فساء ذلك رسول الله (ص) ،
 وقيل : انه هو قالها ، وقيل : قالها أبو بكر ، واسناد هذه الكلمة إلى الرسول
 بعيد ، .

(فلم تغن عنكم شيئاً وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) .
 فن الاعجاب بالكثرة إلى ابتاع الهزائم التي لم يجدوا معها في الأرض مكاناً ينجيهم
 من عدوهم ، وهذه نهاية كل من تاه بغروره ، واستهان بعلوه .

(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) السكينة الثقة والاطمئنان ،
 ومعنى إنزالها على النبي (ص) بقاءه ثابتاً في قلب المعركة ساكن الجأش ، شديد
 البأس يدبر الأمر ويحكمه على الرغم من فرار جيشه الذي بلغ ١٢ ألفاً إلا نقرأ
 لا يتجاوزون العشرة ، وجيش العدو يُعد بالآلوف .. قال الرواة : كان النبي
 يدفع ببغلة نحو العدو ولا يبالي ، وهو ينادي المنهزمين ، ويقول : إني عباد الله
 أنا رسول الله أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب .. والمؤمنون الذين أنزل الله
 سكينته عليهم هم الذين ثبتوا مع رسول الله ولم يفروا عنه ، والذين عادوا إلى
 المعركة بعد الهزيمة ، واستجابوا لنداء النبي مخلصين ، ومعنى إنزال السكينة عليهم
 تسكين قلوبهم ، وإزالة الخوف والرعب منها .

(وأنزل جنوداً لم تروها) قال الرازي : « لا خلاف إن المراد إنزال
 الملائكة » . أما نحن فنعتقد ان الله جنوداً من الملائكة وغير الملائكة لا تخص
 أنواعها فكيف أفرادها ! . ومن تلك الأنواع قوى النفس وغرائرها ، ومنها قوى
 خارجية ، والآية لم تبين نوع هذه الجنود التي أنزلها الله يوم حنين ، لذلك نترك
 علمها لله الذي قال : « وما يعلم جنود ربك إلا هو - ٣١ المائدة » . (وعذب
 الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) عذبهم في الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة
 وأخذ الأموال ، وعذبهم في الآخرة بنار جهنم وسوء العسير .

(ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) . ان الله كريم

الجزء العاشر

لا يتعاطفه غفران الذنب العظيم ، وبابه مفتوح لكل طارق ، فن فر عن رسول الله من المسلمين ، ثم تاب فان الله يحب التوابين ، ومن كفر وحارب الله ورسوله ، ثم تاب وآمن وعمل صالحاً فهو من المفلحين . قال المؤرخون : بعد ان انتهت المعركة ، ووزعت الفنائم جاء وفد من هوازن مسلماً . وقالوا : يا رسول الله أنت خير الناس وأبرئهم ، وقد سبي اهلونا واولادنا وأخذت أموالنا . فقبل اسلامهم ، ورد عليهم النساء والعيال .

المشركون نجس الآية ٢٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ*

اللفظ :

النجس القذر ، وهو مصدر يطلق بلفظ واحد على المذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والجمع . والعيلة الفقر يقال عال الرجل إذا افتقر .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . أي العام التاسع للهجرة ، وهو العام الذي قرأ فيه علي (ع) على الناس آيات البراءة . وكلمة المشركين يستعملها القرآن - غالباً - في عبدة الأوثان بخاصة مشركي العرب ، ويستعمل كلمة أهل الكتاب في اليهود والنصارى ، وقد

سورة التوبة

عطف المشركين على أهل الكتاب في الآية ١٠٥ من سورة البقرة : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين » . والآية ١ من البينة : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين » والعطف يشعر بأن المعطوف غير المعطوف عليه ، مع العلم بأن كلاً من عطف التفسير ، وعطف الخاص على العام ، والعام على الخاص جائز ، ولكن مع القرينة .

واختلف الفقهاء في منع الكفار من المساجد . قال الشافعي : يمنعون من المسجد الحرام دون غيره . وقال مالك : يمنعون من كل مسجد . وقال أبو حنيفة : لا يمنعون إطلاقاً ، لا من المسجد الحرام ولا من غيره (الرازي عند تفسير هذه الآية) .

والذي نراه ان النجس يجب منعه من كل مسجد . وإن كان فيه وجب إخراجه منه ، سواء أكان النجس انساناً ، أم حيواناً ، أم غيره ، وسواء أكانت النجاسة متعددة تستلزم تلويث المسجد وهدمته ، أم لم تكن ، والدليل على ذلك : الآية اطلقت حكم التحريم ، ولم تقيده بشيء .

ونريد بالإنسان النجس الجاحد وعابد الأوثان ، أما أهل الكتاب فقد أثبتنا طهارتهم عند تفسير الآية ٥ من سورة المائدة .

وتسأل : ان قوله تعالى : (فلا يقربوا المسجد الحرام) . يدل على صحة قول الشافعي من ان المنع خاص بالمسجد الحرام ، دون غيره ، لأنه لم يقل : فلا يقربوا كل مسجد .

الجواب : ان مجموع الآية يدل على العموم ، لا على الخصوص ، لأن المتبادر إلى الأذهان من الآية بمجموعها ان علة المنع من الدخول هي النجاسة واحترام المسجد عند الله ، وليس من شك ان كل مسجد هو محترم عند الله لأنه منسوب اليه جلّت عظمته .. والحكم يدور مع علته اثباتاً ونفياً . ولذا أجمع الفقهاء على تحريم الوسكي ، مع أنه لا نص عليها بالخصوص اكفاء بالنص على علة التحريم ، وهو الإسكار .

(وان ختم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم) .
كان المشركون في جميع أنحاء الجزيرة العربية يقصدون مكة للحج والتجارة ،

وكان أهل مكة ينتفعون بذلك، فيبيعونهم ويشترون منهم . ويؤجرون لهم المساكن، ومكة تقع في وادٍ غير ذي زرع ، ولما منع الله المشركين منها خاف بعض أهلها الفقر : فقال لهم سبحانه : (وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء) أي ان خفتم الفقر بسبب انقطاع المشركين عن مكة فإن الله يعوض عليكم بوجه آخر ، لأن أسباب الرزق عنده بعدد قطرات المطر ، كما في الحديث ، وصدق الله العظيم : فقد فتح على المسلمين البلاد والغنائم ، ودخل الناس في دينه أفواجا ، وتوجهوا بقلوبهم واموالهم إلى مكة بالملايين ، ورأى أهلها من النفي ما لم يحلموا به من قبل .

وتسأل : ما هو الغرض من قوله تعالى : (ان شاء) مع العلم بأنه قد شاء ؟ .
الجواب : قد يكون القصد الإشارة إلى انه يجري المسببات على أسبابها ، وقد يكون المراد مجرد تعليم عباده ان يتكلموا في جميع أعمالهم على الله ، ويطبقوا تحقيق أهدافهم على مشيئته مع السعي : كما في قوله : « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا ان يشاء الله - ٢٣ الكهف » .

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله الآية ٢٩ - ٣٣ :

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ * وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَمْنَى يُؤَفِّكُوكَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا
نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ *
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ *

اللغة :

الجزية الضريبة على الرؤوس والأشخاص ، لا على الأرض أو التجارة أو
الماشية . والصغار الذل . ويضاهئون يشبهون ويحاكون ، ويؤفكون بصرفون عن
الحق إلى الباطل . والأخبار جمع خبر بفتح الحاء وكسرهما ، وهو العالم . والرهبان
جمع راهب وهو المنقطع للعبادة .

الإعراب :

عن يد قائم مقام الحال أي نقداً ، وصاحب الحال الواو في يعطوا . وأتى
في محل نصب على الحال . وعما يشركون (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك مجرور
بمن متعلقاً بسبحانه ، والمصدر المنسبك من ان يتم نوره منصوب بيابى لأنها بمعنى
لا يريد أي لا يريد الله إلا إتمام نوره بأعلاء كلمة التوحيد .

المعنى :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله
ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم
صاغرون) . بعد ان أمر سبحانه بقتال المشركين إذا لم يسلموا ولم يخرجوا من

الجزيرة العربية أمر في هذه الآية بقتال أهل الكتاب إذا لم يعطوا الجزية ويخضعوا لحكم الاسلام . وقد وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرمون حرام الله . ولا يدينون بالحق .

وتجدر الإشارة الى أن (من) في قوله تعالى : (من الذين اوتوا الكتاب) هي لبيان الجنس . تماماً كما في قوله : (واجتنبوا الرجس من الأوثان) . وقبل : هي للتبعض مثل منهم كذا . ومنهم كذا .

وهنا سؤالان : الأول ان الآية نفت عن أهل الكتاب الإيمان بالله واليوم الآخر ، مع العلم بأنهم يؤمنون بوجود الله . لأن كلمة أهل الكتاب تدل بذاتها على إيمانهم بالله الذي أنزل التوراة والإنجيل ، وكذلك يؤمنون باليوم الآخر بنص الآية ٨٠ من سورة البقرة : « وقالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودة » .. اجل، أنهم لا يدينون دين الحق ، فاليهود يعبدون المال . والكنيسة تبيع صكوك الغفران ، وتقول بالحلول والاتحاد .

ونجد الجواب في الآية التي بعد هذه الآية بلا فاصل . وهي قوله تعالى : (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) . ووجه الجواب ان اليهود والنصارى جعلوا لله ولداً ، ومعنى هذا أنهم يؤمنون بإله لا وجود له إلا في أوهامهم . أما الإله الموجود حقاً وواقعاً فانهم لا يؤمنون به .. فلقد تصوروا من عندياتهم إلهاً موصوفاً بأنه يلد أولاداً ، ونظّموا علاقاتهم معه وفقاً لهذا التصور الخاطيء ، أما الإله الحقيقي . وهو الذي لم يلد ولم يولد ، فلنهم لا يؤمنون به، ولا تربطهم به أية رابطة قريبة أو بعيدة . وبكلمة أخصر وأوضح ان الإله الموجود لا يؤمنون به ، والإله الذي يؤمنون به لا وجود له .

والنتيجة الحتمية لذلك أنهم لا يؤمنون بالله ، وبديته ان من لا يؤمن بالله لا يؤمن بالآخرة إيماناً صحيحاً، ولا يدين دين الحق ، وان خُيِّلَ إليه انه من المؤمنين بالآخرة ، والمتدينين بالحق ، لأن الإيمان بالله هو الأصل ، وما عداه فرع ، أي انه يؤمن بالآخرة والدين اللذين لا عين لمّا ولا أثر إلا في خيالهم ، كقولهم : لا نمسنا النار إلا أياماً معدودة .. وهذا هو الدين الذي يصدق فيه قول من قال : ان الدين من صنع الوهم والخيال ، وانه يتعد بصاحبه عن حقيقته وواقعه .

سورة التوبة

السؤال الثاني : ان الاسلام لا يكره اِحداً على اعتناقه بدليل قوله تعالى : (لا اكراه في الدين) . وقوله : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) . فكيف أمر بقتال أهل الكتاب حتى يؤمنوا أو يدفعوا الجزية عن يدهم صاغرون؟ .

وقد ذكرنا هذا السؤال عند تفسير الآية ٢ من هذه السورة التي أمرت بقتال المشركين . وأجبنا عنه بأن الأمر بقتالهم كان حكماً خاصاً آنذاك لسبب خاص ، وهو ان المجتمع الاسلامي كان في بسده تكوينه ، وان المشركين كانوا طابوراً خامساً يكيّدون للاسلام وأهله ، فاقترضت المصلحة اخراجهم من الجزيرة أو قتلهم.. والأمر هنا بقتال أهل الكتاب أمر خاص بالذين كانوا في الجزيرة لسبب خاص ايضاً ، وهو ان أهل الكتاب كانوا يتحالفون مع المشركين على محاربة المسلمين ، كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبي لهم ، وجعلهم حلفاء له .

وفوق ذلك فإن محور هذه السورة يقوم على غزوة تبوك ، كما يأتي في الآية ٣٨ وما بعدها ، وقد بلغ النبي (ص) ان الروم ، وهم في الشام على أطراف الجزيرة . يجمعون الجيوش للانقضاض على الاسلام وأهله ، وكانت كل القرائن والدلائل تؤكد ان أهل الكتاب في الجزيرة كانوا عيناً وعوناً للروم النصارى على المسلمين ، وانهم يتآمرون معهم على النبي ومن اتبعه من المؤمنين . ومن أجل هذا كان الحكم فيهم القتل أو القاء السلاح والخضوع لحكم الاسلام ، مع اعطاء الجزية التي تعبّر عن مسألتهم والوفاء بعهدهم ، فان اختاروا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم واعطاؤهم الحرية في دينهم ومعاملاتهم ، وإذا اسلموا كان لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وإلا فالقتل إلقاءً لشرمهم .

وأطال المفسرون والفقهاء الكلام عن محل الجزية وتقديرها وشروطها ، وكان حديثهم عنها فيما مضى مجدياً حيث كان للاسلام دولته وقوته ، أما اليوم فالحديث عن الجزية تكثير كلام .

(وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) .. أما قول النصارى بأن المسيح ابن الله فمرفوف ، وتكلمنا عنه عند تفسير الآية ١٧ من سورة المائدة ، أما قول اليهود عزيز ابن الله فقد نقل صاحب تفسير المنار ان اسم عزيز جاء في اسفار اليهود المقدمة ، وايضاً نقل عن دائرة المعارف اليهودية

ان عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية. وفي تفسير الطبري والرازي والطبرسي ان جماعة من اليهود قالوا للنبي (ص) : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا ترعهم ان عزيزاً ابن الله . فزلت الآية .

وعلى أية حال ، فان النبي (ص) قد جابه يهود عصره بهذه الآية ، وما نقل أحد انهم كذبوا وأنكروا مع شدة حرصهم على تكذيب النبي ، فدل ذلك على انهم كانوا يؤمنون بذلك آنذاك .

(ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون) . يضاهئون يشاهون ، وقاتلهم الله انتى يؤفكون اي لعنهم الله كيف يُصرفون عن الصدق إلى الافك ، والمعنى ان قول اليهود والنصارى يشبه قول المشركين العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله وقول الوثنيين من قدامى الرومان واليونان والبوليين وغيرهم .

(اتخذوا أجباهم ورباهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم) . هذا دليل آخر بأنهم لا يؤمنون بالله ، بل بما يقول رجال دينهم وعقيدتهم . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : انهم ما صاموا ولا صلوا لهم ، ولكنهم أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً فاتبعوهم ، وعبدوهم من حيث لا يشعرون . وهذا عين ما جاء في الحديث من ان عدي بن حاتم قال لرسول الله (ص) : لسا نعبدهم . فقال له النبي : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم فتستحلونه؟ قال عدي : بلى . قال النبي فتلك عبادتهم . وقال « فولتر » : لا يعلم قيسونا شيئاً سوى اننا سريعو التصديق لما يقولون .

(وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) قال الرازي في تفسيره : المعنى ظاهر . ولكن مفسراً آخر أبى إلا ان يقول : اي يعبدون إلهاً عظيم الشأن .

(يريدون ان يطفئوا نور الله بأفواههم) المراد بنور الله هنا الاسلام، والمعنى ان أهل الكتاب حاولوا القضاء على الاسلام بالدسائس والأكاذيب فكان مثلهم في ذلك مثل من يحاول اطفاء النور الذي عم الكون بنفخة من عنده (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) هذا وعد من الله على لسان نبيه بأن ينصر

سورة التوبة

الاسلام ، ويظهره في مشارق الأرض ومغاربها ، وصدق الله ورسوله ، وتحقق الوعد الذي دل على نبوة محمد (ص) وصدقته في كل ما أخبر به .
(هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . هذه الآية بيان وتفصيل للآية التي قبلها ، وقد أظهر الله المسلمين على المشركين في البلاد العربية ، وعلى اليهود حيث أخرجهم المسلمون منها ، وعلى النصارى في الشام والمغرب ، وعلى المجوس في فارس . قال الإمام علي (ع) : ان هذا الاسلام أذل الأديان بعزته ، ووضع الملل برفعته ، وأهان أعداءه بكرامته .

والذين يكتزون الذهب والفضة الآية ٣٤ - ٣٥ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُخْمَى
عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا
كَنَزْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ *

الإعراب :

والذين يكتزون مبتدأ ، والخبر فبشرهم ، والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، ويوم ظرف والعامل فيه أليم ، وعليها قائم مقام نائب القاعل ، وضمر عليها وبها عائد إلى الكنوزات . وهذا إشارة إلى الكسب ، وهو مصدر مفهوم من فتكوى ، وعمله الرفع بالابتداء ، وما كترتم خبر ، والجملة مفعول لقول محذوف أي فيقال لهم : هذا ما كترتم الخ .

المعى :

(يا أيها الذين آمنوا ان كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) . في الآية السابقة وصف سبحانه اليهود والنصارى بأنهم يتخذون رؤساءهم الدينيين أرباباً من دون الله ، وفي هذه الآية وصف اولئك الرؤساء بأكل المال بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، والمراد بأكل المال بالباطل أخذه بغير وجه شرعي ، كالرشوة على الحكم بغير الحق ، والربا الذي فشا بين اليهود . وبيع صكوك الغفران عند الكاثوليك ، وما إلى ذلك . قال المؤرخون :
مر على رجال الكنيسة عهد كانوا فيه من أغنى الفئات

والمراد بصدهم عن سبيل الله تحجيرهم على العقول ، ومنع الناس من اعتناق الإسلام . بل وحلهم على الطعن فيه وفي نبيه .. لقد ثار فولتر على الكنيسة . ونمى على رجالها تكالبهم على المال . وطعن في التوراة لما فيها من التناقض والاحالة والفتنة على حد تعبيره . فحرمته الكنيسة . وطالب بعض رجالها بسجنه مدى الحياة^١ فانهارت أعصاب الأديب الفرنسي من الخوف ، ولم يجد وسيلة للخلاص إلا أن يستشفع لدى البابا بنوا الرابع عشر بكتاب يؤلفه في سب محمد (ص) ، ففعل وعفت عنه الكنيسة ، وباركت الكتاب والكاتب .

أبو ذر والاشتراكية :

(والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم بعذاب اليم) . لقد كثر الكلام حول هذه الآية ، حتى ان بعضهم استدل بها على ثبوت الاشتراكية في الاسلام ، وشطح آخرون في زعمهم ان أبا ذر كان اشتراكياً ، لأنه كان يهدد بهذه الآية الذين استأثروا بمال الله دون عياله .. وفيما يلي نعرض معنى الآية ، وكل ما يتصل به من قريب أو بعيد ، وفي ضوئه نحاكم قول من استدل بالآية على اشتراكية ابي ذر .

١ كتاب فولتر لجوستاف لانسون ترجمة محمد غنيمي هلال .

سورة التوبة

١ - قال معاوية بن ابي سفيان : هذه الآية نزلت في اهل الكتاب ، ولا تشمل المسلمين ، اي ان للمسلمين في نظره ان يكتسبوا من المال ما يشاؤون ولا ينفقوا منه شيئاً في سبيل الله ، ونقل هذا القول عن عثمان بن عفان .. فعن « الدر المنثور » للسيوطي ان عثمان لما كتب المصاحف أرادوا ان يحذفوا الواو من قوله تعالى : (والذين يكتسبون الذهب والفضة) ليكونوا الكائزون صفة للأجبار والرهبان ، فعارض بعض الصحابة ، وقال : لتلحق الواو . او لاضمن سيفي على عاتقي فألحقوها .

والصحيح ان الآية تشمل كل من يكثر المال ولا ينفقه في سبيل الله مسلماً كان او غير مسلم عملاً بعموم اللفظ ، فقد روي عن زيد بن وهب انه مر بالريذة ، فرأى ابا ذر ، قال له : ما انزلك هنا ؟ قال : كنت بالشام ، فقرأت والذين يكتسبون الذهب والفضة ، فقال معاوية : ليست هذه الآية فينا ، انها في اهل الكتاب ، فقلت : انها فينا وفيهم ، فشكاني إلى عثمان ، فأبعدني إلى حيث ترى .

٢ - الكثر في اللغة الجمع ، يقال : كثر المال إذا جمعه ، ولفظ الذهب والفضة خاص ، ولكن الحكم عام يشمل المال بشئ اصنافه ، حتى الأرض والمعادن والشجر والبناء والماشية والمعامل والمراكب ، لأن الذين هددهم الله بعذاب أليم هم الأثرياء الأشحاء ، وليس خصوص مالكي الذهب والفضة المضروبين نقداً .. والا كان ملوك النفط ومن اليهم اسعد الناس واكرمهم عند الله دنيا وآخرة ، والذي يدلنا على ارادة العموم انه لما نزلت هذه الآية كبر ذلك على المسلمين ، لأنهم فهموا منها جميع الأموال ، ولما سألوا النبي (ص) اقرهم على فهمهم ، وقال لهم : ان الله لم يفرض الزكاة إلا لطيب بها ما بقي من اموالكم ، وإنما فرض الموارث عن أموال تبقى بعدكم .

٣ - الاتفاق في سبيل الله يشمل الجهاد للدفاع عن الدين والوطن ، وبناء المدارس والمصحات ودور الأيتام ، والصدقات على الفقراء ، والاتفاق على الأهل والعيال ، وأفضل موارد الاتفاق ما فيه إعزاز الحق واهله .

٤ - اجمعت المذاهب الأربعة على انه ليس في المال حق غير الزكاة .

الجزء العاشر

(احكام القرآن لأبي بكر المعافري الأندلسي) . وقال أكثر فقهاء الشيعة الإمامية : ليس في المال حق غير الخمس والزكاة . وقال الشيخ الطوسي : ان فيه حقاً آخر ، وهو ما اشار اليه الإمام جعفر الصادق بقوله : ان الله فرض في اموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة : لأنه قال : « وفي اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم - ١٩ الذاريات » . والحق المعلوم هو شيء يفرضه الرجل على نفسه بقدر طاقته وسعته ، فيؤدي الذي فرض . ان شاء في كسل يوم . أو في كل جمعة ، أو في كل شهر ، قلّ أو كثر غير انه يداوم عليه .. ولكن قول الإمام : (يفرضه الرجل على نفسه) يُشعر بالاستحباب : لا بالوجوب لأن الواجب فرض من الله لا من سواه .

والذي نراه - بعد ان تتبعنا آي الذكر الحكيم - ان على الأغنياء وجوباً لا استحباباً ان يبذلوا من اموالهم - غير الخمس والزكاة - للدفاع عن الدين والوطن عند الاقتضاء : وعلى ولي المسلمين ان يجبرهم على ذلك : بل وعلى الجهاد بالنفس إذا اقتضت الحال . وآيات هذا الباب تعد بالعشرات .

٥ - (يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فلوقوا ما كنتم تكذبون) . هذا كناية عن شدة العذاب وهوله ، وهو نظير الآية ١٨٠ من سورة آل عمران : « سيطوون ما بخلوا به يوم القيامة » .

٦ - تبين مما قدمنا ان الآية تدل نصاً وضوحاً على ان الأغنياء يجب عليهم أن ينفقوا جزءاً من أموالهم في سبيل الله ، وان من أمسك يده عن الانفاق عاقبه الله بالعذاب الأليم ، أما مقدار هذا الجزء ، وهل هو الخمس أو العشر ، أو أقل أو أكثر ، أو هو من الزكاة أو من غيرها ، اما هذا فلا تدل عليه الآية بالعبارة ولا بالإشارة ، فأين - إذن - مكان الدلالة فيها على الاشتراكية ؟ ان الاشتراكية نظام اقتصادي ينظر قبل كل شيء إلى وسائل الانتاج كالأرض وما اليها ، ويحدد مالكتها ، ثم ينظر إلى الانتاج نفسه وطرق نموه وزيادته وكيفية توزيعه .. وهنا شيء . وحث الأغنياء على البذل شيء آخر .

وبهذا يتبين ان قول من قال : ان اباذر كان اشتراكياً لأنه هدد الأغنياء بهذه

الآية ، يتبين ان هذا القول خطأ واشتباه .. ان اباذر لا يعرف الاشتراكية ، ولا شيء إلا الاسلام ، مثله في ذلك مثل اي مسلم ، ولكنه كان غلصاً لدينه ، اخلص للاسلام ، ونبذ الأطماع والأغراض . وهذا التجرد والاخلاص هو الذي جراه على ان يتحدى قريشاً ، ويسخر من آفتهم يوم أسلم ، حيث وقف في الكعبة منادياً بأعلى صوته : لا إله إلا الله محمد رسول الله .. نادى بكلمة الاسلام على رؤوس قريش يوم لا حول ولا قوة للمسلمين ، ولا يجراً احد منهم على النطق باسم الله الواحد ومحمد إلا في الخفاء .. وتكرر منه هذا الموقف ، واعاد نفسه مع عثمان ومعاوية ، وكما لاقى من المشركين الضرب الدامي ، فقد لاقى من عثمان الطرد والنفي .. ولكنه لم يابه ، لأنه ما غضب في حياته كلها إلا الله وحده .

والخلاصة ان كل ما فعله ابوذر انه طالب الفضة الحاكمة بالعدل وانصاف المحكومين ، وخوفها من العذاب الأليم ، وحث المظلومين على مقاومة الظالمين ، واسترداد حقوقهم ممن ظلمهم .. فأين هذا من الاشتراكية ؟. وتكلمنا عن نسبة الاشتراكية لأبي ذر في كتاب « مع الشيعة الإمامية » بعنوان « هل ابوذر اشتراكي ؟ » وفي كتاب « مع علماء النجف الأشرف » بعنوان « ابو ذر » .

ان عدة الشهور الآية ٣٦ - ٣٧ :

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا النِّسَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *

اللفظة :

القيم المستقيم . والنسيء التأخير . ويواطئوا يوافقوا .

الإعراب :

عند الله متعلق بعلدة . واثناعشر في محل رفع خبراً لأن . وفي كتاب الله متعلق بمحذوف صفة لاثنا عشر . ويوم خلق متعلق بكتاب على أن يكون بمعنى الكتابة . وكافة حال من فاعل قاتلوا لأنها بمعنى جميعاً . وعاماً مفعول فيه . والمصدر المنسبك من ليواطئوا مجرور باللام، والعامل في الجار والمجرور يحرمونه .

الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية :

(ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض) . المراد بعند الله وفي كتاب الله ان للآتي عشر شهراً وجوداً حقيقياً في عالم الطبيعة ، تماماً كالأرض والسماء ، لا في عالم الاعتبار والتشريع كالحلال والحرام . والمراد بيوم خلق السموات والأرض انه تعالى خلق الكون على حال تكون فيه عدة الشهور اثني عشر شهراً منذ اللحظة الأولى لوجود السموات والأرض أي ان عدة الشهور هذه ليست من وضع الانسان ، ومن مواليد أفكاره ومخترعاته وإنما هي نتيجة حتمية لسنن الكون ونظام الخلق .

هذا هو معنى الآية . وبدئية ان الانسان يقيس الوقت ويحدده بما يراه حياً وعيانياً .. وإذا نظرنا إلى الكائنات الطبيعية التي تهدينا إلى معرفة الوقت لم نجد إلا الشمس والقمر ، والشمس تجري دائماً وفي كل يوم على وتيرة واحدة شرقاً وغروباً ، لا فرق بين يوم ويوم ، وكل ما نعرفه بواسطتها هو وقت الصباح والمساء والظهيرة . ولا يتصل هذا بمعرفة الشهر من قريب أو بعيد بخلاف كوكب القمر فانه يظهر للعيان على شكل خاص في اليوم الأول من كل شهر، وبهذا اليوم

سورة التوبة

نحدد الشهر ، ومتى عرفنا الشهر عرفنا السنة .

وعلى هذا تكون الأشهر القمرية هي الأشهر الجارية على سنن الطبيعة دون غيرها ، ومن أجل هذا وقت الله بها الحج والصيام وعدة المطلقات والرضاع ، كما وقت الصلاة اليومية بالشمس لأنها السبيل لمعرفة أجزاء اليوم . وبكلمة ان الشمس لمعرفة الساعات ، والقمر لمعرفة الأشهر . وعلى هذا الأساس كان الانسان الأول يحسب أوقاته . قال السرازي : « ان مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قريية ، لا شمسية . وهذا حكم ورثوه عن إبراهيم واسماعيل . »

وفي بعض التفسير ان الحكمة من جعل الحج والصيام في الشهر القمري هي أن يدورا في جميع فصول السنة وأجزائها ، يسهلان تارة ويشقان أخرى .. ولا يستند هذا الاجتهاد إلى أصل ، ولكن لا مانع منه : حيث لم يقصد به إثبات حكم شرعي : وإنما هو لبيان مصلحة الحكم الثابت شرعاً .

(منها أربعة حرم) من هذه الأربعة ثلاثة متتابعة : ذو القعدة . وذو الحجة والمحرم . وشهر واحد فرد ، وهو رجب : وسميت حرماً لتحريم القتال فيها في الجاهلية والإسلام : وسبق الكلام عن ذلك أكثر من مرة . (ذلك الدين القيم) أي ان تقسيم الأشهر إلى اثني عشر شهراً على الحساب القمري هو التقسيم الصحيح ، ولا يجوز التحريف فيها ولا في الأشهر الحرم بالهوى والغرض (فلا تظلموا فيها أنفسكم) باستحلال القتال في الأشهر الحرم . ولا باعتداء بعضكم على بعض في أي وقت من الأوقات ، وكل من عصى الله في كبيرة أو صغيرة فقد ظلم نفسه بتعرضها لعذاب الله وغضبه .

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) . هذا هو الداء الشافي والعلاج السليم .. الفير العام ، والجهاد الشامل سنة الله في خلقه ، ولن نجد لسنة الله تبديلاً ، أما أنصاف الحلول فخصوع واستسلام للظلم والعدوان .. لقد تظاهر الصهاينة والمستعمرون كافة على العرب والمسلمين كافة بلا استثناء ، وأقاموا على أرض العرب قاعدة عسكرية عدوانية ، أطلقوا عليها اسم دولة إسرائيل ، لينطلقوا منها للاعتداء على البلاد العربية والإسلامية .. نحن الآن في شهر تشرين الأول من سنة ١٩٦٨ ، والاتصالات مستمرة داخل الأمم المتحدة وخارجها لحل مشكلة الشرق الأوسط

الجزء العاشر

حلاً سلبياً أي على أساس انصاف الحلول التي يحصل عن طريقها المعتدي على شروط ومكاسب تشجعه على العدوان كلما سنحت الفرصة . ثم يتعود انصاف الحلول ، ويحصل بها على ما يبتغي . وهكذا دواليك . حتى تتم له السيطرة على الجميع .. والسبيل الوحيد لاستئصال اللداء من جذوره هو ما رسمه الله لنا بقوله : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين) الذين تحرروا من الأحقاد والمطامع ، ووجدوا صفوفهم كافة لقتال عدوهم وعدو الله والانسانية .

(إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلون عاماً ويحرمونه عاماً) . النسيء مصدر بمعنى الانشاء أي التأخير ، والمراد به هنا ان المشركين كانوا يؤخرون حرمة شهر كالحرم إلى شهر آخر لا حرمة له كحصر : فإذا كان من مصلحتهم أن يقاتلوا في الشهر الحرام قاتلوا فيه ولم يبالوا : ولكنهم يحرمون بدلاً عنه شهراً آخر من أشهر الحلال لتكون الأشهر المحرمة أربعة من كل عام (ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) . وأوضح تفسير لهذا ما نقل عن ابن عباس : أنهم ما أحلوا شهراً من الحرام إلا حرموا مكانه شهراً من الحلال . وما حرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام . لأجل أن يكون عدد الأشهر الحرام أربعة مطابقة لما ذكره الله : وهذا هو المراد من المواطأة .

(زين لهم سوء أعمالهم) . الأهواء والاغراض هي التي تُعمي صاحبها عن سوء عمله فتريه الشر خيراً ، والحسن قبيحاً (والله لا يهدي القوم الكافرين) . أي تركهم لما هم فيه بعد اليأس من هدايتهم . انظر ج ٢ ص ٣٩٩ . الاضلال من الله سلبى . لا ايجابى .

ما لكم اذا قيل لكم الآية ٣٨ - ٤٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْتِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتُمُ

إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ
نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتَيْنِينَ إِذْ مُصَافِي الْقَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ
بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

اللغة :

النفر من الشيء الفرار منه ، وإلى الشيء الاقدام عليه ، وهذا المعنى هو المراد
هنا . والتناقل التباطؤ ضد التسرع . والاستبدال جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر
مع طلبه . والسكينة سكون النفس واطمئنانها .

الإعراب :

اتفاقتم أصلها تاتقتم ، ثم ادغمت التاء في الشاء ، وجيء بألف الوصل ليتمكن
الابتداء بها . وإلا تنفروا (إلا) مركبة من كلمتين : إن ولا ، ومثلها إلا
تنصروه . وإذ أخرجه (إذ) ظرف متعلق بنصره ، وإذ الثانية بدل من إذ الأولى ،
وإذ الثالثة بدل ثانٍ . وثاني اثنين حال من الهاء في أخرجه . وكلمة الذين كفروا
بالنصب مفعولاً ليجعل . وكلمة الله بالرفع على الابتداء : والجملة مستأنفة ، لأن
كلمة الله لا تُعطف على كلمة الذين كفروا ، ولأنها عليا بذاتها . لا يجعل جاعل .

غزوة تبوك :

هذه الآيات إلى القريب من آخر السورة نزلت في غزوة تبوك . وما لابسها من الأحداث ، وتتلخص بأن الروم كانوا يملكون الشام، وهي على حدود الجزيرة وقد سمعوا بقوة الاسلام ونموه، فخاف هرقل ملك الروم على دولته من المسلمين ، وقال : لئن تركتهم حتى يقبلوا فلن تقوم لدولتي في الشرق قائمة ، وعزم أن يكون هو البادى .

ورأى النبي (ص) أن لا ينتظر حتى يأتي هرقل بمجنوده إلى المدينة ، فاستنفر الناس إلى قتال الروم ، وكان الحرّ في الجزيرة آنذاك على أشده، فوجد المنافقون الفرصة للتخذيل ، وخوفوا المسلمين من بعد السفر، وقسوة القبط ، وكثرة العدو، ولاقت دعوتهم هوى في نفوس ضعاف الإيمان ، فاعتذروا وتعللوا .. ولكن النبي (ص) أعلن الجهاد والتغير العام ، ولم يأذن بالتخلف إلا للمرضى والذين لا يحملون ما ينفقون .

وعلى الرغم من تخذيل المنافقين وتثييطهم فقد تطوع لقتال الروم حوالى ٣٠ ألفاً .. وقبل أن يخرج النبي (ص) بجيشه إلى الروم خلف على أهله وعياله عليّ ابن أبي طالب ، قال مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١٠٨ طبعة ١٣٤٨ هـ : « فقال له علي : يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان ؟. فقال رسول الله (ص) : أما ترضى أن تكون مني بمتزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ؟ » .

ومضى جيش المسلمين ، وانطلقوا جميعاً نحو ضواض الصحارى في لبيب يشوي الوجوه والأبدان .. وعلى الطريق لحق بهم الصحابي الجليل أبو ذر ماشياً ، إذ لم يجد ما يركبه . بينما انسحب رأس النفاق ابن أبيّ بجزء من الجيش ، وعادوا إلى المدينة ، فاستقبلتهم النساء بالعويل ، وحثن في وجوههم التراب .

وبعد سبعة أيام من السير المضني بلغ جيش الإسلام حدود الدولة الرومانية ، وتقدم أمير المنطقة يعرض على النبي (ص) الصلح على أن يدفع الجزيرة ، وقبل النبي ، وتقدم بجيشه ، حتى بلغ مدينة تبوك ، وتقع في منتصف الطريق بين المدينة المنورة ودمشق ، وكان ذلك في رجب سنة تسع للهجرة ، وصادف أن حاكم تبوك كان خارجاً للصيد ، فأسره المسلمون ، واستلمت المدينة ، وانتقل

سورة التوبة

الرسول (ص) من موقعة إلى موقعة ، حتى قهر حاميات الحدود الرومانية ، وحرر القبائل العربية هناك من حكم الروم .. حدث هذا كله في ٢٠ يوماً .

وعاد المسلمون إلى المدينة محملين بالغنائم ، وقرر النبي (ص) مقاطعة من تخلف عن جيش الإسلام . وحرّم على الناس أن يكلموهم أو يعاملوهم ، حتى الزوجات والأبناء ، والتفصيل في الآيات الآتية بخاصة عند تفسير الآية ١١٧ و ١١٨ .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقم إلى الأرض) . ولما استنفر النبي (ص) المسلمين لغزوة تبوك شق ذلك على البعض منهم ، وآثروا الميل إلى الخلود والإقامة في أرضهم وبيوتهم ، وكان من عادة النبي إذا خرج إلى غزوة أن يوهّم الناس انه خارج إلى غيرها لمصلحة الحرب التي تستدعي الكتمان .. ولكنه صرح بهذه الغزوة ليكون الناس على بصيرة مما يلاقيه فيها من المشاق والمصاعب ، واعتذر بعض المفسرين عن تباطؤ وتناقل بأن الوقت كان شديد الحرارة ، والناس في ضيق من قلة الطعام ، وبأن ثمار المدينة كان قد تم صلاحها ، وآن وقت قطافها .. ومهما يكن ، فإن الخطاب — بطبيعة الحال — موجه إلى المتأقلين عن الجهاد . وقد عاتبهم الله بقوله : (أرضيتُم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل) . أي هل يليق بإيمانكم وعقولكم أن تؤثرُوا نعيم الدنيا الحقير الزائل على نعيم الآخرة العظيم الدائم ؟ .

(إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تنفروه شيئاً) . (الا) مركبة من ان الشرطية ، ولا النافية ، والمعنى ان لم تستجيبوا لدعوة النبي والخروج معه إلى قتال الروم فإن الله ينزل بكم العذاب الأليم أيها المتأقلون والمتأفقون ، وينصر نبيه بأيدي غيركم ، ولا يضر الله ورسوله تباطؤ المتأقلين ولا نفاق المنافقين (وهو على كل شيء قدير) لا يعجزه عقابكم ، ولا نصره دينه ونبيه بأصحاب خبر منكم .

(الا تنفروا فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا) . يشير إلى حادثة

الجزء العاشر

المكر والمؤامرة التي دبرها كفار قريش لقتل النبي (ص) ، وهو نائم في فراشه ، وإلى نجاته منهم بمبيت عليّ في مكانه ، وهجرته من مكة إلى المدينة بعد أن أطلعه الله على كيدهم ومكرهم .. وتكلمنا عن ذلك عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الأنفال . (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) . المراد بثاني اثنين والصاحب ، أبو بكر ، لأنه كان مع النبي في هجرته ، وقد اختبأ معاً من المشركين في غار جبل ثور . قال الرازي : « لما طلب المشركون الأثر وقربوا من الغار بكى أبو بكر خوفاً على النبي ، فقال له : لا تحزن إن الله معنا . فقال أبو بكر : إن الله معنا . فقال الرسول : نعم » .

(فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم نروها) . قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره (الهمز المارد من البحر) : « قال ابن عباس : السكينة الرحمة والوقار . والضمير في عليه عائد على رسول الله (ص) . إذ هو المحدث عنه » . ويتفق هذا مع قول شيخ الأزهر المراغي ، حيث قال في تفسيره ما نصه بالحرف : « أي فأنزل الله طمأنينته التي يسكن عندها القلب على رسوله . وقوّاه بجنود من عنده وهم الملائكة » . وأيضاً يتفق مع سياق الآية لأن الضمائر في نصره وأخرجه وأيده كلها تعود إلى النبي (ص) . (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا) . كلمة الله هي التوحيد ، وكلمة الذين كفروا هي الشرك والكفر . (والله عزيز حكيم) وقد اقتضت حكمته أن ينصر نبيه بغزته ، ويظهر دينه على جميع الأديان .

انفروا خفافاً وثقالاً الآية ٤١ - ٤٣ :

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكُ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا

سورة التوبة

لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّهُ
عَنْكَ لَمْ أَذْنَبْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *

اللفظة :

الخفة هنا استعارة لمن يمكنه السفر بسهولة ، والتقل لمن يمكنه بصعوبة ، والمراد بهما النفر على كل حال . والعرض ما يعرض للإنسان من متاع غير دائم . السفر القاصد الهين : من القصد وهو الاعتدال . والشقة الطريق التي يشق سلوكها .

الإعراب :

خَفَافًا وَثِقَالًا حال من الواو في انفروا . ولو كان عرضاً اسم كان محذوف أي لو كان ما دُعُوا اليه . ولم متعلق بأذنت ومثلها لهم . ويتبين منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، والمصدر المنسبك مجرور بحتى متعلقاً بمحذوف أي هلا اخرتهم إلى أن يتبين لك .

التفسير العام :

(انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) . الخفاف جمع خفيف ، والمراد به هنا من يستطيع الجهاد بيسر ، والثقال جمع ثقیل ، وهو من يستطيع الجهاد بشيء من المشقة . والآية تدل على وجوب النفي العام ، واليك البيان .

إذا حاول العدو أن يعتدي على دين الاسلام بتحريف كتاب الله وما ثبت من سنة نبيه ، أو بصد المسلمين ومنعهم عن اقامة الفرائض والشعائر الدينية ، أو حاول الاستيلاء على بلد من بلادهم - إذا كان الأمر كذلك وجب على المسلمين

الجزء العاشر

أن يجاهدوا هذا العدو . ويردعوه عن غيه وضلاله، فإن أمكن ردعه بجهاد بعض المسلمين وجب الجهاد به كفاية إذا قام البعض سقط عن الكل ، وإذا أهملوا جميعاً فهم مسؤولون ومستحقون للعقاب بلا استثناء ، وإذا توقف الردع على التغير العام كان الجهاد عيناً على الشبان والشيوخ والنساء والمرضى ، من كل حسب قدرته .

قال صاحب الجواهر : « إذا داهم المسلمين عدو من الكفار يخشى منه على بيضة الاسلام ، أو يريد الكافر الاستيلاء على بلاد المسلمين وأسرهم وسبيهم وأخذ أموالهم ، إذا كان كذلك وجب الدفاع على الحر والعبد والذكر والأنثى والسليم والمريض والأعشى والأعرج وغيرهم إن احتيج اليهم ، ولا يتوقف على حضور الإمام ولا اذنه ، ولا يختص بالمعتدى عليهم والمقصودين بالخصوص . بل يجب النهوض على كل من علم بالحال . وإن لم يكن الاعتداء موجهاً اليه .. هذا إذا لم يعلم بأن من يراد الاعتداء عليهم قادرون على صد العدو ومقاومته » .

هذا هو عهد الله أخذه على كل مسلم باتفاق جميع المذاهب ، تماماً كانتافهم على وجوب الصوم والصلاة ، والحج والزكاة .. وقد ابتلي المسلمون والعرب الآن بمصابة صهيونية استعمارية اعتدت على دينهم وبلادهم . وقتلت وشردت وسجنت الألوف .. فعلى كل عربي ومسلم في مشارق الأرض ومقارها أن يجاهد بكل طاقاته ضد هذه المصابة المسماة بدولة إسرائيل . (ذلكم خير لكم) أي التفسير خير للمسلمين في دينهم ودنياهم . (إن كنتم تعلمون) . أجل ، نحن نعلم بأن التغير لجهاد إسرائيل واجب على كل مسلم ، ولكن الذي يمنعنا عن جهاد إسرائيل هم القادة الخائثون ، فعليتنا أن نجاهد هؤلاء قبل كل شيء لأنهم علة العلل ، ولولا خيانتهم لدينهم وأمتهم، وطاعتهم العمياء للصهيونية والاستعمار ما كان لإسرائيل عين ولا أثر .

(لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك) ضمير اتبعوك يعود إلى من تخلف عن الخروج مع النبي (ص) في غزوة تبوك، والمرض القريب الغنيمة الباردة، والسفر القاصد هو السهل القريب ، والمعنى لو دعوتهم يا محمد إلى المنفعة العاجلة لأسرعوا إلى تلبيةك (ولكن بعدت عليهم الشقة) . فالسفر إلى الشام ، ودونها الصحراء بعواصفها الرملية ، وهجيرها اللاهب ، والعدو ودولة الروم أقوى دول

الأرض آنذاك .. فكيف يستجيبون لدعوتك . والحال هذه ؟ ولا يختص هذا الوصف بمن تخلف عن غزوة تبوك ، فإن النفس تميل بطبعها إلى الراحة والمنفعة ، ولكن أهل الإيمان يروضون أنفسهم بالتقوى ، فستهن بكل شيء يرضي الله ورسوله . قال الإمام علي (ع) : أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه . وتقدم ما يتصل بذلك في ج ٢ ص ٣٢٣ عند تفسير الآية ٣٧ من سورة النساء .

(وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) . هذا إخبار من الله لنبهه بأن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك قد أعدوا له عند رجوعه الأعذار والأيمان الكاذبة .. وبديهة ان صفة الكذب لا تنفك عن المنافق وإلا لم يكن منافقاً (يهلكون أنفسهم) لأنهم أهلكوا دينهم بالكذب والنفاق (والله يعلم أنهم لكاذبون) في أعذارهم وإيمانهم .. وقيل : لا يكذب إلا جبان، ونعطف على الجبان من أهلكته المطامع .

(عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) . حين دعا النبي (ص) الناس إلى الجهاد استأذن بعضهم بالتخلف . وتعللوا بالمعاذير ، فأذن النبي لهم قبل أن يعلم صدقهم من كذبهم فيما اعتزلوا به ، فعاتبه الله سبحانه على ذلك . وقال له : كان الأولى أن تترث في الأذن لهم حتى تنكشف حقيقتهم هذا ما يعطيه ظاهر الآية .

وتسأل : ان النبي (ص) معصوم عن الخطأ . وقوله تعالى : (عفا الله عنك) يستدعي وجود الذنب ، وكذلك الإنكار في قوله : (لم أذنت لهم) .. الجواب : ان العفو من الله لا يستدعي وجوب الذنب ، فكثيراً ما يكون تعبيراً عن ثوابه ورحمته ، وقد كان جميع الأنبياء يطلبون العفو منه تعالى .. أما الاستغهام الانكاري فالأمر فيه سهل ، حيث يصح في العمل المباح وغيره ، فتقول لصاحبك : لم فعلت هذا ؟ وأنت لا تزيه انه ارتكب منكراً ، وإنما تريد شيئاً آخر ، والفرض هنا من عتاب الله لنبهه هو بيان كذب المنافقين في اعتذارهم ، وانه كان لمجرد الفرار من الجهاد ، وهذا الأسلوب أبلغ في الدلالة على نفي العذر من كل أسلوب .. هذا : إلى أن سبحانه قال في الآية ١١٧ من هذه السورة : **و لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ،** . وإذا كانت التوبة لا تدل وجود الذنب فبالأولى العفو والاستغهام .

لا يستأذنك الذين يؤمنون الآية ٤٤ - ٤٨ :

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُم كَارِهُونَ *

اللفظ :

العدة الأهبة . وانبعاثهم خروجهم . فثبطهم أو من عزمهم . والخبال الاضطراب في الرأي . واخلالكم بينكم . والمراد بالفتنة هنا التشكيك في الدين والتخويف من الأعداء . وقلبوا لك الأمور أي دبروا لك المكاييد من كل وجه .

المعنى :

(لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين) . وما هو السبب المبرر للاستئذان ما دام الجهاد واجباً ؟ . وهل يستأذن المؤمن حقاً بأن يصلي ويصوم وإن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله* .

سورة التوبة

(إنما يستأذنك الذي لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) . ان كلاً من هذه الآية والتي قبلها تدل بالمفهوم على معنى الأخرى ، لأن معنى : المؤمن لا يستأذن في التخلف عن الجهاد أن غير المؤمن يستأذن ، ومعنى غير المؤمن يستأذن ان المؤمن لا يستأذن .. وجمع الله بين الآيتين لتأكيد المعنى وتقريره .

(وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) . أي انهم يتظاهرون بالاسلام ، أما في الواقع فهم مشككون لا يجزمون بصدقه ولا بكذبه . وهذا هو النفاق لأن الصادق المخلص يتصرف بما يحليه عليه عقله ، ويعلنه على الملأ شكاً كان أو يقيناً .

(ولو أرادوا الخروج) مع رسول الله إلى غزوة تبوك (لأعدوا له عدة) من الزاد والراحلة . وقد كانوا قادرين على ذلك (ولكن كره الله انبعاثهم) مع المؤمنين . لأنهم لا يخرجون إلا للفساد والفتنة ، كما فعلوا في غزوة حنين ، حيث خرج أبو سفيان ومن لف لفه مع الرسول ، ولما حمى الوطيس ولوا الأدبار وتضعض جيش المسلمين (فنبطهم) ان الله سبحانه أمرهم بالخروج لأجل الجهاد ، فزموا على الخروج للفساد واشاعة الذعر والاضطراب في جيش المسلمين ، كما قال في الآية التالية : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً » ، فنبطهم الله عن هذا الخروج الذي أرادوا به الفتنة والفساد ، ولم يبطهم عن الخروج للجهاد والقتال ، كيف وقد أمرهم به (وقيل اعدوا مع القاعدين) أي مع النسوة والأطفال والعجزة . ولم يبين سبحانه من الذي قال لهم هذا ، هل هي أنفسهم الأمارة ، أو لسان الحال ، أو بعضهم لبعض ؟ . الله العالم .

وتسأل : قال تعالى لنبيه في الآية ٤٣ : « لم أذن لهم » . وفي هذه الآية قال : « كره الله انبعاثهم فنبطهم » فكيف تجمع بين الآيتين ؟ .

وتعرف الجواب مما قلناه في تفسير قوله تعالى : « لم أذن لهم » ، وانه ليس عتاباً واستفهاماً حقيقياً ، وإنما الغرض منه بيان كذب المنافقين في معاذيرهم .

(لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً) ولأوضحوا خلاصكم ييغونكم الفتنة) . هذا بيان للحكمة في كراهيته تعالى خروج المنافقين في جيش المسلمين ، وانهم ينلسون بينهم للكيد وبث التفرقة والقوضى بين الصفوف .. وهؤلاء موجودون في كل مكان وزمان ، ويعرفون اليوم بالطابور الخامس (وفيكم سماعون لهم) وهم

الجزء العاشر

السذج البسطاء الذين يؤخذون بالكواذب ، وينفقون مع كل ناعق (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) . يشير سبحانه إلى مكرمهم وكيدهم للرسول قبل تبوك ، ومنه فرار أبي سفيان في غزوة حنين ، واعتزال ابن أبي بلث الجيش في غزوة أحد .

(حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) كل ما أراده الله فهو حق ، وكل ما عداه فهو باطل ، وقد أراد سبحانه النصر للإسلام ونبيه ، فتم ما أراد وهباً له الأسباب بفتح مكة ، والظفر في حنين ، وتبوك ، وتطهير الجزيرة من اليهود الغدرة الفجرة ، والمراد بقوله : (وظهر أمر الله) ان هذا النصر قد شهدته الناس ، كل الناس .. وما زال حتى اليوم وإلى آخر يوم يقترن اسم محمد ابن عبدالله باسم الله في مشارق الأرض ومغاربها .

ومنهم من يقول ان الذن لي الآية ٤٩ - ٥٢ :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ* اِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ* قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا اِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللهِ فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ* قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا اِلَّا اِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ اَنْ يُصِيبَكُمْ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ اَوْ بِاَيْدِنَا فَتَرَبَّصُوا اِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ*

الإعراب :

ألا في الفتنة (ألا) أداة تنبيه . وتربصون أصلها تربصون . والمصدر المنسبك من أن يصيبكم مفعول تربص .

المعنى :

(ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) أجمع المفسرون على أن رسول الله (ص) لما دعا إلى غزوة تبوك قال له جند بن قيس - وكان من شيوخ المنافقين - : ائذن لي يا رسول الله في القعود ، فلما رجل أحب النساء وأخشى إن أنا رأيت الروميات أن أفتن بهن .. فتزلت الآية .. زعم هذا المناق أن يخاف الإثم بالتعرض للنساء إذا غزا مع النبي (ص) ولم يتأثم من التعرض لغضب الله ورسوله (ألا في الفتنة سقطوا) أي زعموا القرار من الإثم فوقوا فيما فروا منه ، أو أشد (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) من جميع الجهات ، ولا يجدون عنها محيصاً .. لقد دعاهم الرسول إلى الخلاص بالتوبة من ذنوبهم التي أحاطت بهم من كل جهة ، فرفضوا دعوته ، فأحاط بهم العذاب من كل جانب .

(إن تصبك حسنة تسؤهم) كما هو شأن الخبيث اللئيم يموت بغيظه إذا أصاب الطيبون الأبرار ما يحبون، ويطير فرحاً إذا نالهم ما يكرهون (وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) ويدل السياق أن المراد بالمصيبة هنا انكسار جيش المسلمين ، لأن قولهم : (قد أخذنا أمرنا) معناه ان المنافقين كانوا يتحدثون فيما بينهم فرحين مستبشرين بما حل بالمسلمين من مكروه ويقول بعضهم لبعض : لقد أخذنا حذرنا وتيقظنا إلى ما صار إليه جيش محمد.. وتقدم نظيره في الآية ١٢٠ من سورة آل عمران : « ان تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » . وفي قوله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » - ٤٩ الأنفال .

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) معناه قل أيها الرسول لأولئك المنافقين: نحن الذين تيقظوا وأحلوا حذرهم ، لا أنتم ، لأنكم قدتم مع القاعدتين، أما نحن

فجاهدنا في سبيل الله بعد أن أعدنا للجهاد عدته .. وقد جرى صراعنا مع أعداء الحق على سنة الله في المعارك ، يوم لنا ، ويوم علينا ، والحرب ينتسأ وبينهم ما زالت قائمة ، والأمور بخواتيمها ، والنصر لنا في النهاية ، وكل آت قريب (هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) الذين يعدون العدة ، ثم يسبرون على اسم الله ، فان أصابتهم حسنة قالوا : هذه من فضل الله ورحمته ، وان أصابتهم مصيبة قالوا : انها بقضاء الله وقدره ، وهم في الحالين على اخلاصهم ، وعلى يقين من دينهم ، وان الله مظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

(قل هل تترصبون بنا إلا احدى الحسين) . وهما النصر أو الشهادة ، وفي النصر لإذلال الكافرين والمنافقين ، وفي الشهادة الثواب العظيم ، وكلامهما عزة وكرامة (ونحن تترصب بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فترصبوا انا معكم مترصبون) ان عاقبة المؤمنين المجاهدين لإحدى الحسينين على سبيل مانعة الخلو : اما النصر والغلبة ، واما الفوز بالشهادة في سبيل الله ، وعاقبة المنافقين والكافرين احدى السوءين : اما العذاب من الله ، واما التنكيل بأيدي المؤمنين حين يأذن الله لهم في ذلك .

صلوات المنافقين الآية ٥٣ - ٥٧ :

قُلْ أَتَفْقَهُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِيقِينَ *
وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لِيُنْكَرَكُمْ وَمَا مُنْكَرُكُمْ

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلَ
لَوْأُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يُجْمَعُونَ*

اللغة :

الطوع الانقياد بالارادة والاختيار . والزق الخروج بصعوبة . وكل هالك
زاهق . والفرق بفتح الراء الخوف . والملجأ المكان الذي يتحصن فيه ، ومثله
المقل والموئل والمعتم والمعتد . ومغارات جمع مغارة ، من غار الشيء في
الشيء . والمدخل بتشديد الدال السرب في الأرض يدخله الانسان بمشقة . والجراح
السرعة التي تتعذر مقاومتها .

الإعراب :

انفقوا لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، وطوعاً أو كرهاً قائم مقام الحال ،
أي سواء أنفقتم طائعين أم كارهين فلن يقبل منكم . وتسبك ان تقبل بمصدر على
انه مجرور بمن محذوفة . ونفقاتهم نائب فاعل . والمصدر المنسبك من أنهم كفروا
فاعل منهم أي ما منعهم من تقبل نفقاتهم الا كفرهم .

المعنى :

(قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم) بعد أن تجهز النبي (ص) لغزوة
تبوك طلب منه بعض المنافقين ان يعفيه من الجهاد . وعرض عليه شيئاً من
ماله ، فأمر الله رسوله الكريم ان يقول لهذا المنافق وأمثاله : لا حاجة لله في
أموالكم ، وانها مردودة عليكم ، سواء أبذلتموها عن رضا ، ام عن كره .
وتسأل : لقد عرفنا وجه الرد ، مع البذل عن كره ، فما هو الوجه لردّها .

مع البذل عن رضا؟ .

الجواب : لأنهم ما ارادوا بالبذل عن رضا وجه الله ، وانما ارادوا الشهرة والجاه : ولا فرق بين البذل عن رضا لهذه الغاية ، وبين البذل عن كره خوفاً ان ينكشفوا على حقيقتهم ، لأن كلاهما منها لغير الله ، ومن أجل هذا خاطبهم الله بقوله : (انكم كنتم قوماً فاسقين) . ووصفهم بالفسق يشير الى ان الفسق هو العلة لعدم القبول : ويعتبر الأصوليون عن هذا وأمثاله بمناسبة الحكم للموضوع .

(وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله) لقد بذل المنافقون اموالهم لا لشيء الا ليقال : انهم بذلوا لله ، وهم به كافرون .. وهذا النفاق والرياء هو السبب في عدم قبول ما يبذلون، ولو اتفقوا لوجه الانسانية فقط، كالمحدد يطعم جائعاً بدافع الشفقة والرحمة لأمكن القول : هل جزاء الاحسان الا الاحسان، أما النفاق فهو سوء، ومن يعمل سوءاً يُجْزَ به .. راجع ج ٢ ص ٢١١ فقرة « الكافر وعمل الخير » .

(ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا يتفقون الا وهم كارهون) وهذه الحال نتيجة حتمية للكفر، لأن الصلاة لله والاتفاق في سبيله فرع عن الايمان به . (فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا). وتساءل : ان الأموال والأولاد قد تكون سبباً لعذاب الآخرة ، فقد اشتهر أناس بالوداعة والصلاح ايام يؤسهم : حتى اذا آتاهم الله من فضله طغوا وبغوا .. قال تعالى : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى - ٦ الملق » ، وقال : « واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة . ٢٨ الأنفال » .. أما ان تكون الأموال والأولاد سبباً لعذاب الدنيا فالأمر على العكس عند الناس بخاصة المال الذي يحشوا عنه تحت الأرض وفي اعماق البحار ، وحين تقدم العلم اخذوا يبحثون عنه في كوكب القمر وغيره .. هذا ، الى ان قوله : (ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) لا يتفق مع قوله (المال والبنون زينة الحياة الدنيا - ٤٦ الكهف). وعلى افتراض ان الأموال والأولاد سبب العذاب في هذه الحياة فإن هذا العذاب لا يختص بالمنافقين وحدهم ، بل يعم الناس أجمعين بطبيعة الحال ؟ .

سورة التوبة

الجواب : أجل ، ان هذا السؤال او الإشكال محكم ، ولا مفر منه لو أريد بالآية العموم والسُّمُول ، اما لو أريد بها واقع معين فلا يتجه الإشكال من الأساس ، وسياق الكلام الذي قبل الآية وبعدها يدل بوضوح على ان الضمير في لعنهم عائد الى خصوص المنافقين الذين كانوا في عهد رسول الله (ص) ، وبصورة أخصى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً - كما قيل - وفيهم من له الكثير من الأموال ، والعديد من الأولاد .. وكيلاً يقول قائل : كيف يكون هؤلاء من القوم الفاسقين وقد انعم الله عليهم بالمال والبنين ، كيلاً يقال هذا قال سبحانه : (انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) . وقد عذب الله أولئك المنافقين بأولادهم ، لأن أبناءهم اعتنقوا الاسلام وأخلصوا له على العكس من آبائهم ، ولا شيء أشد حسرة على الوالد من أن يكون ولده على غير دينه وعقيدته .. فلقد أسلم ابن عبدالله بن أبي ، وعرض على النبي (ص) أن يقتل أباه عبدالله كبير المنافقين فرفض النبي (ص) .

وأيضاً عذبهم الله بأموالهم ، لأنهم كانوا على يقين انها ستؤول من بعدهم الى الذين هم على غير دينهم وطريقهم .. فالآية مختصة بالمنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله (ص) ولا تتعدى الى غيرهم ، وبهذا يتبين انه لا وجه لما ذكره المفسرون من أن الله عذبهم بالأموال لأنهم قد تعبوا في جمعها ، وعذبهم بالأولاد لأنهم يتألمون لمرضهم وفقدهم .. وبدية ان هذا الألم ، وذاك التعب لا يختصان بالمنافقين ، بل يشملان كل ذي مال وأهل .

(وتزحق أنفسهم وهم كافرون) أي يموتون على الكفر ، فيعذبهم الله بكفرهم في الآخرة . كما عذبهم بأموالهم في الدنيا على النحو الذي ذكرنا . قال الطبرسي في مجمع البيان : ان ارادة الله تعلقت بزهوq أنفسهم ، لا بكفرهم ، وهذا كما تقول : أريد أن اضربه ، وهو عاصٍ . فالارادة تعلقت بالضرب ، لا بالمعصية .

(ويخلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم) . وأية جدوى لهم في هذا الحلف ، وقد شهد الله بأنهم أسلموا خوفاً . لا اقتناعاً (ولكنهم قوم يفرقون) والفرق الخوف والرعب . وقد امتلأت به قلوب المنافقين من قوة المسلمين (لو وجدوا ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا اليه وهم يجمعون) . أي يسرعون لا يرد

الجزء العاشر

وجوهم شيء .. لم يستطع المنافقون الخروج من المدينة ، وأيضاً لم يجرأوا على الجهر بالكفر ، لأن الاسلام قد دخل في كل دار من دور الأوس والخزرج ، فاضطروا الى أن يسلّموا بأطراف ألسنتهم ، وهم كافرون في أعماق قلوبهم يتحنون الفرص للكيد بالاسلام ، والغدر بالمسلمين .

فان أعطوا منها رضوا الآية ٥٨ - ٥٩ :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ* وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ*

اللفظ :

اللمز العيب والظمن في الوجه .

الإعراب :

إذا هم يسخطون (إذا) حرف مفاجأة ، وتختص بالجملة الاسمية ، ولا تحتاج الى جواب ، وما بعدها مبتدأ وخبر ، والجملة جواب ان لم يعطوا : وقد وقعت اذا في جواب الشرط كالفاء . وجواب لو محذوف أي لكان خيراً لهم .

المعنى :

(ومنهم من يلمزك في الصدقات) . ضمير منهم يعود الى المنافقين ، والمعنى

سورة التوبة

ان بعض المناقطين يعيب النبي (ص) ويظعن عليه في قسمة الزكاة ، ويزعم انه يحابي فيها ، وجاء في تفسير الطبري عن أبي سعيد الخدري قال : بينا رسول الله (ص) يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله . فقال له : وبلك ومن يعدل ان لم أعدل . فقال عمر : ائذن لي يا رسول الله بضرب عنقه . قال الرسول (ص) : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته ، وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية .. آتتهم رجل اسود احدى يديه مثل ثدي المرأة ، يخرجون على حين فترة من الناس فتزل قوله تعالى . « ومنهم من يلزمك في الصدقات » . قال ابو سعيد : أشهد اني سمعت هذا من رسول الله (ص) ، وأشهد ان علياً رحمة الله عليه حين قتلهم جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله (ص) .. »

(فإن أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) . كان النبي (ص) يوزع الصدقات كما بينها الله في الآية التالية ، فيرضى المؤمنون ، ويسخط المنافقون ، ويلمزونه في قسمته .. والحق ان أكثر الناس على حق . والآية تشمل كل من لا يرضى بنصيبه ، ولو رضي كسل انسان بما يستحق لعاش الجميع في أمن ورخاء .

(ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) في أن يغنيانا عن الصدقات وغيرها من صلات الناس والحاجة اليهم .. وهذه الآية تحث الانسان على ان يعف عما في أيدي الناس ، ويتكل على الله ، وكذا اليمين وعرق الجبين . قال الإمام علي (ع) : الفئ الأكبر اليأس مما في أيدي الناس .. ولا أعرف أحداً يستحق الازدراء والاحتقار أكثر ممن يرجو الناس ، وهو قادر أن يستغني عنهم ولو بالصبر .

مستحقو الزكاة الآية ٦٠ :

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَارِ مِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ*

الإعراب :

للفقراء اللام للتملك أو الاختصاص، أي ان الله سبحانه ملك أو خصّ قسماً من الزكاة للفقراء . وفي الرقاب (في) ظرفية اي ان قسماً من الزكاة ينفق في فك العبيد من الرق . وفريضة حال من الصدقات أي مفروضة ، ويجوز أن تكون مفعولاً مطلقاً ، أي فرض الله الصدقات فريضة .

المعنى :

المراد بالصدقات هنا الزكاة المفروضة ، وتكلم الفقهاء عن حكمها وشروطها والأعيان التي تجب فيها والمستحقين لها ، وعرضنا ذلك مفصلاً في الجزء الثاني من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق . وفي ج ١ من التفسير الكاشف ص ٤٢٨ تكلمنا عن الزكاة كمبدأ أقره الاسلام ، وتكلم هنا تبعاً للآية الكريمة عن أصناف المستحقين لها ، وهم ثمانية :

١ - (انما الصدقات للفقراء) . قال الإمامية : الفقير الشرعي من لا يملك مؤونة السنة له ولعيله . وقال الحنفية : من يملك أقل من نصاب الزكاة . وقال الشافعية والحنابلة : من وجد نصف كفايته لا يعد فقيراً . وقال الإمامية والشافعية والحنابلة : من قدر على الاكتساب لا تحل له الزكاة . وقال الحنفية والمالكية : بل تحل .

٢ - (والمساكين) . قال جماعة : ان كلمة فقير وكلمة مسكين اذا اجتمعتا عبرت كل منهما عن معنى غير معنى الأخرى ، واذا افترقتا عبرتا عن معنى واحد ، وقالوا : ان الفرق عند الاجتماع هو ان الفقير لا يسأل، والمساكين يسأل،

سورة التوبة

ومها يكن ، فإن العبرة بالحاجة ، وكل منها محتاج .

٣ - (والعاملين عليها) . وهم الجباة الذين يعينهم الإمام أو نائبه للقيام بتحصيل الزكاة وحفظها ، ثم تأديتها الى من يقسمها على المستحقين ، وما يأخذه الجباة يعتبر أجراً لهم على عملهم لا صدقة ، ولذا تعطى لهم ، وإن كانوا أغنياء .

٤ - (والمؤلفة قلوبهم) . وهم قوم يراد اسمائهم الى الاسلام ، أو ليستعين بهم المسلمون فيما يعود بالنفع على الاسلام .

٥ - (وفي الرقاب) . أي تبذل الزكاة لفك العبيد وتحريرهم من الرق . ولا موضوع اليوم لهذا الصنف .

٦ - (والغارمين) . وهم الذين تحملوا ديوناً عجزوا عن وفائها ، فتؤدى عنهم من الزكاة ، على شريطة أن لا يكونوا قد صرفوها في الإثم والمعصية .

٧ - (وفي سبيل الله) . وسبيل الله كل ما يرضيه ، يُتقرب به اليه كائناً ما كان ، كشتى طريق أو بناء مصحح أو معهد ، وأفضله الدفاع عن الدين والوطن .

٨ - (وابن السبيل) . وهو المنقطع في سفره عن بلده ، فيعطى ما يستعين به على العودة الى وطنه ، وإن كان غنياً فيه ، على شريطة أن لا يكون سفره في معصية .

ويقولون هو اذن الآية ٦١ - ٦٣ :

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْفُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنُ قُلْ أَذْنُ خَيْرٌ لَكُمْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْفُونَ
رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ

وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ *

اللغة :

يقال : رجل اذن، أي يسمع كل ما يقال له ويصدق . والمحادة المخالفة .

الإعراب :

اذن خير لكم (اذن) خبر لمبتدأ محذوف أي هو اذن خير ، و (خير)
مجرور بالاضافة مثل رجل صدق . ويؤمن للمؤمنين اللام زائدة ، لأن يؤمن بمعنى
يُصدق المؤمنين . والله مبتدأ والخبر محذوف أي الله أحق بالرضا . ورسوله-أحق
مبتدأ وخبر . والمصدر المنسبك من أن ترضوه مجرور بالباء المحذوفة متعلقاً بأحق .
والهاء في انه ضمير الشأن اسم ان ، وخبرها الجملة من من يحادد ، والمصدر
المنسبك من ان وما بعدها سد مسد المقولين ليعلموا . وفأن له بفتح الهزرة ،
والمصدر منها واسمها وخبرها خبر لمبتدأ محذوف أي فجزاؤه ان له نار جهنم .

المعنى :

(ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن) . كان النبي (ص) يعامل
كل انسان بظاهره ، ولا يبحث عن باطنه عملاً بمبدأ الظاهر للناس ، والباطن لله ،
وهذا اصل من أصول الشريعة الإسلامية يبتني عليه كثير من الأحكام ، وقد
استظله المنافقون ، فكانوا يفلتون من طاعة الله ورسوله ، ويعتدرون فيقبل منهم
الرسول ويعفو .. والغريب أنهم اتخذوا من هذه الفضيلة وسيلة للطمع فيه، ونسبوه
الى سرعة التصديق والتأثر بكل ما يسمع ، دون ان يتدبر ويميز بين ما هو جدير

سورة التوبة

بالقبول ، وما هو جدير بالرفض .. ولو انه (ص) واجههم بكنزهم ونفاقهم ، وعاملهم بما يستحقون من العقوبة لكان شراً لهم ، ولقالوا : فظ غليظ .. لقد عابوه فيما يعود عليهم بالخير والنفع ، وهنا مكان الغرابة .. لكن التلميح لا يكسر عليه شيء ، لأنه ينظر الى كل شيء بمرآة نفسه السوداء ، حتى الى من يحسن اليه .. وصدق الذي قال :

من تكن نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً

(قل هو اذن خير لكم) هذا رد من الله على أولئك المنافقين ، ويتلخص الرد بأن النبي اذن خير ، لا اذن شر .. يقبل منكم ما لا ضرر فيه على انسان، ويرفض ما فيه الضرر ، كالغيبة والنميمة (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أي يصدق الصادقين منهم تصديق تسليم واقتناع ، أما المنافقون فيصدقهم فيما لا ضرر فيه تصديق ملاطفة وبجاملة (ورحمة للذين آمنوا منكم) . رحمة معطوف على اذن خير ، وهو من باب عطف العام على الخاص لأن اذن الخير رحمة أيضاً (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) لأن من آذى رسول الله فقد آذى الله .

(يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحن ان يرضوه ان كانوا مؤمنين). كما يزعمون ، والضمير في يخلفون عائد الى الذين قالوا : هو اذن . والخطاب في لكم وفي ليرضوكم للنبي والمؤمنين ، فلقد أخبرهم الله تعالى في هذه الآية ان المنافقين حين علموا باطلاعكم على ما قالوه في حق النبي (ص) خافوا منكم فالتجأوا الى اليمين الكاذبة ليرضوكم ، وكان الأولى بهم أن يرضوا الله ورسوله بالتوبة والاخلاص . وفي الحديث من حلف على عيمين ، وهو يعلم انه كاذب فقد بارز الله بالمحاربة .. وفي التعبير بيرضوه دون يرضوها اشعار بأن ارضاء الرسول هو عين ارضاء الله ، كما أن ايذاءه عين ايذاؤه .

(ألم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم) . يحادد أي يخالف . وهذه الآية تأكيد لقوله في الآية السابقة : والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم . قال الشيخ اسماعيل حقي في تفسيره روح البيان ، وهو يشرح هذه الآية :

« كل نبي أؤذي بما لا يحيط به البيان ، وكان محمد (ص) أشدهم في ذلك كما قال : ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت . ولما كانت الاذية سبب التصفية كان

الجزء العاشر

المعنى ما صفى نبي مثل ما صفيت .. وانما كان الحسن مسموماً ، والحسين مذنباً رضي الله عنها بسبب ان كمال تعينها كان بالشهادة ، وكان النبي (ص) قادراً على تخليصها بالشفاعة من الله ، ولكنه رأى كمالها في رتبها راجحاً على الخلاص ، حتى انه دفع قارورتين لواحدة من أزواجه المطهرة ، وقال لها : اذا اصفر ما في احدهما يكون الحسن شهيداً بالسم ، واذا احمر ما في الأخرى يكون الحسين شهيداً بالذبح .. فكان كذلك .

يُحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ الْآيَةَ ٦٤ - ٦٦ :

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبَا اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *

اللفظة :

مخرج أي مظهر . والخوض في الشيء الدخول فيه .

الإعراب :

المصدر المنسبك من ان تنزل مفعول يحذر ، ويجوز جره بمن محنوفة . أبالله متعلق يستهزئون .

المعنى :

(يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا ان الله مخرج ما تخفون) . لم يحذر المنافقون حقيقة وواقعاً من نزول الوحي في شأنهم ، وإنما أظهروا الحذر على وجه الاستهزاء والسخرية .. كانوا يطمنون في النبي (ص) فقال بعضهم لبعض ساخراً : احذروا ان تنزل في شأنكم سورة .. والدليل على ان هذا هو المراد قوله تعالى مهدداً : (قل استهزئوا) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ان المنافقين لا يؤمنون بالوحي فكيف يحذرون منه على وجه الحقيقة ؟.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن الضمير في عليهم وفي تنبئهم يعود الى المؤمنين ، وان الضمير في قلوبهم يعود الى المنافقين .

وبلاحظ أولاً : ان المؤمنين لم يرد لهم ذكر في الآية . وان المذكورين فيها صراحة هم المنافقون ، كما ان الآية التي قبلها تحدثت عن المنافقين . دون غيرهم .. ثانياً يلزم من هذا التفسير التفكيك بين الضمائر ، مع عدم الدليل على ذلك .

ومن أجل هذا نرجح الرأي القائل بأن الضمائر كلها تعود الى المنافقين ، وان على في (عليهم) بمعنى في كما هي في قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان) أي في ملكه ، ومثلها أيضاً فيما يقال : كان هذا على عهد مضى . وعليه يكون المعنى يحذر المنافقون - تهكماً - ان تنزل سورة تكشف عما يضمرون من العداوة للإسلام والمسلمين . فتوعدهم الله سبحانه بأن السورة التي سخروا من نزولها نازلة لا محالة . وانها تقابلهم وجهاً لوجه . فيعتذرون حيث لا تنفعهم المعاذير .

(ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب) . تكلم قوم من المنافقين بما لا ينبغي في حق رسول الله (ص) ، ولما سألم قالوا : كنا هازلين لا جادين .. واختلف المفسرون في أسماء من قالوا هذا ، ونوع ما قالوا .. والآية لا تشير الى شيء من ذلك ، ونحن نسكت عما سكته الله عنه (قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) . ان قولهم : كنا نخوض ونلعب أقرب من الذنب الذي اعتنوا منه .. فهل الله جلت عظمتة لعبة للتسلي والتلهي ؟ . وهل أرسل انبياءه للسخرية

والاستهزاء ؟.. وتدل الآية ان كل من استهزأ بالدين وأحكامه الثابتة بالبداهة فهو كافر .

(لا تعتزوا قد كفرتم بعد إيمانكم) . وتسال : ان هذا يدل على انهم كانوا مؤمنين قبل الاستهزاء ، وان السبب الموجب هو الاستهزاء ، مع العلم بأنهم كانوا كافرين من قبل في سرهم وواقعهم ، وان كفرهم هو السبب الموجب للاستهزاء ؟.

الجواب : كانوا قبل اعترافهم بالاستهزاء بالدين كافرين واقعاً مسلمين حكماً ، لأنهم أظهروا الاسلام ، فجرى عليهم ما يجري على المسلمين من الأحكام التي تنبئ على الظاهر ، لا على الواقع ، وبعد أن اعترفوا بالاستهزاء صاروا كافرين واقعاً وحكماً يجري عليهم أحكام المرتدين .

(ان نعت عن طائفة منكم نعتب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) كان المنافقون صنفين : الرؤساء المتبعين الذين يتربصون بالاسلام ، ويكيدون لنيه ، ويسخرون منه ، والضعاف التابعين ، فأمر الله سبحانه نبيه الأكرم بالعفو عن هؤلاء لضعفهم وبعباب أولئك لأنهم علة العلل .. وقيل : ان الله سبحانه عفا عن تاب منهم ، وعاقب من أصر على الكفر والنفاق .

المنافقون والمنافقات الآية ٦٧ - ٧٠ :

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً فَاسْتَمْتَعُوا

بِخَلَّاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَّاقِهِمْ
وَخَضَعْتُمْ كَأَلَدِي خَاضُوا أَوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ *

اللغة :

نسوا الله تركوا طاعته ففسدهم ترك ثوابهم . والخلاق النصب . وخضعت دخلتم
في الباطل . وأصحاب مدين قوم شعيب . والمؤتفكات جمع مؤتفكة من اتفكت
بهم الأرض أي انقلبت . والمراد بالمؤتفكات هنا قرى قوم لوط .

الإعراب :

المنافقون والمنافقات مبتدأ أول ، وبعضهم مبتدأ ثان ومن بعض خبر ، والجملة خبر
الأول . كالذين من قبلكم الكاف بمعنى مثل في محل نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي
وعد الله المنافقين وعداً مثل وعد الذين من قبلكم . ومثله كما استمتع ، وكالذي
خاضوا ، أي استمتعتم بخلاقكم استمتاعاً مثل استمتع الذين من قبلكم ،
وخضعت خوضاً مثل خوض الذي خاضوا ، والذي هنا اسم جنس بمعنى الذين .
وقوم نوح بدل من الذين المجرور بإضافة نبأ . والمصدر المنسبك من ليظلمهم
متعلق بمحذوف خبراً لكان أي: فما كان الله مريداً لظلمهم .

المعنى :

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) كناية عن تشابههم وصفاً وعلماً ، ثم يبين وجه التشابه بقوله : (يأمرؤن بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فسيهم) . والمنكر الذي أمروا به هو الكفر والنفاق ، والمعروف الذي نهوا عنه هو الإيمان وطاعة الله ورسوله ، أما أيديهم فأنهم قبضوها عن الانفاق في سبيل الله ، ونسيانهم لله تركهم لطاعته ، ونسيانه لهم حرمانهم من رحمته (ان المنافقين هم الفاسقون) الناكبون عن سبيل الرحمن الى سبيل الشيطان .

(وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) . بعد ان يبين سبحانه مساوئ المنافقين وتوعدهم وتوعدهم كل كافر بنار الجحيم (هي حسيهم) أي جزاء كاف واف على أعمالهم (ولعنهم الله) أبعدهم عن رحمته (ولهم عذاب مقيم) لا يخف ولا ينقطع .

(كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلافهم فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم وخضتم كالذي خاضوا) . يقول سبحانه : أنتم أيها المنافقون المعاصرون لمحمد (ص) مثل المنافقين الذين خلوا استمتعوا بنصيبتهم من ملاذ الدنيا ، وكانوا أقوى منكم وأكثر مالاً وأولاداً ، فاستمتعتم أنتم أيضاً بنصيبتكم من حطام هذه الحياة ، وخضتم في الباطل كما خاض الأولون (أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) أي بطلت حسناتهم ، ان كان لهم حسنات كالعيش بكد اليمين وعرق الجبين .. وبطلانها في الآخرة بعدم الثواب عليها ، أما بطلانها في الدنيا فلائها لا ترفع من شأن الكافر والمنافق عند أهل الوعي والإيمان (وأولئك هم الخاسرون) لأنهم أنعموا أنفسهم في تدبير الدسائس والمؤامرات على المؤمنين الطيبين ، ثم دارت عليهم الدائرة دنياً وآخرة .

والخلاصة ان الله سبحانه قال للمنافقين المعاصرين للرسول الأعظم (ص) ، اتركوا الكفر والنفاق ، وانعظوا بالذين خلوا قبلكم من أمثالكم قبل أن يتعظ بكم من يأتي بعدكم .

سورة التوبة

(ألم يأتهم نبيّ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات) . أصحاب مدين قوم شعيب ، والمؤتفكات قوم لوط . (انظر فقرة اللغة) .. لقد ذكّر الله سبحانه المنافقين هؤلاء الأقوام ، لأن بلادهم كانت قريبة من بلاد العرب ، وكانوا في كثرة من المال والولد ، وقوم ابراهيم أهلکوا بسلب النعمة ، وعاد بالريح ، وقوم نوح بالفرق ، وثمود بالصيحة ، ومدين بعذاب الظلة ، والمؤتفكات يجعل عاليها سافلها ، وتقدم الكلام عن ذلك في سورة الأعراف (فما كان الله ليعذبهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) باصرارهم على الخطايا والذنوب .

والمؤمنون والمؤمنات الآية ٧١ - ٧٢ :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

اللغة :

العدن الإقامة والخلود ، والرضوان مصدر رضي .

المعنى :

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) المراد بالولاية هنا النصرة ، بعد ان ذكر سبحانه المنافقين برذائلهم ذكر المؤمنين بفضائلهم ، وان بعضهم يناصر بعضاً ، ومن ادعى الايمان بالله ورسوله ، ولم يناصر اخوانه في هذا الايمان فهو منافق ، تشمله الآيات السابقة التي نزلت في المنافقين (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف (وقيمون الصلاة) حقيقة لا رياء كالمنافقين (ويؤتون الزكاة) ولا يبخلون بها كما يبخل المنافقون (ويطيعون الله ورسوله) ويستمرون على هذه الطاعة مهما كانت النتائج (أولئك سيرهم الله) أما المنافقون فقد لعنهم وأعد لهم نار جهنم خالدين فيها (ان الله عزيز حكيم) قادر على اعزاز المؤمنين ، واذلال الكافرين والمنافقين .

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) وعدن الإقامة ، وكل من أرضى الله في أعماله ومقاصده فالله يرضى عنه (ذلك هو الفوز العظيم) ذلك اشارة الى الجنات والمساكن الطيبة والرضوان . وتقدم نظيره في ج ٢ ص ٢٣ عند تفسير الآية ١٥ من سورة آل عمران .

جاهد الكفار والمنافقين الآية ٧٣ - ٧٤ :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا أُنْفِمْ جَهَنَّمَ وَيَشْسَ النَّصِيرُ * يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَحْمِلُونَ إِيْمًا لَمْ يَبْتَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا

أَلِيًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ *

اللغة :

الغلظة الخشونة في المعاملة . وهمَّ بالشيء اذا أراد ، والهم دون العزم الا ان يبلغ نهاية القوة في النفس .

الإعراب :

المصدر المنسبك من ان أغناهم مفعول نعموا ، أي ما كرهوا الا اغناء الله اياهم . ومن ولي (من) زائدة وولي مبتدأ .

المعنى :

(يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) . استعمل النبي (ص) اللين مع المنافقين فاجدى ، بل جرأهم التسامح على الطعن فيه والقول بأنه أذن ، فأمره الله سبحانه ان يغلب عليهم ويجاهدهم .. ولكنه لم يبيّن نوع الجهاد : هل هو بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر؟ . ومعنى هذا ان الله قد ترك ذلك الى تقدير النبي (ص) فيجاهدهم بما يراه من الحكمة والمصلحة .

(يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر) . الضمير في يحلفون وقالوا عائد الى قوم من المنافقين ، فإنهم نطقوا بكلمة الكفر في حق رسول الله (ص)، ولما سألم خافوا وحلفوا ، فكذبهم الله ، وثبت صحة ما نسب اليهم .. ولم يذكر جلّ وعز أسماء الذين حلفوا اليمين الكاذبة ، ولا كلمة الكفر التي نطقوا بها ، كيلا يتعبد المسلمون بتلاوتها . وقال الشيخ المراغي في تفسيره :

« وأصح ما روي ان رسول الله (ص) كان جالسا في ظل شجرة فقال :

الجزء العاشر

انه سيأتيكم انسان ينظر اليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلّموا ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه الرسول ، فقال له : علام تشتغني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل ، فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، ف تجاوز عنهم ، فأ نزل الله : يحلفون بالله ما قالوا الخ .

(وكفروا بعد اسلامهم) . هذا مثل قوله تعالى : (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) ومر تفسيره في الآية ٦٦ من هذه السورة .

(وهووا بما لم ينالوا) . في تفسير الرازي والبحر المحيط والمنار والمراغي وغيره : ان جماعة من المنافقين اتفقوا على الفتك بالرسول ، فأخبره الله بذلك ، فاحترز منهم ، ولم يصلوا الى مقصودهم . وفي الجزء الثاني من كتاب «الأعيان» للسيد محمد الأمين :

« رجع رسول الله (ص) من تبوك الى المدينة : حتى اذا كان ببعض الطريق مكر به ناس من أصحابه ، فتأمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق ، فأخبر رسول الله (ص) خبرهم . »

(وما نعموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) . ضمير نعموا وأغناهم يعود الى المنافقين ، وقد كان كثير منهم في ضنك من العيش يقاسون مرارة البؤس والفقر قبل أن ينطقوا بكلمة الاسلام ، وبعد أن قالوها بأطراف ألسنتهم تدفقت عليهم الأرزاق ، لأن النبي (ص) كان يساويهم في القنائم بسائر المسلمين ، ووفى ديون بعضهم ، فكان جزاؤه منهم ان قالوا عنه ما قالوا ، ثم هموا باغتياله .. فوجئهم سبحانه على عقوبتهم وكفران النعم بهذا الأسلوب : وهو مثل قولك لمن عطفك بعد احسانك اليه : ما لي عندك ذنب الا الاحسان اليك .

(فإن يتوبوا يك خيراً لهم) . ان باب الله مفتوح على مصراعيه لكل طارق ، والسبيل اليه سهل يسير ، حتى على الكافرين والمنافقين ، لا يكلفهم سوى الاعتذار عما سلف ، والصلق فيما يأتي .

(وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً ألياً في الدنيا والآخرة) أما عذابهم في الآخرة فعلوم ، واما عذابهم في الدنيا فلأن المنافقين في خوف دائم ان يفتضح أمرهم ،

سورة التوبة

ويتهك سترهم ، ومن أجل هذا يرهبون كل شيء ، ويحبسون كل صيحة انها عليهم ، لا على غيرهم ، كما وصفهم تعالى بقوله : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحبون كل صيحة عليهم — المنافقون » . (وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير) . ومن ينصر أو يجرأ ان ينصر من تكشفت عوراته وسيئاته على عيون الملأ .

ومنهم من عاهد الله الآية ٧٥ - ٧٨ :

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ *

اللفظ :

أعقبهم أورثهم . والنجوى الكلام الخفي .

الإعراب :

فلما آتاهم (لما) هنا حرف وجود لوجود أي لما وجد الفضل وجد البخل ، وتختص لما بالماضي ، ومن فضله سد مسد المفعول الثاني لأنهم . ولنصدقن أصله لتصدقن ، فادغمت التاء بالصاد . وفاعل أعقبهم ضمير مستتر يعود الى البخل ،

سورة التوبة

الوصفان أي الخلف بالوعد ، والكذب في الحديث من أخص أوصاف المنافقين ، قال الرسول الأعظم (ص) : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

(ألم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب) . السر ما تنطوي عليه الصدور ، والنجوى الكلام الخفي يتناجى به اثنان أو أكثر ، والغيوب جمع غيب ، وهو ما غاب عن جميع الخلق ، والمعنى كيف تجرأ هؤلاء المنافقون على اضممار الكفر ، والتناجى به ؟ . ألم يعلموا ان الله مطلع على ما تخفي صدورهم وما يدور على ألسنتهم ، وانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

الذين يلمزون المطوعين الآية ٧٩ - ٨٠ :

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

الغزة :

لمزه عابه . والمطوع أصله المتطوع ، فأدغمت التاء في الطاء ، والمراد به هنا من يؤدي ما يزيد على الوجوب في أمواله . والجهد بفتح الجيم وضمتها الطاقة .

الإعراب :

الذين يلمزون مبتدأ وخبره سخر الله منهم ، وفي الصدقات متعلق يلمزون .

الجزء العاشر

وسبعين قائم مقام المفعول المطلق ، لأن المعنى سبعين استغفاراً .

المعنى :

(الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) . اللز العيب ، والمراد بالتطوع هنا بذل المال تفضلاً لا وجوباً . وما زال الحديث عن المنافقين، وهاتان الآيتان تعرضان لونا آخر من آثامهم وأذاهم المتصل للنبي والمؤمنين .. في ذات يوم حث النبي (ص) على البذل في سبيل الله ، فاستجاب المؤمنون من صحابته، وتطوع بعضهم بالآلاف . وبعضهم بصاعٍ من تمر ، كل حسب طاقته، فهابهم المنافقون ، وقالوا عن المكثّر : انه يبذل رثاء ، وعن القليل : انه يذكر بنفسه.. إن شأن المنافقين الرياء فيما يقولون ويفعلون ، فقاسوا الغير على أنفسهم، ووصفوه بوحى من واقعهم .

وقوله تعالى: (والذين لا يجدون الا جهدهم) يشير الى الفقراء الذين تصدقوا بالقليل لأنه مبلغ طاقتهم (فيسخرهم منهم) استخفافاً بما بذلوه . ومن كلام الإمام علي (ع) : لا تستح من اعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه . (سخر الله منهم ولم عذاب أليم) ومعنى سخريه الخالق جل وعلا انه يجازي الساخر بالعذاب الأليم على سخريته .

(استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) سبعين مرة كناية عن الكثرة ، وما زال العرب يبالغون بالسبعة والسبعين . وقال قائل : ان الله سبحانه ترك الخيار للتنبيه في ان يستغفر للمنافقين أو لا يستغفر لهم لأن (أو) في الآية للتخيير بزعمه .. وهذا اشتباه ، فإن قوله تعالى : (فلن يغفر الله لهم) دليل قاطع على انه لا سبيل لهم الى العفو والمغفرة . وعليه تكون (أو) للتسوية.. وفي رواية ان الله سبحانه حين أنزل في المنافقين (الذين يلزمون المطوعين) طلبوا من النبي أن يستغفر لهم ، فأنزل الله عليه (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم) .

وتسأل : ان الله يحب التوابين ، ويغفر لهم ذنوبهم مها عظمت ، فما هو السر في قوله : (فلن يغفر الله لهم) ؟.

سورة التوبة

وقد أجاب سبحانه عن هذا في الآية نفسها، حيث قال : (ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) . انهم اعتنوا، وطلبوا من النبي (ص) ان يستغفر لهم ، ولكن نفاقاً ورياء ، أما في واقعهم فإنهم مصرون على الكفر والعناد .. وانما يتقبل الله من المتقين ، لا من المنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

فرح المخلفون بمقعدهم الآية ٨١ - ٨٣ :

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلَيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *

اللفظ :

المخلفون جمع مخلف ، وهو المتروك اسم مفعول ، أي ان رسول الله (ص) هو الذي تركهم . بمقعدهم بصيغة اسم المصدر والمراد به المصدر ، أي بقعودهم . وخلاف تأني مصدر بمعنى المخالفة ، وظرفاً بمعنى بعد . ورجعك الله ردك الله . فاقعدوا مع الخالفين أي مع القاعدين أو الباقين ، وهم النساء والصبيان والعجزة .

الإعراب :

خلاف رسول الله ان كان بمعنى بعد فهو ظرف منصوب والعامل فيه مقعدهم ،

الجزء العاشر

وان كان مصدراً بمعنى المخالفة فهو مفعول لأجله لفرح . وحرّاً تميز . واللام في ليضحكوا لام الأمر وعملها الجزم ، ومثلها اللام في ليبكوا . وقليلاً صفة لمفعول مطلق عنوف أي ضحكاً قليلاً . ومثله كثيراً أي بكاءً كثيراً . وجزاء مفعول لأجله ليبكوا . وأبدأ منصوب على الظرفية ، ومعناه الاستقبال . وأول مرة قائم مقام الظرف ، أي في أول مرة .

المعنى :

(فرح المخلفون بمقدمهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) . حكى الله سبحانه فيها سبق قول بعض المنافقين للنبي ائذن لي في القعود عن الجهاد ، وأخير في هذه الآية عن فرحهم بهذا القعود مخالفة لرسول الله ، وكرهية للجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله بعمامة ، وفي غزوة تبوك بخاصة ، لأن الآيات نزلت فيها .

(وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرّاً لو كانوا يفقهون) . اشفقوا على أنفسهم من حر الدنيا ، ولم يشفقوا عليها من نار جهنم ، وهي أشد حرّاً ، وأطول أمداً .. هذا ، إلى أن من ترك جهاد الطغاة ألبسه الله ثوب الذل في الدنيا ، وسيم الخسف ومنع النصفة .. وما غزى العرب والمسلمون في عقر دارهم إلا حين تواكلوا وتحاذلوا ، وآثروا الخزي والمذلة على الاستشهاد من أجل العزة والكرامة .

(فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون) . الأمر بالضحك والبكاء معناه الإخبار بأن المنافقين ، وإن فرحوا بمقدمهم عن الجهاد فإن هذا الفرح ليس بشيء بالنسبة إلى ما سيلقونه من الخزي والذل في الدنيا ، وهم في الآخرة أذل وأخزى .

(فإن رجلك الله إلى طائفة منهم) الخطاب للنبي (ص) ، ومعنى رجلك ذلك من غزوة تبوك إلى المدينة ، والمراد بالطائفة جماعة المنافقين ، وضمير منهم يعود إلى من تأخر في المدينة عن الغزو ، فإن بعض هؤلاء تأخر لعسر صحيح

سورة التوبة

(فاستأذنوك للخروج) معك الى الغزو أو غير الغزو (فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً) . لقد تخلفوا عن الجهاد الواجب ، فعاقبهم الله بالحرمان من صحبة النبي (ص) ، والخروج معه الى الحرب وغيرها ، وهذا النوع من العقاب أشد على النفس من وقع السهام ، ويأتي في الآية ٩٥ قوله تعالى : (فاعرضوا عنهم انهم رجس) ثم يبين سبحانه سبب النهي عن اخراجهم مع النبي ، واشراكهم في قتال العدو بقوله : (انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) قعدوا عمن النبي (ص) في ساعة العسرة فلن يُقبلوا بعدها .. ومن اختار لنفسه الهوان يدعه الله وما اختار، والمراد بالخالفين الصبيان والعجزة والنساء .

ولا تصل على احد منهم الآية ٨٤ - ٨٩ :

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

اللفظة :

الطول بالفتح والتشديد الفنى والقوة . والحوالف النساء لتخلفهن عن الجهاد .
وطبع على قلوبهم ختم عليها .

الإعراب :

منهم متعلق بمحذوف صفة لأحد ، وجملة مات صفة ثانية . وأبدأ ظرف
متعلق بتصل . وان آمنوا (ان) للتفسير بمعنى أي .

الصلاة على جنازة المنافق والفاسق :

(ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله
وماتوا وهم فاسقون) . الخطاب في لا تصل للنبي ، وضميم منهم يعود الى
المنافقين .. وكان من عادة النبي (ص) إذا مات أحد أصحابه أن يصلي عليه، ويقف
على قبره يستغفر له ويقول لمن حضر : استغفروا لأخيكم ، وسلوا التثبيت له ،
فإنه الآن يسأل . وبعد أن نزلت هذه الآية امتنع النبي (ص) عن الصلاة على
المنافقين ، لأنها صريحة في النهي عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبورهم للدعاء
لهم ، أما سبب هذا النهي فهو اصرارهم على الكفر بالله ورسوله ، وموتهم على
هذا الاصرار والعناد الذي عبر عنه تعالى بقوله ، (وماتوا وهم فاسقون) .
هذا هو المعنى الظاهر من الآية ، وتتصل به المسائل التالية :

١ - المنافق قسم من أقسام الكافر ، بل هو أسوأ حالاً منه ، لأنه يطن
الكفر ، ويظهر الاسلام ، ومن أجل هذا تحرم الصلاة على جنازته ، وقوله تعالى :
(ولا تصل على أحد منهم) صريح في ذلك ، وأوضح منه أو مثله في الوضوح .
قوله : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى
من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » - ١١٤ التوبة . أما الفاسق فهو

سورة التوبة

قسم من أقسام المسلم . لأنه يؤمن بالله ورسوله ظاهراً وباطناً . ولكنه يعصي الله في أحكامه ، فتجب عليه الصلاة ، ولا يجوز تركها محال .

في ذات يوم جاءني أحد علماء جبل عامل ، وقال : دعيت الى الصلاة على جنازة رجل أعلم بفسقه ، فهل تجوز لي الصلاة عليه ؟ قلت : بل تجب عليك كفاية . قال : والفسق ؟ فرويت له قول الإمام جعفر الصادق (ع) : « صل على من مات من أهل القبلة . وحسابه على الله » . قال : ولكن المصلي لا بد أن يدعو للميت بعد التكبيرة الرابعة ، والمعروف أن يقول في دعائه له : اللهم لا نعلم منه إلا خيراً ، فان قلتها كنت كاذباً . قلت له : قل : اللهم نعلم منه خيراً ، واقصد بالخير الإسلام .

٢ - اختلف المفسرون تبعاً لاختلاف الروايات : هل صلى النبي (ص) على جنازة رأس النفاق عبد الله بن أبي ؟ والأقوال في ذلك ثلاثة : الأول أنه صلى ، حيث كان يأمل أن يدخل بسبب هذه الصلاة خلق كثير في الإسلام.. وهذا مجرد حدس ، ولا يجوز أن نثبت أو نفسر به شيئاً من أفعال المعصوم . القول الثاني : ان النبي (ص) أراد أن يصلي عليه ، فأخذ جبريل بثوبه ، وتلا عليه الآية : ولا تصل على أحد منهم . القول الثالث : انه ما صلى عليه . وجاء في مجمع البيان : « والأكثر في الرواية انه لم يصل عليه » . وخير ما قرأت في هذا الباب ما جاء في تفسير الشيخ المراغي ، قال ما معناه : ان البخاري وغيره رووا ان النبي (ص) صلى على ابن أبي ، ولما سئل قال : ان الله خيرني في الصلاة على المنافقين ، لأنه قال لي : استغفر لهم أو لا تستغفر . ثم علق المراغي على هذا الحديث بأن كثيراً من العلماء قد حكموا بعدم صحته ، لأن آية النهي عن الصلاة على المنافقين نزلت قبل موت ابن أبي ، ومحال أن يخالف الرسول الأعظم (ص) كتاب الله ، وأيضاً محال أن يقول : ان الله خيرني بقوله : استغفر لهم أو لا تستغفر لأن قوله تعالى : (فلن يغفر الله لهم) دليل قاطع على أن (أو) هنا ليست للتخيير ، فالحديث بنفسه يدل على انه كذب وافترأ على الله ورسوله .

٣ - قال الطبرسي في مجمع البيان : « في هذه الآية دلالة على ان القيام على

القبور للدعاء عبادة مشروعة . ولا يختلف احد من فقهاء المسلمين في ان الدعاء للأموات يجوز شرعاً ، تماماً كالدعاء للأحياء ، بل الأموات أحوج . ما دمتنا نعتقد بالبعث وحسابه وعقابه ، ولا فرق بين أن يكون الدعاء على القبور ، أو على غيرها .

أما زيارة القبور فقد أجمع الفقهاء على جوازها ما عدا أئمة الوهابية .. وقد روى السنة في ثلاثة كتب من صحاحهم أحاديث تنطق صراحة بالجواز ، قال مسلم في صحيحه القسم الثاني من الجزء الأول ، باب استئذان النبي (ص) ربه في زيارة قبر أمه : « زار النبي (ص) قبر أمه . وقال : استأذنت ربي في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم بالموت » . وقال ابن حجر العسقلاني في ج ٣ من كتاب فتح الباري بشرح البخاري ، باب زيارة القبور : « أخرج مسلم عن النبي (ص) انه قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها » .. وزاد أبو داود والنسائي - وهما من أصحاب الصحاح - فإنها تذكركم الآخرة ، وللحاجم من حديث عن النبي : وتُرق القلب ، وتدمع العين ، فلا تقولوا هجراً .. وتزهّد في الدنيا » .

وتكلمنا عن ذلك في كتاب: هذه هي الوهابية . ثم عقدنا فصلاً بعنوان زيارة القبور في كتاب، من هنا وهناك . أما حساب القبر فقد تكلمنا عنه في المجلد الأول من هذا التفسير ص ٤٠٧ عند تفسير الآية ٢٥٩ من سورة البقرة . وقد نعود ثانية الى هذا الموضوع عند الاقتضاء .

(ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون) . تقدم نظيره في الآية ٥٥ من هذه السورة ، وقال المفسرون : إنما أعاد سبحانه تأكيداً للتحذير من الإعجاب بالمال والولد والاشتغال بهما ، وقلنا أكثر من مرة : ان التكرار في القرآن غير عزيز .

(وإذا أنزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكُن مع القاعدين) . وأولو الطول هم الطغاة المرفون الذين يتخادون كل ما يمس مصالحهم من قريب أو بعيد .. والإيمان بالله معناه المساواة بينهم وبين سائر الناس ، والجهاد مع رسوله معناه الجهاد ضد البغي والفساد ،

سورة التوبة

أي ضدهم .. وإذا كان الإيمان بالله ، والجهاد مع رسوله يعرضان مصالحهم للخطر فهم حرب على الله ورسوله فوق ألا يؤمنوا بالله ويجاهلوا مع رسوله.. ولكن قد اعترضتهم مشكلة ، وهي كيف يرفضون دعوة الرسول للجهاد معه ، وفي الوقت نفسه يزعمون الإيمان بنبوته ، وأخيراً وجدوا الحل ، وهو أن يستأذنوه في القعود.. ولكن هذا الاستئذان قد فضحهم وكشف عن كفرهم ونفاقهم ، وأنهم يتسرون باسم الاسلام خوفاً على أنفسهم .

(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) وهم المعجزة والصبيان والنساء ، وكفى بذلك خزيًا وهوانًا (وطُج على قلوبهم فهم لا يفقهون) طُج مبني للمجهول ، أي ان الأغراض والأهواء قد أعمت قلوبهم عن الحق ، وصلتهم عن اتباعه .

(لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) . أي اذا تخلف المنافقون عن الجهاد فقد قام به النبي ، والذين أخلصوا لله في إيمانهم ، فهو نظير قوله تعالى : « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - ٨٩ الانعام » . (وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون) والخيرات والفلاح دنيا وآخرة نتيجة حتمية للإيمان بالله والجهاد في سبيل الحق والعدل ، ولا تختص كلمة الخيرات بالخير المادي فقط ، بل تشمل المادي والمعنوي معاً، وطريف قول بعض المفسرين : ان المراد بالخيرات هنا الحور العين دون غيرهن معبراً بذلك عن أحب الاشياء الى قلبه ، كما يبدو .

(اعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) تقدم نظيره في الآية ٧٢ من هذه السورة ، والسورة ١٥ من آل عمران .

وجاء المعلقون الآية ٩٠ - ٩٣ :

وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ

وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا
 لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلَا عَلَى
 الَّذِينَ إِذَا مَا آتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا
 وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ
 عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ
 وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *

الغفة :

المعذرون جمع معذر بفتح العين وتشديد الذال . وله معنيان : الاول المعذّر
 من اعتذر ، سواء أكان له عذر أم لم يكن . الثاني من التعذير ، وهو التصدير
 أي يريك العذر ، ولا عذر له . والأعراب سكان البادية . ونصحوا أخلصوا .

الإعراب :

حرج اسم ليس مؤخر، وعلى الضعفاء خبر مقدم . وإذا ظرف متعلق بمحذوف
 أي لا يخرجون . ولتحملهم أي على الابل أو غيرها . وحزناً مفعول لأجله لتفيض .
 والمصدر المنسبك من ألا يجدوا مجرور بحرف جر محذوف أي لعدم وجود النفقة .

المعنى :

بعد ان بيّن سبحانه أحوال المنافقين الذين كانوا في المدينة تمرّض هنا للمتخلفين
 عن الجهاد من أهل البادية ، وانهم صنفان : الأول قصد النبي (ص) واعتذر إليه

سورة التوبة

واستأذنه في التخلف ، وهذا الصنف هم المعينون بقوله تعالى : (وجاء المعنرون من الاعراب ليؤذن لهم) . الصنف الثاني : قعدوا كاذبين على الله ورسوله ، واليهام أشار بقوله : (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) . وتقسم المتخلفين إلى معنرين وكاذبين يدل على ان المراد بالمعنرين من تخلف لعذر صحيح ، ولذا سكت الله عن المعنرين ، ولم يهددهم بالعذاب الأليم ، كما هدد الكاذبين بقوله : (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) .

وتسأل : ان سياق الآية يقتضي حذف (منهم) لأن الكاذبين على الله ورسوله كلهم كافرون ، لا بعضهم ؟.

وأجاب الرازي بأنه تعالى كان عالماً ان البعض منهم سيؤمن ، ويتخلص من العقاب ، فذكر لفظة (من) للدلالة على التبعض .. والذي نراه نحن في الجواب: ان الذين قعدوا كاذبين على الله ورسوله على صنفين: منهم من كذبوا في اعتذارهم طلباً للراحة وفراراً من أعباء الجهاد ، مع إيمانهم بالله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وهؤلاء ليسوا بكافرين بل متهاونين . وصنف اعتذروا مع إنكارهم باطنياً بنوبة محمد (ص) . وهؤلاء كافرون مستحقون للخلود في العذاب . فجاءت كلمة منهم للدلالة على ان الكافرين هم الذين تخلفوا منكبين الرسالة ، دون الذين تخلفوا تهاوناً ، لا جحوداً .

(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج) . استغفر النبي (ص) الناس للجهاد ، فبادر اليه قوم ، وتخلف آخرون ، ومن هؤلاء المنافقون والكاذبون على الله ورسوله ، وتقدم الحديث عنهم ، ويأتي أيضاً ، ومنهم اصحاب الاعذار الحقيقية ، وهؤلاء لا أثم عليهم ولا لوم ، وهم ثلاثة أصناف :

١ - الضعفاء عاجزون عن القتال لشيخوخة ، أو لعلة في أصل تكوينهم ، كمن خلق ضعيفاً في بدنه لا يطيق القتال بحال .

٢ - المرضى ، والفرق بين المريض والضعيف ان علة المريض غير ملازمة لحلقه وتكوينه ، مع العلم بأن كلاً منها يجوز اطلاقه على الآخر .

٣ - الفقراء الذين لا يجدون النفقة ولا من يضمنها لهم .. فإن وجود مثل هؤلاء بين المقاتلين يخلق لهم مشكلة تعوقهم عن بلوغ الهدف المطلوب .

لقد أباح الله سبحانه لهؤلاء الأصناف الثلاثة أن يتخلفوا عن الجهاد (إذا نصحوا لله ورسوله) بأن يكونوا مخلصين في إيمانهم قائمين ببقية ما عليهم من الواجبات، كحراسة المدينة ، والمحافظة على عيال المجاهدين وأموالهم، وما إلى ذلك. (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) . وكل من قام بواجبه كاملاً فهو محسن في نظر الإسلام أباً كان نوع الواجب ، وكل من أحل به فهو مسيء . وقد أسقط الله الجهاد عن المرضى والفقراء ، فإن قاموا بما عليهم من الواجبات الأخر فهم محسنون . وليس لأحد عليهم من طريق لمؤاخذتهم . وقد اتخذ الفقهاء من هذه الآية أصلاً شرعياً فرعوا عليه كثيراً من الأحكام ، منها إذا استودع انسان مالاً عند غيره . فتلغ المال فلا يضمن الوديع إلا إذا قصر في حفظ المال أو تعدى عليه . ومنها ان الحاكم الجامع للشروط إذا أخطأ في الحكم فلا شيء عليه إذا كان قد بذل الجهد لمعرفة الحق ، ومنها إذا رأى انسان مال غيره معرضاً للهلاك المؤكد : بحيث إذا تركه لم يبق منه شيء ، فألتف بعضه بقصد ان يسلم البعض الآخر لصاحب المال ، إذا كان كذلك فلا يضمن المتلف شيئاً في مثل هذه الحال . لأنه محسن . وما على المحسنين من سبيل : إلى غير ذلك من الأحكام . (ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) . اتفق الرواة والمفسرون على ان هذه الآية نزلت في جماعة من المسلمين أتوا النبي (ص) وهو يتهاى لغزوة تبوك ، وقالوا له : يا رسول الله لا نملك راحلة للذهاب معك الى الجهاد ، وطلبوا منه مركباً يحملهم . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه ، فسحت أعينهم بالدمع لحرمانهم من الجهاد بين يدي الرسول الأعظم (ص) .. ثم اختلف المفسرون في أسماء هؤلاء وعددهم .. وليس ذلك بالشيء المهم . ما دامت الآية واضحة الدلالة على الواقعة . ولا قائل بنفيها .

وتسأل : ان هؤلاء يدخلون في صنف الفقراء المشار اليهم بقوله تعالى : (ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون) فما الفائدة من الاعداء ؟ .

وأجاب بعض المفسرين بأن الفقراء لا يجدون ما كلاً ولا عملاً . والباكاؤون يجدون المأكل دون المحمل .. وقد تكون الفائدة التنويه بصدق البكاين واخلاصهم ومكانتهم عند الله .. وعلى أية حال . فإن الله سبحانه نفى المسؤولية عن كل

سورة التوبة

من تخلف عن الجهاد لعجزه عنه ، سواء أتمثل هذا العجز في المرض أم في عدم المأكل ، أم الحمل .

(إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) . ومعنى هذه الآية يتفق مع مضمون الآيتين السابقتين ٨٦ و ٨٧ .. وخلاصة المعنى المقصود ان الله سبحانه بعد أن نفى المسؤولية عن الفقراء والمرضى أثبتها على الأغنياء الأصحاء الذين يتخلفون عن الجهاد ، ومحال أن يعمل هؤلاء للصالح العام ، ويتعاونوا مع المخلصين فيما يمس بمصالحهم من قريب أو بعيد ، وهم على استعداد في كل حين أن يبيعوا دينهم ووطنهم للشيطان اذا ضمن لهم الربح والاستغلال .. وهكذا منذ القديم يناضل المستضعفون في بسالة لتحطيم الكفر والبغي ، ويقود أصحاب الطول والحول الثورة المضادة ان سنحت لهم الفرصة، والا قبعوا في الزوايا يتربصون الدوائر بالمجاهدين .

الجزء الحادي عشر

يعتذرون اليكم الآية ٩٤ - ٩٦ :

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ
إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَاعَمُ
جَهَنَّمَ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *

الإعراب :

نبأنا بمعنى عرفنا تتعدى إلى مفعولين الأول ضمير (نا) والثاني محذوف أي
طرفاً ومن اخباركم صفة للمفعول المحذوف . وجزاء مفعول لأجله لما واهم لأنه
بمعنى تحرقهم جهنم .

المعنى :

(يعتذرون اليكم إذا رجعت إليهم) يدل سياق الآية على أنها نزلت في أثناء
عودة جيش المسلمين من غزوة تبوك ، حيث أخبرهم الله سبحانه أنهم حين يصلون
إلى المدينة يستقبلهم المنافقون معتذرين إليهم عن تخلفهم وقعودهم .. أنهم يعتذرون ،
ولكن بالكواذب والأباطيل ، ولذا قال الله عليه :

(قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) . هذا نهي منه تعالى
أن يقبلوا عذراً من المنافقين ، وأمرٌ للنبي (ص) أن يقول لهم : لا أصدقكم في

سورة التوبة

شيء مما تعتقدون ، لأن الله قد أوحى إليّ بما تخفي صدوركم من الشر والنفاق (وسرى الله علمكم ورسوله) أي لا تقبل اعتذاركم ، حتى تثبتوا - فيا سيأتي - بالأفعال لا بالأقوال انكم صادقون في نواياكم وأهدافكم ، ومخلصون في الإيمان بالله ورسوله ، كما تزعمون .

(ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) . الغيب ما غاب علمه عن غير الله ، والشهادة ما نعرفه ونشاهده . والمعنى انكم ستقفون غداً بين يدي الله الذي لا تخفى عليه خافية ، فيخبركم بأعمالكم ، ويجازيكم عليها ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

(سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم) أي رجعتُم من غزوة تبوك (لتعرضوا عنهم) المراد بالإعراض هنا السكوت عن نفاقهم وعدم توبيخهم عليه (فأعرضوا عنهم) والمراد بهذا الإعراض اهمالهم احتقاراً وازدراء ، وفي بعض الروايات ان النبي أمر المسلمين أن يقاطعوهم ، ثم بين سبحانه علّة اهمالهم واحتقارهم بقوله : (انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون) الرجس القذر ، وفي الحديث : أحكم الناس من فر من جهال الناس . وفي حديث آخر : اياكم ومجالسة الموتى . فقيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : كل ضال عن الإيمان ، جائر عن الاحكام .

(يحلفون لكم لترضوا عنهم) حلفوا أولاً - كما في الآية السابقة - طلباً للصفح وعدم مؤاخذتهم على الذنب ، كما دل قوله : (لتعرضوا عنهم) . وحلفوا ثانية طلباً للرضا وحسن المعاملة ، كما جاء في هذه الآية (لترضوا عنهم) .. ومن علامات المنافق كثرة الحلف لشعوره بأنه متهم بالكذب : « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون - ١٤ المجادلة » . ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله :

(فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) . هذا التلطف في النهي أبلغ الاساليب على الإطلاق (فإن رضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) .. ان رضا المؤمن من رضا الله ، والله لا يرضى عن الفاسقين ، فكيف يرضى المؤمن عنهم ؟ ومن ادعى الإيمان بالله ، وهو راضٍ على من غضب الله عليه فإنه منافق .. ما في ذلك ريب .

الأعراب أشد كفراً ونفاقاً الآية ٩٧ - ٩٩ :

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

العربي عام ، والأعرابي خاص بمن يسكن البادية . والمغرم الغرامة . والتربص الانتظار . والدائرة المصيبة . وقربات جمع قربة ، وهي طلب الثواب والكرامة من الله بحسن الطاعة . والمراد بالصلاة هنا الدعاء .

الإعراب :

كفراً ونفاقاً تمييز . والمصدر المنسبك من ألا يعلموا مجرور بالباء المحذوفة أي أجدر بعدم العلم . وما ينفق مفعول أول ليتخذ ، وقربات مفعول ثانٍ ، وصلوات الرسول معطوف على قربات ، وقيل : على ما ينفق . وألا أداة تنبيه .

البوي والحضري :

(الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله

سورة التوبة

والله عليم حكيم .) ليس هذا تقسيماً للناس على أساس البداوة والحضارة، وتفضيلاً للحضري على البدوي ، كيف ؟ . وقد أخبر سبحانه في الآية الآتية ان قوماً من الأعراب قد أخلصوا في إيمانهم وأعمالهم .. ولو كانت البداوة إثماً بما هي لحرمها الله ، تماماً كما حرم الظلم والبهتان .. ان القرآن يقسم الناس على أساس التقوى أي الإيمان بالله والعمل الصالح : وقد بينت هذه الحقيقة وأكدها بشئ الأساليب، بل هي الغاية الأولى من انزال القرآن ودعوته وتعاليمه وشريعته .

والآية التي نحن بصددھا تومیء الى ذلك ، فإن قوله تعالى : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً الخ .. يشعر بأن سبب الذم هو الكفر والنفاق ، والجهل بأحكام الله التي أنزلها على نبيه .. وليست البداوة بما هي سبباً للذم .. أجل : ان حياة البادية وبعدها عن أسباب الحضارة والمعرفة توجب غلظة الطبع وجفوته : والتجاوز عن الحد .. فالذنب - اذن - هو ذنب الظروف والبيئة .. وليس ذنب البدوي المسكين . وفي بعض الروايات : « تفقهوا في الحلال والحرام وإلا فأنتم أعراب » أي مثلهم في الجهل والبعد عن الحضارة ، وفي رواية ثانية : « من لم يتورع في دين الله ابتلاه بسخني الرساتيق » أي مع أهل الجهل والغلظة .

وبعد هذا التمهيد نعود إلى الآية . والمعنى المقصود منها ان في أهل البادية كفراً ومنافقين ، تماماً كما في أهل الحضرة ، ولكن كضار البادية ومنافقيهم أشد كفراً ونفاقاً من أمثالهم المتحضرين . هذا محصل المعنى الظاهر من الآية ، ونعطف عليه وإذا كان السبب الموجب هو الجهل والطبع الغليظ فينبغي أيضاً أن يكونوا أشد إيماناً إذا آمنوا ، وإخلاصاً إذا أخلصوا ، لأن السبب واحد .

وبهذه المناسبة نشير إلى ما جاء في ميزان الشعراني باب الشهادات : « ان الحنابلة لا يقبلون شهادة البدوي على الحضري مطلقاً ، والمالكية يقبلونها في الجراح والقتل خاصة ، ولا يقبلونها فيما عدا ذلك من الحقوق » .. وقد فهمنا وجه الدليل لقول من قال : لا تُقبل شهادة غير المسلم على المسلم ، أما مساواة البدوي المسلم لغير المسلم في الشهادة فلا نعرف لها وجهاً .. قال تعالى : « وأشهدوا ذوي عدل منكم - ٢ الطلاق » .. ولم يقل من أهل الحضرة .. ان العبرة من قبول الشهادة بالعدالة ، لا بالحضارة وغيرها .

الجزء الحادي عشر

(ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغْرماً) . بعد أن ذكر سبحانه ان في الأعراب منافقين ذكر ان هؤلاء ينفقون من أموالهم ، ولكن يرون هذا الانفاق غرامة ظالمة ، لا شيء وراءها غير الخسران . وان الثواب والجزاء عليها يوم القيامة حديث خرافة . (ويترتبص بكم الدوائر) ينتظرون أن يتغلب أعداء الاسلام على المسلمين ، ويتمنون القضاء عليه وعليهم ، ليستريحوا من هذه الغرامة الظالمة الخاسرة في عقيدتهم (عليهم دائرة السوء) قال جماعة من المفسرين : هذا دعاء على المنافقين أن يصيبهم ما تمنوه للمؤمنين . ويجوز أن يكون إخباراً عن الحال التي يكون عليها المنافقون يوم القيامة من العذاب والوبال (والله سميع علم) يسمع ما يقولون ، ويعلم ما يكتمون .

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) . ان أهل البادية كغيرهم ، منهم المنافق الذي يظهر خلاف ما يضر ، ويرى ما ينفق مَغْرماً ، لا واجباً ، كما أشارت الآية السابقة ، ومنهم المؤمن المخلص الذي ينفق لوجه الله وثوابه ، ورغبة في دعاء الرسول له بالبركة والاستغفار ، كما أشارت هذه الآية (ألا انها قرينة لهم سيلخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم) . ضمير انها يعود إلى النفقة المدلول عليها بينفق ، وقرينة أي ان هذه النفقة تقرّبهم من الله زلفى ، والمعنى ان الذين آمنوا وأنفقوا تقرباً الى الله فإنه يقبل نفقتهم ، ويدخلهم بسببها في جنته ، ويغفر لهم ما فرط منهم من الزلل والخطيئات .

والسابقون الأولون الآية ١٠٠ - ١٠٢ :

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَيَمْنَحُوكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ

مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ
سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَأَخْرُونا اعْتَرَفُوا
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللغة :

مردوا على النفاق أي ثبوا عليه ، وأنقنوا أساليبه ، ويقال : شيطان مارد
ومريد أي عاتٍ وعنيد .

الإعراب :

السابقون مبتدأ والاولون صفة ، ورضي الله خبر المبتدأ . ومن حولكم خبر
مقدم ، ومنافقون مبتدأ مؤخر . ومن أهل المدينة خبر لمبتدأ محذوف ، أي من
أهل المدينة قوم مردوا ، وجملة مردوا صفة لقوم . وآخرون مبتدأ ، واعترفوا
صفة ، وخلطوا خبر .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآيات الثلاث أربعة أصناف من الأمة ، ثم أضاف إليها
صنفًا خامسًا في الآية الآتية ١٠٦ ، وتكلم عنه حين فصل إليه . أما الاصناف
الاربعة فهي :

١ - (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار) الاولون صفة للسابقين ،
وقد جعلت كلاً من المهاجرين والانصار صنفين : سابق ولاحق ، وليس من

الجزء الحادي عشر

شك ان المراد سبق في الهجرة والنصرة ، لان الوصف يشعر بهما ، ولكن الله سبحانه لم يحدد زمن هذا سبق ، ولذا اختلف المفسرون ، فن قائل : ان المراد الهجرة والنصرة قبل يوم بدر ، وقائل : قبل بيعة الرضوان ، وهي التي حصلت تحت الشجرة يوم الحديبية ، وقال ثالث : من صلى القبلتين .. والذي نراه ان المراد بالسابقين الاولين من سبق في الهجرة والنصرة قبل ان يملك المسلمون القوة الرادعة لمن يعتدي عليهم ، ويفتن ضعيفهم عن دينه ، كما كان يفعل المشركون في بدء الدعوة ، وعلى هذا يكون القول الاول هو الراجح ، لان قوة المسلمين انما ظهرت يوم بدر ، وفيه أحس المشركون بمناعة الاسلام وبأسه .

٢ - (والذين اتبعوهم باحسان) وهم كل من سار على طريق السابقين المخلصين . قال الطبرسي : « يدخل في ذلك من يجيء بعدهم الى يوم القيامة » . وقد جاء تحديد التابعين باحسان في الآية ١٠ من سورة الحشر : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » . ونرجو ان يتعظ بهذه الآية من يدعون الايمان ، وهم غارقون في غل التحاسد الى الآذان .

وهذان الصنفان : السابقون ، والتابعون (رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبداً) رضي الله عنهم بطاعتهم واخلاصهم ورضوا عنه بما أفاض عليهم من نعمه (ذلك الفوز العظيم) اي لا فوز بالمعنى الصحيح الا بمروضة الله .

وتسأل : الظاهر من الآية ان مجرد سبق الى الهجرة والنصرة كاف واف في رضوان الله ، وانه حسنة لا تضر معه سيئة ، فهل هذا الظاهر حجة ملزمة ، بحيث يجب علينا ان نقدر كل من سبق الى الهجرة والنصرة ، حتى ولو ثبت عليه المعصية .

الجواب : ان المراد بالسابقين الاولين من أقام على طاعة الله، ومات على سنة رسول الله (ص) ، أما من عصى وأساء بعد سبق فلا تشملهم مروضة الله، كيف؟ وهو القائل : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً - ١٢٢ النساء . والقائل : « ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب -

سورة التوبة

٥٩ ابراهيم . وروى البخاري في الجزء التاسع من صحيحه ، كتاب الفتن :
« ان رسول الله (ص) يقول يوم القيامة : أي ربي أصحابي .. فيقول له :
لا تلدي ما أخذوا بعدك .. فأقول : سحقاً سحقاً لمن بدل بعدي » .

وليس من شك ان للسابق في الهجرة والنصرة الافضلية على اللاحق ، ولكن
هذا شيء ، والسماح له بالمعصية ، أو عدم الحساب عليها شيء آخر .

(ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا
تعلمهم نحن نعلمهم) . ذكر سبحانه المنافقين في العديد من الآيات ، وذكرهم
هنا لمناسبة ذكر المؤمنين السابقين واللاحقين، وليخبر نبيه الأكرم بمكانهم وموطنهم:
وانهم محيطون به من كل جانب ، فهم موجودون في المدينة التي يقيم فيها ، وفي
البادية التي حولها ، وان منافقي المدينة بوجه خاص قد مهروا في فن النفاق ،
وأثقفوه الى أن استطاعوا التكتم به عن الرسول رغم ملازمتهم له ، ومخاطبته لهم.

ثم بيّن سبحانه جزاء المنافقين بقوله : (سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب
عظيم) . وهذا العذاب الاخير الذي يردون اليه معروف، وهو عذاب جهنم، أما نوع
العذاب وزمنه في المرة الأولى والثانية قبل عذاب جهنم - فلم تشر اليه الآية ..
وغير بعيد أن يكون العذاب في المرة الأولى عند الموت لقوله تعالى : «ولو ترى
اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب الحريق-
٥٠ الانفال » . أما العذاب في المرة الثانية فهو عذاب القبر للاحداث الكثيرة :
ان قبر الكافر حفرة من حفر جهنم ، وقبر المؤمن روضة من رياض الجنة .

(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) . وهؤلاء هم
المؤمنون الذين يحسنون أحياناً بدافع من إيمانهم ، ويتغلب الهوى حيناً على إيمانهم،
فيسيئون ، وهم الأكثرية الغالبة « ومن ذا الذي تَرْضَى سجاياه كلها » ولا ينتقل
من خير الا الى خير .. الا من عصم ربك .

ثم بيّن سبحانه حكم هؤلاء بقوله: (عسى الله أن يتوب عليهم) لأنهم شعروا
بالخطيئة ، واعترفوا بها ، فأصبحوا بذلك محل الرجاء لرحمة الله وغفرانه (ان الله
غفور رحيم) . وفي مجمع البيان : « قال المفسرون : عسى من الله واجبة ،

وإنما قال عسى ، حتى يكونوا بين طمعٍ واشفاق ، فيكون ذلك أبعد عن الانكسار على الضر وإهمال التوبة .

خذ من أموالهم صلقة الآية ١٠٣ - ١٠٦ :

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرْثُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَنْبَنِيَنَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

اللفظ :

المراد بالسكنى هنا راحة النفس واطمئنانها . والإرجاء التأخير .

الإعراب :

خذ خطاب للنبي ، وكذلك تطهرهم وتركيبهم ، وجملة تطهر خبر مبتدأ محذوف ، أي فأنت تطهرهم ، ولا يستقيم الكلام إلا بهذا الإعراب مع وجود كلمة (بها) لأن تطهرهم وتركيبهم وردتا بالرفع ، فلو جعلت الجملة صفة للصدقة لكان المعنى صدقة مطهرة ومزكاة بالصدقة لأن ضمير (بها) يعود إلى الصدقة .

سورة التوبة

أما قول من قال : ان التاء في تطهرهم للصدقة وفي تركيهم للنبي فهو تفكيك بين الكلام الواحد مع عدم الدليل . وهو مبتدأ ويقبل التوبة خبر ، والجملة خبر ان ، ولا يجوز أن يكون هو ضمير الفصل لأن ما بعده فعل .

المعنى :

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) . اتفقوا على أن ضمير (بها) يعود إلى الصدقة ، واختلفوا في ضمير (أموالهم) ، فقيل : يعود إلى الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وقيل : بل يعود إلى جميع الأغنياء ، لأن الآية نزلت في الزكاة المفروضة . وهذا القول أقرب إلى الاعتبار ، وعليه يكون المعنى خذ يا أيها الرسول الزكاة من أموال الأغنياء فإنها مطهرة لهم من دنس البخل بحق الله . وتكلمنا عن الزكاة عند تفسير الآية ٦٠ من هذه السورة ، وفي ج ١ ص ٤٢٨ عند تفسير الآية ٢٧٤ من سورة البقرة .

(وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) . المراد بالصلاة هنا الدعاء ، والسكن راحة النفس ، والمعنى ادعُ أيها الرسول لمن يؤدي الزكاة بالبركة والمغفرة فإنه يغبط بدعائك ، وترتاح نفسه إليه (والله سميع علم) يسمع ويستجيب دعاءك للمزكين ، ويعلم نية من يؤدي الزكاة عن طيب نفس تقريباً إلى الله وحده .

(ألم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) . ويومئذ السياق إلى أن التوبة ذكرت هنا للإشارة إلى ان من منع الزكاة ، ثم تاب وأداها كاملة فإن الله يقبل توبته ، ويأخذ صدقته ، ومعنى أخذه لها انه جلت كلمته يثيب عليها ، فقد جاء في الحديث : « ان الصدقة تقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل » . وكف الرحمن كناية عن قبوله لها (وان الله هو التواب الرحيم) أي يقبل التوبة ، ويرحم التائبين .

(وقل اعملوا فإبى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) . ذكر هذه الآية محي الدين بن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية ، وشرحها بكلام هذا توضيحه وتلخيصه : ان معنى الرؤية يختلف باختلاف الراي ، ففنى الرؤية من

الله للشيء ان يحيط به علماً من جميع جهاته ، ومعناها من الرسول (ص) ان يعلم الشيء المرئي من وجهة الوحي الذي نزل عليه ، ومعناها من المؤمن العارف أن يعلمه بقدر ما علم وفهم من الوحي المنزل على الرسول (ص) .. وعلى هذا فمن عمل لله فان الله يعلم حقيقة عمله ، ويرضى عنه ، والرسول يعلم أيضاً أن هذا العمل مرضي عند الله ، والمؤمن العارف أيضاً يعلم انه مرضي عند الرسول ، والنتيجة الحتمية لذلك ان من يعمل صالحاً فهو مرضي عند الله والرسول والمؤمنين . (وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) . تقدم نظيره مع تفسيره في الآية ٩٤ من هذه السورة .

(وآخرون مُرجونٌ لأمر الله اما يعذبهم وإما يتوب عليهم) . ذكر سبحانه في الآية ١٠٠ وما بعدها أربعة أصناف : السابقين الى الهجرة والنصرة ، والتابعين لهم بإحسان ، والمنافقين ، والمعترفين بذنوبهم .. وأشار في هذه الآية إلى قوم لم يحدددهم بصفاتهما كما فعل في الأصناف الأربعة ، ولم يصرح بحكمهم في هذه الآية ، وانما قال : انهم مؤجلون الى عذاب الله أو مغفرة ، أي ان أمرهم موكل اليه وحده ، وقد أهتم عليهم وعلى الناس ، وقد تكون الحكمة في هذا الابهام ان يترددوا بين الخوف والرجاء، فلا يطمعوا ولا يياسوا (والله عليم حكيم) عليم بما يصلح هؤلاء وغيرهم ، وحكيم في إرجاء النص على حكمهم ، وفي كل ما يفعل .

وقال كثير من المفسرين : ان هذه الآية نزلت في جماعة من المسلمين تخلفوا عن الرسول في غزوة تبوك ، ثم ندموا .. وقد نصت الآية الآتية ١١٨ على ان ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن الخروج الى تبوك مع رسول الله (ص) ، ثم تابوا ، وان الله قبل توبتهم ، وأعلن قبولها ، ولم يدعهم في التردد بين الخوف والرجاء.. هذا ما بدا لنا عند تفسير الآية التي نحن بصدها ، ولا ندري ما نجد من المعاني حين يسيطر جو الآية ١١٨ . قال هناك .

مسجد الضرار الآية ١٠٧ - ١١٠ :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً

لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَى التَّقْوَىٰ
مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ * أَفَمَنْ أُسَسَّ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ
أَمْ مَنْ أُسَسَّ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْتَرَا بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ
إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

اللفظة :

الضرار طلب الضرر ومحاولته . والارصاد الارتقاب . والشفا الحرف ، يقال :
اشفى على كذا اذا دنا منه . والجرف جانب الوادي الذي ينحرف بالماء ، وأصله
الاجتراف . وهارٍ من الانهار .

الإعراب :

ضراراً مفعول من أجله لاتخلفوا ، ومثله ما بعده . ولمسجد مبتدأ ، وجملة
أسس صفة ، وأحق خبر ، والمصدر المنسبك من أن تقوم مجرور بالباء المحذوفة.
وفيه الاولى متعلقة بتقوم ، وفيه الثانية خبر مقدم ورجال مبتدأ مؤخر. وعلى تقوى
متعلق بأسس ، ومثله على شفا .

المضى :

عرضت الآيات السابقة ألواناً شتى لنفاق المنافقين ، وتعرض هذه الآية لونا آخر من نفاقهم وحيلهم ، فقد رأى جماعة من منافقي المدينة ان أفضل وسيلة يكيلون فيها للإسلام وبنيه محمد (ص) ان يبنوا مسجداً تحت ستار التجمع لعبادة الله والمناداة فيه بأن محمداً رسول الله ، وتحت هذا الشعار يعملون للكفر بالله ورسوله ، والاضرار بالاسلام والمسلمين وتفريق كلمتهم .. وبالفعل بنوا هذا المسجد ، وأحكموا بنيانه ، وأنفقوا عليه المبالغ ، وبعد اتمامه ذهبوا الى رسول الله ، وقالوا : ان بيوتنا قاصية عن مسجدك ، ويصعب علينا الحضور فيه ، ونكره الصلاة في غير جماعة ، وقد بنينا مسجداً لهذه الغاية ، وللضعفاء وأهل العلة ، فإن رأيت ان تصلي فيه لتيسر وتترك بالصلاة في موضع صلاتك .. هذا هو شأن المنافقين والخائنين في كل عصر ، يحملون شعارات البناء ، ويعملون وراءها للهدم والتخريب .. ولكن سرعان ما تتكشف عوراتهم ، ويفتضحون لدى جميع الناس ، كما افتضح أصحاب مسجد الضرار ، حيث أنزل الله فيهم على نبيه نخبه بحقيقتهم في قوله :

(والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل) . تقول الآية الكريمة : ان الذين بنوا مسجد الضرار يهدفون من ورائه الى أربعة أغراض : الاول الاضرار بالمسلمين . الثاني الكفر بالله ، والظعن في نبيه . الثالث تفريق كلمة المسلمين وانشقاقهم على رسول الله . الرابع جعل المسجد معقلاً لمن حارب الله ورسوله من قبل .

واتفق المفسرون وكتاب السيرة النبوية على ان المقصود بهذا العدو الذي حارب الله ورسوله من قبل هو رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر ، وكانت له رئاسة ومكانة بين قومه ، ولما قدم النبي (ص) الى المدينة بارزه هذا اللعين بالعداوة ، وكان رسول الله يسميه الفاسق ، وحين رأى أمر النبي في ارتفاع فر الى مكة بحرّض قريباً على النبي ، وبعد فتحها فر الى الطائف ، ولما أسلم أهلها فر الى الشام ، ومن هناك كتب الى المنافقين من أنصاره أن يستعدوا

سورة التوبة

وينبأ له مسجداً ، لانه سيأتيهم بجنود قيصر لحرب محمد (ص) ^١ .
ولما نزلت هذه الآية قال النبي (ص) لبعض أصحابه : «انطلقوا الى هذا المسجد
الظالم أهله ، فاهدموه » ففعلوا ذلك ، وأمر النبي (ص) ان يتخذ مكاناً لإلقاء
الجيف والقمامة .. وجاء في بعض الروايات تشبيه مسجد الضرار بالعجل الذي عبده
بنو اسرائيل ، وموسى حي ، وكما أمر سبحانه نبيه موسى بتحطيم العجل فقد
أمر رسوله الأعظم محمداً بهدم مسجد الضرار .. وكل مسجد او معبد او نادٍ
يتخذ للفساد والمؤامرات على المؤمنين والمخلصين فهو عجل بني اسرائيل ومسجد
الضرار ، يجب هدمه واتخاذة محلاً للقذارات .

ومنذ ظهر النفط في البلاد العربية ، وقامت من أجله الشركات الأجنبية ظهر
معها المئات من مساجد الضرار في صور وأشكال شتى ، منها ما يحمل اسم المعبود
او معهد الدراسات ، ومنها اسم المكتبة العامة ، او الجمعية الدينية ، ومنها اسم
النادي الثقافي أو الرياضي ، ومنها ما ظهر في شكل كتاب او صحيفة أو محاضرة
تذاع وتنتشر باسم الدين والوطن ، ولا هدف من ورائها إلا محق الدين والوطن ..
وما إلى ذلك من المشاريع التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .. وتكلمنا عن
الشعارات الدينية في ج ٢ ص ١٦٦ من هذا التفسير .

(وليلحفن ان أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون) . الضمير في
يلحفن يعود الى الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ، والمعنى ان هؤلاء المنافقين حلفوا
لرسول الله (ص) ان غايتهم من بناء المسجد هي العبادة لله ، ومنفعة المسلمين ، والله
يعلم انهم ما بنوه الا لإضراراً بالمصلين ، وكفرأ بالله ، وتفريقاً بين المؤمنين ،
ومعقلاً لمن حارب الله ورسوله (لا تقم فيه أبداً) الخطاب للنبي ، والنهي عام ،
للجميع ، تماماً مثل قوله تعالى : « أقم الصلاة لدلوك الشمس » . وقال المنصورون :
المراد بالقيام في قوله : (لا تقم فيه) الصلاة ، والظاهر ان القيام هنا أعم يشمل
الصلاة وغيرها .. وعلى أية حال ، فإن قوله تعالى : (لا تقم فيه أبداً) دليل

١ كان لأبي عامر هذا الفاسق ابن ، اسمه حنظلة ، من اجل الصحابة وأخلصهم لله ورسوله ،
وقتل معه يوم احد ، وكان جنياً ، فسلته الملائكة ، فسي غسيل الملائكة .

الجزء الحادي عشر

قاطع على عدم صحة الصلاة في كل مسجد بُني اضراراً بالمسلمين ، وتفريقاً لكلمتهم ، وان من صلى فيه فصلاته باطلة ، وعليه أن يعيدها في مكان آخر ، لأن النهي في العبادة يدل على الفساد .

(لمسجد أسس على التقوى من أول يوم احق ان تقوم فيه) . قيل : ان المراد به مسجد رسول الله (ص) لأنه هو الذي بُني من أول يوم بالمدينة . وقيل : بل مسجد قبا الذي بناه بنو عمرو بن عوف .. وقبا موضع في جنوب المدينة ، ويبعد عنها حوالي ميلين ، والظاهر ان المراد به كل مسجد بُني على التقوى ، لأن (مسجداً) نكرة متوَّنة ، وهي لا تختص بواحد معين ، وقوله : (من أول يوم) معناه انه بُني للإسلام منذ اللحظة الأولى لوجوده وبنائه ، وأحق هنا بمعنى حقيق وجدير ، وليست خفيل ، لأن مسجد الضرار لا تصح الصلاة فيه بحال .

(فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهَّرين) أي ان هذا المسجد الذي أسس على التقوى يؤمه المخلصون للصلاة وعبادة الله : لا للنفاق والتآمر على الإسلام ونيه كالذين يؤمنون مسجد الضرار .. وعبر سبحانه عن الصلاة هنا بالطهارة لأنها تطهر من الذنوب ، فقد جاء في الحديث : « ان الصلاة كالنهر الجاري . من اغتسل فيه كل يوم خمس مرات لم يبق في بدنه شيء من الدون كذلك من صلى كل يوم خمس مرات لم يبق عليه شيء من الذنوب » . هذا ما فهمناه من الآية ، مع الاعتراف بأن أحداً من المفسرين لم يفسر الطهارة بالصلاة — كما نعلم — وان أكثرهم او الكثير منهم فسرّها بطهارة الغائط بالماء .

(أفن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) . بينا معاني المفردات في فقرة اللغة ، والمقصود من الآية بيان الفرق بين مسجد التقوى ومسجد الضرار ، فإن ببيان هذا لا ثبات له ، وسرعان ما ينهار بأهله في نار جهنم ، تماماً كالذي بُني على حافة النهر أو في معرض السيل ، أما ببيان مسجد التقوى فثابت الأساس لا يزغزه شيء ، وأهله في أمن وأمان ، فالآية نظير قوله تعالى : « لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون

- ٢٠ الحشر .. وطريف قول بعض المفسرين بأن نار جهنم إشارة الى ما حدث في الدنيا ، حيث خرجت نار جهنم من مسجد الضرار ، وبقي دخانها الى زمان أبي جعفر المنصور .

(لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) . المراد بالريبة هنا ان المنافقين لم يؤمنوا بنبوة محمد (ص) . وتقطع قلوبهم كناية عن موتهم ، والمعنى انهم بنوا المسجد مرتابين غير مؤمنين بمحمد ، وسيقون على هذا الريب حتى الموت .

الله يشتري ويبع الآية ١١١ - ١١٢ :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *

الإعراب :

وعداً منصوب على المصدرية أي وعدمهم وعداً . والتائبون خبر مبتدأ محذوف أي هم التائبون .

المضى :

(ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فيقتلون ويقتلون) . المشتري هو الله سبحانه ، والبائع المؤمنون ، والثلث الجنة ، والثلث النفس والأموال ، والواسطة في تمام الصفقة بين البائع والمشتري هم الأنبياء ، على ان يُسلم البائع الشيء المبيع عند الطلب ، أما الثمن فوَجُل ، والله هو الضامن له ، اذ لا أحد أوفى منه وأغنى .

وتسأل : ان الله خالق الأنفس ، ورازق الأموال ، فكيف يشتري المالك ما هو ملك له ؟.

الجواب : ليس هذا شراء بالمعنى المعروف ، وانما هو حث وترغيب في الطاعة .. وعبر سبحانه عنه بالشراء لأمرين : أن يثق المطيع بالجزاء والثواب على طاعته ، تماماً كما يثق البائع باستحقاقه الثمن بدلاً عن سلعته . الثاني : التنبيه الى ان الايمان ليس مجرد كلمات تمضغها الأفواه، وصورة تمر بالأذهان ، وعاطفة تُنمَس في القلوب، وانما هو بذل وتضحية بالنفس والمال النفيس رغبة في ثواب الله الذي هو أغلى وأبقى ، تماماً كما يتنازل البائع عن ملكه مختاراً طمعاً في الثمن الذي يراه أنفع وأجدى .

ان أعز شيء على الانسان حياته ونفسه التي بين جنبيه ، أما حبه للمال فلأنه الوسيلة لحفظها وتحقيق أهوائها ورغباتها، وقد امتحن الله سبحانه من يدعون الايمان، امتحنهم بأعز الأشياء لديهم ، ليميز الصادق في ايمانه من الكاذب ، ولا يحتاج هذا غداً بصومه وصلاته ، وقد بخل وأحجم عن العطاء والبذل من نفسه وماله . (وعداً عليه حقاً) هذا مثل قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » أي هو الذي أوجبها على نفسه ، فصارت حقاً عليه بهذا الإيجاب ، وقد وعد سبحانه المجاهدين بالجنة فصارت حقاً لهم عليه بهذا الوعد ، بخاصة بعد أن سجله (في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله) والغرض من هذا التأكيد ان يكون المجاهدون على يقين من الجزاء وعظيم الثواب ، حتى كأنهم يرونه رأي العين ، فيفرحون ويستبشرون . (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) هذا تأكيد آخر للوعد بالجزاء وحسن الثواب ، وقال علماء الكلام : اذا

سورة التوبة

وعد الله بالثواب فهو منجز ما وعد ، واذا توعد بالعقاب فهو بالخيار ان عقاب
فيعدله ، وان عفا فبفضله ، وما الله بظلام للعبيد .. وتكلمنا عن ثمن الجنة في
ج ١ ص ٢٤٢ عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة .. ثم وصف سبحانه الذين
باعوا أنفسهم وأموالهم بجنته ، وصفهم بالأوصاف التالية :

(التائبون) من كل تقصير ، ولو من فعل ما يكره فعله ولا يجب تركه
(العابدون) أي المخلصون لله في جميع أعمالهم ، (الحامدون) الله في السراء
والضراء ، (السائحون) في الأرض لطلب العلم أو الرزق الحلال ، (الراكعون
الساجدون) أي المصلون ، (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أي ينشرون
الدعوة الى الله وطاعته ، ويجاهدون كل من يحاول العبث بحق من حقوقه وحقوق
عباده وعياله ، (والحافظون لحدود الله) وحدوده تعالى هي حلاله وحرامه ،
(وبشر المؤمنين) الموصوفين بهذه الصفات بأن لهم من الله فضلاً كبيراً .

أبو طالب والاستغفار للمشركين الآية ١١٣ - ١١٤ :

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ
قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ
تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ *

الغزة :

الأواه كثير التأوه والتحسر مأخوذ من أوه كلمة توجع .

النزول :

تكلم الناس كثيراً حول إسلام أبي طالب عم النبي (ص) ، واختلفت فيه الأقوال ، ووضعت فيه الكتب قديماً وحديثاً ، وأثير هذا الموضوع على صفحات مجلة العربي في العدد ١٠٨ و ١١٠ .

واستدل القائلون بإسلامه بما لاقاه في سبيل الرسول الأعظم (ص) من سراء قومه وصناديدهم ، وبأقواله في مدح الرسول شعراً ونثراً . أما القائلون بأنه مات على الشرك فقد استدلوا بروايات تقول: ان هاتين الآيتين نزلتا في شأن أبي طالب. وحين بلغت في التفسير الى هنا تتبعت الروايات والأقوال في صفحات الماضي والحاضر حول السبب لنزول الآيتين فخرجت بأن الرواة والمفسرين اختلفوا في سبب نزول الآيتين إلى ثلاثة أقوال .

القول الأول :

ان جماعة من المؤمنين قالوا : نستغفر لموتانا المشركين ، كما استغفر ابراهيم (ع) لأبيه . فنزلت الآيتان . ذكر هذا القول الطبري والرازي وأبو حيان الأندلسي في تفسير البحر المحيط ، وصاحب تفسير المنار وغيرهم . وهذا القول أرجح من قول الآخرين ، لأن في الآيتين كلمات تشعر به ، منها قوله تعالى : (..) والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى) فنهى المؤمنين عن الاستغفار لأقربائهم المشركين يشعر بأنهم كانوا يستغفرون لهم ، أو حاولوا ذلك ومنها قوله : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه) فإنه يحسن جواباً عن قول المؤمنين : كما استغفر ابراهيم لأبيه .

القول الثاني :

ان النبي (ص) أتى قبر أمه ، وبكى عنده ، واستأذن ربه أن يستغفر لها ، فنزلت الآيتان ، ذكر هذا القول الذين نقلنا عنهم القول الأول . وهذا القول

سورة التوبة

أي ان الآيتين نزلتا حين بكى النبي عند قبر أمه أرجح من القول انها نزلتا حين وفاة عمه أبي طالب ، لأن أبا طالب مات في مكة عام الحزن، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات، وسورة التوبة التي جاءت فيها الآيتان نزلت بالمدينة سنة تسع للهجرة أي بعد وفاة أبي طالب بحوالى ١٢ سنة .

القول الثالث :

ان الآيتين نزلتا في أبي طالب بدعوى ان النبي قال لعمه أبي طالب ، وهو محتضر: أي عم قل لا إله إلا الله فامتنع ... فقال النبي : لأستغفرن الله لك ما لم أنه عنك .

ورد هذا القول جماعة من العلماء أولاً بأن الآيتين - كما أشرنا - نزلتا بعد وفاة أبي طالب . ثانياً : بأن أبا طالب مات بعد أن اسلم وأخلص في اسلامه (انظر الغدير للأميني ج ٧ ص ٣٦٩ وما بعدها طبعة سنة ١٩٦٧) .

طبيعة الحال :

ولو صرفنا النظر عن أقوال المفسرين والرواة ، وعلمنا عقيدة أبي طالب تعليلاً يستمد مقوماته من طبيعة الحال ، لو فعلنا ذلك لجاءت النتيجة ان أبا طالب كان يؤمن بصدق محمد (ص) في جميع أقواله وأفعاله ... وهذا هو الإسلام بالذات . نشأ النبي (ص) يتيم الأبوين ... مات أبوه ، وهو حنل ، وقيل : كان في المهدي فكفله جده عبد المطلب ، وماتت أمه : وله من العمر ست سنوات، وبقي في كنف جده ثماني سنوات، ولما حضرته الوفاة أوكل الجد أمر حفيده الى عمه أبي طالب ، ولم يكن أبو طالب أكبر أولاد عبد المطلب ، ولا أكثرهم مالاً ، وإنما كان أعظم اخوته قدراً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنداهم يداً، فقام أبو طالب برعايته أحسن قيام ، وأحبه حباً شديداً ، وآثره على نفسه وأولاده ، ونظم في مدحه القصائد الطوال والقصار ، وكان يتبرك به ، ويلجأ اليه في الملمات ، لما ظهر على يده من الكرامات . فمن ابن عساكر ان أهل مكة قحطوا ، فخرج أبو طالب ،

الجزء الحادي عشر

ومعه محمد ، وهو غلام ، فاستسقى بوجهه ، فأغدقت السماء واختصبت الأرض ، فقال أبو طالب :

وايضا يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال اسماعيل حقي في « روح البيان » عند تفسير الآية ٥٤ من سورة يوسف: « لقد آسى أبو طالب رسول الله (ص) وذبح عنه ما دام حياً » ، فالأصح انه ممن أحياه الله للإيمان كما سبق في المجلد الأول .

ما هو السر ؟

واذا كان أبو طالب يحب محمداً ، ويؤثره على نفسه ، ويستमित في نصرته ، ويثق بصدقه واستقامته ، وقد رأى ما رأى من كراماته قبل النبوة وبعدها ، اذا كان ذلك كله فلماذا - يا ترى - لم يؤمن بنبوته ؟ فإن صح الزعم بأن أبا طالب غير مسلم فيبغي أن يكون هناك سر منعه من الاسلام ... وما هو هذا السر ؟ هل رأى أبو طالب من محمد ، وهو يعترف سره وحقيقته ، هل رأى منه ما يتنافى مع النبوة ؟ حاشا خاتم النبيين وسيد المرسلين ، ومن ادعى هذا فما هو من الاسلام في شيء .. ثم كيف استطاع محمد (ص) أن يقنع رعاة الابل بنبوته ، ومن لا يعرف عنه شيئاً من قبل ، وعجز عن اقتناع عمه أبي طالب الذي يعرف مصدره ونخبه ؟ هل كان أبو طالب أقل ذكاء من أعراب البادية ، أو كان في نفسه هوى يمنعه من الاسلام ، كما منع أصحاب الأغراض والأهواء ؟.

والهوى الذي يمنع أبا طالب من اعتناق الاسلام - على فرض وجوده - لا يخلو أن يكون واحداً من اثنين : إما الخوف على ماله وثروته ، والمفروض ان أبا طالب عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، وإما الخوف أن تذهب الرئاسة من بيت هاشم الى غيره ، والمفروض العكس .. واذا انتفى هذا وذاك انتفى المانع من اسلام أبي طالب ، واذا عطفنا انتفاء المانع على وجود المقتضي لاسلامه ، وهو حبه لمحمد وعلمه بحقيقته ، كانت النتيجة ان أبا طالب من السابقين الى الاسلام لا من المسلمين فحسب .

سورة التوبة

واذا بطل القول بأن الآيتين نزلتا في أبي طالب ، ولم تثبت صحة الرواية بأنها نزلتا في ام النبي (ص) تعين القول الأول ، اي انها نزلتا في قوم من المؤمنين كانوا يستغفرون أو يحاولون الاستغفار لموتاهم المشركين . وظاهر الآيتين صريح في ذلك .

المعنى :

(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى). جاء في تفسير الطبري : « ان رجالاً من أصحاب النبي (ص) قالوا : يا نبي الله ان من آباءنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ، ويفك العاني ، ويوفي بالذم ، أفلا تستغفر لهم ؟ . قال : بلى ولأستغفرون لأبي كما استغفر ابراهيم لأبيه . فأنزل الله .. ما كان لنبي الخ » .

وتسأل : كيف اذن النبي (ص) لأصحابه بالاستغفار لآبائهم المشركين ، وهو محرم ؟ .

الجواب : كل شيء جائز حتى يرد النهي عنه ، وحين اذن النبي بالاستغفار لم يكن النهي عنه قد نزل من السماء ، وبعد نزوله منعهم عنه .

ثم يبين سبحانه سبب النهي في قوله : (من بعد ما تبين لهم أنهم من أصحاب الجحيم) . تدلنا هذه الآية على ان الانسان يحكم عليه بظاهر حاله كفوراً وإيماناً ، وان من كان ظاهره الكفر لا يجوز الاستغفار له ، ولا الترحم عليه .

وتسأل : إذا كان الاستغفار للمشركين محرماً فكيف استغفر النبي لقومه حين كسروا ربايعته ، وشجوا وجهه ، فلقد ثبت انه قال : اللهم اغفر لقومي أنهم لا يعلمون ؟

وأجاب عن هذا السؤال كثير من المفسرين بأن الآية نهت عن الاستغفار للمشركين الأموات ، دون الأحياء الذين يرجى إيمانهم . والذي نراه في الجواب ان الاستغفار منه (ص) كان لإسقاط حقه الشخصي عن المشركين ، لا لإسقاط حقوق الله ، وطلب الغفران عن الشرك . وليس من شك ان لكل انسان أن يسقط حقه الخاص عن المسلم والكافر .

سؤال ثان : كان ابراهيم يدعو أباه إلى الإيمان ، ويلج عليه في هذه الدعوة ، ووعده ان يستغفر له : « إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء - ٤ المتحنة » . وقد وفى ابراهيم بوعده واستغفر له : « ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب - ٤١ ابراهيم » . فكيف استغفر ابراهيم لأبيه مع العلم بأن الاستغفار للمشركين غير جائز ؟ .

فأجاب سبحانه عن ذلك بقوله : (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه) أي ان ابراهيم (ع) إنما استغفر لأبيه لأنه كان قد وعده أن يؤمن بالله ، فلما نكث بالوعد ، وتبين انه غير صادق بوعده تبرأ منه .. وغير بعيد أن يكون دعاء ابراهيم لأبيه ، تماماً كدعاء محمد (ص) لقومه المشركين ، أي لإسقاط حقه الشخصي ، لإسقاط حق الله وطلب المغفرة من الشرك . ويشعر بذلك قوله تعالى : (ان ابراهيم لأواه حلیم) والأواه الخاشع المتضرع ، والحليم من يعفو عند المقدرة ، وقد عفا ابراهيم (ع) عن قول أبيه له : « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً - ٤٦ مريم » .

وما كان الله ليضل قوماً الآية ١١٥ - ١١٦ :

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ *

المعنى :

(وما كان الله ليضل قوماً بعد اذ هداهم) المراد بـ (ليضل) الحساب والمراقبة ، وبـ (قوماً) المؤمنون خاصة بدليل قوله : (بعد اذ هداهم)

سورة التوبة

والمنى ان المؤمنين إذا عملوا عملاً لا يعرفون : هل هو حلال او حرام ، كما لو استغفروا لمشرك او ترحموا عليه جهلاً بالتحريم - فان الله سبحانه لا يؤاخذهم (حتى يبين لهم ما يتقون) بياناً واضحاً ، فإن عصوا بعد البيان استحقوا العقاب ، وخير تفسير لهذه الآية قول الرسول الأعظم (ص) : « أيماً امرئ ركب أمراً بجهالة فلا شيء عليه » . وقول الإمام جعفر الصادق (ع) : كل شيء مطلق ، حتى يرد فيه نهي .

(ان الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دونه من ولي ولا نصير) . الآية واضحة المعنى ، وتقدمت أكثر من مرة ، وتأتي مرات ، والفرض أن يكون الانسان دائماً مع الله ، وعلى ذكر من عظمته ، وانه المالك وحده لخاصيته ، كي لا يتجاوز حداً من حدوده .

لقد تاب الله على النبي الآية ١١٧ - ١١٩ :

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *

اللفظ :

العسرة الشدة والضيقة . والزيف الميل . وخلفوا تخلفوا وتأخروا . والرحب السعة ، ومنه مرحباً أي وسعك المكان .

الإعراب :

اسم كاد ضمير الشأن ، وجملة يزيغ خبر ، أي من بعد ما كاد الشأن أو الحال يزيغ قلوب فريق . وعلى الثلاثة عطف على النبي أي وتاب على الثلاثة . وبما رحبت (ما) مصلرية أي برحبها . والا كلمتان: ان المخففة من الثقيلة ولا ، واسم ان ضمير الشأن ، ولا نافية للجنس ، وملجأ اسمها ، ومن الله خبر ، والمصدر المنسبك من ان وما بعدها ساد مسد مفعولي ظنوا .

المعنى :

ما زال الحديث عن غزوة تبوك وما يتصل بها من أحداث ، ولهذه الغزوة خصائص تميزها عن سائر الغزوات ، منها أو أهمها ان جيشها كان في جهد من الحر والجوع والعطش والعري والركب ، ومن أجل هذا سمي جيش العسرة . قال الرواة : كان العشرة من جيش المسلمين يعقبون بغيراً واحداً، يركب الرجل ساعة ثم ينزل ، فيركب صاحبه ، وكان زادهم الشعيب الموسس، والتمر المدود ، وكان الواحد منهم يلوك التمرة ، حتى اذا وجد طعمها أعطاها صاحبه ، أما الماء فقد كانوا ينحرون البعير على قلة الراحلة ، وبعثرون الفرث الذي في كرشه ، ويبلّون به ألسنتهم . وقد تخلف عن هذه الغزوة المنافقون، وتقدم الحديث عنهم ، أما المؤمنون الذين اتبعوا النبي (ص) في غزوة تبوك فأشار سبحانه اليهم بقوله : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة) . اذا قيل : تاب فلان فهم الناس من هذا القول ان المذكور كان قد ارتكب ذنباً ثم ندم وعزم جاداً على تركه وعدم العودة اليه ، واذا قيل : تاب الله عليه فهموا ان الله قبل توبته ، وقد يراد من توبة الله على الانسان رحمته تعالى ورضوانه مع القرينة الدالة على ذلك، والمعنى الأول أي قبول الله سبحانه التوبة هو المراد بتوبته على الثلاثة الذين خلفوا ، والمعنى الثاني أي انرحه والرضوان هو المراد بتوبته تعالى على النبي والصحابة اللذين اتبعوه واتسمروا بأمره حتى في ساعة العسرة ، أما التسمية على ارادة الرضوان من توبته تعالى على النبي وصحابته فهي طيبة الحال ، وهي

سورة التوبة

بها عصمة النبي (ص) عن الذنوب ، وطاعة من تابعه في ساعة العسرة .
 (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) تخلف عن النبي من تخلف ،
 وتبعه المؤمنون من المهاجرين والأنصار ، ولكن جاعة من هؤلاء عندما قاسوا الشدة
 والقسوة في سفرهم انهارت أعصابهم ، وهموا أن يفارقوا الرسول (ص) ، ولكن
 الله سبحانه ثبتهم وعصمهم ، فصبروا واحتسبوا (ثم تاب عليهم) مما كانوا قد
 هموا به من مفارقة النبي (ص) . والمراد بالتوبة هنا ان الله سبحانه يعاملهم معاملة
 من لم يهم بالذنوب ، لأن من همّ بالسيئة ولم يفعلها فلا تكتب عليه (انه بهم
 رؤوف رحيم) لأنه علم منهم الصدق في إيمانهم ، والاخلاص في نياتهم ، وان ما
 هموا به كان مجرد عارض لم يترك أي أثر .

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا صاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاحت
 عليهم أنفسهم وظنوا الا ملجأ من الله الا اليه) اتفق المفسرون والرواة على ان
 ثلاثة من مؤمني الأنصار تخلفوا عن النبي في غزوة تبوك كسلاً وتهاوناً ، لا نفاقاً
 وعناداً ، وهم كعب بن مالك الشاعر ، ومروان بن الربيع ، وهلال بن أمية
 الواقفي .. وترك الحديث عن هؤلاء لطفه حسين ، فقد تلخص ما اتفق عليه الجميع
 ودلت عليه الآية بأسلوبه المعروف ، قال في كتاب « مرآة الاسلام » :

« كان هؤلاء الثلاثة أشد إيماناً بالله ورسوله ، وأصدق حباً لها من أن يضيفا
 الى تخلفهم خطيئة الكذب ، فآثروا الصدق وفاء لدينهم ، واشفاقاً ان يفضح الله
 كذبهم ، فاعترفوا بذنوبهم ، وسمع النبي منهم ، وأعلن أنهم قد صدقوه ، ومع
 ذلك لم يعف عنهم ، وأمر المؤمنين ان لا يكلموهم . وينظر هؤلاء فإذا هم قد
 اقتطعوا من الناس اقتطاعاً ، واذا هم في عزلة بغيضة الى أنفسهم كان السجن
 أهون منها .. وفي ذات يوم أرسل النبي اليهم من يبلغهم انه يأمرهم ان يعتزلوا
 نساءهم ، وليس في هذا شيء من الغرابة ، فنساوهم مؤمنات ، وقد صدر الأمر
 الى المؤمنين باعتزالهم ، فليعتزلهم نساؤهم أيضاً ، وبعد ان مضت عليهم خمسون
 ليلة في هذه العزلة ، وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ أنزل الله توبته عليهم ،
 وابتهج المؤمنون كلهم لذلك ، فكانوا يهتفون هؤلاء الثلاثة بتوبة الله عليهم . وقد
 فرح كعب ، وهو أحد الثلاثة فرحاً شديداً ، وهمّ ان يتصدق بماله كله ، فأمره

النبي أن يمسك بعضاً ، ويتصلق ببعض، وعاهد كعب النبي ألا يكذب في حديث حتى يموت .

(ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) التواب مبالغة في قبوله تعالى لتوبة التائبين ، ونسأل : ان الظاهر من قوله تعالى : (تاب عليهم) انهم قد تابوا ، وقبل توبتهم ، والظاهر من قوله : (ليتوبوا) انهم لم يتوبوا بعد ، فاما هو وجه الجمع ؟.

وأجيب بأجوبة أرجحها ان المراد بتاب عليهم انه تعالى يقبل توبتهم لكي يتوبوا ولا يصروا على الذنب ، ويقولوا : لو قبل الله منا التوبة لبنا ، فهو أشبه بما لو أساء اليك من تحب ، وأنت تريد أن تغفر له ، ولكن بسبب ، فقلقه العذر ليعتذر هو وتغفر أنت . وعقدنا فصلاً خاصاً للتوبة في ج ٢ ص ٢٧٥ الآية ١٧ من سورة النساء .

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) . والصادقون هم النبي ومن أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وبمعنى ثان ليس المراد بالصدق هنا مجرد عدم الكذب في الحديث ، لأن كثيراً من الناس لا يكذبون ، ومع ذلك لا يجوز الاقتداء بهم في كل شيء ، وإنما المراد به الصدق في القول والعلم والعمل الذي يؤهل صاحبه لامامة الناس واقتدائهم به .

ما كان لأهل المدينة الآية ١٢٠ - ١٢١ :

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظِلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ

اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً
وَلَا يَبْطُلُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ *

اللغة :

النصب الثعب . والمخمصة المجاعة وامرأة خصاصة ضامرة البطن . والموطىء
الأرض .

المعنى :

(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله
ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه) . ما كان لأهل المدينة، اللفظ إخبار ، ومعناه
النهي أي لا يجوز لهم التخلف، وكلمة محمد اسم لشخص الرسول الأعظم (ص)،
والمراد بها هنا دين الله والحق ، لأن دين الحق مجسم في شخصه الكريم . ونصرة
الحق تجب على كل مسلم ، ولا تختص بأهل المدينة ومن حولهم ، وإنما خص
هؤلاء بالذكر لقرينهم وجوارهم ولتناسبة الحديث عن غزوة تبوك ، والمعنى ان
على كل مسلم أن يناصر الحق ، ويكافح الباطل ، ولا يؤثر منافسه ومصالحه على
دين محمد متعللاً بالكاذب كما فعل المنافقون .

(ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يبطئون
موطأً يغيط الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح) .
ذلك إشارة الى النهي عن التخلف ، والعودة عن جهاد المبتلين وكفاحهم، والظلم
الطش ، والنصب الثعب ، والمخمصة الجوع ، والموطىء الأرض .. وأكم شيء
للاتسان ان تطأ أقدام عدوه تراب بلده ووطنه مسلماً كان أو غير مسلم ، اللهم

الجزء الحادي عشر

الا اذا كان عميلاً ، لا دين له ولا ضمير .. والاسلام لا يميز لأحد كائناً من كان ان يظأ أرضاً لغيره الا لسبيين : الأول أن يكون ذلك للدفع الضرر عن أهلها ، كما اذا شبت النار في بيت من البيوت ، فتدخله لإطفاء الحريق ودفع الضرر عن المالك والمجاورين . السبب الثاني : ان تدخل قوة عادلة بلداً لتردع أهله عما يبيتون من الظلم والعدوان على بلد آخر ، تماماً كما فعل النبي (ص) في غزوة تبوك بعد عزم الروم على غزو المدينة والقضاء على الاسلام ونبهه .

(ان الله لا يضيع أجر المحسنين) . وكفى المرء عظمة ان يراه الله محسناً ، ولا شيء أيسر على الانسان من عمل الاحسان ، ما دام الله يكتب قعوده وقيامه بل وموطئاً واحداً بطاعة الله ، يكتب ذلك كله حسنات .

(ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) . هذا وما قبله يتلخص بقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، والغرض من هذا التفصيل الترويج في عمل الخير ، والتعريض على جهاد من يسمى في الأرض فساداً .

فلولا نفر من كل فرقة الآية ١٢٢ - ١٢٣ :

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *

اللغة :

النفر الخروج للجهاد . والفرقة الجماعة الكثيرة . والطائفة الجماعة القليلة . والتفقه تعلم الفقه . والذين يلونكم أي من كانت بلادهم قريبة لبلدكم . والغلظة الشدة .

الإعراب :

كافة حال . ولولا إذا دخلت على الفعل كما هي في الآية ، فعناها الطلب مثل هلا . وإذا دخلت على الاسم فهي حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره . والمصدر المنسبك من ليتفقوا مجرور باللام يتعلق بنفر .

المعنى :

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة) . هذه الآية تتصل بالآية السابقة ، وهي « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله » . ووجه الاتصال بين الآيتين انه حين نزلت الآية السابقة قالت القبائل المسلمة : والله لا نتخلف بعد اليوم عن الغزو مع رسول الله ، وتدفعوا على المدينة لهذه الغاية . فأنزل سبحانه : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) أي لا يُطلب منهم أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد ، بل يختلف ذلك باختلاف الغزوات والمقتضيات ، فتارة يجب الجهاد عيناً على كل فرد ، ولا يسقط عن الكل بفعل البعض ، وتارة يجب كفاية متى قام به البعض سقط عن الآخرين ، أما تعيين أحد الواجبين فوكول لأمر النبي (ص) .. ينفر المسلمون كافة إذا استنفرهم كافة ، وينفرون جماعة دون جماعة إذا استنفرهم كذلك .

(فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . بعد ان بيّن سبحانه ان النفر العام لا يجب في كل غزوة بيّن ان هناك واجبات أخرى غير الجهاد يجب القيام بها تماماً كما يجب القيام بالجهاد ، منها أن ينفر من كل بلد أو قبيلة جماعة الى المدينة المنورة أو غيرها ليتفقهوا في دين الله ، ويعرفوا حلاله وحرامه ، ثم يعودوا الى قومهم ، فيرشدهم ويحذروهم من عذاب الله على معصيته ومخالفة أمره (لعلهم يحذرون) ومعنى لعل هنا الطلب ، لا الترجيح ، أي يجب عليهم أن يسمعو من المرشدين ويطيعوا .

هذا ما نذهب اليه في تفسير هذه الآية مخالفين أكثر المفسرين أو الكثير منهم

الذين جعلوا التفقه في الدين صفة للطائفة المقيمة ، لا للطائفة النافرة ، وقالوا في شرح الآية : ان على المسلمين أن ينقسموا طائفتين : طائفة تنفر للجهاد ، وأخرى تبقى في المدينة تتعلم السنن والفرائض .. والتفسير الذي ذهبنا اليه له أصل في روايات أهل بيت الرسول (ص) ، وهم أدري بالقرآن وأسراره ، من تلك الروايات : ان سائلاً سأل الإمام جعفر الصادق (ع) عن معنى قول النبي (ص) : اختلاف امتي رحمة ؟. فقال : ليس المراد بالاختلاف النزاع ، وإلا كان اتفاقهم عذاباً ، وإنما المراد به التردد في الأرض لطلب العلم ، ثم استدل الإمام على ارادة هذا المعنى بقوله تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة طائفة الخ ..) وليس من شك ان هذا الاستدلال لا يتم إلا إذا كان التفقه صفة للطائفة النافرة ، لا الطائفة المقيمة .

واستدل علماء الأصول بهذه الآية على ان خبر الواحد المنقول عن المعصوم حجة يجب العمل به في الأحكام الشرعية ، ووجه الاستدلال بالآية ان الله سبحانه أوجب على العالم أن يُعلم ويُنذر ، وإذا وجب هذا على العالم وجب على الجاهل أن يقبل قول العالم ويعمل به ، وإلا كان وجوب التعليم والانذار لغواً .. وأيضاً إذا وجب على الجاهل أن يتعلم فقد وجب على العالم أن يُعلم ، وإلا كان وجوب التعلم على الجاهل لغواً .. قال الإمام علي (ع) : « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلموا » .

(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) تحت هذه الآية المسلمين على تحصيل الحدود وصيانتها من أعداء الله وأعدائهم . فقد جاء في مجمع البيان في تفسير قوله تعالى : (الذين يلونكم) : « أي قاتلوا من قرب منكم من الكفار الأقرب منهم فالأقرب الا ان تكون هناك مودة - أي هدنة أو معاهدة - .. وفي هذه دلالة على انه يجب على أهل كل ثغر الدفاع عن أنفسهم إذا خافوا على بيضة الإسلام - أو على بلد من بلاد المسلمين - وإن لم يكن هناك إمام عادل .. وفي المجلد الأول من هذا التفسير ص ٢٦٩ تكلمنا مفصلاً عن مقاتلة الكفار بعنوان « الإسلام حرب على الظلم والفساد » .

سورة التوبة

الإمام زين العابدين ومقامات الحرب :

(وليجدوا فيكم غلظة) الغلظة هنا كناية عن القوة والمنعة ، وتحصين الحدود تحصيئاً محكماً (واعلموا ان الله مع المتقين) الذين آمنوا به ايماناً صادقاً، وأخلصوا في قتال أعدائه وأعدائهم ، وأعدوا له ما استطاعوا من قوة، تماماً كما أمرهم الله جلّت حكمته .

ومن روائع ما جاء في هذا الباب دعاء للإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) ناجي به ربه ، ودعا لأصحاب الثغور وحماة البلاد الاسلامية ، وقد ضمنه الخطوط العريضة للانتصار في الحرب على العدو ، قال فيما قال :

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، وكثر عديهم ، واشحذ أسلحتهم ، واحرس حوزتهم ، وامنع حومتهم ، وألف جمعهم : ودبر أمرهم ، وتوحد بكفاية مؤنهم ، وأعنتهم بالصبر ، والطف لهم بالمكر ، وعرفهم ما يجهلون ، وعلمهم ما لا يعلمون ، وأنسهم عند لقائهم العدو ذكر دنياهم الخداعة الفرور ، وامح عن قلوبهم خطرات المال الفتون ، واجعل الجنة نصب أعينهم » .

هذه الخطوط التي ذكرها هي المقومات الأساسية للنصر التي انتهى إليها العلم الحديث - فيما نظن - : كثرة السلاح، فها تحطم منه يبقى ما فيه الكفاية، وشحذه ومضاؤه ، ويدخل فيه جميع الأسلحة الحديثة ، حتى الذرة والصواريخ الموجهة ، والمؤنة الوافرة لكل جندي ، والعلم بفنون الحرب واستعمال السلاح وبكل ما يتصل بالحرب من التدبير والاقدام أو الاحجام ومعرفة طرق المكر والكيد بالعدو وتفضيله عما يُبَيِّت له ، وتوحيد الصفوف وجمع القلوب على الاخلاص في القتال والصبر على آلامه حتى الموت ، ونسيان الدنيا وحطامها عند اللقاء والطعن والضرب ، والابمان بأن شهادة الانسان في سبيل دينه ووطنه هو الربح والفوز الأكبر .. أما بيت القصيد في هذه المناجاة فقول الإمام : « وامح عن قلوبهم خطرات المال الفتون واجعل الجنة نصب أعينهم » .

وهل أنسيَ العرب والمسلمون قديماً وحديثاً ، وصاروا أكلة لكل آكل الا عن طريق المال الفتون ؟. وكفى بنكسة هـ حزيران سنة ١٩٦٧ شاهدأ ودليلاً .. لقد مضى على هذه الكلمات ثلاثة عشر قرناً ، ومع هذا لو ان قائداً عظيماً من قادة

الجزء الحادي عشر

الحرب في هذا العصر وضع كتاباً في أسباب النصر لما كان الا شرحاً لهذه الكلمات الموجزة التي نطق بها الإمام زين العابدين وسيد الساجدين .

وإذا ما انزلت سورة الآية ١٢٤ - ١٢٧ :

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هُذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ *

الإعراب :

إذا ما (ما) زائدة . وأما بفتح الهزة ، وتشديد الميم حرف شرط وتفصيل ، ويجب أن يربط جوابها بالفاء . وإيماناً تمييز . وهل يراكم من أحد الجملة مفعول لقول محذوف أي يقولون : هل يراكم من أحد ، ومن زائدة ، وأحد فاعل .

المعنى :

(وإذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً) . ضمير منهم يعود إلى المنافقين ، والمعنى ان بعض المنافقين كانوا يستخفون بالقرآن ، ويتساءلون :

أي عجب في هذا ؟ . فيجملون من أنفسهم التي سودتها المطامع والآثام مقياساً للحق والصدق .. والغريب ان المشركين كانوا يعترفون بعظمة القرآن وتأثيره البالغ في النفوس ، ويوصي بعضهم بعضاً بعدم الاستماع اليه مخافة أن يجذبهم الى الإسلام من حيث لا يشعرون : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون - ٢٦ فصلت » . وان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان النفاق اسوأ أثراً ، وأشد جرمًا من الشرك .

وأجاب سبحانه المنافقين بقوله : (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً) أي إذا لم تجدوا أيها المنافقون في نفوسكم أثراً طيباً لسور القرآن وآياته بعد أن طبعت عليها الأهواء والأغراض فإن المؤمنين يزدادون بها هدى ويقيناً لأن نفوسهم نقية زاكية لم تدنسها الأقذار والأرجاس كنفوسكم (وهم يستبشرون) كلما نزلت سورة أو آية من القرآن لأنها تبشرهم بالجنة ، وترشدكم الى الطريق القويم .

(وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم) . كل من ابتعد عن الحق والواقع واستمد إيمانه وآراءه من ذاته وتصوراته فهو مريض القلب والعقل ، وإذا دعي إلى النزول على حكم الواقع ورفض - ازداد مرضه وتفاقم .. والنفاق مرض لأنه تزييف وتحريف ، والمنافق يزداد مرضاً كلما أوغل في الجحود والعناد للحق وآياته .. وينطبق على المنافق الحديث الذي يشبه الحريص على الدنيا مثل دودة القز ، كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج ، حتى تموت غمماً (وماتوا وهم كافرون) بسوء اختيارهم ، تماماً كما ماتت دودة القز بصنع يديها .

(أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين) . المراد بالفتنة هنا افتضاح المنافقين وإظهار أمرهم لدى الجميع ، وتتصل هذه الآية بالآية التي قبلها وهي (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول النخ) ، ووجه الاتصال ان المنافقين كانوا يبيتون الشر للنبي (ص) ، ويطعنون به ، من ذلك قولهم : هو أذن - كما سبق - وكان الله سبحانه يخبر نبيه الأكرم بما يبيتون ويطعنون ، والنبي (ص) يعاتبهم ويفضحهم ، وقد تكرر هذا في كل عام مرة أو أكثر ، وفيه دلالة قاطعة على صدق الرسول ، وان القرآن من عند الله ، فكان عليهم أن يتعظروا ويؤمنوا ، ولا يقولوا ساخرين ومستهزئين : ايكم زادته هذه إيماناً .. (ثم لا يتوبون

ولا هم يذكرون) وما يذكر إلا أولو الألباب ، وقد أعمت الشهوات قلوبهم وألبابهم .

(وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم الى بعض) . هذا هو شأن المنافقين في كل زمان ومكان ، إذا عجزوا عن مجابهة الحق ، ومواجهة الحجة بالحجة ، تسارقوا النظر وتغامزوا وتضاحكوا معبرين بذلك عن رسوخهم في الكفر والضلالة ، وعلم الارعواء عن الباطل .. (هل يراكم من أحد) أي يقولون هذا بلسان المقال أو الحال : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول - ١٠٧ النساء » .

(ثم انصرفوا) أي فعلوا فعلتهم وانصرفوا الى شأنهم غافلين عن جرميتهم كأن لم يفعلوا شيئاً (صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) . صرف الله قلوبهم عز الحق بعد أن أقام عليه الحجج والبيئات ، وبعد أن عاندوه ورفضوا التسليم له ، فهم السبب المباشر للصرف ، وأسند الى الله بواسطتهم ، وقد جرت عادة القرآن الكريم ان يضيف الى الله الكثير من أفعال عباده بالنظر الى انه خالقهم والمتصرف في الكون وأشياؤه .

بالمؤمنين رؤوف رحيم الآية ١٢٨ - ١٢٩ :

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ *

اللغة :

عزيز عليه أي شاق عليه . والعت الشدة والمشقة . والحرص على الشيء الشح به لشديد الرغبة فيه .

الإعراب :

عزيز صفة للرسول . وما عنتم (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك فاعل لعزيز .
وحريص ورؤوف ورحيم صفات مثل عزيز ، وبالمؤمنين متعلق برؤوف . وحسي
بمعنى كافيني مبتدأ ولفظ الجلالة فاعل ساد مسد الخبر ، ويجوز أن يكون حسي
خبراً مقدماً ، والله مبتدأ .

المعنى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم) هذا الخطاب موجه لكل آدمي يبحث عن
الحقيقة ، ويريد الهداية إليها، والرسول هو محمد بن عبدالله (ص) بعثه الله للبشرية
جمعاء ، لينقذها من الجهالة والضلالة ، ويرشدها الى طريق الحق والخير ، وما
على من يتغيها الا ان ينظر بوعي وتجرد الى سيرة محمد (ص) وسنه والكتاب
الذي جاء به من عند الله ، فلقد آمن به مئات الملايين قديماً وحديثاً ، وفيهم
العلماء والفلاسفة الذين تركوا دين الآباء والأجداد واعتنقوا الاسلام بعد ان ارتاحت
اليه عقولهم وقلوبهم ، وبعد أن رأوا نبيه الأكرم كما وصفه الله بقوله :

(عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) . عزيز عليه ان
يلقى كائن على وجه الأرض مكروهاً ، حتى ولو كان حيواناً، حريص على هداية
كل الناس وسعادتهم وصلاح شأنهم ، أما رأفته ورحته فقد عمت الناس أجمعين:
« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » . ومن أحاديثه : « أنا رحمة
مهداة .. الراحون يرحمهم الله .. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .
وتسأل : قال سبحانه في هذه الآية : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقال في
سورة الأنبياء : (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) أي المؤمنين وغير المؤمنين ،
فما هو وجه الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : ان المراد بقوله : (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ان دين محمد
هو دين الانسانية ، وشريعته رحمة بكل الناس لو اتبعوها وعملوا بها للأت الأرض
خيراً وعدلاً ، أما قوله : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) بالمؤمنين رؤوف رحيم) فعناه انه شديد الرأفة

الجزء الحادي عشر

والرحمة بمن آمن بالحق ، وكف أذاه عن الناس ، أما من يعتدي عليهم ، ويعبث بحق من حقوقهم فإنه يقسو عليه قسوته على الباطل والفساد ، ولا تأخذه فيه هواة ورأفة ، وهذا هو دين الانسانية والرحمة ، فقد نهى سبحانه عن الرأفة في اقامة الحدود على المجرمين ، قال تعالى : « فاجلدوا كل واحد منها مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله - ٢٠٠ النور » .

وقال ابن العربي في الجزء الرابع من « الفتوحات المكية » : المراد بالمؤمنين من آمن بالحق وبالباطل ، لا خصوص من آمن بالحق .. وهذه شطحة صوفية . (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) . هذه هي مهمة الرسول : التبليغ ، وكفى . فن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإناضل عليها ، وكان النبي (ص) على يقين قاطع بأن الله كافيه ومقويه بنصره وعنايته ، لأنه توكل عليه وحده لا إله إلا هو .. ونختم هذه السورة بما ختمها صاحب تفسير المنار ، قال :

« أما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل والمكارم ، فهاشم هو صاحب ايلاف قريش الذي أخذ لهم العهد من قيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف الى الشام ، ومن حكومة اليمن في رحلة الشتاء ، وهو اول من هشم الثريد للفقراء من قومه ولاهل موسم الحج كافة ، وقد أربى عليه بالسخاء والكرم ولده عبد المطلب . وجملة القول ان بني هاشم كانوا أكرم قريش أخلاقاً ، وأبعدهم عن الكبر والأثرة ، لا يتنازعهم احد في ذلك » .

وفي بعض الروايات ان آخر آية نزلت من السماء قوله تعالى :

« حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

سورة يونس

سورة يونس

مكية ، وآياتها ١٠٩ ، وقيل : ان ثلاث آيات منها أو أربعاً مدنية، وموضوعها كموضوعات السور المكية يدور على اثبات أصول العقيدة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تلك آيات الكتاب الحكيم الآية ١ - ٢ :

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمَ صَدَقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ *

اللمعة :

الآية العلامة . والمراد بالكتاب هنا القرآن . ويستعمل الحكيم بمعنى الحاكم والمحكم وذو الحكمة ، وهذا المعنى أظهر . وقدم صدق أي سابقة حسنة .

الإعراب :

المصدر المنسبك من ان أوحينا اسم كان ، وعجبا خبرها ، وللناس حال من العجب . وان انذر (ان) مفسرة بمعنى أي . والمصدر المنسبك من ان لهم قدم صدق مجرور بالباء المحذوفة ، ويتعلق ببشر .

(آكر) سبق الكلام عن هذه الحروف في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب الحكيم) . تلك إشارة الى أن كل آية من آيات القرآن تشتمل على الحكمة وفصل الخطاب .

(أكان للناس عجباً أن اوحينا الى رجل منهم) . لقد استكثر الجاحدون ان يتصل الله بعبد من عباده ، ويصطفيه من دونهم .. ولهذا الاستبعاد أسبابه :

أولها : أنهم قاسوا محمداً (ص) على انفسهم ، فإذا لم يتصل الله بهم فينبغي ان لا يتصل بغيرهم .. ونجد الجواب عن ذلك في الآية ١٢٤ من الأنعام : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » اي ان لمحمد (ص) من الصفات والمكرامات ما يؤهله للرسالة من دونهم .

ثانيها : أنهم جهلوا نوع الاتصال بالله ، وحسبوا ان اتصاله تعالى بمحمد ، تماماً كاتصال بعضهم ببعض ، وهذا ما ترفضه العقول .. ونجد الجواب عن هذا الوهم في قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً او من وراء حجاب او يرسل رسولاً » - ٥١ الشورى .

ثالثها : وهو الأهم ، ان محمداً (ص) قد جاءهم بما لا يعتقدون ولا يألون : « ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين » - ٢٤ المؤمنون .. والجواب قوله تعالى : « قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم في ضلال مبين » - ٥٤ الأنبياء .

(ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صديق عند ربهم) . بعد ان بين سبحانه عجب الكافرين من الوحي الى محمد (ص) بين حقيقة ما أوحى به اليه ، وانه انذار وتبشير ، انذار لمن خالف وعصى أمر الله بالعذاب الأليم ، وتبشير لمن امتثل وأطاع بالثواب الجزيل ، وعبر عن هذا الثواب بقوله : (ان لهم قدم صديق عند ربهم) . وإذا كان هذا هو الوحي أو الوحي به ، وكان محمد (ص) أهلاً لتحمله وتبليغه فأين مكان العجب ؟ ان الله سبحانه لا يترك الناس من غير رسول أمين يبلغهم عنه ما يريد لهم من الخير ، ويكرهه من الشر ، ليجتنبوا هذا ، ويفعلوا ذلك ، ولكيلا تكون لهم الحجة عليه لو خالفوا ،

الجزء الحادي عشر

ومحمد (ص) هو الأمين على هذه الرسالة والتبليغ من دون الناس ، فوجب أن يكون هو الرسول المبلّغ عن الله من دونهم .

(قال الكافرون ان هذا لساحر مبين) . وصفوا محمداً (ص) بالساحر ، لأنهم أنكروا ان يكون القرآن وحياً من الله ، وأيضاً عجزوا ان يأتوا بسورة من مثله ، فلم يبق في زعمهم إلا السحر .. وجهلوا أو تجاهلوا ان كل ما في القرآن حقائق لا ريب فيها ، وان السحر كواذب لا تبنى على أساس .

الخلق في ستة ايام الآية ٣ - ٤ :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ*

الإعراب :

جملة يدبر حال من الضمير في استوى . وما من شفيع (من) زائدة وشفيع مبتدأ ، ومن بعد اذنه (من) زائدة . وجميعاً حال من الضمير في مرجعكم . وعد الله منصوب على المصدر. ومثله حقاً . وبما كانوا متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ محذوف اي ذلك بما كانوا .

المعنى :

(ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الأمر) . ان ايام الله تعالى ليست كأيامنا هذه ، ومن اين تأتي الايام قبل ان يوجد الكون ؟ . اذن ، فالمراد بالايام هنا الدفعات او الأطوار ، اما العرش فالمراد به الاستيلاء ، وتقدمت هذه الآية مع تفسيرها في سورة الأعراف الآية ٥٤ .
(ما من شفيع الا من بعد اذنه) هذا كقوله تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه - ٢٥٥ البقرة » ، وتفسيره في ج ١ ص ٣٩٤ .
(ذلكم الله ربكم فاعبدوه) لأنه هو الذي يستحق العبادة ، اما المال والأنساب والسلطان فليست بآلهة تعبد ، ولا قوة تُخضع لها (أفلا تذكرون) اي أفلا تعقلون بأن الله وحده هو الجدير بالطاعة والعبادة .

الحساب والجزاء حتم :

(اليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً انه يبدأ الخلق ثم يعيده) . ان مسألة بداية الخلق واعادته هي احدى المشكلات الفلسفية الكبرى .. فبعض الناس يقولون : ان الكون وجد من تلقاء نفسه ومن غير موجد .. وهؤلاء اشبه بمن رأى كلاماً مكتوباً ، فقال : انه وُجد صدفة ، لا لشيء الا لأنه لم ير الكاتب رأي العين . ان الذي خطَّ سطور الكون اعظم بكثير من الذي خط جبراً على ورق ، والعيون احقر من ان تراه ، ورأته العقول من الطرق التي تؤدي حتماً الى الايمان .. وقد وضعنا في هذه الطرق كتابين : « الله والعقل » و « وفلسفة المبدأ والمعاد » ، ولخصنا بعضها في ج ١ ص ٥٩ و ج ٢ ص ٢٣٠ من هذا التفسير .
اما بحث الأموات واعادتهم ثانية للحساب والجزاء فقد نزل به الوحي ، ولا يأباه العقل فوجب التصديق والايمان به .

وقد بين سبحانه الحكمة من اعادة الموتى بقوله : (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) . أقدر الله سبحانه الانسان على الفعل ، ومنحه عقلاً يميز به بين

الجزء الحادي عشر

الخير والشر ، ونهاه عن هذا ، وامره بذلك ، فأطاعه من اطاع ، وعصاه من عصى ، ثم مضى كل الى حضرة ، دون ان يُثاب المطيع ويُعاقب العاصي ، بل ان كثيراً من العصاة طغوا وبغوا ، وملأوا الأرض ظلماً وجوراً ، ولم يحاسبهم محاسب ، ويسألهم سائل ، فإن افترض انه لا بعث ولا حساب غداً فغنى هذا ان الظالم والمظلوم ، والمؤمن والكافر عند الله سواء ، بل الكافر به خير وافضل عنده من المؤمن ، والطاغية المفسد اكرم على الله ممن استشهد في سبيل مرمياته.. ولا شك في ان هذا يتنافى مع عدل الله وحكمته وقدرته ، بل ومع وجوده .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .. وقد رأينا كثيراً من المظلومين يصرخون من الأعماق قائلين : لو كان الله موجوداً لما ابقى طاغية على وجه الأرض .. وليس هذا القول الا انعكاساً عن غريزة الايمان بوجود عادل قادر يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكنهم تمجلوا القصاص لحرقه الألم ، وذهلوا عن فطرتهم التي فطرهم الله فقالوا ما قالوا .

كسبت في اثبات البعث والحساب والجزاء مؤلفات ومقالات وعند تفسير الآيات المتصلة بذلك ، وتعيذني اليه الآن الآية التي افسرها ، وقد اوحى اليّ بأن اقوى الأدلة على ثبوت البعث قوله تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب - ١٧ غافر » . وهي بمعنى الآية التي نفسرها ، ولكنها اوضح .. انها تحمل برهانها معها ، وتدلل على نفسها بنفسها .. اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . ولماذا ؟ لأنه لا ظلم عند الله ، بل هو سريع الحساب . والتحليل العقلي لهذه القضية انه لولا هذا اليوم الذي تجزى فيه كل نفس بما كسبت لكان الله ظالماً ، ووجوده نقمة ، وتكليفه عبثاً .. سبحانه وتعالى عما يصفون .. والنتيجة الحتمية لهذا المنطق ان كل من أنكر البعث والحساب والجزاء فقد أنكر وجود الله من حيث يريد أو لا يريد .

١ انظر تفسير الآية ٤١ من الأنعام ، فقرة « الله والظنرة » .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنَوْا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ
مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *
دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

الغفة :

قدّر الشيء جعله على مقدار معين . والغفلة النسيان . والمراد بدعواهم هنا
دعائهم .

الإعراب :

الباء في ضياء متقلبة عن واو لأن الأصل ضوء . وقدره بمعنى صيره ، والماء
مفعول أول ، ومنازل مفعول ثان . لآيات لقوم يتقون (آيات) اسم ان مؤخر ،
وفي اختلاف الليل خبر مقدم . أولئك مأواهم النار فأولئك مبتدأ اول ، ومأواهم

الجزء الحادي عشر

مبتدأ ثانٍ ، والتار خبره ، والجملة من الثاني وخبره خبر الأول ، والأول وخبره خبر ان الذين لا يرجون . ودعواهم مبتدأ ، وسبحانك منصوب على المصدر وهو ساد مسد الخبر ، أو ان خبر المبتدأ محذوف تقديره قولهم سبحانك . وان الحمد (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، أي انه الحمد ، والجملة خبر آخر ودعواهم مجرور بالإضافة .

المعنى :

(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) . قيل : ان الضياء والنور كلمتان مترادفتان تعبران عن معنى واحد . وقيل : ان معنى كلٍ يختلف عن معنى الأخرى ، فكلمة الضوء تدل على ما كان نور ذاتياً ، وليس مستمداً من غيره كضوء الشمس ، وكلمة النور تدل على ما كان نوره مكتسباً من الغير كتور القمر ، فإنه مكتسب من الشمس .. ويلاحظ بأن الآية لم ترد لبيان شيء من ذلك ، وانما القصد التنبيه على وحدانية الله وقدرته ، تماماً كآية التي بعدها بلا فاصل ، وان الحكمة من كوكب الشمس والقمر ما أشار اليه بقوله :

(وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) . الضمير في قدره يعود الى القمر ، والمعنى ان الله سبحانه جعل للقمر منازل ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، تماماً كغيره من سنن الطبيعة ، والقصد من هذا الثبات هو ضبط الأوقات الذي لا تم الحياة الا به ، وتكلمنا عن ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . لقد من سورة الأنعام .(ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) . لقد فصل سبحانه آيات الكون خلقاً وإيجاداً ، وشرحاً وبياناً ليتدبرها كل من وهبه الله الاستعداد للتأمل والتفكر الذي يؤدي الى الايمان بالله وقدرته وحكمته .. وسبق أكثر من مرة انه جل وعز يسند اليه الظواهر الكونية ، والتغيرات الجارية على سننها الطبيعية ، يسندها اليه من باب اسناد الفعل الى مبيه الأول الكامن وراء الظواهر ، ليبقى الانسان دائماً على تذكّر من الخالق المتصرف في الكون .

(ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض آيات لقوم

يتقون) . سبق نظيره مع التفسير في ج ١ ص ٢٥١ الآية ١٦٤ من سورة البقرة.

(ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون) هذه الآية تهديد ووعد لمن لا يؤمن بالآخرة وحسابها ، ويقول : من مات فات ، منفصلاً مع أهوائه وشهواته ، غافلاً عن الكون وما فيه من عبر وعظات ، وعن دعوة الأنبياء والمصلحين ، منصرفاً عن كل شيء الا عن الدنيا وملذاتها (أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) . هذا جزاء من كذب باليوم الآخر ، واتخذ للهواه غير مكثر بحق ولا يعدل .. وتجدر الإشارة الى ان هذا التهديد والوعيد لا يختص بمن كفر بلقاء الله قولاً وعملاً ، فإنه يشمل أيضاً من آمن به نظرياً ، وجعله عملياً .. فالذين يصلون ويصومون ويؤمنون بالحساب والعقاب ، ثم لا يتورعون عن حرمات الله فهم في نار جهنم مع من جحد وعاند جزاء بما كسبت يده .

أين المتقون ؟

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم) . المراد بالهداية هنا الثواب ، أي ان الله يشيهم بسبب إيمانهم .. ذكر سبحانه في الآية السابقة الجاحدين وأوصافهم ومآلهم ، وذكر في هذه الآية المؤمنين وأوصافهم ومآلهم ، كمادته جل تناؤه من المقابلة بين الأضداد وصفاً ومالاً ، فالؤمنون على عكس الجاحدين يرجون لقاء الله ، ويتورعون عن محارمه عملاً بمقتضى دينهم وإيمانهم ، والله سبحانه يشيهم بجنات تجري من تحتها الأنهار .. وقد جاء في الحديث : ان الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة : اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي .. أين المتقون ؟. هذا هو نداء الله يوم الحق والفصل : أين المتقون الصادقون في أقوالهم ، المخلصون في أعمالهم ، أما نداء الشيطان في هذه الدار ، دار الظلم والفساد فأين الطغاة المجرمون المتهتكون المفسدون ؟.

وكل من أكرم مؤمناً تقياً لإيمانه وتقواه فقد نادى بنداء الله : أين المتقون ؟. وكل من احترم طاغية لاجرامه فقد نادى بنداء الشيطان : أين المجرمون ؟. قال

الإمام الصادق (ع) : يكره القيام تعظيماً إلا لرجل في الدين ، وقال : لا تقبل يد أحد إلا يد رسول الله (ص) أو من أريد به رسول الله (ص) .

والحكم في تعظيم الرجال يختلف باختلاف الموارد ، فان كان تشجيعاً للإثم ومعضية الله فهو حرام ، وان كان للتحابب والتآلف ، ودفع الضرر أو قضاء حاجة محتاج فهو حسن ، وإلا فكروه ، أما تعظيم المجاهد لجهاده ، والمخلص لأخلاصه ، والمصلح لأصلاحه . والعالم لعلمه وعمله به فهو من تعظيم شعائر الله وحرماته الذي أشار اليه بقوله : « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب - ٣٢ الحج » . وقوله : « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه - ٣٠ الحج » .

(دعواهم فيها سبحانهك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) . هذه الآية بجملة أخبار بأن أهل الجنة في روح وريحان لا يشغلهم شيء مما كان يهمهم في الحياة الدنيا من جلب مصلحة أو دفع مضرة .. فلا يطالبون بإقامة العدل والسلام ، ولا بإقرار الأمن والنظام ، ولا بزيادة الأجور والمرتبات ، ولا بشيء على الإطلاق ، فكل شيء مما تشبهه الأنفس ، وتلذذه الأعين جاهز متوافر ، وما عليهم إذا أرادوا شيئاً إلا أن يستحضروا صورته في أذهانهم ، ومن أجل هذا تفرغوا للتسبيح والتحميد ، والتحيات الزاكيات : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قلاباً سلاماً سلاماً - ٢٦ الواقعة » . وقد سمعوا هذا السلام من الله حين لقائه : « تحيتهم يوم يلقونه سلام - ٤٤ الأحزاب » . وسمعوه من الملائكة : « وقال لهم خزنتها أي الجنة سلامٌ عليكم طيبم فادخلوها خالدين - ٧٣ الزمر » . وسمعه بعضهم من بعض . وتكلمنا عن تحية الإسلام عند تفسير الآية ٥٤ من الأنعام .

ولو يجعل الله الشرّ الآية ١١ - ١٤ :

وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ

فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
الضُّرُّ دَعَا إِلَىٰ جَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن
لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْعَاسِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَا لَكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *

اللفظة :

الطغيان مجاوزة الحد في الشر . والعمه التحير والتردد في الضلال . والقرون
جمع قرن ، وهو أهل كل عصر . والخلائف جمع خليفة ، وهو من يخلف
غيره في شيء .

الإعراب :

بالخير الباء للتعدية، لجنبه في موضع الحال أي دعانا مضطجماً . وكان مخففة من
التضيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف أي كأنه لم يدعنا . وكذلك الكاف بمعنى
مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي تزيئاً مثل ذلك . ومثله
كذلك نجزي . والمصدر المنسبك من ليؤمنوا متعلق بمحذوف على أنه خبر لكانوا
أي وما كانوا يريدون للإيمان . وكيف عمل نصب بتعملون .

المعنى :

(ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم) المراد

الجزء الحادي عشر

بالخير هنا ما ينتفع به الانسان في هذه الحياة ، ومن أجل هذا يستعجل به ، ولا يصبر عنه ، والمراد بالشر ما يتضرر به ، وهو يأباه ويكرهه بفطرته الا لسبب عارض كثره ما هو أشد ، قال الشاعر :

تحملت بعض الشر خوف جميعه كنلك بعض الشر أهون من بعض

أو يكون الانسان في حال غير طبيعية كمن يقدم على الانتحار ، أو في حال عناد يواجه خصماً عجز عن مقاومة حجته بحجة مثلها ، كما عجز المشركون عن الرد على محمد (ص) حين أظهر الله على يده ما أظهر من المعجزات ، وقالوا : اللهم ان كان ما يقوله محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو اثنا بعذاب أليم .. وقد أجاب سبحانه كل من يستعجل الشر ونزول العذاب من السماء ، أجابه بأن الحكمة تقتضي أن لا يستجيب الله الى طلبه ، وأن يستبقه الى حين ، فربما زال العارض الذي تمتئى معه الشر ، وتحقق بعده الخير ، كما حصل من كثير من الذين قالوا : اللهم امطر علينا حجارة من السماء ، فقد أسلم منهم جماعة ، وخرج من صلب آخرين كثير من المؤمنين ، ولو عجل الله بأجلهم لما حصل شيء من ذلك .

والخلاصة أنهم استعجلوا وقوع الشر ، تماماً كما يستعجلون الخير ، ولكن الله سبحانه أخرهم الى ما أَراده لهم من الخير .

(فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون) . أي انه تعالى لا يعجل العذاب لمن لا يوقنون بالبعث ممن كفر بنبوة محمد (ص) ، بل يتركهم وشأنهم ، حتى لو تمردوا على أمره سبحانه ، وترددوا في الطغيان والعصيان .

(وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) . لجنبه وقاعداً وقائماً كناية عن خضوعه وتضرعه في جميع حالاته وحركاته وسكناته ، والمعنى لو نزل أدنى مكروه بمن استعجل الشر لفقد الصبر ، وانهارت أعصابه ، ولجا اليها خاضعاً متذللاً في جميع أحواله لنكشف عنه الضر (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره) . ان الأوضاع الفاسدة قد تضطر الانسان الى الكذب والرياء والتملق لمن حاجته في يده ، ولكن ما الذي يضطره الى العقوق ونكران

الجميل ، والتكر لمن دعاه بالأمس الى قضاء حاجته خاضعاً متذللاً ، حتى اذا استجاب له ، وحصل منه على ما يريد تجاهله ، ومر به كأن لم يدعه الى ضرر منه ؟.. ولا يصح تفسير هذا الحقوق بالأوضاع الفاسدة، ولا بشيء الا بالاستهتار، والكفر بالحق والقيم ، والاسراف في هذا الاستهتار والكفر (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) . والذي زين لهم سوء أعمالهم هو اللامبالاة بشيء الا بمنافعهم وأطاعهم .

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين) . هذا تهديد من الله للذين كذبوا محمداً (ص) بأن يحل بهم من العذاب ما حل بمن كان قبلهم من الأمم الذين كذبوا رسلهم . ومر نظير هذه الآية مع تفسيرها في سورة الأنعام الآية ٦ .

(ثم جعلناكم فئات في الأرض من بعدهم لنتظر كيف تعملون) . تمضي أمة وتخلفها أخرى ، أما الغاية من وجوه الانسان في هذه الأرض فهو العلم والعمل النافع ..

وتسأل : ان الله سبحانه يقول : « وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون - ٥٦ الذاريات » . وتقول انت : ان الله خلق الانسان للعلم والعمل النافع ؟ .
الجواب : ان المراد بالعبادة في الآية المذكورة العمل الصالح بدليل قوله تعالى : « والعمل الصالح يرفعه - ١٠ فاطر » . بل ان سبحانه خلق الكون بأرضه وسماؤه من أجل العمل الصالح ، قال جلت عظمتة : « وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم أحسن عملاً - ٧ هود » . ويبتا معنى الابتلاء والاختبار من الله عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة .

انت بقرآن غير هذا الآية ١٥ - ١٧ :

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَاءِ نَفْسِي إِنْ

أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ *
 قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا
 مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
 بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمَجْرُمُونَ *

اللمعة :

من تلقاء نفسي أي من عند نفسي ، ويستعمل بمعنى الاتجاه ، يقال : جلس
 لتلقاه أي تجاهه . العمر بضم العين والميم البقاء ، وبفتح العين وسكون الميم يستعمل
 في البقاء ، وفي القسم ، تقول : لعمري ما فعلت أي لديني ما فعلت .

الإعراب :

المصدر المنسبك من ان ابدله اسم يكون ، ولي خبر . وان اتبع (ان) نافية .
 وأدراكم فعل ماضٍ من دريت . وعمراً على حذف مضاف أي مقدار عمر ، ثم
 حذف الظرف وأقيم المضاف مقامه .

المعنى :

(وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير
 هذا أو بدله) . المراد بالذين لا يرجون لقاء الله المشركون .. وكان النبي (ص)
 يحجج عليهم وعلى اليهود والنصارى بالقرآن، ويجادلهم بالتي هي أحسن ، وكان الجدال
 بينه وبين المشركين واليهود عنيفاً ، لأنهم كانوا أشد الناس عداوة له ، واعراضاً
 عنه ، وسبق الكلام عن ذلك في العديد من الآيات ، أما النصارى فنهم من وفد

عليه ، ودفع له الجزية كنصارى نجران ، ومنهم من همّ بغزو المدينة ، قطع النبي (ص) الطريق عليهم وغزاهم في أرض الشام .

وكان المشركون يقترحون على النبي (ص) ألواناً من جهلهم وعيبتهم ، من ذلك ما أشارت اليه الآية ١١٨ من سورة البقرة، حيث طلبوا من النبي أن يكلمهم الله مشافهة ، أما الآية التي نفسرها فهي تحكي اقتراحهم على رسول الله (ص) أن يأتيهم بقرآن غير هذا في جملته ، أو يحرفه بالتعليم والتطعيم ، لأن هذا القرآن قد آتاهم بدين جديد : فهو يدعو الى التوحيد والإيمان بالبعث والجزاء ، ويقر مبدأ العدالة والمساواة ، ويلغي الطبقات والامتيازات ، ويحرم الربا والظلم ، وهم يدينون بتعدد الآلهة ، وينكرون البعث ، ويبيحون ما يشتهون ، فطلبوا من محمد (ص) أن يأتيهم بقرآن يقرهم على دينهم وتقاليدهم ، أو يحذف من القرآن الذي آتاهم به ما لا يرتضونه - على الأقل - ..

وأي فرق بين هذا الطلب من مشركي الجاهلية ، وبين الكثير من شباب حضارة القرن العشرين الذين يقولون : ولماذا الدين ، والحلال والحرام ؟.. أجل ، ان في حضارة المنيحوجوب والميكروجوب غنى عن كل مبدأ ودين .

(قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان اتبع إلا ما يوحى إليّ لاني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم) . الرسول ناقل عن الله ، لا مشرع ، تماماً كراوي الحديث عن الرسول . وقد جاء في الحديث عنه انه قال : « من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار » فكيف يكذب هو على الله ؟ . حاشا لصاحب العصمة عن الخطأ والزلل .. وفي الآية تعريض بمن يفني ويحكم بغير دليل من الشرع ، وفيها أيضاً الدليل القاطع على ان النبي ما حكم قط باجتهاده ، وان جميع أحكامه كانت بوحى من الله ، وان من أجاز الاجتهاد عليه فقد قاسه بغيره من الفقهاء .. وبالمناسبة نشير الى ان الشيعة منوا الاجتهاد على النبي (ص) . واختلف السنة فيما بينهم ، فمنهم من وافق الشيعة ، وكثير منهم أجاز الاجتهاد على النبي .

(قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) . وضيم تلوته وبه يعودان الى القرآن ، والمعنى لو شاء الله إلا يرسلني اليكم لتعلموا وتعملوا بالقرآن مادعوتكم اليه ، ولكني فعلت ما فعلت تنفيذاً لمشيئة الله (قد لبث فيكم عمراً من قبله

أفلا تعقلون) . ان من عاش في قومه أربعين عاماً من قبل أن يوحى اليه لم يقرأ فيها كتاباً ، ولم يلقن من أحد علماً ، ولا بدرت منه أية بادرة يؤاخذ عليها، بل كانت حياته كلها فضائل ومكرمات ، وصدقاً وأمانة حتى سمي الصادق الأمين ، أفلا تعقلون ان من كان هذا شأنه فهو أبعد الناس عن الكذب والافتراء ؟ .. هذا ، إلى أن حقائق القرآن حجة كافية وافية في الدلالة على صدقه وعظمته . (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) . معنى افترى على الله كذباً انه نسب إلى دين الله ما هو بريء منه ، ومعنى كذب بآياته انه نفى عنه ما هو منه في الصميم ، وهذه هي البدعة التي قال عنها الرسول الأعظم : «كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار» (إنه لا يفلح المجرمون) لأن طريق الفلاح والنجاة هو الصدق والاخلاص ، أما الكذب والافتراء فهو طريق الهلاك والخذلان ، ولا يسلكه إلا شقي مجرم .

ويقولون هؤلاء شفعاؤنا الآية ١٨ - ٢٠ :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ* وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ* وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ*

المعنى :

(ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) . هؤلاء هم الذين قالوا

سورة يونس

لرسول الله (ص) : انت بقرآن غير هذا أو بدله . فقد كانوا يعبدون الأصنام معتقدين انها تنفع وتضر بدليل قوله تعالى : (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ولكن اعتقادهم لا يقوم على أساس سوى الوهم والخيال .. وقد أمر الله محمداً (ص) أن يقول مكذباً زعمهم : (أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) . ادعى المشركون ان أصنامهم تشفع لهم عند الله ، ولو كان هذا حقاً لعلم الله بهذه الشفاعة ، وحيث انه لا يعلم بها وجب أن تكون دعوى المشركين كذباً وافتراء .

(وما كان الناس الا أمة واحدة) على فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ثم شتّنتهم الهوى عن أصلهم ، وفرقتهم شيعاً في دينهم بعد أن اعتدوا الى ملذات الحياة ، وتسابقوا الى نيلها (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون) . المراد بكلمة الله هنا عدم التعجيل بالعقوبة للعصاة ، وبالمنوبة للطائعين ، بل يؤخرهم جميعاً الى يوم يبعثون ، ليبلغ كل انسان بإرادته الى ما يرتضيه لنفسه من خير أو شر ، وفضيلة أو رذيلة ، ولو عجل الله بالعقوبة الى من أساء من الناس لقضي بينهم بالوفاق وعدم الاختلاف ، ولكن خوفاً لا طوعاً .. وليس من شك ان هذا إلجاءً يبطل معه الثواب والعقاب ، ونقض لحكمته تعالى التي قضت بأن يظهر كل انسان على حقيقته عن طريق ما يزاوله من أعمال ، ويختاره لنفسه من كمال .. ومر نظير هذه الآية في سورة البقرة الآية ٢١٣ ، وفي سورة المائدة الآية ٤٨ .

(ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه) . لقد أنزل الله على محمد (ص) العديد من الآيات والمعجزات ، ولكن المشركين الذين قالوا هذا يريدون آية على أهوائهم ، ومعجزة هم يقترحونها ويفرضونها مثل قولهم : « لولا يكلمنا الله - ١١٨ البقرة » . وقولهم : « لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً - ٧ الفرقان » ، وما الى ذلك من لغوهم وعيبتهم . وسبق الكلام عن اقتراحتهم الفاسدة في ج ١ ص ١٨٨ عند تفسير الآية ١١٨ من سورة البقرة .

(فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم من المنتظرين) . أي قل يا محمد هؤلاء المعاندين : ان الآية التي طلبتموها هي في يد الله ، وليس لي من الأمر

شيء ، ولا أدري ان كان الله يترها أو لا يترها من السماء ، فأنا وأنتم سواء في ذلك ، فلننتظر لنرى أي الفريقين أحق بالأمن من غضب الله وعقابه.

قل الله اسرع مكرًا الآية ٢١ - ٢٣ :

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَفْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَفْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْتُغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللمة :

المراد بمكر الله تدبيره الخفي الذي يفوت على الماكر المخادع مكره وخداعه . وقد يُستعمل مكر الله بعذابه . والتيسير التحريك دون اختيار من المتحرك ، ومنه مسير غير مخير . والفلك السفن ويطلق على الجمع والواحد . والعاصف الذي يعصف الأشياء ويكسرهما ، ومنه ربيع عاصف وعاصفة . وأحيط به أي هلك .

الإعراب :

إذا لهم (إذا) للمفاجأة وقعت في جواب إذا أذقنا . ومكرراً تمييز . والنون في جرين ضمير القلق . وضمير بهم للناس . ومخلصين حال من الضمير في دعوا . وإذا هم (إذا) للمفاجأة وقعت في جواب لما . ومتاع الحياة منصوب على المصدر أي تمتعوا متاع الحياة ، ويجوز الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي ذلك متاع .

المعنى :

(وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا) . قيل المراد بالناس هنا المشركون خاصة ، وليس هذا القول بعيد عن قرينة السياق ، فإن الآيات السابقة تحدثت عن المشركين ، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون التهديد عاماً يشمل كل من جحد أنعم الله ، سواء أكان الجحود من المؤمن أم الكافر، قبل الضراء أم بعدها .. وفي جميع الحالات فإن مضمون هذه الآية يلقي مع الآية السابقة رقم ١٢ ، وهي : « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره » . فهذه الآية تقول : ان الإنسان يذكر الله في الضر ، وينساه في اليسر ، والآية التي نقرها تقول : إذا جعل الله عسر الإنسان يسراً مكر في آياته ، والمراد بهذا المكر أنه يجحد آيات الله ، ويكذب بأن الله سبحانه هو السبب في كشف الضر والبلوى عنه ، ويفسر هذا الكشف بأسباب لا أصل لها ولا أساس، كالأصنام والكواكب والصدقة ، وما إلى ذلك من التصورات الفاسدة التي تختلف باختلاف الأشخاص وأوهامهم ومعتقداتهم .

(قل الله أسرع مكرراً ان رسلنا يكتبون ما تمكرون) . المراد بمكر الله تعالى أنه يجازي الماكرين على مكرهم ، ويعد لهم العذاب الأليم من حيث لا يشعرون . وتكلمنا عن المراد بمكره تعالى مفصلاً في ج ٢ ص ٦٨ عند تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران ، والمراد بالرسل الكاتبين الملائكة ، والمعنى أنه تعالى يحصي أعمال الماكرين ، ويجازيهم عليها بما يستحقون .

(هو الذي يسيركم في البر والبحر) أي انه جلّت حكمته وهب عباده القدرة على السير فيها ، والغرض من هذه الإشارة التذكير بفضله وأنعمه لتكون له من الشاكرين .. سبحانهك اللهم ما أبين كرمك على من أرضاك وأغضبك .. ومن الطريف قول أبي بكر المغافري في أحكام القرآن : ان هذه الآية تدل على ان ركوب البحر جائز وغير محرم ، وأطال الكلام في التدليل على جواز ركوب البحر ... وذهل عن القاعدة الشرعية التي يعرفها الجاهل والعالم بأن التحريم يحتاج إلى الدليل ، وليس الجواز .

(حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) . الريح تؤث وتذكر لأنه تعالى وصفها بالطيبة وبالعاصف ، وهذه الآية تدل على ان الانسان قد جبل بفطرته على الإيمان بالله لرجوعه اليه عند الشدائد .. انظر تفسير الآية ٤١ من سورة الأنعام ، ققرة: الله والفطرة . وذكر صاحب المنار عند تفسير هذه الآية ما نصه :

« كان المشركون لا يدعون عند الشدائد الا الله ربهم ، أما الكثير من مسلمي هذا الزمان يزعمهم فإنهم لا يدعون الله عند الشدائد ، وانما يدعون الأموات كالبدوي والرافعي والدسوقي والجيلاني والمتبولي وأبي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم ، وتجد من حملة العائيم الأزهرين وغيرهم ولا سيما سدنة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون بأوقافها ونفورها من يغريهم بشرتهم ، ويتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في اللغة العربية كالتوسل وغيره . » ومثله تماماً في تفسير المراغي .

وقرأت في الصحف المصرية ان المصريين يرمون أوراقاً في ضريح الولي يشكون اليه فيها من خصومهم ، ويرجون الميت أن يقتص لهم ممن ظلمهم وأساء اليهم ، ونقلت طرفاً من هذه الشكاوى في كتاب « من هنا وهناك » ، أما تلفق الجموع على قبر الولي للاحتفال بمولده فتدع وصفه لجريئة « الجمهورية » المصرية عند ١ - ١١ - ١٩٦٨ : « مثل يوم الحشر كانت الزحمة ، كتل بشرية متلاصقة ومتلاصقة كأنها أمواج متلاطمة : أو كحقل مزروع بالبشر . »

(فلما أنجاهم اذا هم ييغون في الأرض بغير الحق) . عاهدوا الله أن يتقوه ويشكروه اذا كشف عنهم ، ولما فعل نكثوا العهد ، وهذا تكرار للآية السابقة بتعبير آخر ، قال سبحانه في الآية السابقة : اذا لهم مكر في آياتنا، وقال في هذه الآية : اذا هم ييغون في الأرض ، والمعنى واحد أو المعنيان متلازمان متشابكان ، والغاية ابراز عتوهم وتمردهم في أقبح الصور .

(يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم) لأن من سل سيف البغي قُتِلَ به (متاع الحياة الدنيا ثم البنا مرجعكم فنتبكم بما كنتم تعملون) . قد يفرح الباغي ويطرب من نشوة النصر ، ولكن الى حين ، ثم تأتي الزفريات والمحسرات ، قال رسول الله (ص) : ثلاث هن رواجع على أهلها: المكر ، ولا يحق المكر السيء الا بأهله ، والنكث ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، والبغي ، يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم .

مثل الحياة الدنيا الآية ٢٤ - ٢٥ :

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
بِمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ
وَوَضَّعْنَا أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *
وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

اللغة :

للزخرف معانٍ ، منها الذهب ، ومنها حسن الشيء في مظهره. وغني بالمكان أقام فيه ، والمغاني المنازل . والمراد بدار السلام هنا الجنة .

المعنى :

(انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) .
الباء في (به) للسببية ، أي ان الدنيا التي تباهون بها وتفاخرون هي أشبه بمطر نزل
على الأرض ، فأخصبت وأنبتت من كل زوج بهيج ، واختلط بعض نباتها ببعض
لكثرته ونموه (مما يأكل الناس والأنعام) . كل الأحياء عيال على الأرض تملأ
بطونهم الجائعة ، فالناس يأكلون حب الزرع وثمر الشجر ، والدواب تأكل الحشائش
وما إليها .

(حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) كالعروس المجلوة انصرفت عن
كل شيء ، وتفرغت ليتمتع العريس بها (وظن أهلها انهم قادرون عليها)
ويملكون التصرف في ثرواتها ، ويملأون بها جيوبهم وخزائنهاهم — بعد هذا الوثوق
والاطمئنان (أنها أمرنا) وهو الهلاك والآفات (ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً)
تماماً كالأرض المحصودة (كأن لم تغن بالأمس) بعد أن زال كل شيء حتى
الآثار التي تخبر عما كان .. فيالنكد الطالع .. لقد خابت الآمال ، وتبخرت الأحلام .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يفكرون) في ان متاع الدنيا إلى زوال ، وان
من ركن اليه وحدها فقد ركن إلى سراب ، وانه ليس بشيء تراق له الدماء ،
وتتار من أجله الحروب ، وتسخر لها عقول العباقرة وكبار العلماء .

(والله يدعو إلى دار السلام) قال المفسرون : المراد بدار السلام الجنة ،
وليس من شك ان الجنة دار السعادة والسلام ، ولكن دعوة الله تعم كل عمل
يحقق لعياله الأمن والراحة ، بل ان الله سبحانه حرم الجنة إلا على المتقين والعاملين
في هذه السبيل (ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) . ان دعوة الله سبحانه
لعمل الخير تشمل كل بالغ عاقل : دون استثناء ، فمن عصي وأهمل فهو الضال
ومن أطاع وعمل فهو المهتدي ، ويصح أن تسند هدايته هذه إلى الله لأن الطريق
الذي سلكه إليها كان بأمر الله وعنايته وتوفيقه ، أما ضلال من ضل فلا تصح
نسبته إليه تعالى بحال ، لأنه قد نهاه عنه ، والله لا ينهي عبده عن عمل ثم يلجئه
إليه إلجاءً .

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى الْآيَةُ ٢٦ - ٣٠ :

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ
سَيِّئَتِهِمْ يَمْشِلُهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ
وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *
وَيَوْمَ نَخَشِرُهُم بِجَمْعٍ نُّمُّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
فَزَيْلَنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ
نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ *

اللفظة :

يرهق وجوههم أي يشاها ويغطيها . وقتر بفتح القاف والراء غبار أو دخان
أسود ، والذلة الهوان ، والعاصم المانع . وزيلنا فرقنا وميزنا .

الإعراب :

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا خبر مقدم ، والحسنى مبتدأ مؤخر . واللين كسبوا مبتدأ ،
وجزاء سيئة خبر ، وبمثلها متعلق بجزاء ، وقيل : جزاء مبتدأ ثانٍ ، وبمثلها خبره .
وقطعاً مفعول ثانٍ لِأَغْشِيَتْ لأنها بمعنى ألبست . ومظلماً صفة لقطع ، وقيل حال .

الجزء الحادي عشر

وجميعاً حال من ضمير نحشرهم . ومكانكم في محل نصب قام مقام فعل الأمر أي الزموا . وأنتم توكيد للضمير في الزموا . وكفى بالله الباء زائدة ، والله فاعل ، وشهيداً حال ، ويجوز أن يكون تمييزاً على معنى من شهيد . وإن كنا (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها (نا) مخنوف وجملة كنا خبر ، واللام في لافلين للفرق بين ان النافية والمخففة . وهناك ظرف زمان منصوب بتبلو . ومولاهم بدل من الله ، والحق صفة .

المعنى :

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال الرازي : نظير هذه الآية قوله تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » . ويلاحظ بأن الإحسان يختص بالتفضل على الغير ، والحسن ما كان محبوباً للفطرة سواء أكان تفضلاً ، أم لم يكن ، ويدخل فيه حسن العقيدة ، وحسن القول والفعل ، ونية الخير ، بل والشعور بالذنب ، فكل هذه محبوبة لله والفطرة : وهو سبحانه يكافئ عليها بالحسنى ، اذن ، فالآية نظير قوله تعالى : « ومن يقرض حسنة نزد له فيها حسناً - ٢٣ الشورى » . واختلف المفسرون في معنى الزيادة . لأنها ان كانت من نوع الحسنى فإهي بزيادة ، وان كانت غيرها فالكلمة مبهمة ، والذي نفهمه نحن ان المراد بالزيادة هنا انه جل ثناؤه يثيب الذين أحسنوا بأكثر مما يستحقون ، قال تعالى : « فأما الذين آمنوا وعلوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله - ١٧٢ النساء » . فعطف الزيادة على توفية الأجور دليل على ما قلناه . (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . كل ما في القلب من حزن وسرور ، وأمن وخوف ينمكس أثره في الوجه بوضوح ، ولكن أثر الخوف والقلق أظهر أثراً فيه من غيره ، بخاصة وجوه أهل النار اذا عاينوها ، فلإنها تسود من الرعب ، حتى كأنها مغطاة بدخان ، أو بغيار أسود ، أما أهل الجنة فوجوههم ضاحكة مستبشرة : « وجوه يومئذ مفرجة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قرة - ٤٠ عبس » ، أي تغطيها غبرة سوداء .

(والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) . ان الله عادل يجزي من أسماء بما يستحق ، ولا يظلمه مثقال ذرة ، بل ويغفر عن كثير ، لأنه كريم ، ولجوده وكرمه يضاعف لمن أحسن أضعافاً كثيرة (وترهمهم ذلة) أي ترهق المسيئين ذلة الفضيحة وكسوف الخزي ، ولا أحد أذل وأخزى ممن يفتضح على رؤوس الأشهاد (ما لهم من الله من عاصم) يمنع عنهم سخط الله وعذابه .

(كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . بعد أن قال سبحانه : ان الذين أحسنوا لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة قال : ان الذين أساءوا تسود وجوههم حتى كأنها قطعة من الليل البهيم . قال الإمام علي (ع) : ما خير بخير بعده النار وما شر بشر بعده الجنة ، وكل نعيم دون الجنة محقر ، وكل بلاء دون النار عافية .

(ويوم نحشرهم جميعاً) الذين أحسنوا والذين أساءوا (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم) . يقف غداً للحساب في موقف واحد المشركون والذين كانوا يزعمونهم شركاء الله ، ويتقابلون وجهاً لوجه ليلاي كل فريق بحجته فتخب آمال المشركين فيمن كانوا يأملون بهم ، ويرجون منهم النفع في هذا الموقف ، ويتبين لهم أنهم كانوا على ضلال في شركهم وعنادهم لرسل الله وكتبه .

(فزيلنا بينهم) أي ان الله سبحانه يميز يوم الحساب بين جميع خلقه بصفاتهم التي هم فيها وعليها ، ويظهر كل واحد على حقيقته ، وعندها يتبين للمشركين انه لا أحد يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً ، وان الأمر لله وحده لا شريك له ولا ند (وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون) حين أوقف الله المشركين والذين يعبدون في موقف واحد ، وقابل بينهم وجهاً لوجه ، قال هؤلاء لأولئك : ما كنتم لنا عابدين ، وانما خيل ذلك اليكم ، وصورت لكم الأوهام ان الله شركاء واننا نحن أولئك الشركاء الذين لا وجود لهم الا في خيلتكم ، فأنتم في الحقيقة تعبدون لا شيء ، ونحن شيء ، اذن لستم لنا بعابدين (فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم) فهو يعلم انكم اخترعتم في أوهامكم شركاء لا وجود لهم ، وأيضاً يعلم ببراءتنا من شرككم (ان كنا عن عبادتكم لغافلين) لا نعرف عنها شيئاً ، وفيه إيماء الى نفي الأهلية عنهم للعبادة ، وانهم عبيد وليسوا بمعبودين .

الجزء الحادي عشر

(هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون) . أي انه تعالى يجمع الناس للحساب ، ويجزي كل نفس بما كسبت ، ولا تجد شيئاً مما كانت تعتقده وتتوهمه ينفعها ويدفع عنها الا العمل الخالص لوجه الله وحده .. وقد تكرر هذا المعنى بأساليب شتى في العديد من الآيات .

من يرزقكم من السماء والأرض الآية ٣١ - ٣٤ :

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ
الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَاذَا
بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتِ تُصْرِفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى
الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ *

الغفة :

تُصْرِفُونَ من الصرف عن الشيء إلى غيره ، أي كيف تعدلون عن التوحيد إلى الشرك . وهذا المعنى هو المراد من قوله : فَأَنْتِ تُؤْفَكُونَ .

الإعراب :

فَأَنْتِ تُصْرِفُونَ (أنتى) مجرورة بإلى محذوفة أي الى أين تُصْرِفُونَ ، والعامل

الفعل المذكور ، ومثلها فأتى تؤفكون . والمصدر المنسبك من أنهم وخبرها مجرور باللام المحنوفة ، والعامل حقت أي حقت كلمة ربك عليهم لعدم إيمانهم .

المعنى :

أركان الإيمان الحق عند الله ثلاثة : الوجدانية ، والنبوة ، والبعث ، وعرض القرآن ألواناً من الأدلة على هذه الأركان ، وسبق بيانها مفصلاً ، والآيات التي نفسرها الآن والتي بعدها من هذا الباب ، لأنها وردت لإبطال الشرك وزعم المشركين بأن أصنامهم تقربهم من الله زلفى ، وأنه لا بعث ولا حساب ، وإن القرآن افتراه محمد على الله .. وفيما يلي إبطال هذه المزاعم :

١ - (قل من يرزقكم من السماء والأرض) . كل سبب من أسباب الرزق قريباً كان أو بعيداً لا بد أن يكون سماوياً أو أرضياً ، فمن الأسباب السماوية المطر والضياء وغيرهما مما اكتشفه العلماء أو يكتشفونه في المستقبل القريب أو البعيد، ومن الأسباب الأرضية النبات والحيوان والمعادن ، وجميع الأسباب ترجع الى الله وحده بواسطة السنن والنواميس الكونية ، لأنه تعالى هو خالق الكون ، والمشركون يعترفون بهذه الحقيقة ، ويقولون بأن الله هو الخالق الرازق .. وهنا يأتي السؤال ، ويرد عليهم هذا الاشكال : ما دمت تعتقدون أنها المشركون بأن الله هو الخالق الرازق فكيف تجعلون له شركاء ؟. وكيف يكون الشيء شريكاً مع العلم بأنه لا أثر له على الاطلاق ؟. وهل يصح أن تكون شريكى أيها القارئ - في تأليف هذا الكتاب ، وأنا الذي فكرت وصبرت وكتبت ؟.. وقد بسطنا القول في هذا الموضوع ، وذكرنا الأدلة الكافية على بطلان الشرك وفساده في ج ٢ ص ٣٤٤ عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء .

٢ - (أم من يملك السمع والأبصار) خص سبحانه هاتين الحاستين بالذكر لأنها الوسيلة الأولى لتحصيل العلوم، حتى النظرية منها ، لأنها تنتهي إلى الحس والمشاهدة. وقال الرازي عند تفسير الآية : « كان علي رضي الله عنه يقول : سبحانه من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وانطق بلحم » .

٣ - (ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) أي يملك الموت والحياة ، ومن أمثلة خروج الحي من الميت ما يأكله الحيوان ويمر بمعدته وامعائه ونجري عليه جميع عمليات التحليل ، وبالنهاية تتكوّن منه خلايا جديدة بدلاً من الخلايا القديمة ، ومن أمثلة خروج الميت من الحي موت الخلايا التي يتخلص منها الجسم الحي بالتنفس والافراز . وتكلمنا عن الحياة عند تفسير الآية ٩٥ من سورة الأنعام ، فقرة : « من أين جاءت الحياة » .

٤ - (ومن يدبر الأمر) في الكون كله بما فيه ومن فيه (فسيقولون الله فقل أ فلا تتقون) الله وتخافونه فيما اخترعتم له من شركاء ؟ .. أنهم لا ينكرون ان الله وحده هو الذي يرزق ويملك السمع والبصر والموت والحياة والأمر كله ، ولكنهم يجعلون لله شركاء.. أما سر هذا التناقض فهو أنهم نظروا الى الخالق نظرة موضوعية فآمنوا بأنه المكوّن والمصور ، ثم نظروا الى ما يقرّبهم منه زلفى نظرة عاطفية ذاتية فأخطأوا الواقع ، فبدلاً أن يتقربوا اليه بالعمل والاخلاص اخترعوا له في أوهامهم شركاء ، وتقربوا بهم اليه .

(فذلّكم الله ربكم الحق فاذا بعد الحق إلا الضلال) أبداً لا واسطة بينها اما حق وهدى واما باطل وضلال ، والله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض بالحق وفيها أسباب الرزق ، وخلق السمع والبصر بالحق ، وهما طريق العلم : وهو يملك الموت والحياة بالحق ، وهذا الملك دليل القدرة والعظمة ، وهو يدبر الأمر بالحق ، وهذا التدبير يدل على العلم والحكمة .. فأني شيء بعد هذا الا الضلال والباطل والجهل والعناد (فأتى تصرفون) تاركين الحق الى الضلال، والتوحيد الى الشرك .

(كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) . كذلك اشارة الى ما تقدم من انه ليس بعد الحق الا الضلال ، والمراد بكلمة ربك هنا العذاب كقوله تعالى : « ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين - ٧١ الزمر » ، والمراد بالذين فسقوا المشركون ، والمعنى ان الله سيعاقب المشركين عقاب من عاند الحق ورفض الايمان به بحال من الأحوال ، لأن هذا هو شأنهم في الواقع ، فلقد دُعوا الى التوحيد ، وقامت عليه عندهم الدلائل والبيّنات ، ومع ذلك أصروا على الشرك وماتوا عليه .

(قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون) أي قل يا محمد للمشركين : ان الله يخلق الشيء من لا شيء ، ويعيد الحياة لمن مات ، فهل يقدر شركاؤكم على ذلك ؟ واذا عجزوا عنه فكيف يتحولون عن التوحيد الى الشرك ؟

وتسأل : لقد عرفنا وجه الاحتجاج على المشركين بأن الله يبدأ الخلق لأنهم يعترفون بذلك ، أما الاحتجاج عليهم بإعادته فلم نعرف له وجهاً لأن المشركين ينكرون الاعادة والحشر والنشر ؟.

الجواب : لقد أقام القرآن في العديد من آياته الحجج الكافية الوافية على الاعادة والحشر والنشر ، وعجز المشركون عن ردها والظن فيها ، وعجزهم هذا هو الوجه في إلزامهم والاحتجاج عليهم بأن الله يعيد الخلق كما بدأه أول مرة . وبكلمة ان الحكم يرتكز على الدليل ، لا على تسليم الخصم به .

من يهدي الى الحق الآية ٣٥ - ٣٩ :

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ قَالُوا كَيْفَ نَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ

كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ*

الإعراب :

هل من شركائكم (من) هنا للتبويض أي هل بعض شركائكم . ومن يهدي
الى الحق (يهدي) وهدي تتعدى الى مفعولين ، الى الأول بنفسها والى الثاني
بواسطة الى أو اللام ، والمفعول الأول هنا مخوف أي من يهدي أحداً الى الحق .
والله يهدي للحق تقديره يهدي من يشاء للحق . وأحق هنا ليست للتفضيل ، بل
هي بمعنى حقيق . والمصدر المنسبك من يتبع مجرور بياء محذوفة أي حقيق بالاتباع .
والمصدر المنسبك من أن يُهدي في محل نصب على الاستثناء . وامن لا يهدي
بفتح الياء وتشديد الدال معناه لا يهدي في نفسه . فإلكم مبتدأ وخبر ، وكيف
في محل نصب بتحكمون . وشيئاً في قوله : « لا يغني من الحق شيئاً » مفعول
مطلق . « وما كان هذا القرآن » هذا اسم كان والقرآن عطف بيان ، والمصدر
المنسبك من أن يفترى خبر كان أي ما كان هذا القرآن افتراءً ، وتصديقاً بالنصب
خبر كان محذوفة أي ولكن كان القرآن تصديق ، وتفصيل الكتاب عطف على
تصديق . وام يقولون (ام) منقطعة أي يقولون . ولما يأتهم أي لم يأتهم .
وكيف خبر كان مقدم ، وعاقبة اسمها مؤخر .

المعنى :

(قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق) . تضمنت هذه الآية الرد على
من يعبد مع الله إلهاً آخر ، ووجه الرد ان أول صفة يجب أن يتحل بها المعبود
أن يكون هادياً الى الحق بذاته ، دون أن يستمد الهداية من غيره ، أما من لا
يهدي الى الحق فلا يصلح للألوهية بحال .. وهذه حقيقة لا تقبل الجدل والتقاش ،

ولذا أمر الله نبيه محمداً (ص) أن يحتج بها على المشركين ، ويلقي عليهم هذا السؤال المحرج : هل يوجد واحد من أصنامكم هذه التي تعبدها من يهدي إلى الحق ؟. وليس من شك أنهم لم يجرأوا على الجواب لأن أصنامهم أحجار صماء تختوها بأيديهم . وبما أن النبي (ص) يملك الدليل القاطع على أن الله يهدي إلى الحق وجهه الله إليه هذا الأمر :

(قل الله يهدي للحق) دون غيره ، وهديته ذاتية غير مكتسبة ، والدليل على أن الله يهدي إلى الحق الرسل الذين أرسلهم إلى عباده مبشرين ومنذرين ، والكتب التي أنزلها عليهم ، وفيها الآيات البينات التي ترشد الناس إلى خيرهم وسعادتهم ، وهذا محمد يقابل المشركين والجاحدين وجهاً لوجه ، ويتحداهم بالقرآن الذي فيه تبيان كل شيء، فأين هي رسل شركائكم أيها المشركون وكتبها؟. ولو كان لله شريك لجاءتنا رسله .

وتجدر الإشارة إلى أنه ليس الغرض من ذلك المقارنة بين الله جلّت كلمته وبين الأصنام ، كلا .. وإنما القصد لإيقاظ المشركين وتببيههم إلى جهلهم وضلالهم عسى أن يؤوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم .

(أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدي إلا أن يهدي) . أحق هنا بمعنى حقيق وجدير ، و (أمّن لا يهدي) بتشديد الدال معناها لا يهتدي .. بعد أن ذكر سبحانه أن الله يهدي إلى الحق ، وأن غيره لا يهدي إلى الحق ، بعد هذه المقدمة أوضح نتيجتها ، وهي أن الله وحده هو الذي يجب أن يتبع دون غيره ، وأشار إلى هذه النتيجة بهذا السؤال الذي يحمل معه الجواب : أيها يجب اتباعه والاهتداء بهديه : الله الهادي بذاته ، أم شركاؤكم التي لا تهتدي إلا بعلم ومرشد ؟.

وتسأل : أن مشركي مكة المخاطبين بهذا السؤال كانوا يعبدون الأصنام ، وهي أحجار لا تهتدي وأن حاول المعلمون والمرشدون هدايتها ، فما هو الوجه لقوله تعالى : إلا أن يهدي ؟.

وأجاب المفسرون بأن هذا على سبيل القرض ، أي لو افترض – جدلاً – أن أصنامكم أيها المشركون تهتدي أن هُديت فهي لا تصلح أن تهدي إلى الحق ،

الجزء الحادي عشر

ومن كان كذلك فلا يكون إلهاً .. والأولى في الجواب ان الآية وردت للرد على جميع المشركين ، لا على مشركي مكة فقط الذين يعبدون الأحجار بل عليهم ، وعلى من يعبد انساناً أو ملكاً من الملائكة ، وعلى هذا يكون معنى الآية ان كل من لا يهدي إلى الحق بذاته فهو لا يصلح للألوهية ، سواء أكان فاقده الأهلية والاستعداد للهداية كالحجر أم كان قابلاً لأن يهدي بواسطة العلم والمرشد كالانسان والملك . (فالكم كيف تحكمون) وتؤمنون بالخرافات والضلالات ، مع الأدلة الواضحة على فسادها وبطلانها ؟ .

(وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) الضمير في أكثرهم يعود إلى المشركين، وأخرج بعضهم ، لأن فئة من المشركين كانوا يعتقدون بصلق محمد ونبوته ، ويعلمون علم اليقين بأن أصنامهم ليست بشيء، ولكنهم عاندوا وكابروا حرصاً على منافعهم وامتنيازاتهم ، أما الأكثرية الغالبة من المشركين فقد كانوا يعبدون الأصنام تقليداً للآباء .. وعبر سبحانه عن عبادتهم لها بالظن مع أنهم كانوا على يقين بأنها تضر وتنفع ، لأن يقينهم هذا لا يستند إلى أساس صحيح ، وكل يقين يستند الى التقليد وما اليه يجوز التعبير عنه بالظن ، وتكلمنا عن التقليد مفصلاً في ج ١ ص ٢٥٩ عند تفسير الآية ١٧٠ من سورة البقرة .

(ان الظن لا يغني من الحق شيئاً) ليس المراد بالظن هنا عدم القطع والجزم، كما يبدو للوهلة الأولى ، وإنما المراد به الإيمان بأصل من أصول الدين ، أو بفرع من فروعه بلا دليل من العقل أو الوحي ، حتى ولو بلغ هذا الإيمان مبلغ القطع والجزم ، كتقليد المشركين في عبادة الاصنام ، والحساد للملحدين قبل أن ينظروا ويبحثوا عن سبب الكون ووجوده ، وما فيه من نظام وانسجام ، وهل كان بالصدفة أو بتدبير عليم حكيم ؟ .

وهذه الآية واضحة الدلالة على نفي القياس وبطلانه فيما يرجع إلى القضايا الدينية، لأنه عمل بالظن الذي لا يغني عن الحق في أصول العقيدة ، وأحكام الشريعة . أما القضايا الزمنية ، والشؤون الدنيوية فخارجة عن موضوع الآية . وكيف ينهى الله عن اتباع الظن في الزراعة والتجارة والعلاقات الاجتماعية ؟ .. ولو وقف الناس في كل شيء عند العلم واليقين فقط لتعطلت الحياة .. أجل ، لا يجوز

إدانة أحد بشيء وتجريمه والشهادة عليه إلا بعد العلم، والسر هو الحرص على أن تسر الحياة في طريقها القويم ، وبالاختصار ان اتباع الظن حتم في موارد ، ونهي في موارد ، وصاحبه بالخيار في موارد أخرى .. ومن أحب معرفة التفاصيل فليرجع إلى كتاب فرائد الأصول المعروف بالرسائل للشيخ العظيم الأنصاري ، فقد تعمق في بحثه ، واستغرق حوالى ١٥٠ صفحة بالقياس الكبير .

(ان الله عليم بما يفعلون) . هذا تهديد للمشركين الذين اتبعوا الظن في عبادة الأصنام وتكذيب النبي (ص) دون أن يقيسوا ظنهم هذا بمقياس الفطرة والعقل ، وهو أيضاً تهديد لكل من يتبع الظن في أمر من أمور الدين .

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) لاعجازه في الأسلوب ، ولما فيه من علوم وشريعة انسانية ، وآداب اجتماعية ، وإخبار بالغيب ، وما الى ذلك مما يستحيل معه ان يكون من عند غير الله (ولكن تصديق الذي بين يديه) مما تقدمه من الكتب الإلهية (وتفصيل الكتاب) المراد بالكتاب هنا كل ما شرّعه الله مما يحتاجه الانسان لسعادته دنياً وآخرة (لا ريب فيه من رب العالمين) أي لا ينبغي لعاقل ان يرتاب في كتاب الله ، وقد حوى من المعجزات والآيات ما تدعّن له الفطرة الصافية والعقل السليم .

(ام يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) . سبق نظيره مع التفسير المفصل في سورة البقرة الآية ٢٣ ج ١ ص ٦٤ .

(بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) هذا هو شأن الجاهل الأرعن يسرع الى التصديق أو التكذيب قبل أن يتأمل ويتدبر ، وفي قوله : (بما لم يحيطوا بعلمه) اشارة الى ان العاقل لا يثبت شيئاً ولا ينتفيه الا بعد أن يدرسه بروية وهلوه دراسة شاملة كاملة من جميع جهاته (ولما يأتيهم تأويله) أي ان المشركين كذبوا بالقرآن قبل أن يعرفوا ما فيه من حقائق وأسرار، ولو انهم عقلوا تعاليمه وأحكامه لصدّقوا به إن كانوا من طلاب الحقيقة .

وجاء في مجمع البيان : « قيل : ان أمير المؤمنين علي (ع) أخذ من هذه الآية قوله : الناس أعداء ما جهلوا ، وأخذ قوله : قيمة كل امرئ ما يحسن

من قوله تعالى : « فاعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » ، وأخذ قوله : تكلموا تعرفوا من قوله سبحانه : « ولتعرفنهم في لحن القول » .

(كذلك كذب الذين من قبلهم) كقوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم ممن كذبوا رسلهم قبل أن يدركوا حقيقة ما جاؤوهم به من الخير والرشاد (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) من الهلاك والوبال : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين - ٤٥ الأنعام » .

ومنهم من يؤمن به الآية ٤٠ - ٤٤ :

وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ *
وَأِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا
بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ
وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ
وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

المعنى :

(ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به) . ضمير منهم يعود الى المشركين ، وضمير به يعود الى القرآن ، والمعنى ان المشركين بالنظر الى القرآن على قسمين : قسم ترك الشرك وآمن بكتاب الله مخلصاً ، وبدية ان الايمان بكتاب

سورة يونس

الله ايمان بالله وبمحمد (ص) . وقسم أصر على الشرك عناداً وحرصاً على منافعه ، وهؤلاء هم الذين هددهم الله بقوله : (وربك أعلم بالمفسدين) وهذا يومئذ الى أن كلمة مفسد لا تختص بمن يفتن بين الناس أو يعتدي عليهم ، بل تعم كل من عرف الحق ، ولم يعمل به .

(وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) . سألتني كثير من المؤمنين عن واجبه الشرعي تجاه أبنائهم الذين جرفتهم تيارات التمدين ، ونهاونوا في الدين وأحكامه .. فأجبتهم بأن على الوالد أن يربي أولاده الصغار على الدين ، وينشئهم على مبادئه الضرورية ، فيلقنهم أصول العقيدة ، ويمرهم على العبادة الواجبة كالصلاة والصيام ، ومعرفة الحرام كالكذب والغيبة وتعاطي المسكرات وما إليها الى ان يبلغوا راشدين ، فإن قصر في هذا الدور كان مسؤولاً أمام الله .. وبعد الرشد يقف معهم موقف البشير النذير ، فإن لم يستجيبوا فهو معذور عند الله ، ثم اتلوا هذه الآية ، أو ما في معناها من الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - ٢٩ الكهف » ، وقول الرسول الأعظم (ص) : « الولد سيد سبع سنين ، وعبد سبع سنين ، ووزير سبع سنين ، فإن رضيت خلقة لحدى وعشرين سنة والا فاضرب على جنبه ، فقد اعترت الى الله تعالى » . أي يترك الولد في السبع الأولى لصفر سنه ، ويؤدب في السبع الثانية كمن لا ارادة له ، ويوجه في السبع الثالثة كمستقل ، وقوله : فاضرب على جنبه كناية عن اليأس منه ، وان الوالد غير مسؤول عن سيئات ولده .

(ومنهم من يستمعون اليك) أي ان من المشركين أو المكذبين من يستمعون الى النبي (ص) بأذانهم فقط ، أما قلوبهم وعقولهم فهي غائبة عنه ، تماماً كمن لا سمع له (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) كلام الله وكلامك أيها الرسول .. نزل الله سبحانه من سمع ولم يفهم ، أو فهم ولم يعمل - نزله منزلة من لا سمع له ، لأن الغاية من حاسة السمع الاستفادة منها ، والانتفاع بها ، فإذا لم تتحقق هذه الغاية كان وجود الحاسة وعدمها سواء .

(ومنهم من ينظر اليك) بأبصارهم ، ولكنهم لا يعرفون قدرك ومقامك

أما الرسول ، حتى كأنهم بلا أبصار (أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون)
أي كما أنك لا تقدر أن تجعل الأصم سمياً ، والأعمى بصيراً كذلك لا تستطيع أن
تهدي بالقرآن من يستمع وينظر إليه واليك من خلال أهوائه وأغراضه .. وقديماً
قيل : الهوى يعمي ويصم .

(أن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون) . ما في ذلك
ريب ، لأن الله أعطاهم القدرة والادراك ، وبيّن لهم طريق الخير والشر، فنهاهم
عن هذا ، وأمرهم بذلك ، وجعل الخيار بأيديهم ، فمن أطاع فقد اختار لنفسه
النجاة، ومن عصى فقد اختار لها الهلاك .. وغريب أن تخفى هذه الحقيقة الواضحة
على الأشاعرة ، ويدركها إبليس اللعين ، حيث يقول لأتباعه يوم لا كذب ولا
خداع : « فلا تلووني ولوموا أنفسكم - ٢٢ إبراهيم » .

ويوم يحشرهم الآية ٤٥ - ٤٧ :

وَيَوْمَ يُحْشَرُّهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ
خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * وَإِنَّمَا نُزِّيْنَاكَ بَعْضَ
الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ *
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ *

الإعراب :

يوم مفعول لفعل محذوف أي انلهم يوم نحشرهم . وكان مخففة من التثنية،
واسمها محذوف أي كأنهم . وساعة ظرف متعلق بيلبثوا . ومن النهار متعلق بمحذوف

صفة لساعة ، وجملة كأنهم وما بعدها حال من ضمير يحشرهم ، أي مشبهين من لم يلبث إلا ساعة . وإنما مركبة من كلمتين ان الشرطية وما الزائدة، وجواب الشرط فلينا مرجعهم . وثم هنا للترتيب لفظاً ، لا معنى .

المعنى :

(ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار) . قوله : ساعة من النهار كناية عن ان الحياة وان طالت وطابت فهي قصيرة الأمد ، لأنها إلى فناء .. وأقوال الناس في ذم الدنيا ثراً وشعراً تستغرق مجلدات .. وغريبة الغرائب انهم يجمعون قولاً على ذمها ، وعملاً على حبها ، فيجمعون بين الذم وحب المذموم . بل لو رُدوا الى الدنيا بعد الموت وأهواله لعادوا لما "سُهو" عنه ، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان الرجال لا تعرف بالأقوال .

(يتعارفون بينهم) . ظاهر اللفظ يدل على ان المجرمين يعرف بعضهم بعضاً يوم الحشر ، وبالأولى الطييون .

وتسأل : ألا يتنافى هذا بظاهره ، مع قوله تعالى : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت - ٢ الحج » ؟ .

الجواب : فرق بين يوم النشر والحشر ، وبين يوم القيامة الذي هو عبارة عن خراب الكون ودمساره ، وآية الحج تحكي حال الناس يوم القيامة ، وقوله تعالى : (يتعارفون بينهم) يحكي حالهم يوم الحشر .. هذا ، إلى أن مواقف الحشر كثيرة يملك الناس ادراكهم في موقف بخاصة عند الحساب ، ويفقدونه في مواقف ، كما لو عرضوا على النار (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) . كل من عمل لشيء لا وجود له ، أو أهمل ولم يعمل للشيء الموجود الذي يرتبط بكيانه ومصيره - فهو من الضالين الخاسرين . وهذه حال من عمل للدنيا دون الآخرة ، سواء أكذب بها ، أم صدق ولم يعمل لها .

(واما نريتك بعض الذي نعدمهم أو نتوفئك فلينا مرجعهم) . الخطاب في نريتك وتوفئك للنبي (ص) . وضمير نعدمهم ومرجعهم للذين كذبوا بنبوته ،

الجزء الحادي عشر

والمعنى ان الله سبحانه هدد وتوعد المكذبين بالخزي والذل على تكذيبهم ، وهذا الخزي واقع بهم لا محالة في حياة الرسول أو بعد وفاته ، وفي سائر الأحوال فان مصيرهم اليه تعالى ، فيعذبهم العذاب الأكبر (ثم الله شهيد على ما يفعلون) . أي مطلع على جميع أفعالهم ، لا يغيب شيء منها عن علمه : وسيجازيهم عليها بما يستحقون .

(ولكل أمة رسول) يبشرها وينذرها ، وبعد الانذار والاعذار يكون الحساب والعقاب ، إذ لا عقوبة من غير نص (فإذا جاء رسولهم) وبلغهم ما تجب معرفته عليهم من أمور الدين ، ولم يبق من عذر المعتذر (قضي بينهم بالقسط) فيحكم لمن استجاب لله ورسوله بالفوز والثواب ، وعلى من أعرض ونأى بالخذلان والعقاب (وهم لا يظلمون) فلا نقصان من ثواب من أطاع ، وقد يزداد ، ولا زيادة في عقاب من عصى ، وقد تشمله الرحمة ، وهذا المعنى يدل عليه قوله تعالى : (بالقسط) ولكن من عادة القرآن أن يؤكد كل ما يتصل بالآخرة وثوابها وعقابها .

مضى هذا الوعد الآية ٤٨ - ٥٦ :

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَآتًا أَوْ نَحَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ

هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُخْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ تَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُجِيبُ وَيُخَيِّتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

الإعراب :

متى هذا الوعد ، هذا مبتدأ مؤخر ، ومتى خبر مقدم ، والوعد عطف بيان . وما شاء الله (ما) مصدرية والمصدر المنسبك مجرور بباء محذوفة ، أي بمشيئة الله . وبيانا ظرف زمان أي ليلاً والعامل فيه أناكم . وماذا يستعجل مبتدأ وخبر أي ما الذي ، ويجوز أن تكون ماذا كلمة واحدة بمعنى أي شيء : وعليه يكون محلها النصب يستعجل . ثم حرف عطف وتقدم همزة الاستفهام كما تقدم على الواو والفاء بقصد التقرير والتقريع . والآن كلمتان همزة الاستفهام والآن ظرف زمان متعلق بآمنتم محذوفة أي آلا آمنتم ، ولا تتعلق بآمنتم المتقدمة على همزة الاستفهام لأن النحاة قالوا : الاستفهام يمنع الفعل من العمل فيما بعده . وهو مبتدأ مؤخر ، وحق خبر مقدم . وإي حرف جواب بمعنى نعم في القسم خاصة . وانه لحق جواب القسم . والمصدر المنسبك من ان لكل نفس فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت . وألا ان (ألا) أداة تنبيه .

المعنى :

(ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) . في الآية السابقة ٤٥ هدد سبحانه المكذبين بلفائه ، هددهم بأنه سيحييهم بعد الموت، ويعاقبهم على تكذيبهم .

وفي هذه الآية ٤٨ أشار تعالى الى انهم أجابوا عن هذا التهديد بقولهم استخفافاً واستهزاء : متى يكون ذلك ؟ . (قل لا املك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله) أي انكم تسألوني عن شيء لا املك من امره شيئاً ، بل ولا من أمر نفسي ، فبالأولى غيرها . وتقدم نظيره في سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . تقدم مثله في سورة الأعراف الآية ٣٣ ، وتكلمنا عن الأجل مفصلاً في ج ٢ ص ١٧١ فقرة « الأجل محتوم » عند تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران . (قل أرأيتم ان اتاكم عذابه بياناً او نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون) . أرأيتم معناها اخبروني .. كذب المشركون بعذاب الآخرة ، واستعجلوه مستهزئين ، فأمر الله نبيه ان يقول لهم : استعجلوني ما انتم صانعون اذا نزل بكم العذاب ، وانتم ايقاظ او نيام ، ثم اي عذاب تستعجلون اي ما الحمقى ؟ هل تستعجلون عذاب الدنيا ، او عذاب الآخرة ؟ وايأ كان هل تقدرون على دفعه والخلص منه ؟ وهل من احد يستطيع الفرار من الله الا اليه ؟ .

(أثم اذا ما وقع آمنتم به) . لقد شاهدنا كثيراً من الحمقى يحاولون الاقدام على الأخطار والمهالك ، او يجمعون عما فيه خيرهم وصلاحهم ، فينصحهم العقلاء المشفقون ، ويحذرونهم سوء العواقب ، فيصمون آذانهم ، ويركبون عنادهم ، يفعلون الشر ، او يتركون الخير مستخفين بالعاقبة ومن حذر منها ، حتى اذا وقعت الواقعة قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا في نصيح الناصحين .. وهذا هو بالذات حال المكذبين باليوم الآخر ، كذبوا به ، حيث ينفعهم التصديق والعمل ، وصدقوا به ، حيث لا عمل ولا جلوى من الاعتراف والتصديق .

(آلآن وقد كنتم به تستعجلون) آلآن وانتم في يوم الحساب والعقاب الذي لا ايمان فيه ولا عمل تعرفون وتؤمنون ، وفي يوم الايمان والعمل انكرتم واعرضتم ؟ . ان الايمان بالله واليوم الآخر هو الاعتراف بهما في علم الغيب ، اما الاعتراف بهما بعد الرؤية وجهاً لوجه فما هو من الايمان المطلوب في شيء ، وان استحال القرض بالنسبة الى رؤيته تعالى .

(ثم قبل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد) . السجن المؤبد في الحياة الدنيا

سورة يونس

يتهي بالموت ، اما من سجن في جهنم فلا يُقضى عليه فيموت ، ولا يُخفف عنه من عذابها (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) . ولو عوقبوا بما لم يكسبوا لكان الله ظالماً .. حاشا من لا يشغله غضبه عن عدله .

بالله عليك يا محمد أنت نبي ؟

(ويستنبئونك أحق هو) العذاب الذي وعدتنا به (قل أي وربي انه الحق وما أنتم بمعجزين) . ذكر القرآن الكثير من الآيات والبيانات على نبوة محمد وصدقه في جميع أقواله وأفعاله ، منها آية التحدي بالقرآن ، ومنها آية المباهلة ، ومنها الآية ١٦ من هذه السورة : « فقد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » . ووجه الدلالة فيها أن من عرفه الناس بالأمانة والصدق والاستقامة أربعين عاماً فعليهم أن يصدقوه في جميع أقواله، حتى يثبت العكس .. وقد اشتهر النبي (ص) قبل البعثة بالصادق الأمين فعلى من عرفه بهذا الوصف ان يصدقه في دعوى النبوة انسجاماً مع علمه بأمانة محمد (ص) .. ولكن الأهواء والمآرب تحول بين المرء وقلبه وعقله .. أما الذين تجردوا عن الغايات والشهوات ، وطلبوا الحق لوجه الحق فقد آمنوا به منذ البداية ، ومن هؤلاء من اكتفى بمجرد قوله : أنا رسول الله ، ولم يطلب بيعة ولا يميناً معتمداً على السوابق كملي بن ابي طالب ، ومنهم من طلب البيعة ، ومنهم من اكتفى باليمين كضمام بن ثعلبة : قال الرواة : وفيهم الإمام ابن حنبل والبخاري ومسلم :

بينما رسول الله في المسجد اذ دخل رجل ، وقال : أيكم محمد ؟ فأرشد اليه . قال الرجل لمحمد (ص) : اني أسألك فشدد عليك في المسألة ، فلا تجد علي في نفسك .

النبي : سل ما بدا لك .

الرجل : أسألك ببرك ورب من قبلك : هل أرسلك الله الى الناس كلهم ؟

النبي : اللهم نعم .

الجزء الحادي عشر

الرجل : انشدك الله : هل أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم واليلة؟

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل أمرك أن تأخذ الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على

فقرائنا ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائي من قومي .. أنا ضام
ابن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . ثم خرج الرجل من المسجد ، وكان أشعر
ذا عقيصتين - العقيصه من الشعر المقتول والمجدول - فقال النبي (ص) : ان
صدق الرجل يدخل الجنة .

ولما أقدم على قومه اجتمعوا اليه : فكان أول كلامه ان قال : بثت اللات
والعزى . فقالوا : صه يا ضام ، اتق البرص والجذام . قال : ويلكم انهما ما
يضران ولا ينفعان ، ان الله قد بعث اليكم رسولا ، وأنزل كتابا استفتدكم به مما
كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد ان محمداً
عبده ورسوله ، قد جئكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

وكما آمن هو بمحمد من أيسر الطرق وأبسطها كذلك أسلم قومه رجالاً ونساء
من هذا الطريق بالذات . وهكذا كل من كان الحق بغيته وأمنيته يؤمن به بمجرد
أن تلوح دلائله ، من أي نحو أتت ، تماماً كصاحب الحاجة يعنى عن كل شيء
الا عنها .. وقدبما قيل : الحكمة ضالة المؤمن يأخذها انى وجدها . والمراد
بالمؤمن كل من يؤمن بالحق بمجرد ظهوره من غير كلفة ومشقة : والبلد الطيب
يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً - ٥٧ الأعراف .

(ولو ان لكل نفس ظلمت ما في الأرض لاقتدت به) من هول العذاب
وشدته ، ولا ينفعها قضاء شيئاً . والغرض من هذا الفرض التأكيد على انه لا
يجب في ذاك اليوم شيء الا الإيمان والعمل الصالح : ولا يقبل منها عدل ولا

تنفعها شفاعة ولا هم يُنصرون - ١٢٣ البقرة ، (واسروا الندامة لما رأوا العذاب) ولكن حيث لا ينفع الندم أسرّوه ، أم أعلنوه (وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) تقدم هذا بنصه الحرفي في الآية ٤٧ من هذه السورة ، وذكر هناك لمناسبة تحذير الرسول للمكذّبين ، وأعيد هنا لمناسبة عدم الجدوى من الفداء لو أمكن .

(ألا ان الله ما في السموات والأرض) يحكم ويفعل ما يشاء، ولا رادّ لمشيئته (ألا ان وعد الله حق) في مجيء اليوم الآخر وثوابه وعقابه ، وفي كل ما وعد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور .. وأكثر الذين يعلمون ويؤمنون بهذا البعث لا يعملون له . واذا كانت الأكثرية على وجه العموم لا تعلم ، وأكثرية والأقلية ، التي تعلم لا تعمل فالنتيجة الحتمية ان العالم العامل أندر من الذهب الأحمر .

(هو يحيي ويميت واليه ترجعون) . فيعاقب من علم ولم يعمل بعذاب أشد وأعظم من عذاب من أهدى وقصّر في طلب المعرفة من أجل العمل .. ان هذا مسؤول ما في ذلك ريب ، ولكن مسؤولية من ترك العمل بعلمه أعظم بكثير .. ان السعي لوفاء الدين واجب ومن تركه فهو آثم ، ولكن لثم من ترك ، وهو يملك المال بالفعل، أشد وأعظم .

قد جاءكم موعظة الآية ٥٧ - ٦٠ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ *

وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَنُورٌ فَضْلٍ
عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ*

الإعراب :

شفاء هنا مصدر بمعنى الفاعل أي شاف ، مثل رجل عدل بمعنى عادل .
وبفضل الله وبرحمته متعلق بفعل محذوف دل عليه الموجود ، أي قل : ليفرحوا
بفضل الله وبرحمته . وبذلك إشارة الى فضل الله ورحمته ، وتعلق بليفرحوا ،
والغرض من هذا التأكيد الإيماء الى ان الانسان لا ينبغي له ان يفرح بشيء الا
بفضل الله ورحمته . وما في قوله تعالى : ما أنزل الله للاستفهام الانكاري ، وموضعها
النصب بأنزل . وآله مركب من كلمتين : همزة الاستفهام ، ولفظ الجلالة ، أي
الله . وما ظن الذين (ما) مبتدأ ، وظن خبر .

المعنى :

(يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة
للمؤمنين) . هذه الأوصاف الأربعة : الموعظة والشفاء والهدى والرحمة هي أوصاف
القرآن الكريم ، والغرض من ذكرها الرد على المشركين ، وعلى كل من يرتاب
في كتاب الله ، ويرفض الاعتراف به ، ووجه الرد ان القرآن يعظ الناس بالموعظة
الحسنة ، ويشفي القلوب من الأهواء والرذائل ، ويهدي للتي هي أقوم ، وهو
رحمة تنجي من يؤمن به ويعمل من الهلاك والعذاب ، وعلى هذا فن رفضه فقد
رفض هذه المبادئ التي هي دعائم الحق والخير ، وسبل النجاة والأمان .

(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) . أي ان
العاقل لا يفرح بالمال وأسباب اللذات في هذه الحياة ، وانما يفرح ويغتبط بفضل
الله ورحمته .. وقد أطال المفسرون الكلام حول معنى فضل الله ورحمته ، وبيان

الفرق بينها .. وسياق الآية يدل على ان المراد بهما هنا الهداية الى طريق الخير والنجاة ، تماماً كالفضل والرحمة في قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك - ١١٢ النساء » . فقوله : (ان يضلوك) يدل على ان المراد بفضله ورحمته تعالى الهداية أو التثبيت عليها ، لأنها ضد الضلال ، ومثلها الآية ٦٤ من سورة البقرة : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » .

(قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً) . هذه الآية قريبة المعنى من الآية ١٠٣ من سورة المائدة التي مر تفسيرها في ج ٣ ص ١٣٧ ، ومحصل المعنى ان الله أمر نبيه أن يقول لمشركي مكة الذين جعلوا في الأنعام بحيرة وسائبة ، وما اليها ، أمره أن يقول لهم : اخبروني أي شيء وهب الله لكم من الرزق الذي جعل فيه حلالاً وحراماً ، حتى قسم هذا التقسيم ، والاستغهام هنا للانكار ، أي انه تعالى ما جعل شيئاً من هذا ، بل هو من عندياتكم فأنتم وحدكم حرّمتم ما حرمم (قل آله اذن لكم أم على الله تفترون) ، ولا يمكنهم الادعاء بأن الله أذن لهم فتعين انهم مفترون .

(وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) . أي هل يتصور الذين يحللون ويحرمون من تلقائهم ان الله يتركهم غداً بلا عقاب على كذبهم وافتراءهم؟ اذن لا فرق عنده بين من اتقى ومن عصى .. كيف ؟ وهو القائل : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار - ٢٨ ص » . وهذا التوبيخ والتفريع من أبلغ أساليب التهديد والوعيد .

(ان الله לנו فضل على الناس) بما انعم عليهم من العقل والشرع الذي أمرهم بالخير ، ونهاهم عن الشر (ولكن أكثرهم لا يشكرون) اي لا يعملون بوحى العقل ، ولا بحكم الشرع .

وما تكون في شأن الآية ٦١ - ٦٤ :

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ
إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَغْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ
مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

اللفظ :

الشأن والبال والحال بمعنى واحد ، تقول : ما شأنك ؟ وما بالك ؟ وما
حالك . تفيضون فيه تلخولون فيه . ويعزب يغيب . والذرة النملة الصغيرة ، وتطلق
أيضاً على الدقيقة من الغبار . والمراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ . والبشرى
والبشارة بمعنى واحد ، وهي الخبر السار .

الإعراب :

ألا أداة تنبيه . والذين آمنوا مبتدأ ، ولهم البشرى خبر . وفي الحياة الدنيا
وفي الآخرة متعلق بالبشرى . ولا تبديل (لا) نافية للجنس تعمل عمل ان ،
وتبديل اسمها ولكلمات الله خبرها .

المعنى :

(وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه) . الخطاب في تكون للنبي (ص) ، والضمير في منه للشأن ، وضمير تعملون للنبي وأمه ، وضمير فيه للعمل ، وتفيضون فيه أي تدخلون فيه ، والمعنى الجملي أن ما من حال يكون عليها النبي وأمه إلا وهي في علم الله (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين) . معنى يعزب يغيب ، والكتاب المبين اللوح المحفوظ، ويتلخص مجموع الآية بأن الله واسع عليم بكل شيء دون استثناء، والمراد بعلمه هنا جزاؤه على أقوال الناس وأفعالهم خيراً كانت أو شراً ، كبيرة كانت أو صغيرة ، واطلاق علمه على جزائه تعالى من باب اطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن علمه بما يصدر من الانسان سبب للجزاء عليه ، ان خيراً فخير، وان شراً فشر .

(ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . ووصف الإمام علي (ع) أولياء الله بقوله : « هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا اذا نظر الناس إلى ظاهرها ، واشتغلوا بأجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها ، فأماتوا ما خشوا أن يميتهم - أي الهوى - وتركوا منها ما علموا انه سيركهم » . وقال : « ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ، وان ولي محمد من أطاع الله وان بعدت لحمة ، وان عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته » . ومعنى هذا ان مجرد التصديق بلا تقوى وعمل لا يجدي نفعاً ، واليه يشير قوله تعالى : (الذين آمنوا وكانوا يتقون) . وتكلمنا عن ذلك في ج ١ ص ٣١٤ فقرة : « لا ايمان بلا تقوى » عند تفسير الآية ٢١٢ من سورة البقرة ، وفي ج ٢ ص ٢٣٧ فقرة « التقوى » في آخر سورة آل عمران .

(لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) . ضمير لهم يعود الى المتقين ، وبشارتهم في الدنيا من الله تعالى انهم على حق في عقيدتهم وعملهم ... وليس من شك ان النفس تطمئن وتستشعر الغبطة والسعادة اذا كانت على ثقة من دينها

وأعمالها ، أما بشارة المتقين في الآخرة فهي فرحتهم بنعمة الله وفضله : « يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين - ١٧١ آل عمران » .
 (لا تبديل لكلمات الله) لأن الله لا يخلف وعده ، وإذا أراد شيئاً فلا راد لمشيئته : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وان يردك بخبر فلا راد لفضله - ١٠٧ يونس » (ذلك هو الفوز العظيم) الذي ليس وراءه فوز، وكل فوز يأتي نتيجة للامعان بالحق والجهاد في سبيله فهو عظيم .

ان العزة لله جميعاً الآية ٦٥ - ٧٠ :

وَلَا يَخْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * أَلَا إِنَّ لِلَّهِ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ *
 مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا
 يَكْفُرُونَ *

اللغة :

العِزَّة الغلبة والقوة ، ويعز بفتح العين اذا اشتد وبكسرهما اذا صار نادراً .
والحرص الحسد والقول بلا علم . ومبصراً على سبيل المجاز أي مبصراً فيه ، مثل
ليل نائم أي فيه . والسلطان الحججة والبرهان .

الإعراب :

ان العزة لله جملة مستأنفة ، وليست مفعولاً للقول لأن النبي (ص) لا يحزنه
قولهم : العزة لله . وما يتبع (ما) نافية ، ومفعول يتبع محذوف أي ما يتبعون
شريك الله حقيقة ، لأن الله لا شريك له . إن يتبعون (ان) نافية . وان هم
مثلاً . والمصدر المنسبك من تسكنوا متعلق بمحذوف مفعولاً لجعل أي جعل الليل
مظلماً لسكنكم فيه . وان عندكم من سلطان (ان) نافية ، وعندكم خبر مقدم ،
ومن زائدة اعراباً ، وسلطان مبتدأ مؤخر ، وبهذا متعلق بسلطان . ومتاع في الدنيا
خبر مبتدأ محذوف أي ذلك متاع .

المعنى :

(ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعاً) . جن جنون المرابين وأرباب
الامتيازات من دعوة محمد (ص) الى العدل والمساواة ، وتحريم الظلم والاستغلال ،
جن جنونهم من هذه الدعوة التي تودي بجزم وراثتهم ، وهم يملكون السطوة
وخزائن الأرض .. فقاوموا النبي (ص) أول ما قاوموه بالافتراءات والاشاعات ،
وقالوا : هو مجنون . فاصدقهم أحد ، فقالوا : هو ساحر . فكذبهم الوقائع ،
فصمموا على اغتياله ، وتشاوروا في طريق الاغتيال ، فقال الله لنبيه الأكرم :
لا تبال بما يقولون عنك ، وما يدبرونه لك ، فإن القوة والعزة جميعاً لله ، لا
للإل ، ولا للجاه ، فهو الذي يعز من يشاء ، ويسذل من يشاء ، وسيستقم من
الذين كذبوك ، وقالوا عنك ما قالوا .. ولا يجدون ولياً ولا نصيراً يلدأ عنهم

قمة الله وغضبه (هو السميع) لافترائهم عليك (العليم) بما يدبرونه لك من الكيد .. وانه لهم بالمرصاد .

وتسأل : لقد دلت هذه الآية على ان العزة بكاملها لله وحده ، لا يشاركها فيها أحد ، مع ان الآية ٨ من سورة « المنافقون » تقول : « والله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ؟ .

الجواب : ان عزة الرسول والمؤمنين هي لله ومن الله ، فبه يعتزون ، ومنه يستملون .

(الا ان لله من في السموات ومن في الأرض) ومن كان له هذا الملك فهو قادر على نصرته نبيه ، واعزازه والانتقام من أعدائه .. وقال تعالى (من) ولم يقل (ما) لأن الكلام عن المشركين الذين افتروا الكذب على الله ونبيه (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء) . إذا اتبعت انساناً معتقداً بصلاحه ، وهو ضال في الواقع فأنت لا تتبع صالحاً ، بل ضالاً ، وهذه هي حال من يعبد الأصنام معتقداً بأنها شريكة لله .. انه لا يعبد شركاء الله لسبب واضح وبسيط ، وهو انه ليس لله شركاء ، ويوضح ارادة هذا المعنى قوله تعالى : (ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون) . وقوله : ان هم الا يخرصون تأكيد لقوله : ان يتبعون الا الظن ، والجملةتان تفسير وتوضيح لقوله : وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء. وسبق نظير هذه الآية مع البيان في الآية ٢٨ من هذه السورة.

(هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) . مبصراً أي نبصر فيه للكد والكدح ، أما الليل فظلام لأنه للسكن من متاعب النهار ، وأوضح تفسير لهذه الآية قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل – أي جعلناها مظلمة – وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم – ١٢ الاسراء » .

(قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون) . سبق مثله مع ذكر الأدلة على نفي الولد عنه تعالى في سورة البقرة الآية ١١٧ ج ١ ص ١٨٦ ، وتكلمنا عن الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس في ج ٢ ص ٣٤٤ .

سورة يونس

(قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) في الآخرة التي هي خير وأبقى من حياتنا هذه . ويكون عذابهم أشد ، وحسرتهم أعظم إذا كان افتراؤهم قولاً في ذات الله وصفاته ، ونسبة الشريك له والصاحبة والولد .

(متاع في الدنيا) أي ان ما فيه المشركون من نعيم هو متاع حقير ، وان كثر ما لهم ، واتسع جاههم ، لأنه قصير الأمد ، ومشوب بالمنغصات ، وما هو بشيء إذا قيس بنعيم الآخرة (ثم اليانا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) بالله ونعمه وتكذيب رسله .

نبأ نوح الآية ٧١ - ٧٣ :

وَأَنلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجِيعُوا أَمْرُكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُوا * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ *

اللغة :

النبأ الخبر الذي له شأن . واجمع الأمر عزم عليه من غير تردد . والغمة

الجزء الحادي عشر

ضيق الأمر الذي يوجب الحزن ، وضده الفرجة ، وتستعمل في السر ، يقال :
غم الهلال اذا حال الغيم دون رؤيته . وخلافت أي يخلفون من مضى .

الإعراب :

اذ ظرف في محل نصب بنبأ . وشركاءكم بالنصب عطفاً على أمركم بتقدير وأمر
شركاءكم . وان اجري (ان) نافية . والمصدر المنسبك من أن أكون مجرور بالباء
المحذوفة أي بكوني . وكيف في محل نصب خبراً لكان ، وعاقبة اسمها .

المعنى :

(وائل عليهم نبأ نوح) الخطاب في ائله لمحمد (ص) ، وضيمير عليهم
لمشركي مكة (اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات
الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم
اقضوا إلي ولا تنظيرون) . ذكر محمد (ص) المشركين من قومه ، وأنذرهم
بالعذاب الأليم ، فثقل عليهم تذكيره وإنذاره ، ولكنه أصر على دعوته ، فثقل
عليهم مقامه ، وحاولوا اغتياله ، فأمره الله أن يتلو عليهم خبر نوح الذي ذكر
قومه وأنذرهم ، فكبر عليهم تذكيره ومقامه ، تماماً كما كبر تذكير محمد ومقامه
على مشركي مكة .

ويتلخص نبأ نوح الذي تلاه محمد (ص) هنا على مشركي مكة بأن نوحاً تحلى
المكذبين له ، وقال لهم : اني متوكل على الله واثق بالنصر عليكم ، وان كنتم
أكثر عدداً ، وأقوى عدة ، لأن الله وعدني بنصره ، وهو لا يخلف الميعاد ،
أما تهديدكم إياي فإنه لا يثني عن المضي في الدعوة الى الله ، وما عليكم الا ان
تجمعوا كل ما تقدرون عليه ، وتضمو اليكم من تعبدون من دون الله ، وتبلغوا
كل غاية في الجهر بالعداء ، ومواجهتي بالشر والايذاء ، وتعجلوا ذلك ، ولا
تتظنوا .

(فإن توليتم فما سألتكم من أجر) أي فإن أعرضتم عن دعوتي فليست مبالغاً باعراضكم ، لأنه لا يجلب لي ضرراً ولا يفوت عليّ نفعاً (ان أجري الا على الله) لا عليكم ، لأنني عامل له ، لا لكم (وأمرت ان أكون من المسلمين) وقد أطعت وأديت رسالة الله على وجهها ، ولا شيء بعد هذا أسلمت أو كفرتم .

(فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) . وهكذا ينتهي كل شيء .. هلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين ، واستخلافهم مكان المكذبين المالكين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) . الخطاب للنبي (ص) ، والفرض منه أن يحذر مشركو مكة من ان يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح ، وسبق نظير هذه الآية في سورة الأعراف الآية ٧٢ .

ثم بعثنا من بعده رسلاً الآية ٧٤ - ٨٢ :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدَنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرُ مُبِينٍ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَنَكُونَ لَكُمْ الْكَابِرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ

إِنَّ اللَّهَ سَبِيْطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِيْنَ * وَيَحِقُّ لِلَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *

اللغة :

الملا أشراف القوم . والفت بفتح اللام الصَّرف عن الأمر أو إلى الأمر .

الإعراب :

المصدر المنسبك من ليؤمنوا متعلق بمحذوف خبراً لكانوا أي فا كانوا مريدين للإيمان . ومفعول أتقولون جملة محذوفة أي أتقولون للحق هو سحر ، ثم استأنف مستكراً أسحر هذا ، وسحر خبر مقدم ، وهذا مبتدأ مؤخر ، والجملة لا محل لها من الإعراب . وتكون عطفاً على لتلفتنا، والكبرياء اسم تكون ، ولكما خبرها ، وفي الأرض متعلق بالكبرياء . وبمؤمنين الباء زائدة إعراباً ، ومؤمنون خبر نحن . وما جئتم به السحر (ما) استفهامية ومحلها الرفع بالابتداء ، وجملة جئتم خبر ، والسحر بدل من (ما) على تقدير الاستفهام أي السحر ، مثل كم مالك أعشرون أم ثلاثون ؟.

المعنى :

(ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فا كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) . ضمير بعده يعود إلى نوح ، والمعنى ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً مثله إلى قومهم كإبراهيم وهود وصالح ، ومعهم الدلائل والمعجزات ، ولكن هذه المعجزات والدلائل لم تنتههم عن الشرك ، وتحولهم إلى الإيمان بوحدانية الله ، واليوم الآخر ، فلقد كذبوا بهما من قبل أن تأتيهم الرسل بالبينات ،

وظلوا على هذا التكذيب بعد مجيء الرسل وانذارهم ، تماماً كما كانوا مصرين على التكذيب بالوحدانية والبعث قبل مجيء الرسل اليهم ، وهذا هو المراد بقوله : (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) . وبكلمة انهم لم ينتقموا بعلم الرسل وهدايتهم .

حول الهداية والضلال :

(كذلك نطبع على قلوب المعتدين) . وتساءل : إذا كان الله هو الذي طبع على قلوبهم فكيف يعذبهم ؟ .

الجواب : لقد شاء الله سبحانه أن يكون للهداية طريقها الخاص ، وهو اتباع رسله ، وللضلالة طريقها كذلك ، وهو اتباع الهوى ، فمن مضى على طريق الرسل بلغ الهدى ، وكان حتماً من المهتدين : ومن مضى على طريق الهوى فهو حتماً من الضالين المعتدين ، تماماً كما قدر الله جل وعز أن من رمى بنفسه من علو شاهق فهو من المالكين ، وان من ألقى بها في البحر جاهلاً بفن السباحة فهو من الغارقين ، وبهذا الاعتبار أي ارتباط الطريقين بمشيئة الله صح اسناد الطبع والختم اليه تعالى ، وسبق الكلام عن ذلك أكثر من مرة ، وبعبارات شتى .

(ثم بعثنا من بعدهم) هذا الضمير يعود إلى الرسل الذين جاءوا بعد نوح (ع) موسى وهرون إلى فرعون وملكه بآياتنا) وهي المعجزات كالصا والبد البيضاء ، وقوله : (بعثنا) يدل بوضوح على ان هرون نبي مرسل تماماً كأخيه موسى ، وقيل : ان هرون يكبر موسى بثلاث سنوات (فاستكبروا) عن قبول الحق (وكانوا قوماً مجرمين) وكل من استنكف عن قبول الحق والرضوخ له فهو مجرم (فلما جاءهم الحق من عندنا) وهو المعجزات التي أظهرها الله على يد موسى (ع) (قالوا ان هذا لسحر مبين) وهكذا قال مشركو قريش عن محمد (ص) لما جاءهم بالقرآن واعجازه .. ومحال ان يسل المصلح من افتراءات المفسدين ، وهم يكيّفونها بحسب الزمن ، كان الناس من قبل يؤمنون بالسحر ، فقال المفترون عن المصلح : انه ساحر ، أما اليوم حيث لا إيمان بالسحر فلأنهم يقولون عنه فوضوي خارج على النظام ! .

الجزء الحادي عشر

(قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) كيف ؟ . والحق يستهدف هداية الناس الى الواقع ، والسحر يزيف الواقع ويحرفه ، ويضل الناس عنه (ولا يفلح الساحرون) وهل يفلح المشعوذ الدجال ؟ . (قالو أجتئنا لتلفتنا - أي تصرفنا - عما وجدنا عليه آباءنا) . هذه معزوفة يرددها من يحافظ على الأوضاع الفاسدة التي تضمن له منافعه ومكاسبه.. فالمسألة مسألة خوف على المصالح والسلطان ، لا مسألة آباء وأصنام .. والدليل ما حكاه الله عنهم بقوله : (لتكون لكما الكبرياء في الأرض) . هذا قول فرعون وجلاوزته لموسى وأخيه (ع) ، والمعنى ان الدافع لكما على ادعاء الرسالة من الله هو ان يكون لكما الملك والسلطنة في أرض مصر من دوننا .. وبهذا يفصح فرعون وملؤه عن تخوفهم على ملكهم وطيغاتهم ، ولذا قالوا لموسى وهرون ، (وما نحن لكما بمؤمنين) بسل مقاومين ومحاربين دفاعاً عن منافعتنا وامتيازاتنا .

(وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) وهو لا يعلم ماذا ينجيء الدهر له فلما جاء السحرة قال لهم موسى (القوا ما أنتم ملقون) . قال هذا مستخفاً بهم وبسحرهم وفرعونهم لأن الله سبحانه وعده الفوز والنصر (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيطله) هو باطل من أصله ، ولكن الله سيظهر بطلانه للناس ، أما عصا موسى فلا يأتيها الباطل إطلاقاً لأنها حق من عند الله (ان الله لا يصلح عمل المفسدين) بل يزيله ويمحقه (ويحق الله الحق بكلماته) وهي الحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة (ولو كره المجرمون) لأن كراحتهم لا تعطل مشيئة الله .

فما آمن لموسى الآية ٨٣ - ٨٩ :

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ
أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ

مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *
فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا
مِنْ رِّحْتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * وَأَوْحِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا
لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُبُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ
دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ *

اللغة :

الذرية النسل . والفتنة الابتلاء والاختبار . وعالٍ في الأرض أي مستبد .
وتبوء المكان أقام فيه . والقبلة ما يكون تلقاء الوجه ، ومنه قبلة الصلاة . والطمس
الازالة . واشدد هنا مأخوذة من الشدة ضد الرخاء والراحة .

الإعراب :

على خوف متعلق بمحذوف حالاً من ذرية . وضيمير ملتهم يعود على قوم
موسى ، لأنهم أقرب من الذرية لفظاً ، والضمير يعود الى الأكراب . والمصدر
المنسبك من ان يفتنهم بدل اشتغال من فرعون . وبيا قوم أصله يا قومي ، وحلفت
الياء تخفيفاً . وان تبوءا (ان) بمعنى أي مفسرة لأوحينا ، وتبوءا فعل أمر بمعنى
اجعلا ، ولقومكما اللام زائدة اعراباً وقومكما مفعول أول ويبوءا مفعول ثانٍ .

الجزء الحادي عشر

ومصر ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث ، ويجوز أن تصرف لخفتها كما تصرف هند . والخطاب في اجعلوا واقموا لموسى وأخيه ومن تبعها . والخطاب في بشر موسى . واللام في ليضلوا للعاقبة . فلا يؤمنوا عطف على ليضلوا ، وما بينهما دعاء مفترض . ولا تتبعان اللام ناهية ، والفعل مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، وعمله الجزم .

المعنى :

(فا آمن موسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم). بعد أن ألقى موسى العصا ، وظهر الله الحق على يده في مشهد عام آمن الصحرة وخلق كثير ، أما قبل إلقاء العصا فقد آمن به الفتيان والشبان من بني اسرائيل ، لأن الشباب من كل قوم كانوا وما زالوا يتحمسون لكل جديد ، ولكنهم آمنوا بموسى ، وهم خائفون من فرعون ومن رؤوس الاسرائيليين أيضاً ان يضطهدوهم ويعذبوهم ليرتلوا عن دينهم ، فلقد كان أرباب المصالح من اليهود يتآمرون مع فرعون ، ويناصرونه على المستضعفين من قومهم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل الأديان في كل زمان ومكان (وان فرعون لعال في الأرض) أي طاغية مستبد (وانه لمن المسرفين) لا يقف في استبداده وطفانيه عند حد .

(وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين) . موسى (ع) أعزل من كل شيء إلا من الحق ، وفرعون يملك كل شيء إلا الحق ، وقد تسلط على من آمن بموسى يضطهدهم وينكل بهم ، فقال لهم موسى : لا قوة لي ولا لكم تصد طغيان فرعون عنكم وظلمه لكم إلا التوكل على الله ، والثقة بوعده ان العاقبة للمتقين ، فسلموا الأمر اليه ان كنتم مطيعين حقاً لأوامره . وقد ذكر لهم ثلاثة أوصاف : الايمان ، وهو التصديق في القلب ، والاسلام ، والمراد به هنا الانقياد والاستسلام لأمره تعالى ، والتوكل ، وهو الاخلاص والتفويض الى الله وحده .. فن جمع هذه الأوصاف كان الله معه .

(فقالوا على الله توكلنا) وتركنا اليه أمرنا ، فهو أعلم بحالنا وصالحنا ، وهو

على كل شيء قدير . (ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين) . المراد بالظالمين هنا الكافرون ، وهم فرعون وقومه ، أما الفتنة فالمراد بها العذاب ، والمعنى لا نجعلنا محلاً لعذابهم (ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) . المراد بالكافرين الظالمون ، وهم فرعون وقومه الذين اضطهدوا وظلموا بني اسرائيل ، والمراد بالنجاة الخلاص من ظلمهم واضطهادهم ، وعليه تكون هذه الآية تفسيراً للتي قبلها .

(وأوحينا إلى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً) . أي لا تخرجا من مصر ، وابقيا فيها ، واتخذا مساكن لبني اسرائيل يأوون اليها ، ويمتصمون بها (واجعلوا بيوتكم قبلة) الخطاب لموسى وأخيه ومن تبعهما . وقيل : معناه اجعلوا بيوتكم متقابلة في جهة واحدة ، أي اسكنوا جميعاً في حي واحد ، وهذا التفسير أرجح من تفسير البيوت بالمساجد ، أي اجعلوا بيوتكم مساجد ، ووجه الرجحان ان البيوت غير المساجد ، فهذه للعبادة فقط ، وتلك للسكن (وأقيموا الصلاة) لأنها ترمز إلى الاخلاص لله ، وتجمع القلوب على الاحساس المتحد (وبشر المؤمنين) بالنجاة من فرعون وملكه في الدنيا وبالجنة في الآخرة ، وخص الخطاب بموسى وحده لأنه الأصل في الرسالة ، وهرون تبع له .

(وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا) . نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون شيئاً عما تحتويه قبور الفراعنة ، ثم كشف الحفر والتنقيب فيها عن هذه الأموال والزينة التي نص عليها القرآن ، وهذا شاهد محسوس لا يقبل الشك والريب في ان القرآن وحى من علام الغيوب . (ربنا ليضلوا عن سبيلك) اللام في ليضلوا للعاقبة مثل لدوا للموت وابنوا للخراب أي كانت نتيجة انعام الله عليهم بالزينة والمال ان عصوه بدلاً من أن يطيعوه .

(ربنا اطمس على أموالهم) بمحقها وتدميرها .. وقد يظن ظان ان في هذا الدعاء إيماء إلى ان موسى طلب من الله ان يمنع الغنى والترف عن أهل البني والفسلال كيلا يزدادوا بغياً وطغياناً .. ولكن الذنب ذنب الأوضاع الفاسدة التي نهى الله عنها . وبسطنا الكلام عن ذلك في ج ٣ ص ٩٤ فقرة : الرزق وفساد الأوضاع عند تفسير الآية ٦٦ من المائدة .

(واشدد على قلوبهم) قيل : معناها واطيع على قلوبهم . وقيل : بل المراد

الجزء الحادي عشر

ثبتهم على المقام في بلدهم ، حتى يروا هلاك أموالهم رأي العين ، والذي نراه أن اشدد هنا مأخوذة من الشدة والبلاء ضد الراحة والرخاء ، أي ان موسى (ع) سأل الله تعالى أن ينزل الشدائد على قلوبهم ، وهذا يتناسب تماماً مع سؤاله ان ينزلها الله على أموالهم . (فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) . هذه الجملة معطوفة على ليضلوا عن سبيلك ، والمعنى ان عاقبة قلب فرعون وملئه في نعم الله ان ضلوا وأصروا على الكفر ، وان لا يؤمنوا إلا عند حلول العذاب حيث لا يقبل الإيمان .. وليس من شك ان موسى (ع) ما دعا عليهم وقال هذا القول إلا بعد اليأس من صلاحهم .

(قال قد أجيبت دعوتكما) وهي انزال الآفات على أموال فرعون وملئه ، والمصائب والشدائد على قلوبهم (فاستقيا) على الطريقة التي انما عليها من الجهاد في سبيل الدعوة الى الحق . (ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) عظمة الله وحكمته .. وجاز هنا نهي المعصوم عن الذنب لأنه من الله ، لا من سواه ، فإن من شأن الأعلى أن يأمر وينهى من دونه كائنه ما تكون منزلته .

وجاوزنا بني اسرائيل البحر الآية ٩٠ - ٩٣ :

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا
حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ
إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ
الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُنَا لِنَكُونَ لَكَ خُلَفَاءَ آيَةً وَإِن
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ * وَلَقَدْ يَوَّضْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوًّا

صَدَقَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ
يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ★

اللغة :

ننجيك من النجوة ، وهي المكان المرتفع من الأرض . والمراد بآية هنا العبرة
والعظة . ومبرأ صدق أي متزلاً صالحاً، والعرب يضيفون الشيء الجيد إلى الصلوق.

الإعراب :

بيني اسرائيل الباء للتعدية ، وبغياً وعدواً مفعول لأجله لانبعهم . وآلان مركبة
من كلمتين : همزة الاستفهام والآن اي الآن ، والظرف متعلق بمحذوف اي
آلان تؤمن . ومبرأ صدق منصوب على الظرفية بيوأنا ان أريد به المكان ، وان
أريد به المصدر فهو مفعول مطلق .

المعنى :

(وجاوزنا بني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً) سبق نظيره
في سورة البقرة الآية ٥٠ وسورة الأعراف الآية ١٣٨ .

نهاية الطائفة :

(حتى اذا أدركه الفرق قال آمنت انه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل
وانا من المسلمين) . بالأمس كان ينتفخ فرعون ويقول : أنا ربكم الأعلى . وحين
أدركه الفرق قال : آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل ، ما كان أغناه عن

الجزء الحادي عشر

الحالين ؟. لا هذه ولا تلك ، فقد كان باب الطاعة مفتوحاً أمامه حين عصى ، أما الآن فلا طاعة ولا عصيان، إذ لا إرادة ولا اختيار .. وهذا هو شأن الخبيس اللئيم يتعاطم عند النعماء ، ويتصاغر عند البأساء .

والتاريخ يعيد نفسه ، وأعني بذلك سنة الله في خلقه التي أشار إليها مؤكداً بقوله : « فلن نجد لسنة الله تبديلاً » ولن نجد لسنة الله تحويلاً - ٤٣ فاطر .
واسرائيل اليوم تسير بمساندة الاستعمار على سنة فرعون بالذات .

كان فرعون يذبح أبناء بني اسرائيل ، ويستحيي نساءهم، وفعلت اسرائيل بأبناء الشعب الفلسطيني أكثر بكثير مما فعله فرعون .

وقال فرعون : أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟. وقالت اسرائيل : أليست لي فلسطين وخيراتها ، ومعها مرتفعات الجولان ، والضفة الغربية ؟.

وقال فرعون : أنا ربكم الأعلى . وقالت ربيبة الاستعمار وحرته ، ولا غالب لي اليوم . . ولم تمض الأيام ، حتى بدأت سنة الله تعمل عملها ، فن إغراق ايلات الى موقعة الكرامة، ومن تدمير مواقع الصواريخ لاسرائيل الى عمل الفدائيين الذي اضطر « دايان » الى القول : على اليهود ان يستعدوا لتوسيع قبورهم .. وسيقول عاجلاً أو آجلاً : آمنت بالذي آمن به العرب والمسلمون ، تماماً كما قال فرعون من قبل : آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل ، لأنها سارت على نفس الطريق الذي سار عليه ، وستكون نهايتها نهايته لا محالة .

وقد يقول قائل : ان الصراع مع اسرائيل طويل ومر . ونقول في جوابه أجل ، ولكن النصر النهائي لأصحاب الحق مهما طال الزمن ، والتاريخ البعيد والقريب يشهد بهذه الحقيقة من عهد فرعون وهامان الى عهد هتلر وموسيليني .

(آلآن) وبعد أن فات ما فات تقول : آمنت (وقد عصيت من قبل) حيث كان الخيار ييسدك في التوبة والرجوع الى الحق ، ولكنك طغيت وبغيت (وكنت من المفسدين) فلحق جزاء عملك بالفرق والملاك (فالיום ننجيكَ ببندك) لا بروحك ولنلقي بمجثك على نجوة من الأرض ليشاهدها من كان يعظم من شأنك (لتكون لمن خلفك آية) ينظ بها كل من تحدته نفسه بالسير على طريق القساد..

ولكن ما أكثر العبر ، وأقل الاعتبار ، ومن أجل هذا استدرك سبحانه ، وقال (وان كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) وغير مغفول عنهم .
 (ولقد بوأنا بني اسرائيل ميواً صدق) . والمراد بالصدق هنا الخصب بدليل قوله تعالى : (ورزقناهم من الطيبات) والمعنى اسكناهم بعد هلاك فرعون بلاداً خصبة طيبة ، واختلف المفسرون في تحديد هذه البلاد ، فمنهم من قال : هي فلسطين . ومنهم من قال : هي مصر ، وهذا هو الأرجح لقوله تعالى : « فأخرجناهم - اي فرعون وقومه - من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل - ٥٨ الشعراء » . فالآية صريحة في ان الله اسكن بني اسرائيل ديار فرعون وقومه .

(فاختلفوا حتى جاءهم العلم) . المراد بالعلم هنا التوراة كما نزلت على موسى (ع) ، وكان فيها الإخبار بنبوة محمد (ص) . وكان بنو اسرائيل قبل نزولها كلمة واحدة في كفرهم وضلالهم ، وبعد ان جاءهم التوراة اختلفوا فيما بينهم على عهد موسى وبعده ، فقد تمرد عليه أكثرهم ، وعبدوا العجل ، وقالوا له : أرنا الله جهرة .. واذهب أنت وربك ، الى غير ذلك مما سجله عليهم القرآن (ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) حيث لا كذب في ذلك اليوم ، ولا رياء ، ولا شيء إلا الحق يظهر للجميع جلياً واضحاً .

فإن كنت في شك الآية ٩٤ - ٩٧ :

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ *

الإعراب :

النون في قوله : فلا تكونن للتأكيد ، ودخلت على المضارع لمكان لا الناهية .
وحتى يروا أي ان يروا . ويروا هنا تتعدى إلى مفعول واحد لأنها بصرية ، لا
قلية .

المعنى :

(فلان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) .
المراد بالذين يقرأون الكتاب علماء الانجيل والتوراة ، والشيء المسؤول عنه هو ما
جاء في القرآن من قصة موسى وغيره من الأنبياء بقرينة السياق ، لأن الآيات نزلت
في قصة موسى مع فرعون .

وتسأل : ما هو الوجه في قوله تعالى لنبه الأكرم : (ان كنت في شك)
مع العلم ان النبي لا يشك في ذلك ، كيف ؟ وقد تحمّل من الأذى في سبيل
رسالته ما لم يتحمّله نبي ولا مصلح .

الجواب : الوجه ان يقول النبي (ص) لمن يشك فيما ذكره القرآن من قصة
موسى وغيره من الأنبياء ، ان يقول له : اسأل عن ذلك العلماء المنصفين من أهل
الكتاب ، فإنه ثابت في التوراة والانجيل ، تماماً كما جاء في القرآن .

(لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين
كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين) . المراد بالامتناء الشك ، والمعنى بلتسخ
الناس يا محمد ان من يشك أو يكذب بالحق الذي أنزل اليك فهو من المذنبين
الخاسرين يوم القيامة .. وعبر سبحانه عن هذا المعنى بنهي النبي عن الشك
والتكذيب ليقول محمد (ص) للناس : أنا بشر مثلكم وواحد منكم أحاسب وأعاقب
كأي انسان يشك أو يكذب بآيات الله اذا أنا شككت وكذبت .. وهذا الأسلوب
هو أبلغ الأساليب وأنجحها في الدعوة الى الحق الذي تتساوى أمامه جميع الناس .
(ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى

يروا العذاب الأليم) . المراد بكلمة ربك هنا العذاب، ولا يؤمنون خبر ان الذين حققت عليهم ، والمعنى ان الذين يعذبهم الله هم الذين لا يؤمنون بالحق بحال ، حتى ولو قام عليه ألف دليل .. اللهم إلا إذا شاهدوا العذاب وأيقنوا به .. ومعلوم ان الإيمان في هذه الحال لا يجدي شيئاً ، لأنه تماماً كإيمان فرعون حين أدركه الغرق ، وتقدم الكلام عنه قريباً في الآية ٩٠ .

قوم يونس الآية ٩٨ - ١٠٠ :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ * وَلَوْ
شَاءَ رَبُّكَ لَآ مَنَ مَنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَقَاتَ نُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلَ
الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ *

اللغة :

الخزي الذل . والحين مدة من الزمن ، والمراد به هنا العمر الطبيعي للانسان .
والرجس الشيء القذر ، والمراد به هنا الكفر .

الإعراب :

لولا بمعنى هلا ، وتستعمل على وجهين : الأول الطلب مثل لولا تأتينا .
الثاني التوبيخ مثل لولا امتنعت عن ضلالك . وقرية على حذف مضاف أي أهل

قرية . وقوم يونس منصوب على الاستثناء المنقطع اي لكن قوم يونس ، ويونس ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة .

القصة :

وصف الله سبحانه يونس بأنه من المرسلين والصالحين ، وبصاحب الحوت ، وبذي النون أي الحوت ، وأيضاً وصفه بالمغاضب لقومه ، لأنه دعاهم إلى الإيمان فلم يستجيبوا له ، فدعا الله عليهم ، ورحل عنهم يائساً من إيمانهم .. وفي سورة القلم أمر الله نبيه محمداً (ص) أن يصبر ولا يتعجل بالدعاء على قومه بالعذاب كما فعل يونس : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم - ٤٨ القلم » .

أما قوم يونس فقد زاد عددهم على مئة ألف : « وأرسلناه الى مئة ألف أو يزيدون - ١٤٧ الصافات » . وقال الرواة والمفسرون : ان قوم يونس كانوا يقيمون بنيوى من أرض الموصل ، وانهم كانوا يعبدون الأصنام ، فنهاهم يونس عن الكفر ، وأمرهم بالتوحيد ، فأصرروا على الشرك شأنهم في ذلك شأن من تقدمهم من اقوام الأنبياء .

وبعد ان رحل يونس عن قومه اتهم نذر العذاب ، وطلّاع الهلاك من السماء فتأبوا الى الله ، ودعوه مخلصين ان يكشف عنهم العذاب ، ففعل ، وأبقاهم الى انقضاء آجالهم ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) .

وقال المفسرون : ان قوم يونس لبسوا المسوح ، وخرجوا الى الصحراء ، ومعهم النساء والأطفال والدواب ، وفرقوا بين كلى والدة ولدها انساناً وحيواناً ، فحن بعضها إلى بعض ، وعلت اصواتها ، واختلطت اصوات الآدميين بأصوات الحيوانات ، فرفع الله عنهم العذاب ، ورجعوا الى ديارهم آمنين .

أما يونس فقد ضرب في الأرض ، حتى انتهى الى ساحل البحر، فوجد جماعة في سفينة ، فسألهم ان يصحبوه ، ففعلوا ، ولما توسطوا البحر بعث الله عليهم

سورة يونس

حوتاً عظيماً حبس عليهم سفيتتهم ، فأيقنوا انه يطلب واحداً منهم ، فانفقوا على الاقتراع ، فوقع السهم على يونس ، فألقوه أو ألقى هو نفسه في البحر ، فابتلعه الحوت ، كما جاء في سورة الصافات : وان يونس لمن المرسلين اذ ابق - اي هرب - الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين - اي المغلوبين بالقرعة - فالتصم الحوت وهو مليم . اي وهو يلوم نفسه .

وألم الله الحوت ان يطوي يونس في بطنه ، دون ان يمسه بأذى، وفزع يونس الى ربه يناديه ويستجير به ، وهو في جوف الحوت^١، والى هذا أشارت الآية ٨٧ من سورة الأنبياء : « فنادى في الظلمات ان لا إله إلا انت سبحانك اني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » .

ثم نبذ الله الحوت على ساحل البحر بعد ان لبث في جوفه ما شاء الله ان يلبث. قال المفسرون : ان يونس خرج من بطن الحوت كالفرخ الممتط، وان الله أنبت عليه شجرة من يقطين يستظل بها ، وذلك حيث يقول عز من قائل : « فلولا أنه كان من المسبحين لبث في بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء - اي في مكان خالٍ من النبات - وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين - ١٤٦ الصافات » . قالوا ، وعاد يونس بعد هذا الى قومه ، ففرحوا بقدومه ، وفرح هو بإيمانهم . (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) . أي لو شاء الله ان يكره الناس على الايمان ويلجئهم اليه لاجاء ، أو يخلقهم منذ البداية مؤمنين - لو شاء ذلك لما وجد كافر على ظهرها ، ولو فعل لبطل الثواب والعقاب ، وكان فعل الانسان كالثمرة على الشجرة .. وسبق نظير هذه الآية في سورة الأنعام : « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى - ٣٥ » .. « ولو شاء الله ما أشركوا - ١٠٧ » وفي سورة البقرة : « ولو شاء الله ما اقتل الذين من بعدهم - ٢٥٣ » . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في ج ١ ص ٣٨٨ .

(أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) الخطاب لمحمد (ص) ، والمعنى لقد شامت حكمته تعالى ان يكون الخيار في الانقياد الى الحق ، او عناده بيد

١ لو تنبه الى هذه الآية الكريمة الذين ينسبون المخترعات الحديثة الى القرآن لقالوا : ان حوت يونس يشير الى النواصة . انظر المجلد الأول من هذا التفسير ص ٣٨ ، فقرة « القرآن والعلم الحديث » .

الجزء الحادي عشر

الانسان ، ليمتيز الخبيث من الطيب ، ولا احد في مقدوره ان يعاند مشيئة الله ..
فعلام - اذن - نحزن وتذهب نفسك على كفرهم وعدم ايمانهم ؟ . والقصد من
هذا التخفيفُ عن الرسول الأعظم (ص) . وقد تكرر هذا المعنى في الكثير من
الآيات ، منها قوله تعالى : « وما انت عليهم بجبار - ٤٤ ق » اي بسلط ..
ان عليك الا البلاغ .

(وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله) . ان للانسان حالات ، ولكل سببها ،
ومنها الايمان ، وطريقة النظر الى آيات الله بوعي وتجرد ، فن أدركها
على وجهها وحقيقتها انتهى حتماً الى الايمان بحكم الله ومشيته، لأنه هو الذي جعل
التدبر لآياته سبباً للايمان به ، ومن أعرض عنها انتهى حتماً الى الكفر أيضاً بحكم
الله لأنه هو الذي جعل الإعراض عن آياته سبباً للكفر ، ولكنه تعالى جعل الخيار
في سلوك احد الطرفين بيد الانسان، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « قد أفلح
من زكّاها وقد خاب من دساها - ١٠ الشمس » اي ان الفلاح ثابت حتماً لمن
طهر نفسه من الأهواء والشهوات ، والخيبة ثابتة حتماً لمن دنسها بالأقذار والآثام.
(ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون) . المراد بالرجس هنا الكفر المقابل
للإيمان الذي هو بإذن الله، والمعنى ان الإعراض عن آيات الله وعدم تدبرها يؤدي
حتماً الى الكفر ، كما ان تدبرها يؤدي حتماً الى الايمان . وبهذا يتبين ان المراد
بإذن الله الايمان اللازم لادراك الدلائل والبيّنات التي أقامها الله على وجوده ، على
أن يكون مع هذا الادراك الانصاف والتجرد عن الغايات والأهواء .

وما نفني الآيات والنذر الآية ١٠١ - ١٠٦ :

قُلْ اَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ
قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ
قُلْ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا
كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي

شَكُّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ
اللَّهُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا
لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ *

اللغة :

النذر جمع نذير ، وهو الذي يحذر من العواقب . والحنيف المائل عن الباطل
الى الحق .

الإعراب :

ماذا (ما) استفهام مبتدأ ، وذا بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون الكلمتان
بمعنى أي شيء مبتدأ والخبر في السموات . وما تعني الآيات (ما) نافية وليست
باستفهام . وكذلك الكاف بمعنى مثل مفعول ننج ، اي مثل ذلك الانجاء ،
والاشارة هنا الى انجاء قوم يونس ، وحقاً منصوب على المصدر أي يحق حقاً ،
وعليها متعلق بحق او ييحق . والمصدر المنسبك من ان اكون مجرور بالباء المحذوفة.
ومثله وان اقم اي وبلاستقامة . وحذفت الياء من ننج للتخفيف ، وحنيفاً حال
من الدين .

المعنى :

(قل انظروا ماذا في السموات والأرض) لمناسبة ذكر الإيمان في الآية السابقة
امر سبحانه بالنظر في الكون وعجائبه لأنه السبيل الى معرفة الله والإيمان به .
وتقدمت آيات كثيرة بهذا المعنى (وما تعني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)

كل دليل على الحق فهو ينذر من يخالفه بالعقوبة ، وكل رسول من عند الله تعالى فهو يحمل معه الدليل على رسالته ، ولكن الأدلة والرسائل لا ينتفع بها إلا من كان الحق ضالته يأخذه انتى وجده ، ولو كان فيه ذهاب نفسه ، أما من لا يرى في الدين والحق والانسانية إلا مصلحة ومنافعة، أما هذا فهو عدو الأدلة والبراهين ، والأنبياء والمصلحين ، فكيف ينتفع بها ويؤمن بمبادئها ؟ .

(فهل ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم) . يقال : ايام فلان ويراد ايام دولته او ايام محنته ، والمراد بأيام الذين خلوا ايسام قوم نوح وعاد وثمود ، وما حل بهم من الهلاك والعذاب ، وضمير ينتظرون يعود الى الذين كذبوا محمداً (ص) بدليل قوله تعالى : (قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين) فانه تهديد لمن كذب محمداً بسوء العاقبة .

(ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا) . هذه الجملة عطف على جمل محذوفة والتقدير انه قد جرت سنة الله في خلقه ان يرسل الى الناس رسلاً منهم مبشرين ومنذرين ، فيصدقهم البعض ، ويكذبهم آخرون ، فيهلك المكذبين ، ثم ينجي الرسل والمؤمنين .. قال صاحب النار : « هذا من الايجاز المعجز الذي انفرد به القرآن » .. ووجه الاعجاز ان الله سبحانه ذكر جملة واحدة تدل دلالة واضحة على عدد من الجمل المحذوفة .

(كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين) بعد ان قال سبحانه : انه ينجي المؤمنين قال : ان نجاة المؤمن من العذاب حق له على الله يطالبه به ، تماماً كأصحاب الحقوق ، وان على الله تعالى ان يؤديه له كاملاً غير منقوص ، وهذا رد صريح على السنة الذين قالوا : ان الله سبحانه له ان يعاقب المطيع ، ويثيب العصاةي (المواقف ج ٨ المقصد الخامس والسادس من المرحل الثاني في المعاد) .

(قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم وامرت أن أكون من المؤمنين) . لقد أدى النبي (ص) امانة الله الى خلقه ، وبلغهم رسالات ربهم، فاستجاب له من استجاب وأبى من أبى ، فأمره الله تعالى أن يقول للذين أصروا على الشرك : ان كنتم في شك من ديني فانا لا اعبد أصناماً لا تعقل كما تفعلون ، ولكن اعبد إلهاً قادراً عادلاً ، وحكيماً عالماً ، وهو الذي يقبض أرواحكم، فأبي المعبودين جدير بالشك؟ .

وهذا نوع من أساليب الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

(وان أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين) . المراد بالوجه هنا النفس ، والمعنى ان الله أمرني ان اتجه اليه معتقاً الاسلام ، سائراً على نهجه قولاً وعملاً دون سائر الأديان .

(ولا تدع من دون الله ما لا يضرعك ولا يضررك فان فعلت فإنك إذا من الظالمين) . والنبي لا يدعو أحداً من دون الله ، ومحال ان يدعو سواه ، وإنما القصد الإخبار بأن من يدعو غير الله فهو من الظالمين الخاسرين .

وتجدر الإشارة الى ان الآيات الثلاث الأخيرة تعبر عن معنى واحد بعبارات شتى ، وهو الأمر بالإيمان ونيزد الشرك ، مع اختلاف يسير في المعنى ، فالآية الأولى أمرت بالإيمان ، مع الإشارة الى ان دين التوحيد لا ينبغي الشك فيه ، وان الذي فيه الشك والريب هو دين الشرك وعبادة الأصنام ، والآية الثانية أمرت بالإيمان ، مع الإشارة الى ان الاسلام هو الدين القيم الذي لا عوج فيه ، دون سائر الأديان ، والآية الثالثة أمرت بالإيمان مع الإشارة الى أن من يتنفي غير الإسلام ديناً فهو من الظالمين لأنفسهم . وعلى أية حال فان من عادة القرآن ان يكرر ويؤكد كل ما يتصل بالعقيدة وأصولها .

وان بمسك الله بضر الآية ١٠٧ - ١٠٩ :

وَأَن يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإَن يُرِدْكُم بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَنبَغِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَبْغِي لِنَفْسِهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *

المعنى :

(وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو) . قد يتضرر الانسان بما كسبت يده ، كما لو أقدم مختاراً على الإضرار بنفسه ، أو ترك العمل مع قدرته عليه ، أو أقدم على عمل ما هو بأهل له ، وقبل ان يعد له العدة ، وهذا الضرر لا تصح نسبته إلى الله لأنه تعالى أمر بالعمل والاعداد له ، ونهى عن الإضرار بشئ أنواعه . وقد يتضرر الانسان بسبب الأوضاع الفاسدة في المجتمع الذي يعيش فيه ، وهذا أيضاً لا ينسب إلى الله ، لأنه تعالى نهى عن الفساد، وأمر بالصلاح والإصلاح . وقد يتضرر الانسان لا من كسبه ولا من مجتمعه، كما لو ولد ناقص الخلقة ، أو كان بليداً لا استعداد فيه للعلم والمعرفة ، مها جد واجتهد، أو نزلت عليه صاعقة من السماء ، وما إلى ذلك ، وهذا النوع من الضرر هو المراد بقوله تعالى : (وان يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا ر) مع العلم بأنه لو شاء سبحانه أن يكشف الضر من أية جهة أتى لانكشف وزال، لأنه على كل شيء قدير.

(وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده) . قدمنا ان الضرر لا تصح نسبته إلى الله تعالى بقول مطلق ، أما الخير فتصح نسبته إليه بشئ أنواعه ، سواء أكان لعمل الانسان تأثير فيه ، أم لم يكن ، لأنه تعالى يريد الخير ويأمر به ، وهو الذي أقدر الانسان عليه (وهو الغفور الرحيم) ورحمته وسعت كل شيء ، تماماً كعلمه وقدرته .

(قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) . ويتلخص معنى هذه الآية بقوله تعالى : « كل امرئ بما كسب رهين - ٢١ الطور » ، وتقدم نظيرها في سورة الأنعام الآية ١٠٤ ج ٣ ص ٢٣٨ .

(واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) . هذه الآية تحدد وظيفة الرسول بتبليغ الوحي ، والعمل به ، والصبر على ما يلاقيه في سبيل ذلك من أذى المكذبين إلى أن يظهر الله دينه ، ويُعْلِي كلمته .. وهذه هي مهمة كل من ينوب عن المعصوم في تبليغ أحكام الله ونشرها .

سورة هود

سورة هود

مكية ، وآياتها ١٢٣ ، ونزلت بعد سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب أحكمت آياته الآية ١ - ٤ :

الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ *

اللفظ :

أحكمت آياته أي أتقنت . وفُصِّلَتْ أي جُمِلَتْ واضحة مبينة . والمتاع الشيء
الذي يُسْتَعْمَلُ به ، والأجل المسمى العمر المقدر .

الإعراب :

كتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب . ولدن ظرف زمان أو مكان بمعنى
عند ، ولكنه مبني ، لأنه لا يفارق الظرفية ، فلا يقع خبراً ولا حالاً أو صفة
أو صلة لموصول ، ويضاف دائماً إلى ما بعده إلا في غلوة ، فيجوز فيها الجر
والنصب ، تقول : لقيته لدن غلوة بالجر ، وغلوة بالنصب على التمييز . وألاً
تعبدوا (ألا) مركبة من كلمتين : أن ولا و (ان) بمعنى أي مفسرة لفصلت
لأن هذا الفعل فيه معنى القول دون حروفه ، فهي هنا مثل كتبت إليه ألا بفعل

كذا . وان استغفروا عطف على ألاّ تعبدوا . ولا في ألاّ تعبدوا للنهي ، ولذا جزم الفعل المضارع .

المعنى :

(الآ) مثل ألم في أول سورة البقرة ، فراجع . (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) . المراد بالكتاب القرآن ، والمعنى ان هذا القرآن واضح المعاني محكم النظم ، لا نقص فيه ولا خلل ، لأنه بمن يقدر الأمور ويدبرها على أساس العلم والحكمة ، قال بعض العارفين : ان الله كتابين : واحد تكويني ، وهو هذا الكون ، والآخر تدويني ، وهو القرآن ، وكل منهما محكم من جميع جهاته على أنم الوجوه وأكملها .. وتكلم العلماء من أديان شتى عن عظمة القرآن ، نقلت طرفاً من أقوالهم في كتاب « الاسلام والعقل » فصل « النبوة » .

ومن الصدف اني قرأت - وأنا أفسر هذه الآية - مقالاً عن كتاب « محمد » للمستشرق الفرنسي مكسيم رودينسون ، نشرته مجلة المصور المصرية في عدد ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٩٦٨ ، وفيه : « يؤكد المؤلف ان القرآن نقل إلى الأجيال التالية رسالة الانسان المقهور المستغل ، ذلك الانسان التائر على الظلم والقهر ، وزوده بحافز التسلح بالقوة لكي يقهر المستبدن والظالمين والمنافقين - ثم قال المؤلف - ان الاسلام نظام وعقيدة وأسلوب حياة ، ونظرة شاملة الى الكون والانسان . (ألاّ تعبدوا إلا الله انني لكم نذير وبشير) . ياء انني لمحمد (ص) ، وهاء منه لله تعالى ، ونذير بالعقاب على المعصية ، وبشير بالثواب على الطاعة .. بعد أن ذكر سبحانه ان آيات القرآن محكمة ومفصلة قال : من هذه الآيات التوحيد والاخلاص في العبادة لله وحده . والاعتراف بأن محمداً (ص) ينذر ويبشر بلسان الله تعالى .

(وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) . أي ان تعبدوا الله وحده ، وتؤمنوا بنبوة محمد ، وتطلبوا المغفرة من الله ، وتتوبوا اليه ، والفرق بين الاستغفار والتوبة ان الاستغفار طلب الغفر عما مضى بصرف النظر عما يأتي ، أما التوبة فهي طلب الغفران عن الماضي ، مع العهد على ترك المعاصي في المستقبل . (بمنعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) . بعد أن

الجزء الحادي عشر

أمر سبحانه بالاخلاص لله في العبادة ، والاعتراف لمحمد (ص) بالرسالة، وبالاستغفار والتوبة ، بعد هذا ذكر سبحانه ان جزاء التائبين المطيعين في الدنيا ان لا يستأصلهم كما استأصل الكافرين من قبلهم ، بل يقيهم الى ان يستوفوا آجالهم ، أما جزاؤهم في الآخرة فلكل من الثواب حسب عمله قلة وكثرة .
(وان تولّوا فلاني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) بكثرة أهواله وشدتها ، وهي جزاء من تولّى وأعرض عن الحق (الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) وبقدرته يحجي الموتى ، ويجمع للحساب ، ويجزي كلاً بما يستحق ، وهو القادر فوق عبادته .

بثون صدورهم الآية ٥ :

أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونْ صُدُورُهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُيْرُونْ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *

اللفظة :

ثنى الشيء عطف بعضه على بعض فطواه . والاستخفاء طلب خفاء الشيء . واستغشى الثوب تغطى به ، وهو كناية عن أخفى الحالات ، أي ان الله يعلم نواياهم ، ويعلم أيضاً أخفى محاولاتهم لخفائهم .

الإعراب :

الا أداة تنبيه . والمصدر المنسبك من ليستخفوا مجرور باللام ، والعامل فيه بثون . وحين ظرف زمان متعلق يعلم .

المعنى :

ضمير انهم للمشركين والمنافقين ، وضمير منه للنبي ، ومعنى الآية بمجموعها ان قوماً كانت تنطوي قلوبهم على العداوة والبغضاء لرسول الله (ص) ، وكانوا يخفون ذلك عنه ، فأخبره الله بحقيقتهم ، وانه تعالى يعلم بخطر قلوبهم ، وجميع حالاتهم ، وانه يعاقبهم عليها بما هم أهل له .

الجزء الثاني عشر

وما من دابة في الأرض الآية ٦ - ٨ :

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ
مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُبِينٌ * وَلَئِنْ أَخْرَنَّا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ
إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ *

اللفظ :

الدابة لغةً لكل حي يلب على الأرض ، وعرفاً لما يركب كالخيل والبغال
والحمير . ومستقر الشيء موضع قراره ، ومستودعه .. الموضع الذي كان فيه قبل
استقراره من صلب أو رحم أو بيضة . والأمة تطلق على الجماعة وعلى المدة من
الزمن ، وهي المرادة هنا . وحاق بهم أي نزل وأحاط .

الإعراب :

وما من دابة: (من) زائلة إعراباً ، ودابة مبتدأ ، ورزقها مبتدأ ثانٍ وعلى الله
خبره ، والجملة خبر الأول ، وفي الأرض متعلق بمحذوف صفة لدابة . والمصدر
المنسبك من ليلوكم متعلق بخلق السموات . ويوم يأتيهم ليس مصروفاً ، يوم متعلق
بمصرف ، وجملة يأتيهم مجرور بإضافة يوم، واسم ليس مستتر يعود إلى العذاب ،
ومصرفاً خبرها .

المعنى :

(وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها) . خلق سبحانه الأرض ، وأودع فيها ما يحتاجه كل حي يدب عليها من الذرة والبعوضة إلى القبل والانسان ، وايضاً اودع في كل من دب القدرة على السعي لتحصيل رزقه من الأرض ، وعلى هذا يكون معنى الآية ان الله قد جعل لكل حي رزقاً مدخوراً في الأرض ، وليس معناها ان الله قدّر لكل حي رزقه الخاص به الذي لا يزيد بالسعي ، ولا ينقص بتركه ، كما توهم البعض ، قال صاحب « تفسير المنار » : « لقد زعم بعض العباد والشعراء ان الكسب وعلمه سواء ، كقول بعض الجاهلين المتواكلين غير المتوكلين :

جرى قلم القضاء بما يكون فيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

ان هذا الشاعر « أحق بالجنون ممن يسمى لرزقه » . وتراجع فقرة : « الله أصلح الأرض والانسان أفضلها » ج ٣ من هذا التفسير ص ٣٤٠ ، وفقرة : « هل الرزق صدقة أو قدر ص ١٣١ » ، وفقرة : « الرزق وفساد الأوضاع ص ٩٤ » .

(ويعلم مستغرها ومستودعها كل في كتاب مبين) . المستودع المكان الذي كانت فيه قبل ان تدب على الأرض ، والمستقر الذي قرت فيه بعد اللبيب ، والكتاب المبين كناية عن ان الله قد أحاط بكل شيء علماً ، والمعنى ان الله يوجد أسباب العيش والحياة لكل دابة ، حيث كانت وتكون لأنه قادر على كل شيء ، عالم بكل شيء .

(وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام) . تقدم مثله مع التفسير في سورة الأعراف الآية ٥٤ ج ٣ ص ٣٣٨ .

(وكان عرشه على الماء) المراد بعرش الله ملكه واستيلاؤه ، والماء معروف ، وتدل الآية على ان الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، أما من أين

الجزء الثاني عشر

جاء ؟ وهل كان قائماً على قرار ؟ فلا نص على شيء من ذلك في آية ، أو رواية متواترة ، والعقل وحده لا يملك العلم به ، لذا نترك البحث عنه ، وكل ما قرأنا في هذا الباب لا يعدو الحدس والتخمين ، أما المادة الأولى التي وجدناها منها الكون فلا تفسير لها عندنا إلا قوله تعالى : كوني فكانت ، ومن أنكر هذا علينا تلونا قوله سبحانه : « لكم دينكم ولي دين » .

(ليلوكم ايكم أحسن عملاً) أي ان الله أودع فينا وفي الأرض ما أودع من الطاقات ليميز بين الذين يعيشون بكثرة البمين، والذين يعيشون على حساب المستضعفين، فيعاقب هؤلاء على عصيانهم ويثيب أولئك على طاعتهم .

(ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين) . هذه الآيات كغيرها من الآيات الكثيرة التي اخبرت عن المكذبين بالبعث ، مع فارق واحد ، وهو الاخبار عنهم هنا بأنهم شبهوا الحديث عن البعث بالسحر في التمويه على الناس وخداعهم ، لينقادوا الى طاعة النبي، ويضمن لنفسه الرئاسة عليهم .

(ولئن أخرنا عنهم العذاب الى أمة معدودة - أي مدة مقدرة - ليقولن ما يحبسهم) ؟ وما الذي منع من وقوع العذاب علينا الآن ان كان حقاً (الا يوم يأتيهم - العذاب - ليس مصروفاً عنهم) لأن بأسه تعالى لا يرد عن القوم المجرمين (وحساق بهم ما كانوا به يستهزؤون) أي ينزل بهم العذاب جزاء استخفافهم به ، وعدم خوفهم من الله وغضبه .. وأشد الذنوب ما استخف به صاحبه ، كما قال الامام علي (ع) . ومن أقواله : ان احسن الناس ظناً بالله أشدهم خوفاً منه .

حول الامسان الآية ٩ - ١١ :

وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ﴿٩﴾
وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ

لَفَرِحْ فَخُورُ* إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ*

اللغة :

ذاق الشيء اختبر طعمه ، وأذاقه جعله يذوقه ، والمراد بالاذاقة هنا الاعطاء .
ونزع الشيء من مكانه قلعه . ويثوس مبالغة في اليأس . وقال الطبرسي : النعماء
النعمة تظهر على صاحبها ، والضراء المضرة كذلك أخرجنا مخرج الأحوال الظاهرة
مثل حمراء .

الإعراب :

ولئن أذقنا اللام جواب قسم محذوف . وجملته انه ليؤوس سادة مسد جواب
القسم والشرط الاستفاد من (ان) . والا الذين صبروا في محل نصب على الاستثناء
المتصل من الانسان .

المعنى :

(ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليؤوس كخور) . إذا رُزق
الانسان البسطة في الصحة ، والسعة في المال ، والبر في الأهل ، ثم أصيب بشيء
بها أو بشيء منها بسبب من الأسباب الجارية - إذا كان كذلك قطع الرجاء من
رحمة الله ، وكفر بنعمه ، حتى ما تبقى له من نعم (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء
مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور) . وإذا خرج من عسر إلى
يسر ، ومن خوف إلى أمن أخذته النشوة وتعاظم على الناس ، ونسي ما كان فيه
بالأمس . وقدما مراراً ان الله يسند الأحداث كلها اليه من باب اسناد الشيء إلى

الجزء الثاني عشر

سببه الأول ، وخالق الكون بما فيه .

ولا بد من الإشارة إلى ان القرآن ينظر إلى الانسان من خلال عقيدته وسلوكه ، بماذا يؤمن ؟ وماذا يعمل ؟ . وهذه النظرة نتيجة لازمة لطبيعة القرآن من حيث انه كتاب دين وهداية . وعلى هذا الأساس يحكم على الانسان بأنه صالح أو طالح طيب أو خبيث . ومعلوم ان العقيدة التي دعا إليها هي الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وان العمل الذي امر به هو العمل الصالح : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية - ٧ البينة » .. وبكلمة ان الاسلام يوجه الانسان إلى الغاية التي يجب أن يكرس حياته من أجلها ، فإن انحرف عنها نعته القرآن بأقبح الأوصاف كالظلم والחסر والكافر والجاهل والطاغي والكنود ، وما إلى ذلك من الرذائل .

ان هذه الأوصاف ليست تحديداً لطبيعة الانسان وماهيته ، وانما هي تفسير لسلوكه في بعض مواقفه ، ويدلنا على ذلك ان كل صفة ذكرها القرآن مقرونة بحادثة من الحوادث ، فلقد وصف الانسان باليأس إذا نزلت به نازلة ، وبالفرح والبطر إذا استغنى ، وبالجزع والملح إذا مسه الضر ، ونحو ذلك . وقد خفيت هذه الحقيقة على كثيرين ، وظنوا ان هذه الأوصاف وردت في القرآن تحديداً لحقيقة الانسان وماهيته وأخذوا ينتعنون بها في غير المناسبات التي جاءت في كتاب الله .. ولو صدق ظنهم لما جاز أن يؤاخذ الله على الكفر والظلم ، وكان قوله : (ولقد كرمنا بني آدم) تكريماً للكفر والظلم .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وعلى هذا يكون المراد بالانسان في قوله : (ولئن أدقنا الانسان) من لا يؤمن بالله ، أو آمن به نظرياً لا عملياً ، لأن من آمن به حقاً فإنه يتوكل عليه وحده في جميع حالاته ، ويشكره في السراء والضراء ، ويخشى ويتواضع إذا استغنى ، ويصبر ويرجو إذا افتقر ، فإن الإيمان نصفان : نصف خوف ، ونصف رجاء .

والذي يؤكد ان المراد بالانسان من ذكرنا ، وليس مطلق الانسان قوله تعالى بلا فاصل : (الا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) .

سورة هود

صبروا على ما أصابهم من الضراء إيماناً بالله وطمعاً بثوابه ورضوانه ، وعملوا الصالحات في الشدة والرخاء ، وهذه هي سمة أرباب العقائد والمبادئ ، لأن العقيدة متى استقرت في القلب تصبح كالروح في الجسم لا تفارقه إلا بالموت .

لولا أنزل عليه كثر الآية ١٢ - ١٤ :

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا
لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قُلْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ *

اللغة :

ضيق الصدر كتابة عن الغم والحزن . والكثر ما يُدخِر من المال . وفي مجمع
البيان اختلق واخترق وخرق وخرص وخلق إذا كذب .

الإعراب :

لعلّ تعمل عمل ان ، ومعناها هنا الاستفهام على رأي الكوفيين كما في مغني
اللييب . وضائق به صدرك ، ضائق مبتدأ وضمير به يعود الى بعض ما يوحى ،

الجزء الثاني عشر

وصدرك فاعل ضائق سادّ مسد الخبر . والمصدر المنسبك من ان يقولوا مفعول لأجله لتارك أي مخافة قولهم . ولولا بمعنى هلا . أم يقولون افتراه (ام) بمعنى بل ، وضير افتراه لبعض ما يوحى ، أو لما يوحى . ومثله صفة لسور ، ومفتريات صفة ثانية . وما في انما انزل كافة لأن عن العمل . وان لا إله إلا هو ، والجملة من لا واسمها وخبرها خبر ان .

المعنى :

(فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) . كان النبي (ص) يتلو على المشركين آيات من القرآن داعياً الى الإيمان بالوحدانية والبعث ، وكانوا يهزأون حيناً ، وحيناً يقرحون عليه معجزات تمتعاً ، لا استرشاداً ، وكان موقفهم هذا من دعوة النبي (ص) يحزنه ويؤلمه، فقال له المولى جل ثناؤه مخففاً عنه : امض في دعوتك ، ولا تبال بما يقولون ويقرحون .. وماذا تصنع لتضي أقوالهم وتعتهم ؟ هل ترك بعض ما يوحى إليك ، وتحذف من القرآن ما لا يعجبهم من آياته ؟ . كلا ، انك لن تفعل . اذن ، لماذا الحزن وضيق الصدر ؟ . هذا هو المعنى المراد من قوله تعالى : (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك) لأن النبي (ص) معصوم ، لا يترك شيئاً مما يوحى إليه . ومحال ان يترك ، فالآية أشبه بقوله تعالى : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر - ٤٢ المائدة) .

(وضائق به صدرك أن يقولوا لولا انزل عليه كثر أو جاء معه ملك) اقترح المشركون على النبي فيما اقترحوا ان تحط الساء ذهباً وفضة ، أو يأتي ملك من الملائكة يشهد ببئوته .. هكذا يفكر أصحاب الأموال والثروات قديماً وحديثاً ، ويؤمنون بأن المناصب الشريفة يجب أن تكون وقفاً على الأغنياء ، أما الفقراء فيجب ان يكونوا بمنزل عن القيادات والمناصب .. وكان تعتهم هذا بسبب للنبي المهم والكرب ، فقال له المولى : (انما انت منذر) عليك ان تبلغ ما أوحى إليك ، ولا تكثر بسفاهة السفهاء ، وجهل الجهلاء (واقه على كل شيء وكيل) . فالأحوال لديه محفوظة ، والسرائر مبلوطة ، وكل نفس بما كسبت رهينة .. ويتصل بهله الآية ما ذكرناه في ج ٣ ص ٢٤٨ بعنوان : « طراز من الناس » .

(أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) . سبق نظير هذه الآية مع الكلام مفصلاً عن اعجاز القرآن في ج ١ ص ٦٤ عند تفسير الآية ٢٣ من سورة البقرة .

(فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا إله إلا هو) . ضمير لم يستجيبوا للمكذبين بالقرآن ، وخطاب (لكم) للنبي وكل داعية الى الاسلام ، وخطاب فاعلموا لكل من كذب بالقرآن في كل عصر ومصر، والمعنى فليعلم المكذبون الذين عجزوا عن معارضة القرآن انه نزل على محمد (ص) من عند الله الذي لا إله سواه (فهل انتم مسلمون) حيث لا سبيل لكم بعد العجز عن المعارضة إلا التسليم والاذعان .

وكفى القرآن اعجازاً انه باق على قيمته وعظمته رغم القرون الطوال، وسيبقى كذلك يجذب اليه كل قارئ وسامع الى آخر يوم ، وما ذاك إلا لأن حقائقه انسانية وجدانية يعترف بها كل ذي لبّ أياً كان مذهبه ومشربه .

من كان يريد الحياة الدنيا والآية ١٥ - ١٧ :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْنَا نُوفًا لِّئَلَّيْنِمُ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* أَفَنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَاَلْتَأَرُّ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ*

اللفظة :

التوفية تأدية الحق كاملاً، والبخس تأديته ناقصاً . وحبط الشيء فسادَه وبطلانه .
والبيئة ما يتبين به الحق من الباطل . والمربة الشك .

الإعراب :

نوف* مضارع مجزوم جواباً لمن كان . وباطل مبتدأ ، وما كانوا فاعل لباطل
ساد مسد الخبر ، ويجوز ان تكون (ما) مبتدأ مؤخر ، وباطل خبر مقدم . أفن
كان على بيئة (من) مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره كمن لا بيئة له . والهاء
في يتلوه تعود إلى البيئة لأنها بمعنى البرهان . ومن قبله كتاب موسى عطف على
شاهد . واماماً حال .

المعنى :

(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون).
من يزرع يحصد ، ومن يتاجر متقناً فن التجارة يربح ، ومن يجتهد في مدرسته
ينجح ، ومن يقيم المصانع ، ويجفر المناجم ، ويحتكر المعادن تُكَدَس الأموال في
خزائنه .. وهكذا كل من سعى لشيء يلقى ثمرة سعيه مؤمناً كان أو كافراً ،
فالأرزاق تأتي نتيجة للأعمال لا يُنْقَصُها كفر ، ولا يزيدُها إيمان ، وهذا هو الذي
أرادَه الله من قوله: (نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون). أجل للأوضاع
الفاسدة تأثيرها كما ذكرنا في ج ٣ ص ٩٤ .

ونعيم الحياة في الآخرة يُنَاطُ بالعمل في الدنيا تماماً كالزينة في هذه الحياة ،
سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، قال تعالى : « أم حسبم ان
تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين - ١٤٢ آل عمران .
وقال : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم
مشكوراً - ١٩ الاسراء . ومن سعى لرزقه الحلال الطيب فقد سعى للدينا
والآخرة معاً .

(أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار) . أولئك اشارة الى الذين انغمسوا في الدنيا وانصرفوا عن غيرها ، ولا جزاء لهم عند الله إلا عذاب الحريق (وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) . ضمير فيها يعود إلى الحياة الدنيا ، والمعنى ان جميع أعمالهم ليست بشيء عند الله ، حتى لو انتفع بها الناس ما دام القصد منها غير وجه الخير والانسانية .

والخلاصة ان من سلك سبيلاً أدت به إلى غاياتها ونتائجها ، والعاقل من يختار لنفسه سبيل النجاة ، ولا يتخذعه المغريات .

وبعد ان ذكر سبحانه من يعمل حياة الدنيا منصرفاً عما سواها ذكر من يعمل لله ، ويدعو اليه ، وهو على بينة من أمره ، وفيما يلي التفصيل :

١ - (أفن كان على بينة من ربه) . المراد به محمد (ص) ، وبينته من الله القرآن .

٢ - (ويتلوه شاهد منه) . قال الطبري والرازي وأبو حيان الأندلسي وغيرهم من المفسرين : « اختلفوا في المراد من هذا الشاهد الذي يشهد لمحمد بالرسالة ، قيل : انه جبريل ، وقيل : لسان محمد . وقيل : انه علي بن أبي طالب » . والذين قالوا هذا استدلووا بحديث رواه البخاري في الجزء الخامس من صحيحه ، وهذا نصه بالحرف : « قال النبي (ص) لعلي : أنت مني وأنا منك ، وقال عمر توفي رسول الله (ص) ، وهو عنه راض » .

٣ - (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) . لقد بشرت التوراة بمحمد ونبوته قبل ان يشهد له القرآن ، والتوراة كتاب الله أنزله على موسى : وإمام يقتدى به في الأمور الدينية ، ورحمة لمن عمل بها قبل التحريف .

(أولئك يؤمنون به) . ضمير به عائد الى محمد (ص) وأولئك اشارة الى الذين يتبعون دلائل الحق وبياناته ، كالقرآن وكتاب موسى كما نزل عليه، وهؤلاء المشار اليهم لم يُذكروا صراحة في الآية ، ولكنهم مذكورون فيها بأوصافهم (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . المراد بالأحزاب من أجمعوا على عداوة رسول الله وحربه ، قال صاحب تفسير المنار والشيخ المراغي : « قال مقاتل : هم بنو أمية وبنو المغيرة بن عبد الله المخزومي وآل طلحة بن عبد الله ، ومن اليهم من اليهود والنصارى » .

الجزء الثاني عشر

(فلا تك في مرية منه انه الحق من ربك) . المرية الشك والريب ، وضيمر منه وانه يعودان الى محمد أو القرآن ، والخطاب في لا تك موجه لكل من سمع برسالة محمد، والمعنى لا ينبغي لعاقل أن يشك في أن محمداً رسول الله، وان القرآن وحي من الله بعد أن قامت الدلائل والبيّنات على ذلك .

واذا ساغ لانسان أن يشك بأن التوراة والانجيل قد بشرّا بنبوّة محمد فهل يسوغ له أن يشك في أن محمداً قد منح الناس أسباب الحياة ، وانه قد أتى بما لم يأت به نبي ولا مصلح . (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بالحق ، لأنه عدو ألد لبغيهم وفسادهم في الأرض ، أو لأنهم لا يهتمون بالدين حقاً كان أو باطلاً ، ما دامت معاشهم لا تعتمد عليه .. ونحن ندع هؤلاء وما يختارون على أن يتركوا غيرهم وما يختار ، ولا يطمئنا في دين لا يعرفون منه الا الاسم .

أولئك يعرضون على ربهم الآية ١٨ - ٢٤ :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ
وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ * أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ
السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ *
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ
وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ*

اللغة :

الأشهاد جمع شاهد . والعوج بكسر العين الالتواء عن الحق، وفتحها الالتواء في الأشياء للمادية كالعصا ونحوها ، وأخبتوا الى ربهم أي خضعوا واطمأنوا .

الإعراب :

كذباً مفعول مطلق لافترى ، لأنه مثل جلست قعوداً . والذين يصدون عن سبيل الله عطف بيسان من الظالمين . وعوجاً حال من واو ييغونها منحرفين أو ضالين . وهم بالآخرة هم كافرون . (هم) الثانية تأكيد لـ (هم) الأولى . ومن أولياء (من) زائدة اعراباً . وأولياء اسم ما كان لهم . ويضاعف لهم العذاب جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب . وما كانوا يستطيعون (ما) نافية . ولا جرم بمعنى لا محالة ، فلا نافية للجنس ، ومحالة اسمها مبني على الفتح ، لأنه مركب مع لا تركيب خمسة عشر على حد تعبير النحاة ، والمصدر المنسبك من أنهم وخبرها مجرور بمن محذوفة خبراً للا . وعن القرّاء ان لا جرم كانت بمعنى لا محالة ، ثم تحولت الى معنى القسم وصارت كلمة واحدة بمعنى حقاً . ومثلاً تمييز من فاعل يستويان ، والأصل هل يستوي مثلها .

المعنى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) . وإذا كان شر القول الكذب على المخلوق فكيف إذا كان على الخالق؟! وللافتراء على الله مظاهر، منها خلق الشركاء

الجزء الثاني عشر

والشفعاء ، ومنها التحليل والتحريم بلا دليل من كتاب أو سنة ، ومنها السلب والنهب باسم الحرية والديمقراطية .

(أولئك يعرضون على ربهم) . أولئك إشارة إلى المفترين ، وأنهم سيقفون غداً للحساب ، وتعرض أفعالهم وأفعالهم على الله (ويقول الشهداء هؤلاء الذين كذبوا على ربهم إلا لعنة الله على الظالمين) . ان الله سبحانه لا يحتاج الى شهود لأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، يحكم بعلمه وعدله ، وينفذ بكلمة « كن » . أما شهادة الملائكة والأنبياء، وشهادة ألسن المكذبين والضالين وأيديهم وأرجلهم، أما هذه الشهادة فالمقصود منها أن يزداد المجرمون حسرة ، وان يكونوا على يقين بأنه لا حجة لهم ولا عذر يلجأون اليه ، ولا مفر لهم من لعنة الله وعذابه .

(الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون) . هذه الآية بيان وتفسير للظالمين الذين لعنهم الله ، وأنهم يمنعون الناس عن التوحيد والإيمان بالبعث ، ويغرونهم بالشرك ، والكفر باليوم الآخر (أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض) كيف ولو شاء الله ما ترك على ظهرها من دابة (وما كان لهم من دون الله من أولياء) حتى الأصنام التي كانوا يؤهلونها ويعبدونها، والأجبار والرهبان الذين اتخفوها أرباباً .

(يضاعف لهم العذاب) . هذا جواب عن سؤال مقدر ، فكأن سائلاً يسأل : ما هو حكم الذين افتروا على الله ، وصدوا عن سبيله ، وكفروا باليوم الآخر ؟ . فأجاب سبحانه : (يضاعف لهم العذاب) ومضاعفة العذاب هنا كناية عن هوله وشدته ، لأن الأسباب كثيراً ما تتداخل إذا كان أثرها واحداً ، وقيل : لا تتداخل في الأسباب ، حتى ولو كان المسبب واحداً ، فيعذبون مرة على الافتراء ، ومرة على الصد ، ومرة على الجحود بالبعث (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) . هذا تعليل لمضاعفة العذاب ، وان الله انما يضاعفه لهم ، لأنهم كانوا في الحياة الدنيا لا يطبقون سماع الحق ، ولا النظر اليه لاغراقهم في الكفر والعناد .

(أولئك الذين خسروا أنفسهم) وأخسر الناس صفقة من خسر نفسه بعذاب لا يقضي عليها، ولا يخفف عنها (وضل عنهم ما كانوا يفترون) من خلق الشركاء

لله ، والشفعاء لديه ، ونسبة التحليل والتحريم اليه كذباً وافتراء (لا جرم انهم في الآخرة هم الأخسرون) . بعد أن قال سبحانه : انهم خسروا أنفسهم أكد هذا الخسر بأنه واقع لا محالة ، ولا مفر لهم منه بحال .

(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا الى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) . لما ذكر سبحانه الكافرين وعقوبتهم نفي بذكر المؤمنين ومثوبتهم على عادة القرآن من المقارنة بين الأضداد . والإخبات الخشوع والطمأنينة ، قال الطبرسي : « أصل الإخبات الاستواء من الخبت، وهو الأرض المستوية الواسعة ، فكأن الإخبات خشوع مستمر على استواء فيه » .. ويقال : خبت ذكره ، أي خفي .

(مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع) . الفريقان هما الكافر والمؤمن ، فالأول لا ينتفع بحواسه ، كما لا ينتفع الأعمى بعينه ، والأصم بأذنيه ، والثاني ينتفع بهما ، قال الإمام علي (ع) : من اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم. ونفس الشيء يقال عن السميع (هل يستويان مثلاً) أي صفة وحالا ومآلا (أفلا تذكرون) وتنفكرون فيما بينها من التفاوت .

رسالة نوح الآية ٢٥ - ٢٦ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ *

الإعراب :

ولقد الواو ابتدائية أي واقعة في ابتداء الكلام ، واللام جواب قسم محذوف . وإني لكم بكسر هزة إني على تقدير فقال : إني ، وفتحها على تقدير بأنني أي

الجزء الثاني عشر

أرسلناه بالانذار ، ويكون هذا من باب الالتفات من الغيبة إلى الحضور ووضع
اني مكان انه . وان لا تعبدوا (ان) مفسرة ، ولا ناهية .

المعنى :

يتلخص معنى الآيتين بأن قوم نوح كانوا يعبدون الأوثان ، وقيل : انهم أول
من أشرك بالله ، واتخذ له أنداداً ، فأرسله الله اليهم بشيراً ونذيراً ، فأدى رسالته
بهذه الكلمات القصار : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأظهر الرفق
بهم ، والاشفاق عليهم من عذاب الله إن أصروا على الشرك . وهذه هي الركيزة
الأولى لرسالة جميع الأنبياء .

بين نوح وقومه الآية ٢٧ - ٣١ :

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ
اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بِأَدْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ بَلْ تَنْظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ
مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوَا وَأَنْتُمْ لَهَا
كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكُ

وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْفَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لِنَ الظَّالِمِينَ *

اللفظة :

الردل الحقيق ، وجمعه أرذل ، مثل كلب وأكلب ، وأراذل جمع الجمع مثل
أكالب جمع لأكلب . وبادي الرأي أوله أي قبل التأمل .. وأرايم أي أخبروني .
وعبت خفيت . وأنلزمكموها أي انكرهم عليها .

الإعراب :

بشراً مفعول ثانٍ لنراك ان كانت الرؤية قلبية ، وحال من كاف نراك ان
كانت بصرية . ومثلنا صفة للبشر . وهم اراذلنا مبتدأ وخبر . وبادي الرأي ظرف
زمان أي وقت حدوث أول الرأي ، وهو منصوب باتبعك . وآتاني تحتاج الى
مفعولين لأنها بمعنى أعطاني ، وباء المتكلم مفعول أول ، ورحمة مفعول ثانٍ .
وأنلزمكموها تتعدى أيضاً الى مفعولين والأول هنا كاف الخطاب ، والثاني ضمير
الغائب ، وكلاهما متصلان ، ويجوز فصل الثاني ، فتقول ، أنلزمكم إياها . وقد
اجتمع في أنلزمكموها ثلاثة ضائرت : ضمير المتكلم والمخاطب والغائب . تذكرون
وأصلها-تذكرون .

المعنى :

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا) . لما دعا نوح
قومه الى التوحيد ردوا عليه دعوته قبل أن يدرسوها ، ويتدبروا حقيقتها ..
وتندرعوها بشبهتين : الأولى كيف يتبعونه ، وهو واحد منهم ؟ . فكثير عليه أن

الجزء الثاني عشر

يتحدث باسم الله من دونهم .. انهم نظروا الى القائل ، ولم ينظروا الى القول ، وقاسوا الحق بالرجال ، ولم يقيسوا الرجال بالحق .

وتسأل : ان هذا لا يختص بقوم نوح (ع) ، فلقد رأينا أكثر الناس يتقادون الى الغريب ، دون القريب ، حتى اشتهر في الأمثال : بنت الدار عوراء .
الجواب : أجل ، ان هذا الخلق لا يختص بقوم نوح ، والآية لا تنفيه عن غيرهم ، وانما تنمهم من أجله ، وهذا لا ينفي الذم عن أمثالهم وأشباههم .

الشبهة الثانية التي تدرع بها المترفون قولهم : (وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) والأراذل في مفهومهم الفقراء والمساكين الذين لا جاه لهم ولا مال ، والمترفون أجل وأعظم من أن يؤمنوا بمن آمن به الأراذل (وما نرى لكم علينا من فضل) الخطاب في (لكم) لنوح ومن آمن معه ، والمغنى قال المترفون الطغاة لنوح والمؤمنين : كيف نتبعكم ولا تمتازون علينا بجاه ولا مال ، تماماً كما قال مشركو قريش لمحمد (ص): «لولا أنزل عليه كثر ..» وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ٣١ الزخرف ، (بل نظنكم كاذبين) لأنكم فقراء مساكين .. هذا هو منطق الأثرياء الفضالين ، التعصب للجاه والمال .. أما النوايا الخيرية ، والأعمال الصالحة فكلام فارغ .

(قال يا قوم أرايتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده) .
هذا جواب قولهم : كيف تؤمن لك ، وأنت بشر مثلبنا ؟ . ومعنى الجواب اخبروني ما أصنع اذا اختارني الله لرسالته ، وخصني من دونكم برحمته ، وزودني ببينة منه على هذه الرسالة ؟ . ما رأيكم ؟ . هل أرفضها ، وأقول لله : لا أريد النبوة منك ، ولا أحل رسالتك إلى عبادك ، لأنكم لا تقولون ؟ (فميت عليكم) أي خفيت الرسالة عليكم ، وعجزتم عن فهمها (انلزمكموها) أي أتريدون مني ان أكرهكم على الإيمان برسالي (وأنتم لها كارهون) ؟ . واذا كره القلب عني عن رؤية الحق .

(ويا قوم لا أسألكم عليه - أي على الانذار - مالا ان أجري إلا على الله) .
لأن من يتكلم باسم الله لا يطلب الأجر من سواه ان كان صادقاً في كلامه ، والمرتبة باسم الدين هم الذين يسألون الناس أموالهم وصدقاتهم ، وما أكثرهم في هذا العصر .

(وما أنا بطارد الذين آمنوا أنهم ملائكة ربهم) . وما هو المبرر لطردهم ؟ .
الأنهم فقراء ؟ . وليس الفقر ذنباً عند الله . أو لأن إيمانهم زائف وغير صحيح
فهم ذاهبون إلى ربهم ، وهو أعلم بمقاصدهم وضمايرهم ؟ . (ولكني أراكم قوماً
تجهلون) والناس أعداء ما جهلوا .

(وبإنا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم) هل تدفعون عني انتم أو غيركم
عذابه ان فعلت ذلك (أفلا تذكرون) وكيف يتذكر من لا يخشى العواقب ؟ .
(ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني ملك) . هذا
القول من نوح (ع) شرح وتفسير لقوله أولاً : (اني لكم نذير مبين) وليس
من شرط النذير ان يملك الأموال والأرزاق ، حتى يكذب الفقير إذا ادعى
الانذار باسم الله ، ولا من شرطه أيضاً ان يعلم الغيب لترد دعواه النبوة إذا لم
يخبر بالمفريات ، ولا أن يكون ملكاً من الملائكة كي يقال له : ما أنت إلا بشر .

(ولا أقول للذين ترددي أعينكم لن يوتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم) .
من الطبيعي أن يكون الترف هو مقياس الحق والخير عند المترفين ، بل وعند
الجهلاء والسفهاء .. أما عند الله وأهل الله فمقياس الخير التقوى والعمل الصالح ،
ونوح (ع) يقيس بمقياس الله ، فكيف يقول للمؤمنين : لن يوتيكم الله خيراً ؟
تماماً كما قال لهم المترفون الطغاة .. اللهم الا اذا صار طاغية مثلهم (اني اذا لمن
الظالمين) كالذين أشركوا بالله ، وكفروا بكتبه ورساله .

قالوا يا نوح قد جادلتنا الآية ٣٢ - ٣٥ :

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُتِّتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ *
وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ

يُغْوِيَكُمُ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ
افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْعِلُونَ *

اللفظة :

الجدال مأخوذ من جدل الحبل أي فتل ، لأن كل واحد من المتخاصمين يفتل
صاحبه عن مذهبه وحجته .

الإعراب :

ولا ينفعكم نصحي قرينة دالة على جوابين محذوفين لشرطين موجودين : الأول
إن أردت ، والثاني إن كان الله . وقوله هو ربكم كلام مستأنف ، ولا يجوز أن
يكون جواباً للشرط .

المعنى :

(قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من
الصادقين) . لما أفحم نوح قومه بالحجة والبرهان ضاقوا به ، ولم يجدوا أية وسيلة
يتلذذون بها لجلودهم وانكارهم إلا أن يتحدوا نوحاً بأن ينزل عليهم ما خوفهم
به من العذاب ، ولما سألوه ذلك (قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنسم
بمعجزين) . أي أنتم أهون على الله من أن تعجزوه ، لأنه على كل شيء قدير
وله وحده الخلق والأمر .. وقال مشركو مكة لرسول الله مثلها قال قوم نوح
لنبيهم . أنظر تفسير الآية ٣٢ من سورة الأنفال ج ٣ ص ٤٧٣ .

(ولا ينفعكم نصحي ان أردت ان أنصح لكم) . لقد أراد لهم النصح ، بل
وأكثر من نصحهم ، ولكن ما الفائدة اذا قست القلوب ولم تعمل لهداية (ان

كان الله يريد ان يغويكم) . ان الله لا يخلق الغواية في الانسان ، ولو فعل لسلبه انسانيته ، ولكن قضت سنة الله في خلقه ان من سلك يارادته طريق الغواية كان حتماً من الغاوين ، تماماً كما قضت بهلاك من يتتحر غتاراً .. وهذا الاعتبار صحت نسبة الغواية إليه تعالى . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٧٤ من سورة يونس ، فقرة : « حول الهداية والضلال » (هو ربكم واليه ترجعون) ولا مفر من لقائه وحسابه وجزائه .

(أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعلي لإجرامي وأنا بريء مما تجرمون) . ظاهر السياق يدل على ضمير يقولون عائد الى قوم نوح ، وهاء افتراه الى الوحي الذي بلغهم اياه ، والمعنى قل يا نوح لقومك : ان كنت كاذباً فيما أقول كما تزعمون فأنا وحدي المسؤول عن ذلك ، وعلي إثمه وعقابه، وان كنت صادقاً فأنتم المسؤولون ، وعليكم وحدكم يقع عقاب التكذيب، وأنا بريء من أعمالكم وجرائمكم . وقيل : ان هذه الآية جاءت معترضة في قصة نوح ، وانها نزلت في مشركي قريش ، لأنهم ارتابوا في صلح محمد (ص) حين تلا عليهم هذه القصة ، فأمره الله أن يقول لهم : لا عليكم ان كنت مفترياً ، فعلي وحدي تبعه ما أفترى .. وهذا المعنى جائر في نفسه ، ولكنه بعيد عن ظاهر السياق .

وأوحى الى نوح الآية ٣٦ - ٣٩ :

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَحْطِئْ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ * وَبَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرْءً عَلَيْهِ مَلَأَ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ *

الغلة :

الابتئاس الحزن . والفلك السفينة، ويستوي فيه الواحد والجمع . والمقيم الدائم .

الإعراب :

المصدر المنسبك من انه نائب فاعل لأوحى . والا من قد آمن (من) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع لأن الكفر غير الإيمان . وكلما (ما) مصدرية ظرفية أي مدة مرور الملاء عليه ، والظرف متعلق بسخروا منه . وتعلمون هنا تتعدى الى مفعول واحد لأنها بمعنى تعرفون . ومن يأتيه مفعول لتعلمون ، وهي اسم موصول ، وقيل : استفهام بمعنى اينما .

المعنى :

(وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) . أنبا الله نوحاً (ع) بأن مهمته قد انتهت بعد أن أدى الرسالة على وجهها ، وألقى الحجة على من أعرض وتولى ، وانه لن يستجيب له أحد بعد الآن ، وعزاه الله سبحانه عن ذلك ، لأن نوحاً قد تألم وحزن لاصرارهم على الشرك .

(واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مفروقون) . بأعيننا كناية عن حفظه تعالى ورعايته ، والمراد بوحينا أمره وتعاليمه ، بعد أن أمره الله بصنع الفلك نهاء عن التوسل اليه في شأن الذين ظلموا أنفسهم، لأن كلمة العذاب قد حقت عليهم أجمعين .

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) لأنه صنعها في فلاة من الأرض بعيداً عن الماء .. سخروا وضحكوا لأنهم أيقنوا بأنه لا شيء وراء ما يبصرون ، وهذا هو شأن الجاهل يركن الى الظاهر ، ولا يُدخل في حسابه ما وراءه من تقدير وتدبير . وقيل : ان قوم نوح ما رأوا سفينة قبل

سورة هود

ذلك ، ولا عرفوا كيفية الانتفاع بها ، ولذلك سخروا وتعجبوا .. والمعروف ان الفينيقيين من أوائل من صنع السفن وركب البحار ، ونقل أبو حيان الأندلسي في تفسيره « البحر المحيط » عن ابن عباس ان نوحاً قطع خشب السفينة من غابات جبال لبنان .. وان دل هذا على شيء فلأنما يدل على ان جبال لبنان كانت معروفة بالغابات منذ القديم .. وكذا الفينيقيون قطعوا أخشاب سفنهم من هذه الغابات .

المؤمنون والمستهزون :

(قال ان تسخروا منا فلنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) . جهلوا حقيقة السفينة والغرض منها ، ولم يحسبوا لمخبات الدهر وملامته ، فاسترسلوا مع أهوائهم يهزأون ويسخرون ، أما نوح فقد كان على ثقة من أمره وانه يصنع ما يصنع بعين الله ورعايته ، وانه ومن معه بمنجاة من الهلاك ، وان مصير الساخرين الى الفرق لا محالة ، وهذا المصير هو الذي سخر منهم ، أما نوح فبيان الواقع وترجانه .

وما أشبه المستهترين بالدين من شباب هذا العصر بالذين كفروا من قوم نوح . سخر هؤلاء من سفينة النجاة ، وسخر الشباب المستهتر من المؤمنين ، وقالوا : أصلاة وصيام في القرن العشرين ؟ . تماماً كما قال الذين كفروا : أسفينة في اليابسة ، حيث لا بحر ولا ماء ؟ . جهلوا حقيقة السفينة وأسرارها ، فسخروا من نوح ، وجهل الشباب أسرار الصوم والصلاة ، فسخروا من الصائمين المصلين ، أفأمن الشباب المستهتر الهازيء بالدين وأهله ان يصيبهم ما أصاب الذين سخروا من نوح وسفنته ؟ .

وفار التنور الآية ٤٠ - ٤٤ :

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَتَادِي نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَأُولِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُهْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغَسَّطَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *

اللفظة :

نجراها من الجري ، وهو السير ، ومرساها من الارساء ، وهو الثبوت ، أي بسم الله سيرها وثبوتها . ومعزل أي مكان عزلة وانفراد . وأقلمي أي امسكي عن المطر . وغسّط الماء غار في الأرض . والجودي جبل في الموصل كما قيل .

الإعراب :

نقل ابن هشام في كتاب المغني عن الجمهور ان حتى إذا دخلت على إذا تكون حرف ابتداء ، وإذا ظرفية في محل نصب بشرطها أو جوابها . من كل زوجين اثنين قرىء بتثنية كل ، أي من كل نوع ، وعلى هذا يكون زوجين مفعولاً لاهل واثنين توكيداً له ، وقرىء بإضافة كل الى زوجين ، وعليه يكون اثنين مفعولاً لاهل ، ومن كل زوجين متعلق بمحذوف حالاً من اثنين . وأهلك معطوف

على مفعول احمِل ، ومثله ومن آمن . بسم الله متعلق بمحذوف حالاً من واو اركبوا أي متبركين باسم الله ، ومجراها ومرساها ظرفاً زمان على حذف مضاف أي وقت جريها وارسائها . ويجوز أن يكونا مبتدأ والخبر بسم الله .. ولا عاصم (لا) نافية للجنس وعاصم اسمها ، واليوم متعلق بمحذوف خبرها ، وإلا من رحم الله (من) في محل نصب على الاستثناء المنقطع أي لكن من رحمه الله معصوم . وبعداً مصدر مؤكد أي بعدُ بعداً .

المعنى :

(حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) . الفوران الارتفاع ، وللتنور معانٍ في اللغة ، منها وجه الأرض ، وهو المراد هنا ، ونظيره « وفجرنا الأرض غيونا » والمعنى حين أنى أمر الله ، وأخذ الماء ينبع من الأرض (قلنا - لنوح - احمِل فيها من كل زوجين اثنين) ذكرأ وأنثى ، وكلمة كل تدل على عموم ما تضاف إليه ، ويختلف هذا العموم سعة وضيقاً باختلاف موارده ، فكلمة شيء في قوله تعالى : « وله كل شيء » تعم جميع الكائنات دون استثناء ، وهي في قوله عن بلقيس : « واوتيت من كل شيء » تختص بأشياء زمانها أو بلدها ، وعلى هذا يكون المراد من كل زوجين في الآية ما يستطيع نوح (ع) أن يحمله معه في السفينة من أنواع الأحياء أو المخلوقات ، لا من جميع أنواعها ، والا كان طول السفينة وعرضها مئاة الأميال .

(وأهلك الا من سبق عليه القول) أي واحمل اهلك في السفينة ولا تحمّل منهم من نذرك عن حمله . وتجدر الإشارة الى ان الله سبحانه لم يقل لنوح : لا تحمل ولنا مع العلم بأن الله قد أغرقه مع الكافرين . وقال المفسرون : ان أبناء نوح الثلاثة الذين حلهم معه حام وسام ويافث ، أما من كتب عليه الهلاك من أهله فهو أحد أبنائه الذي أشار اليه سبحانه بقوله : « فكان من المغرقين » وقيل : اسمه كنعان ، وامرأة نوح أيضاً كانت من الهالكين لقوله تعالى في الآية ١٠ من سورة التحريم : « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط .. (ومن آمن وما آمن معه الا قليل) ، أي واحمل العصابة القليلة التي آمنت معك .

الجزء الثاني عشر

(وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم) وامثل نوح (ع) أمر الله ، ودعا المؤمنين من أهله وأصحابه أن يركبوا معه السفينة ، وهو ومن معه يسمون عليها في الجريان والرسو .. ورأيت تفسيراً لبعض الصوفية يقول : المراد بسفينة النجاة هنا الشريعة ، وبالأمواج أهواء النفس وشهواتها .. فتساءلت ، وأنا أقرأ هذا التفسير : هل يا ترى استوحى بعض الشيوخ من هذا التفسير تسمية كتابه أو رسالته بسفينة النجاة ؟.

(وهي تجري بهم في موج كالجبال). وفي هذه الحال التي هي أشبه بسكرات الموت ينظر نوح الى ولده بحسرة ، ويدعوه الى الايمان وسبيل النجاة قبل أن يلفظ النفس الأخير (ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) . مسكين الأب .. ما مسّ الأذى طرفاً من جسم ولده الا ومسه في روحه وقلبه .. لقد أيقن نوح بأن ابنه هالك لا محالة ان أصر على الشرك ، فهتف بلهفة الأبوة : يا بني آمن بالله واركب معنا .. ولكن لا حياة لمن تنادي ، فإن رعونة الفتوة قد أعمته عن سوء العاقبة (قال سأوي الى جبل يعصمني من الماء) . لقد صورّ له الجهل والغرور ان المشكلة مشكلة ماء، وأنه يحلها بالصعود الى الجبل ، ولم يدرك أنها مشيئة الله وغضبه على المشركين والمتمردين .

(قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) . فأجابه نوح ليست المشكلة مشكلة ماء كما تظن ، وانما هي مشيئة الله التي لا مفر منها الى غيره .. فن رحم الله نجما ، ومن غضب عليه هلك (وحال بينهما الموج فكان من المفارقة) وفي اثناء الحديث بين الوالد وولده ارتفع الموج ، وغاب الولد عن عيني والده .. والذي حدث لنوح (ع) مع ولده يحدث لكثير من الآباء مع ابنائهم الذين يسيئون تقدير الأمور وعواقبها ، ويكون مصيرهم تماماً كمصير ابن نوح .

(وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي) . أمر الله الأرض أن تبتلع الماء، وأمر السماء أن تكف عن الصب ، فكفت هذه ، وابتلعت تلك ، وانتهى الأمر بنجاة المؤمنين ، وهلاك المشركين ، وإذا بالسفينة تستقر على الجودي ، وهو جبل بالموصل كما قيل (وقيل بعداً للقوم الظالمين) الذين كذبوا بالحق . وبعداً كلمة دعاء أي أبعدهم الله عن رحمته، مثل سحقاً في قوله تعالى : « فسحقاً لأصحاب السعير - ١٦ الملك » .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبُّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ
وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ
غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ
مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَالَا تَغْضِبْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ
مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَتُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ
مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا
أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ *

الإعراب :

ربٌ نادى ، وأصلها ربي ، وحلفت الياء للتخفيف . وعمل غير صالح
على حذف مضاف أي ذو عمل . وبه متعلق بعلم . والمصدر المنسبك من أسألك
يجرور بمن محذوفة أي أعوذ بك من سؤالك . والا كلمتان ان الشرطية ولا النافية
وأدغمت النون باللام ، وتغفر فعل الشرط ، وأكن جوابه . وأُم الأولى عطف
على الضمير في اهبط أي اهبط أنت وأُم ممن معك . وأُم الثانية مبتدأ وسنمتعهم
خبر والجملة مستأنفة . وتلك مبتدأ ومن أنباء الغيب خبر ، وجملة نوحياها حال
من أنباء الغيب .

المعنى :

(ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) في الآية السابقة ٤٠ أمر الله نوحاً أن يحمل أهله في السفينة إلا من ينهاه عن حمله منهم ، ولم ينه الله نوحاً عن حمل ابنه ، كما لم يأمره بحمله ، بل سكنت عن ذلك لحكمة هناك .. فظن نوح ان الله سبحانه قد كتب النجاة الى جميع أهله ، سواء منهم الطائع والعاصي ، ومن أجل هذا نادى ربه مستنجزاً وعده في ابنه بحسب ظنه ، لأنه من أهله .

وتسأل : ان نوحاً نبي ، والنبي معصوم ، فكيف يجوز عليه أن يظن خلاف الواقع ؟.

الجواب : ان الظن المخالف للواقع لا يضر بالعصمة إذا كان مجرداً عن العمل ، ولم يترتب عليه أي اثر في الخارج ، لأنه يكون ، والحال هذه ، أشبه بالخيال يمر بالذهن ثم يزول ، كأن لم يكن .. وعلى فرض ان المعصوم أراد العمل بظنه المخالف للواقع فان الله سبحانه يكشف له عنه ، ويعصمه عن الوقوع في الخطأ . وأوضحنا ذلك عند تفسير الآية ١٠٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٣٠ .

(قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح) أي ذو عمل غير صالح .. يقول الله جلّت عظمتة لنوح جواباً له عن سؤاله في شأن ولده ، يقول له : لقد أمرتك أن تحمل أهلك في السفينة إلا من أنهاك عن حمله ، وما نهيتك عن حمل أحد منهم لحكمة اقتضت ذلك ، ولكن سبقت مشيقتي أن يكون ابنك من المفرقين ، لأنه ليس من أهلك بسبب عمله غير الصالح ، فإن أهل الأنبياء هم المتقون الصالحون ، وان بعدد النسب ، وان أعداءهم العاصرون ، وان قرب النسب .. ويؤكد ارادة هذا المعنى قوله تعالى في الآية ٦٨ من سورة آل عمران : « ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه » ومنه أخذ الإمام علي قوله : « ان ولي محمد من أطاع الله ، وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله ، وان قربت قرابته » . وقال الشاعر :

كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم تكن بين نوح وابنه رحم

(فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين) . ان الشيء الذي لم يكن يعلمه نوح (ع) هو ما كتب الله لابنه من الفرق ، لأن الله سبحانه قد طوى العلم بفرقه عن أبيه أول الأمر لمصلحة اقتضت ذلك ، ولما سأل نوح ربه عن ابنه قال له : لا تسألني عما طويت علمه عنك قبل الفرق ، ولا تطالبنني بابتك اني أعظك أن تكون من الجاهلين ، أي ان طالبت به فأنت من الجاهلين (قال رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم) . أي لا أسألك عن ابني ولا أطالبك به بعد ان اعلمتني الحقيقة ، بل أرضى بحكمك وقضائك (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) . هذا مجرد خشوع من نوح لله تعالى ، وليس استغفاراً من ذنب وقع ، كما هو شأن الأنبياء والصلحاء ، وتكلمنا عن ذلك في ج ٢ ص ٢٧٧ .

(قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) . لما انتهى الطوفان ، وأغرق الله المشركين أمر الله نوحاً ان يهبط الى الأرض هو ومن معه بسلام وبركات في المعاش والأرزاق ، يتشرون هنا وهناك أئماً مستقلاً بعضها عن بعض ، ثم يتناسل منهم أمم آخرون يقوم عاد وثمود بمتهم قليلاً في الدنيا ، ثم يمسهم العذاب بكفرهم وعصيانهم .

أسطورة حول العاشر من المحرم :

تقول الاسطورة : ان نوحاً هبط بسفينته الى الأرض يوم عاشوراء ، فصام شكرأ لله ، وكان قد فرغ منه الزاد ، فجمع كفاً من حصص ومثله من علس ، ومثله من حنطة حتى صارت سبعة حبوب ، فطبخها نوح وأكلوا منها جميعاً حتى شبعوا ، فشاعت هذه الأسطورة واتخذها الناس في بعض البلاد سنة يوم عاشوراء .

! اضطربت اقوال كثير من المفسرين هنا حيث فهموا من الآية ان الله يقول لنوح : لا تسألني ، ونوح يقول له : انا ما سألتك فكيف تقول لي : لا تسألني ؟ ثم أخذوا يؤولون بالرمم والخيال ، وما ذكرناه يتبين ان الآية واضحة لا تحتاج الى التأويل .

الجزء الثاني عشر

(تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) . الخطاب في اليك وما بعده لمحمد (ص) .. بعد ان أنبا الله سبحانه رسوله الأكرم عنده (ص) بقصة نوح قال له : ان هذه القصة هي وحي منا اليك ، وما كنت تعلمها من قبلُ انت ولا قريش ، وعليك أن تصبر على ما تلاقيه من قومك في سبيل دعوتك ، كما صبر نوح على قومه ، وكما كانت العاقبة له ولمن آمن معه فستكون العاقبة لك وللمسلمين ، لأنها دائماً تكون للصابرين المتقين .

الطوفان ثابت عند الأمم :

وحكاية الطوفان لا تختص بكعب الأديان ، فقد جاء ذكر الطوفان في ألواح بابل وأشور ، وقد عثر الباحثون على لوح يشير الى هذه القصة ، ويرجع تاريخه الى ٢١٠٠ سنة قبل الميلاد ، وأكد العارفون الذين لا تربطهم بالدين أية صلة ان قصة الطوفان تعرفها الأمم القديمة في الهند واليونان واليابان والصين والبرازيل والمكسيك وغيرها ، واذا اختلفت قصة الطوفان عند الأمم في التفاصيل فلأنها تنفق في الجوهر ، وان السبب هو عقاب البشر على كفرهم وظلمهم .

هود الآية ٥٠ - ٥٦ :

وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَبْتَنِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ

وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي
 آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ
 بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا
 تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ
 عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي
 عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

اللغة :

فطر الشيء فطراً أي شقه ، فظهر ما فيه . ومدار مبالغة في الدر ، وهو
 القطر المتتابع غير المفسد . واعتراك اصابك . والناصية قصاص الشعر ، والمراد
 باخذها هنا ملك الأمر كله .

الإعراب :

والى عاد أخاهم هوداً، أخاهم مفعول لفعل محذوف أي وأرسلنا الى عاد أخاهم.
 وهوداً بدل من الأخ . ويا قوم على حذف ياء المتكلم أي يا قومي . وما لكم
 (ما) نافية ولكم خبر مقدم ، ومن زائدة لإعراباً ، وإله مبتدأ مؤخر. ومداراً
 حال من السماء ، ولم يقل مداراة لأن مفعلاً للمبالغة يستوي فيه المذكر والمؤنث.
 وقوة مفعول ليزدكم لأنها بمعنى يعطكم . ومجرمين حال من فاعل تتولوا. ان نقول
 الا اعتراك (ان) نافية ، وجملة اعتراك محكية لنقول ، ولا داعي للحذف
 والتقدير كما فعل صاحب مجمع البيان .

المضى :

(والى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ان أنتم الا مفترون) بعبادة الأوثان .. وهود من عاد نسباً ووطناً ، ولذا وصفه سبحانه بأخيهم ، ورسالته هذه الى قومه هي رسالة جميع الأنبياء ، وسبق نظيرها من نوح في الآية ٢٦ من هذه السورة ، ومن هود نفسه في الآية ٦٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٧ ، وذكرنا مكان قبره ، وانه أول من تكلم بالعربية ، وانه أبو اليمن ومضر . فراجع .

(يا قوم لا أسألكم عليه أجراً ان أجري الا على الذي فطرني أفلا تعقلون) ان من يعمل لله لا يطلب الرزق من غيره، وان الله وحده هو الذي ينفع ويضر، ومر تفسيره في الآية ٢٩ من هذه السورة .

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه) . والفرق بين الاستغفار والتوبة ان الاستغفار طلب العفو عن الماضي مع صرف النظر عن الآتي ، اما التوبة فطلب العفو عما مضى مع التمهيد بترك المعصية فيما يأتي (يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) . يظهر من هذا انهم كانوا اصحاب زرع وضرع ، حيث رغبهم سبحانه في كثرة المطر ، كما ان قوله : (يزدكم قوة الى قوتكم) يدل على انهم كانوا على شيء من القوة المادية والمعنوية، ويومئ الى ذلك قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات الحماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد - ٧ الفجر » .

وتسأل : لقد ربط الله في هذه الآية بين الإيمان ، وبين انزال المطر، فكيف تجمع بينها وبين قولك عند تفسير الآية ٢ من سورة الأنفال وغيرها : ان الإيمان لا يثبت قبحاً ، لأن الله يجري الأمور على سنن الكون ؟.

الجواب : أجل ، ان الله يجري الأمور على سننها الكونية، ما في ذلك ريب.. ولكن هذا لا يمنع من وجود المعجزات ، وخوارق سنن الكون لحكمة تستلحي ذلك .. ان جميع الاسباب الطبيعية وغيرها تنتهي الى مشيئة تعالى ، فهي وحدها سبب الاسباب، وقد تتعلق هذه المشيئة القلمية بوجود شيء ما مباشرة وبلا واسطة

سورة هود

خارقاً لجميع الاسباب المألوفة ، فيوجد بلا سببه المألوف كطوفان نوح ، وما اليه من المعجزات .. وقد شاء الله تعالى ألا تظهر هذه المعجزات الخارقة للنواميس الا بوجود نبي من الانبياء اثباتاً لنبوته ، أو استجابة لدعوته، أو انتقاماً من أعدائه .. ومن أجل ذلك كانت فادحة الوقوع . وبكلمة ان جريان الاشياء في هذه الحياة على أسبابها شيء ، والمعجزة التي تستند الى مشيئة الله مباشرة شيء آخر .

(قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) . هذا كذب منهم وبهتان ، لأن الله سبحانه ما أرسل رسولاً إلا وزوده بالحجة الكافية الوافية على رسالته ، ولكن قوم هود أبوا الاستجابة له ولحججه وبياناته لانها تخالف أهواءهم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أقوام الانبياء والرسل : « كلاء جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون - ٧١ المائدة » .

(وما نحن بتاركي آفتنا عن قولك) قال صاحب المغني : (عن) هنا للتعليل، والمغني لا نترك الشرك لمجرد قولك اتركوه بلا بينة ودليل (وما نحن لك بمؤمنين) هذا توضيح وتأكيـد لقولهم : (وما نحن بتاركي آفتنا) . وعلى هؤلاء وأمثالهم يصدق قول من قال : الانسان هو الذي خلق الآلهة ، وليست الآلهة هي التي خلقت الانسان .

(ان نقول الا اعتراك بعض آفتنا بسوء) . ان قولهم هذا يصور مدى جهلهم وإيمانهم بالخرافات والاساطير .. أحجار صماء يعتقدون انها تضر من ينهى عن عبادتها !.. ومتى بلغ الانسان هذا الحد من الجهل فلا يجدي معه شيء ، ولذا وصفه الله في العديد من آياته بالأعمى والأصم .

(قال - لهم هود - إني اشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون) . لما قالوا لهود (ع) : ان بعض آفتنا أصابك بسوء تحدثاهم بأن يجتمعوا هم وآفتهم ، ويبدلوا كل جهد لا يذاته ، وهو على استعداد لتحمل النتائج ، ويتضمن تحديه هذا التنبيه الى انهم مغفلون ومخدوعون .

(اني توكلت على الله ربي وربكم) هذا تعليل لمعجزهم عن ايدائه واستخفافه بهم وبأصنامهم (ما من دابة الا هو آخذ بما صيبتها) فالكل في قبضته تعالى ، ولا يملك أحد معه نفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرراً (ان ربي على صراط مستقيم)

الجزء الثاني عشر

فهو ينصر ويخذل ويشيب ويعاقب على أساس هذا الصراط ، صراط الحق والعدل .
وتسأل : اذا كان الله سبحانه آخذاً بزمam العبد وناصيته ، وهو تعالى على
صراط مستقيم - فإنه يلزم من ذلك أمران : الاول أن يكون العبد مسيراً غير
غير ، كما هو شأن المقود مع القائد . الثاني أن يكون كل انسان على صراط
مستقيم في جميع أفعاله وأقواله ، لانه تابع لله ، تماماً كما تتبع الدابة الآخذ بزمamها ،
والله سبحانه على صراط مستقيم ، فينبغي أن يكون العبد كذلك ؟ .
الجواب : ليس المراد بقوله تعالى : (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) .
ان العبد لا ارادة له ولا اختيار في شيء ، وانما هو كناية عن قدرة الله على
كل شيء ، وانه هو وحده الضار النافع رداً على المشركين الذين نسبوا الى أصنامهم
لقدرة على الضر والنفع .

فإن تولوا الآية ٥٧ - ٦٠ :

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ * وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ * وَتِلْكَ آيَاتُ جَعْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ
كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ
عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ *

الإعراب :

تولوا أصلها تولوا . ويستخلف الجملة مستأنفة ، ولذا رُفع الفعل . وشيئاً

سورة هود

مفعول مطلق لتضررونه . وتلك عاد مبتدأ وخبر ، والاشارة الى آثارهم أو قبورهم .
والأ أداة تنبيه ، وبعداً اي بعد بعداً . وقوم هود بدل من عاد .

المعنى :

(فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) غير وان ولا مقصر (ويستخلف
ربي قوماً غيركم) بعد ان يتزل عذابه بكم في الدنيا قبل الآخرة (ولا تضررونه
شيئاً) بتوليكم عن الإيمان (ان ربي على كل شيء حفيظ) يراقب الاشياء ،
ويدبرها بعلمه وحكمته . قال ابن عربي في « الفتوحات المكية » : « كما ان
ربك على كل شيء حفيظ فهو بكل شيء محفوظ » . يشير الى قول من قال :
وفي كل شيء له آية .

(ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب
غليظ) . المراد بأمرنا عذابنا ، وبالنجاة الاولى من عذاب الدنيا ، وبالنجاة الثانية
من عذاب الآخرة ، وقيل : ان النجاة الاولى كانت لبيان النجاة من العذاب من
حيث هو بصرف النظر عن نوعه وانه خفيف او ثقیل ، أما النجاة الثانية فهي
لبیان نوع العذاب الذي نزل بقوم هود ، وانه كان من الوزن الثقيل .. وكل
من المعنيين محتمل . وتقدمت الاشارة الى نجاة هود ومن معه في سورة الاعراف الآية
٧٢ ج ٣ ص ٣٤٨ .

(وتلك عاد جعلوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار
عنيد) . بعد ان اوجز سبحانه قصة عاد أشار الى سبب هلاكهم ، وانه كفرهم
بالله وآياته ، وعصيانهم لرسله واحكامه ، وتخاضعهم عن نصرة الحق ، وتهاونهم
في مقاومة الباطل ، وانقيادهم لقادة الضلال والطغيان .. وقال سبحانه : (وعصوا
رسله) ولم يقل : وعصوا رسوله لان من عصي واحداً من أنبياء الله ورسله فقد
عصى الجميع بالنظر الى ان رسالة الكل واحدة ، وهي الدعوة الى الإيمان بالوحدانية
والبث .

(واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة) أي انهم فعلوا ما يستوجب اللعن

الجزء الثاني عشر

دنياً وآخرة ، ومعنى اللعن البعد عن كل خير ، ولذا قال سبحانه : (الا ان عاداً كفروا ربهم) أي جحدوه (الا بعداً لعاد قوم هود) . وكرر كلمة هود مع ألا مبالغة في اللعن ، وتأكيذاً للتهديد .

صالح الآية ٦١ - ٦٣ :

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ
هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
مُرِيبٌ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ
رَحْمَةٌ فَنُيْضِرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ *

اللمعة :

أنشأكم من الأرض أوجدكم منها . واستعمركم فيها من العمران أي جعلكم
تعمرونها . ومرجوا نرجو منك الخير . والمريب الموجب للتهمة والريبة . فما
تزيدونني غير تخسير أي الا خسراناً .

الإعراب :

والى ثمود أخاهم أي وارسلنا الى ثمود . وصالحاً ببدل من الأخ . ومريب
صفة مؤكدة للشك مثل ظل ظليل . وانا يجوز فيها وانا بحذف إحدى التونات

الثلاث تخفيفاً . وأرأيتم معلقة عن العمل لوجود ان الشرطية . وغير قال أبو البقاء في كتاب « الاملاء » : الأكوى ان غير هنا استثناء في المعنى ومفعول ثانٍ لتريلوني .

المعنى :

(والى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .
مر بالحرف الواحد في سورة الأعراف الآية ٧٣ ج ٣ ص ٣٤٩ . ونظيره ما قاله هود في الآية ٥٠ من سورتة . وهذه هي دعوة جميع الأنبياء التي لا تتغير ولا تتعدل من عصر الى عصر .

(هو أنشأكم من الأرض) . ما من حي انساناً كان أو حيواناً أو نباتاً الا وينتمي في أصله الى الأرض، مباشرة أو بالواسطة ، واليها يعود (واستعمركم فيها) استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة ، أي الاستعمار ، استعمالها في احياء الأرض وتعميرها ، وهذا المعنى من أحسن المعاني وأكملها ، أما اليوم فإن هذه الكلمة تستعمل في الظلم والطغيان ، واستعباد الشعوب المستضعفة ، وهو من أقبح المعاني وأسوأها .. أنظر فقرة « الله أصلح الأرض ، والانسان أفسدها » ج ٣ ص ٣٤٠ (فاستغفروه ثم توبوا اليه) . هذا بالحرف ما قاله هود لقومه في الآية ٥٢ من هذه السورة ، وعند تفسيرها بينا الفرق بين طلب الغفران والتوبة (ان ربي قريب مجيب) قريب ممن أخلص في عمله ، مجيب لمن استجاب لدعوته .

(قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) النهي عن عبادة الأوثان ، أما الآن وبعد ان نهيتنا عن الاوثان فقد خاب فيك الظن (أنتهانا ان نعبد ما يعبد آباؤنا) .. ان هذا الشيء عجاب .. لقد عبدوها أجيالاً وقروناً ، وقرّبوا لها القرابين ، وما نهاهم أحد عنها ، فكيف يستجيبيون لدعوته ؟ .. (وانسا لفي شك مما تدعونا اليه مريب) . هذا هو منطق الجهل في كل زمان ومكان . وكل شيء الا العادات والتقاليد .

(قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله ان عصيته) . قالوا لصالح (ع) : نحن في شك من أمرك . فقال لهم :

الجزء الثاني عشر

اخبروني ماذا أصنع ان كنت على يقين من ان الله أرسلني اليكم ، وأمرني ان أدعوكم الى التوحيد، وزودني بالأدلة الكافية الوافية على هذه الرسالة ؟ فهل أصحي أمره لأجل مرضاتكم ؟ ومن الذي يمنعني من عذابه ان عصيت ؟ .

(فا تزيدوني غير تخسر) . قال جماعة من المفسرين : معناه ان أطلعكم جعلتموني خاسراً . وقال آخرون : بل معناه لا تزيدوني بإعراضكم عن دعوتي الا ان أنسبكم الى الخسران . والذي نراه ان صالحاً أراد بقوله هذا ان يفهم قومه انه لو ارضاهم لربح ثقتهم ، ولكنه يخسر مرضاة الله ، وخسارته هذه تزيد كثيراً عن ربحه بثقتهم ومرضاتهم .

ناقة الله الآية ٦٤ - ٦٨ :

وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيٍ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ هُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُ أَلَا بُعْدًا لِّهْمُودَ *

الآية :

المراد بالآية هنا المعجزة . وبالدار البلد، يقال : ديار فلان أي بلده . والمراد

بالصيحة صوت الصاعقة . وجائعين ساقطين على وجوههم . وغني بالمكان أقام فيه .

الإعراب :

هذه مبتدأ وناق الله خبر ، ولكم حال مقدم من آية ، وآية حال من ناقه الله ، والعامل فيه اسم الإشارة لأنه بمعنى أشير فيأخذكم منصوب بأن مضمرة بعد الفاء . وأيام أصلها ايوم ، ثم قلبت الواو ياء ، وادغمت اليان . فصارت أيام . ومن خزى معطوف على نجينا أي ونجيناهم من خزى ، وكأن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف أي كأنهم لم يغنوا .

المعنى :

(ويا قوم هذه ناقه الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب) . تقدمت في سورة الأعراف الآية ٧٣ ج ٣ ص ٣٤٩ .
(ففقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكثوب) . أمرهم صالح (ع) ان يتركوا الناقصة وشأنها ، ففقروها ولم يكثرثوا ، فأندرهم بتزول العذاب بعد ثلاثة أيام . وعن ابن عباس انه تعالى أمهلهم هذه المدة ترغيباً لهم في الإيمان والتوبة، ولكنهم أصروا على الكفر لأنهم لم يصدقوا صالحاً بوعدده ووعدله .
(فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوي العزيز) . وبعد ثلاثة أيام نزل العذاب ، فسلم المؤمنون ، وهلك الكافرون بعد ان قامت عليهم الحجة .. وهذه نهاية كل من لجج وتمادى في النفي والفساد .

(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين) . قال هنا : فأخذ الذين ظلموا الصيحة ، وقال في الآية ٧٨ من سورة الأعراف : فأخطتكم الرجفة . ووجه الجمع ان الصيحة أحدثت في قلوبهم الخوف والرجفة . (كأن لم يغنوا فيها ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود) أي كأنهم لسرعة زوالهم

الجزء الثاني عشر

لم يقيموا في ديارهم ، ولم يتمتعوا بأموالهم وأولادهم ، ولم يضحكوا للعنينا ونضحك لهم . والعاقل من اعتبر بالغير ، وانتفع بالنذر .

الملائكة يشرون ابراهيم الآية ٦٩ - ٧٣ :

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَ لَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَتَبَسَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ *

الآية :

فما لبث أي أسرع وما ابطأ . والعجل ولد البقرة . والحنيذ المشوي بالحجارة المحماة ، دون أن تمسه النار مباشرة ، وهو ألد وأطيب من المشوي بالنار . ونكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد ، ضد عرفه أي ان ابراهيم لم يعرف سبباً لامتاعهم عن الأكل . والإنجاس الاحساس أي أحس بالخوف منهم . والويل كلمة للتضجع . والبعل الزوج وجمعه بعول .

الإعراب :

ولقد معطوف على ما قبله ، واللام للتأكيد ، وقد للتحقيق وقيل : للتوقع .
 وكلمة جاءت هنا متضمنة معنى قصدت ولذا تعدى الفعل إلى مفعول ، وهو ابراهيم .
 ويجوز أن تكون كلمة جاءت على ظاهرها ، و ابراهيم منصوب بترع الخافض أي
 جاءت رسلنا الى ابراهيم . وسلاماً منصوب على المصدرية أي سلموا سلاماً . وسلام
 خبر لمبتدأ محذوف أي امري سلام ، أو مبتدأ والخبر محذوف أي عليكم سلام .
 والمصدر المنسبك من ان جاء مجرور بعن محذوفة أي ما تأخر المجيء بالعجل .
 وخيفة مفعول أوجس ، وهو من الأفعال التي تتعدى بنفسها تارة ، وبخرف الجر
 أخرى ، تقول : أحسست شيئاً ، وأحسست بشيء . وامراته قائمة الجملة حال .
 ويعقوب مفعول لفعل محذوف أي ووهبنا له من وراء اسحق يعقوب ، ويجوز
 الرفع على انه مبتدأ ومن وراء خبر . ويا ويلتا أصله يا ويلتي مثل يا عجباً أصله
 يا عجيبي ، ثم انقلبت الياء ألفاً ، ويا حرف نداء وويلتا منادى أي يا ويسل
 احضر . وهذا بعلي مبتدأ وخبر . وشيخاً حال من بعلي ، والعامل فيه اسم الإشارة
 لأنه بمعنى اشير ، ويجوز رفع شيخ على ان يكون بعلي مبتدأ ثانياً ، وشيخ خبره ،
 والجملة خبر للمبتدأ الأول . وأهل البيت منصوب على النداء أي يا أهل البيت .

المعنى :

(ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام) . الرسل جمع
 رسول ، والمراد ان جماعة من الملائكة دخلوا على ابراهيم في صورة الآدميين
 ليشرروه باسحق ، وقد بدأوا بالتحية ، فرد عليهم بمثلها أو بأحسن منها ، وأشار
 سبحانه الى هؤلاء في الآية ٢٤ من سورة الذاريات : « هل اتاك حديث ضيف
 ابراهيم المكرمين » .. (فإلبث ان جاء بعجل حنيد) وكان ابراهيم (ع) معروفاً
 بالكرم وحب الأضياف ، ولذا أسرع وهياً لهم عجلاً مشوياً عملاً بظاهر حالهم ،
 وكان العجل سمياً بدليل قوله تعالى : « فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين - ٢٧
 الذاريات .

الجزء الثاني عشر

(فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة) . امتنعوا عن الطعام لأنهم ليسوا بشراً ، وخاف ابراهيم (ع) منهم لأنه عاملهم على أنهم من البشر ، وإذا بهم ليسوا كما ظن ، وهو لا يعلم ماذا يريدون .. وكل انسان معصوماً كان أو غير معصوم اذا فاجأه أمر لا يعرف عواقبه يوجس منه خيفة ، ولما رأى الملائكة ما به (قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط) ولا نريد بك ولا بقومك سوءاً . وفي سورة الحجر الآية ٥٣ صارحهم بهذا الخوف حيث (قال انا منكم وجلون) .

(وامراته قائمة فضحكت) . وقيامها كناية عن سماعها لما دار بين بعلها والملائكة، أما ضحكها فلكل حديث عندهن بشاشة، والله أعلم بالسبب الذي أضحكها، وقد ذهب المفسرون فيه مذاهب (فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب) أي تلد هي اسحق ، ويولد لاسحق يعقوب، وفيه دلالة على ان ولد الولد ولد . (قالت يا ويلتا أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخاً ان هذا لشيء عجيب) . تعجبت حيث لم تجر العادة ان تلد من هي في سنها ، ويلد لمن هو في سن زوجها ، وعن سفر التكوين ان ابراهيم (ع) كان عمره مئة سنة آنذاك ، وان سارة كانت في التسعين . ونحن لا نعرف بهذا السفر ، وكل ما نعرفه انها كانا متقدمين في السن ، أما التحديد فعلمه عند ربي .

(قالوا - اي الملائكة - أتعجبين من أمر الله) كيف ؟. وانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون (رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت) وقد خصكم بالكثير من نعمه ، وهذه واحدة منها ، وما هي بأعجب من جعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم (انه حيد مجيد) . هذه الجملة توضيح وتأكيـد لما قبلها ، والحميد صاحب الأفعال المحمودة ، والمجيد صاحب الفضل والجود ، اذن ، فلا عجب اذا أعطى الله من سألـه ومن لم يسألـه ، من حيث يحتسب أو لا يحتسب .

ابراهيم يجادل في قوم لوط الآية ٧٤ - ٧٦ :

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ *
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أُعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ
جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ *

اللغة :

الروع بفتح الراء الخوف ، وبضمها النفس . والحليم الذي يصبر على جهل
الغير وأذاه ولا يعالجه بالعقوبة . والأواه مبالغة في التأوه مما يكره . والمنيب الذي
يرجع الى الله في كل أمر .

الإعراب :

وجاءته عطف على ذهب . وجملة يجادلنا حال ، وجواب لما محذوف أي لما
ذهب الروع اخذ في القول مجادلاً . وحليم خبر ان ، وأواه خبر بعد خبر ،
ومثله منيب . والضمير في إنه للشأن . وعذاب فاعل آتيهم ، وغير مردود صفة
لعذاب .

المعنى :

(فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط) بعد ان
عرف إبراهيم هوية اضيافه ومهتهم اطمأن اليهم ، واغتبط هو وامراته بالبشري
السارة بالابن والحفيد ، ولكن ازعجه ما سمع من ملائكة العذاب في شأن قوم
لوط ، فأخذ يجادل من أجلهم .. وقال جمهور المفسرين ، ومنهم الرازي وصاحب

الجزء الثاني عشر

المنار : لم يجادل إبراهيم من أجل قوم لوط ، وإنما جادل من أجل لوط ، وانه خاف أن يصيبه ما يصيب قومه من العذاب ، واستدل المفسرون على ذلك بالآية ٣٢ من سورة العنكبوت : « قال ان فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لتنجين وأهلكه إلا امرأته كانت من الغابرين » . والصحيح ان هذه الآية لا تمت الى مجادلة ابراهيم بصلة ، وإنما هي مجرد اخبار منه بأن فيها لوطاً ، ولذا قالوا له : نحن أعلم بمن فيها . والآية التي تفسرها نص في المجادلة من أجل قوم لوط ، لا من أجل لوط .. بالاضافة الى قوله تعالى : (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) فالضمير في انهم وآتيهم يعودان الى قوم لوط الذين جادل ابراهيم فيهم ومن أجلهم . ولكن المفسرين قالوا : ان المجادلة في قوم لوط جرأة على الله و ابراهيم (ع) معصوم عن الذنب ، فلا بد ان تكون المجادلة في لوط ، لا في قومه .

ويلاحظ أولاً : لا فرق بين المجادلة في لوط ، وفي قومه ، فإن كانت هذه جرأة فكذلك تلك .

ثانياً : ان المجادلة مع الله في دفع العذاب عن عباده أو تأخيرها ليست من الذنب والمعصية في شيء ، بل العكس هو الصحيح ، لأن هذه المجادلة لا مخالفة فيها ولا نزاع ، وإنما هي من باب طلب الرحمة من القوي للضعيف ، وهذا الطلب يدل على الحلم والرفقة ، ولذا أثنى الله على ابراهيم بأجمل الثناء ، ووصفه بأنه (حلیم أوامه منیب) بعد ان سأله الرفق بقوم لوط .

ثالثاً : ان ابراهيم جادل في قوم لوط ليكون على يقين من أنهم بلغوا من التمرد الحد الذي لا يرجى معه صلاحهم وهدايتهم ، تماماً كقوله : « بلى ولكن ليطمنن قلبي » . ويؤكد ارادة هذا المعنى قوله سبحانه : (يا ابراهيم أعرض عن هذا انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود) . أي لا تسألني يا ابراهيم في قوم لوط ، فانهم مهلكون لا محالة ، لاصرارهم على الشرك والفساد وإيأس منهم ومن توبتهم .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنَكُم رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ *

اللغة :

سِئِئًا بهم اي وقع لوط فيما أساءه بسبب مجيء الرسل . والذرع منتهى الطاقة ، ومثله الذراع ، تقول : ضقت به ذرعاً أو ذراعاً اي صعب عليك احتمال . والعصيب الشديد . وُهرعون يسرعون ، ولا تُستعمل صيغة الفاعل فيه الا على لفظ المفعول ، ومثله أولع . ولا تخزون اي لا تحجلوني . والرشد العاقل . والمراد بالركن الشديد الناصر الذي يعصمه من قومه .

الإعراب :

سِئِئًا مبني للمفعول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر عائداً الى لوط . وذرعاً تمييز . وجاءه بمعنى قصده ولذا تعدى الفعل الى مفعول . ومن قبل الواو للحال . ويا قوم اصله يا قومي . وهؤلاء مبتدأ وبناتي عطف بيان او بدل وهنَّ ضمير فصل لا محل له من الاعراب وأطهر خبر ، ويجوز ان تكون هنَّ مبتدأ ثانياً

الجزء الثاني عشر

وأظهر خبره، والجملة خبر المبتدأ الأول . ولا تخزون أصله لا تخزونني . والضيف يطلق على الواحد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث . ولو ان لي (لو) للتمني ولا تحتاج الى جواب .

المعنى :

(ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً) . انطلق الرسل من عند ابراهيم (ع) الى لوط ، وفي ج ٣ ص ٣٥٣ عند تفسير الآية ٨٠ من سورة الأعراف ذكرنا ان لوطاً هو ابن اخي ابراهيم ، وانه كان في شرق الأردن ، وان قومه اول من اتى الرجال شهوة دون النساء .. وكانوا يتعاطون هذه الفاحشة جهراً ، لا سراً ، ومن امتنع عنهم اغتصبوه قهراً ، حتى ولو كان من الضيوف الشرفاء .. ومن اجل هذا لما اتى رسل الله لوطاً على هيئة الآدميين خاف من قومه ان يعتدوا عليهم، وهو عاجز عن مقاومتهم ومدافعتهم، فتألم (وقال هذا يوم عصب) قال الرازي : وانما قيل للشديد : عصب لأنه يعصب بالشر .

(وجاءه قومه يهرعون اليه) اسرعوا الى بيت لوط ، وفي ظنهم ان هذه المرة كغيرها (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ولم يحسبوا للعواقب والمخبات (قال - لوط - يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) والمراد ببناته بنات امته، لأن النبي في امته كالوالد في أسرته ، والمعنى تزوجوا النساء ، واستمتعوا بهن حلالاً طيباً ، ودعوا اللواط ، فإنه رجس من عمل الشيطان (فاتفقوا الله) يخوفهم من الله ، وهو اهن شيء عند اهل الفسق والعجور (ولا تخزون في ضيفي) ان كنتم لا تخافون الله فاخلجوا من انفسكم ، ولا تمتهنوا كرامتي في الاعتداء على ضيفي (أليس منكم رجل رشيد) عاقل يحول بينكم وبين ما تريدون ؟ .

(قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق - أي من رغبة - وانك لتعلم ما نريد) . قد علمت وتعلم .. الى هذا الحد تبلغ الصلاقة بالانسان إذا تحرر من القيود ، وتنكر للقيم ، وفقد الشعور بالمسؤولية .. وقد علمت أننا لا نرغب

في البنات ، وان رغبتنا في الرجال والعلمان ، وعلمت أيضاً اننا لا نكثر بك ولا يهلك ، فعلام هذا الفضول في قولك : (فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي). ولقوم لوط أشباه ونظائر في الوقاحة والصلافة ، وما أكثرهم اليوم !. ومنهم مربون ومعلمون في المدارس والجامعات .. ونحن لا نشك ان في رجال الدين من هم أسوأ ألف مرة من هؤلاء ، ولكن المؤكد ان العالم يكون اسوأ حالاً مما هو عليه الآن لو لم يكن هناك دعاة الى الدين والقيم .

(قال لو ان لي بكم قوة او آوى الى ركن شديد) . بعد ان آيس لوط من من قومه تمنى ان يكون له ناصر ينصره عليهم ، أو يحجر بحجره منهم ، تمنى هذا ، وهو لا يعلم ان نصر الله عنده وفي بيته ، وانه لم يبق من الوقت لهلاك الظالمين سوى سواد ليته .

لن يصلوا اليك الآية ٨١ - ٨٣ :

قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ *

اللغة :

السرى بالضم والاسراء يكون في الليل ، والسبر يكون في النهار ، يقال : سرى واسري به ليلاً ، وسار نهراً . والقطيع من الليل بكسر القاف جزء منه .

الجزء الثاني عشر

والسجیل الطین المتحجر . ومنضود وضع بعضه على بعض . ومسومة عليها علامة.

الإعراب :

الا امرأتك استثناء من أهلك . ولا يلتفت منكم أحد جملة معترضة بين المستثنى والمستثنى منه . وضمير انه للشان . وما أصابهم فاعل مصيبتها . وعاليها مفعول أول لجعلنا وسافلها مفعول ثان . ومنضود صفة لسجیل . ومسومة صفة لحجارة . وهي تعود الى الحجارة أو الى قرى لوط . ومحلها الرفع بالابتداء ، وببعد الباء زائدة اعراباً وبعد خبر .

المعنى :

(قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا إليك) . قال الرازي : لما رأت الملائكة قلق لوط وحزنه بشّروه بأنواع الإشارات : احداها أنهم رسل الله . ثانيها ان الكفار لا يصلون الى ما هموا به ثالثها انه تعالى مهلكهم . رابعها انه ينجيهم وأهله من العذاب . خامسها ان لوط في ركن شديد لأن الله ناصره على القوم الظالمين .

(فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك انه مصيبتها ما أصابهم) . طلب الملائكة من لوط (ع) ان يخرج ليلاً بأهله ، وألا ينظر أحد منهم الى ما وراءه .. وربما كانت الحكمة من ذلك ألا يرى الملئط ما نزل في دياره من الهلاك فيرق ويحزن .. اما امرأة لوط فقد تركها بأمر الله مع القوم الكافرين لأنها منهم ، فكان عليها ما عليهم من لعنة الله وغضبه . (ان موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) . هذا من كلام الملائكة ، ويومئ الى الجواب عن استعجال من استعجل نزول الهلاك بالقوم .

(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) . المراد بأمر الله هنا حكمه وقضاؤه ، وضمير عاليها يعود الى قرى لوط ، ومثله ضمير سافلها ، أي ان الله سبحانه

خسف الأرض بتلك القرى ، وفي بعض التفسير أنها تبعد عن بيت المقدس ثلاثة أيام . (وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك) . وقد جاء تفسير السجيل بالطين في الآية ٣٢ من سورة الذاريات : « لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ ، وَالْمُنْضُودَ الْمَتْرَاكِمَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ أَوْ يُنْزَلُ مُتَتَابِعًا بَعْضُهُ أَثَرُ بَعْضٍ ، وَالْمَسْمُومَةُ الَّتِي لَهَا عَلَامَةٌ خَاصَّةٌ ، وَلَا تَصِيبُ إِلَّا مَن يَسْتَحِقُّهَا ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى قَرْيٍ لُوطٍ عَذَابَيْنِ : الْمَطَرَ بِهَذِهِ الْحِجَابَةِ ، وَالْخَسْفَ .

(وما هي من الظالمين ببعيد) . قال المفسرون : المراد بالظالمين هنا كفار مكة ، وإن الله توعدهم بما أصاب قوم لوط من الهلاك إن هم أصروا على تكذيب محمد (ص) . وليس هذا ببعيد ، مع العلم بأن كل ظالم في شرق الأرض وغربها معرض لتزول العذاب به من السماء ، أو من المعبدين في الأرض .. فإن كل ثورة تحريرية حدثت أو تحدث لا مصدر لها إلا النقمة على الظلم واهله، والفساد وانصاره .

شعب الآية ٨٤ - ٨٦ :

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَفْظِظٍ *

اللغة :

البخس النقص والعيب . والعتو الفساد . ومفسدين اي متعمدين . وبقية الله ما يبقى بعد ايفاء الكيل والميزان من الربح الحلال ، وان قل .

الإعراب :

والى مدين معطوف على ما قبله اي وارسلنا الى مدين اخاهم ، وشعبياً بدل من الأخ . ومن إله (من) زائدة لإعراباً . ومحيط صفة ليوم لفظاً، ولعذاب معنى ، وصح وصف اليوم بالاحاطة مع انه وصف للعذاب لمكان الاضافة . واشياءهم بدل اشمال من الناس . ومفسدين حال من واو لا تعثوا . وبقية الله مبتدأ ، وخير خبر . والباء في بحفيظ زائدة لإعراباً .

المعنى :

(والى مدين اخاهم شعبياً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .
مرّ بالحرف الواحد في الآية ٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٦ .
(ولا تنقصوا المكيال والميزان) . هذا نهى عن التطفيف ، ومثله الآية الأولى من المطففين : « ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يُخسرون » اي ينقصون (اني اراكم بخير) المراد بالخير السعة في الرزق (واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط) هذا انذار لهم بالعذاب ان أصروا على العصيان .

(ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) بعد أن نهاهم عن النقصان أمرهم بالوفاء والتام ، والمعنيان واحد ، ولا تفهم الغرض من ذلك إلا التأكيد (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) . والأشياء تشمل كل شيء ، ومنه الحق المادي والمعنوي وعليه يكون التحريم عاماً للبخس في الكيل والميزان ، ولبخس الانسان وانتقاصه في علمه أو خلقه .

(ولا تعسوا في الأرض مفسدين) . ظاهر اللفظ يدل على ان المعنى ولا تفسدوا في الأرض مفسدين ، لأن العثر والفساد بمعنى واحد ، فوجب إما تأويل كلمة العثر بالسعي ، ويكون المعنى ولا تسعوا في الأرض مفسدين ، وإما تأويل كلمة مفسدين بمتعمدين ، ويكون المعنى ولا تفسدوا في الأرض متعمدين أو معتدين ، وذلك بأن تثيروا الحرب وتفكوا الدماء بلا سبب موجب ، اما اذا كانت الحرب للقضاء على الفساد والحرب فيكون تركها ، والحال هذه ، هو الفساد ، ومن هنا كان الجهاد من أفضل الطاعات . وهذا التأويل أرجح من غيره .

(بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين) . ان الحلال الطيب خير وأبقى وان قل ، والحرام الخبيث شر محض وان كثر ، ولو بحثنا عن أسباب الحروب في هذا العصر لوجدناها تكمن في الاحتكارات وتكدس الثروات في ايدي القلة القليلة ، وحرمان الاكثريّة الغالبة . ومن الصدف اني قرأت في صحف اليوم ١٩٦٨/١٢/٢٤ ان جاعة من اللندنيين نظاهروا بالأمس متوجهين الى قصر باكنجهام ، وقدموا مذكرة الى الملكة يطالبونها بأن تتخلّى عن قصرها الذي يستوعب ألف شخص ، بينما لا يجد ٦ آلاف شخص مسكناً لهم في لندن وحدها .. (وما أنا عليكم بحفيظ) بمنعكم عن المعصية بالقهر والغلبة ، ولا مهمة لي سوى النصيح والتبليغ ، وقد أدبتهما كاملة ، وخرجت من عهدتها ومسؤوليتها .

أصلحك تأمرك الآية ٨٧ - ٩٠ :

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحَتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ
إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ *

اللفظ :

أُنيب ارجع . ولا يجرمنكم أي لا يكسبنكم . والشقاق شدة الخلاف ، حيث
يكون كل طرف من المتخاصمين في شق غير الذي فيه الآخر .

الإعراب :

المصدر المنسبك من أن نترك مجرور بالباء المحذوفة . والمصدر من أن تفعل
معطوف على ما يعبد آباؤنا ، والتقدير أصلاتك تأمرك بترك ما يعبد آباؤنا أو بترك
فعل ما نشاء في أموالنا . وما استطعت (ما) مصدرية ظرفية أي مدة استطاعتي ،
ويجوز أن تكون اسم موصول في محل نصب بدلاً من الإصلاح أي الاصلاح
الذي استطيعه . وشقائي فاعل يجرمنكم ، والمصدر من ان يصيبكم مفعول ثانٍ
ليجرمنكم .

الاشتراكية والرأسمالية عبر التاريخ :

(قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان تفعل في
اموالنا ما نشاء) . كل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر يتخذ من الصلاة موضوعاً
للاستهزاء والسخرية من المصلين ، وقد كان شعيب (ع) ولا شك من المصلين ..

سورة هود

ولما أمر قومه بنبد الأصنام وعبادة الله وحده ، ونهاهم عن الاستفلال والكسب الحرام نهكموا به ، وقالوا : أصلتك التي تصليها ، وتدل على السفه والحقارة أوحى اليك ان تأمرنا بترك التقاليد والعادات التي ألفها الآباء والأجداد جيلاً بعد جيل ، وان تنهانا عن تحصيل المال كيف نشاء ؟ (انك انت الحليم الرشيد) ؟ . أي هل انت عاقل في قولك هذا ؟ . وتتضمن هذه الآية الدلالات التالية :

١ - ان رسالة الأنبياء لا تنحصر بالدعوة الى اقامة الشعائر ، بل تشمل ايضاً الحياة الاجتماعية ، وتحد من حرية الانسان في تصرفاته ، وتقيد به عدم الاعتداء على غيره ، وتحجر عليه كل عمل يستلزم الاضرار بالفرد او الجماعة ، ووضح دليل على ذلك قوله : « ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

٢ - لقد دلت الآية ان اشد الناس عداوة للأنبياء والمصلين هم الذين يجمعون المال بالخدعة والاحتيال ، ويتصرفون في مقدرات الناس على أهوائهم ، تماماً كما تفعل شركات الاستغلال والاحتكار .

٣ - تدل الآية ايضاً على ان للرأسمالية المتطرفة جنوراً وأنصاراً في التاريخ ، والشواهد على ذلك من الآثار لا يبلغها الاحصاء .. وهذه الرأسمالية تطلق للفرد الحرية الكاملة في تحصيل الثروة واستغلالها في مشاريع السلب والنهب ، وأوضح تعريف لها قول المترفين لشعيب : « او ان نفعل في اموالنا ما نشاء » . فليس مرادهم بهذا ان يتفقوا اموالهم في المأكول والملبس .. كلا ، وانما مرادهم ان يستغلوا اموالهم في السيطرة على الناس ، والتحكم بأقواتهم .

وكما دل التاريخ على ان الانسان قديم العهد بهذه الرأسمالية فقد دل ايضاً على انه قديم العهد بالاشتراكية ، فقد جاء في دروس التاريخ للمؤرخ «ول ديورانت» : ان الباحثين قد عثروا على لوحة سومرية يرجع تاريخها الى ٢١٠٠ قبل الميلاد ، تقول : كانت الدولة هي التي توجه الاقتصاد القومي . وان في بابل سنة ١٧٥٠ قبل الميلاد كان قانون حامورابي يحدد أسعار كل شيء . وان في عصر البطالة سنة ٣١٣ قبل الميلاد كانت الدولة تملك الأرض ، وتدير الزراعة ، الى غير ذلك . والاسلام يرفض كلاً من الاشتراكية والرأسمالية بمعناها الشائع اليوم ، ويقر

الجزء الثاني عشر

كل ما من شأنه ان يواجه الصعاب ، ويحل مشكلات الحياة ، دون ان يخس الناس اشيائهم . انظر فقرة « الغني وكيل لا أصيل » عند تفسير الآية ١٨٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١٧ .

(قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربي) . تقدم في الآية ٢٨ من هذه السورة .

(ورزقني منه رزقاً حسناً) بعد أن أمر شعيب(ع) قومه بالكسب الحلال الطيب ونهاهم عن الحرام الخبيث احتج عليهم بما أنعم الله عليه من الرزق الكافي الوافي بجميع حاجاته ، مع انه أبعد الناس عن الحرام .. فأسباب الرزق الحسن - اذن - لا تنحصر بالحرام ، ومحال ان يمحصر الله الرزق بباب من الأبواب ، ثم يحرمه على عباده ، وقول شعيب (ورزقني منه رزقاً حسناً) يومئ الى انه كان في سعة من العيش .

(وما اريد ان اخالفكم الى ما أنهاكم عنه) . ولو فعل لكانت الحجة لهم عليه ، ولا حجة له عليهم ، ومن شروط النبي ان تكون جميع صفاته مبشرة لا منفرة ، والطباع تنفر من الذين يقولون ما لا يفعلون (ان اريد الا الاصلاح ما استطعت) . والمصلح يعظ الناس بأفعاله قبل أقواله ، ويستمر في دعوته متحملاً في سبيلها الأذى والمشاق ، ومن أجل هذا كان شعيب وغيره من الأنبياء يأكلون من عمل ايديهم ، ويتحملون الأذى من الكافرين والمعادنين (وما توفقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب) اي انه سيمضي في تأدية رسالته مهما تكن النتائج متوكلاً على الله وطالباً منه العون وراجعاً اليه في جميع اموره .

(ويا قوم لا يجرمنكم شقائي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد) . لا يجرمنكم اي لا يكسبنكم ، والمعنى لا يكسبنكم عداؤكم لي نزول العذاب بكم ، فاعادى قوم نبيهم الا ونزل بهم العذاب . ومن الشواهد على ذلك أقوام الأنبياء المذكورين . فقله : لا يجرمنكم شقائي الخ مثل قولك لمن عقى أباه : لا يكسبك عقوبك لأبيك غضب الله عليك (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه) . مر نظيره مع التفسير في الآية ٥٢ و ٦١

سورة هود

من هذه السورة (ان ربي رحيم ودود) يرحم من استغفر واعتذر ، ويتودد الى عباده بالانعام عليهم ، والنصح لهم ، والإمهال لعلهم يرجعون .

ولولا رهطك لرجمناك الآية ٩١ - ٩٥ :

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا
وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي
أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
حُصِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ *
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا
أَلَا بُعْدًا لِّدَيْنٍ كَمَا بَعِدَتِ ثَمُودُ *

اللغة :

الفقه الفهم . والرهط الجماعة . والرجم الرمي بالحجارة ، والظهري بكسر
الطاء المتروك وراء الظهر لا يُعْنَى به . والمكاته الحالة التي يتمكن بها صاحبها من
عمله . وارتقبوا انتظروا . والمراد بالصيحة هنا صيحة العذاب . والجاثم الباركة
على ركبته مكباً على وجهه ، ويطلق على الملازم لمكانه لا يتحول عنه . وغني
بالمكان أقام فيه . وبعداً دُعاء بالهلاك .

الإعراب :

وما أنت علينا بعزير (ما) نافية وانت مبتدأ وعلينا متعلق بعزير ، وعزير خبر والباء زائدة اعراباً . وظهيراً مفعول ثانٍ لاتخذتموه . ومكانكم مصدر مكن . ومن استفهام في محل رفع بالابتداء ، وجملة يأتيه عذاب خبر ، وتعلمون معلق عن العمل لمكان الاستفهام . وكأن مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف أي كأنهم لم يغنوا فيها . وبعداً منصوب على المصدرية أي بعد بعداً .

المعنى :

(قالوا يا شعيب ما نفقه كما تقول) . لقد فهموا كل ما قاله لهم من الأمر والنهي ، والتهديد والوعيد ، وانما أرادوا : رلهم هذا أنهم لا يرون أي مرور لتزول العذاب الذي هددهم به شعيب ، كيف وهم في زعمهم الأبرياء الأتقياء ؟ فعبادة الأوثان يبررها عمل الآباء ، وتطفيف الكيل والميزان يبرره مبدأ الحرية في كسب المال .. فدعوة شعيب، إذن، ما هي إلا وسيلة للشغب والتخريب وهذا هو بالذات منطق القراصنة في كل زمان ومكان ، يسلبون ويقتلون ، فإذا اعترض عليهم معترض قالوا له : انت مخرب هذأم تشير المشاكل والحروب ، وتعمل ضد الأمن والسلم ، لأن السلم في مفهومهم أن تركع الناس لطفائهم ، وتسجد لآثامهم .

(وانا لثراك فينا ضعيفاً) لا يمنعنا من البطش بك مانع ، فالكوت أسلم لك (ولولا رهطك لرجمناك) . قد يسأل سائل : كيف نفوا القوة عنه ، وأثبتوها لقومه ؟. أليست قوة الرجل من قوة قومه ؟. قلت : لا تلازم بين القوتين ، فربما كانت قوة قرابة الرجل عليه ، لا له ، فقد كانت قريش أعدى أعداء محمد القرشي (ص) . وفي بعض التفسيرات أن قوم شعيب كانوا على الشرك، وان قول المشركين : لولا رهطك أرادوا به لولا احترامنا رهطك لرجمناك . ولفظ الآية لا يأبى هذا المعنى .

(قال يا قوم ارهطي أعز عليكم من الله) ؟. وأي عجب في هذا عند أهل

الجهل والضلالة ؟ . « اَنَا يَحْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ — ٢٨ فاطر » . (وَاخْذُتْمُوهُ رَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا) . وظهيراً كناية عن نسيانه وعدم الاهتمام به (وَايَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ اِنِّي عامل) على مكاني . وهذا مثل قوله على لسان الرسول الأعظم : ولي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون — ٤٠ يونس » . وقوله : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارْتَقِبُوا اِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ) . هذا تهديد من شعيب لقومه بنزول العذاب ولا شيء أدل على نبوته من هذه الثقة بالغيب .

(ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يكنوا فيها ألا بعداً للمدين كما بعدت نوح) . مر نظيره في الآية ٦٦ — ٦٨ من هذه السورة .

موسى الآية ٩٦ — ٩٩ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ *

اللغة :

السلطان المبين الدليل الظاهر . والملاأ اشراف القوم . والمراد بأمر فرعون أفعاله وتصرفاته . والورد بلوغ الماء، والمورود الماء بالذات ، واستعمل هنا في النار مجازاً . والرفد بكسر الراء العطاء ، والمرفود المعطى .

الإعراب :

فأوردتهم ماضٍ لفظاً ، ومستقبل معنى أي فيوردتهم ، وكل مستقبل محقق الوقوع يجوز التعبير عنه بصيغة الماضي . وبش من أفعال الذم ، والورد فاعل ، والمورود مبتدأ ، وهو المخصوص بالذم . والجملة من الفعل والفاعل خبر مقدم .

المعنى :

لما ذكر سبحانه ما أصاب قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب أشار الى فرعون وقومه ، والغاية هي العبرة والعظة ، ويتلخص معنى هذه الآيات الأربع بأن الله سبحانه ارسل موسى (ع) الى فرعون وقومه بالأدلة والبيّنات ، ومنها التوراة والعصا واليد ، ولكن فرعون أصر على الكفر والطغيان ، كما أصر قومه على متابعتة ، والاثّار بأمره ، فكانت عاقبة التابع والمتبوع اللعنة والهلاك في هذه الدار ، والنار في الدار الآخرة .

ولو لم يجد فرعون انصاراً لما تجرأ وقال : أنا ربكم الأعلى .. ما علمت لكم من إله غيري ، وكل مفضل ومفسد لا يجترأ على الظهور الا حيث يجد الانصار والأتباع .. وطبيعة الانسان هي في كل عصر ، والذي يتغير هو الاسم والأسلوب ، وقد كان الاسم في الماضي فرعون ونمرود ، واسمها في الحاضر أحلاف عسكرية ، وشركة «فاكوم» ، وأرامكو ، وما اليها .. اما انصارها فهم الذين يقبضون منها في الظلام ، ويمشون كالأشراف بين الناس .

ذلك من انباء القرى الآية ١٠٠ - ١٠٢ :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَفْثُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ

اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ
أَخَذُ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ *

اللفظة :

الشيء القائم هو الموجود بنحو من الأنحاء ولو بآثاره ، والحصيد الزرع
المحصود من الأصل ، يقال : حصدهم بالسيف اذا قتلهم . والتببيب التخير ،
ومنه تَبَّتْ بدا أبي لب أي خسرت .

الإعراب :

ذلك مبتدأ ، ومن انباء القرى خبر ، ويجوز ان تكون ذلك مفعول لفصل
محذوف اي نقص ذلك . وقائم مبتدأ ومنها خبر مقدم . وحصيد مبتدأ وخبره
محذوف اي ومنها حصيد . وواو زادوهم للأصنام على التثنية مترلة العقلاء ، او
على غير الأعم الأغلب . وغير مر إعرابها في الآية ٦٣ من هذه السورة . وكذلك
الكاف بمعنى مثل خبر مقدم ، وأخذ ربك مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد) . بعد أن ذكر
سبحانه طرفاً من قصص الأمم الماضية مع انبيائهم قال لنيه الأكرم (ص) : ان
بعض تلك الأمم بقي شيء من آثارها ، وشبه الآثار الباقية بالزرع القائم على ساقه ،
لأن كلاً منها ظاهر للبيان ، والبعض لم يبق شيء من آثارها ، وشبه هذه بالزرع
المحصود الذي تمرت الأرض مما يشرب إليه ، وقال بعض المفسرين : ان التي بقي
آثارها هي بلاد عاد وثمود ، والتي لا أثر لها هي بلاد نوح ولوط .. أما نحن

الجزء الثاني عشر

فترك الكلام في ذلك لعلماء الآثار .. وعلى أية حال فان بيان هذه القصص بلسان محمد (ص) دليل قاطع على نبوته ، وانها من وحي السماء ، لا من نسج الخيال ، ولا نقلاً عن قال .

(وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) بتكذيبهم رسل الله واصرارهم على الشرك والفساد ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم بحوالى عشرين آية (فما اغنت عنهم آلتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيب) . آلتهم أصنامهم ، وواو زادهم تعود اليها ، وأمر ربك عذابه ، والتنبيب التخبير ، وفي الآية ٦٣ من هذه السورة : « فما تزيدوني غير تخبير » . ويتلخص المعنى بقوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم - ٥٥ الفرقان » .

(وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة) اي ان الله سبحانه يهلك الكافرين الظالمين بمثل الطوفان والحسف وصيحة العذاب (ان أخذه أليم شديد) ولكن بعد الانذار والإعذار بلسان رسل الله مشافهة ومجاهة وجهاً لوجه .. وقلنا مشافهة ومجاهة لأن الكفر والفساد في هذا العصر أكثر منه في أي عصر مضى ، والإعذار والإنذار موجودان فيه بحكم العقل والكتب السماوية والأحاديث النبوية ، ومع ذلك لا طوفان ولا خسف ولا حجارة من سجيل ، ولا نعرف سراً لذلك إلا الظن بأن مشيئة الله تعالى قضت بهلاك الذين يجاهون أنبياءهم بالتكذيب ، دون الذين يعصون الوحي والعقل .. والظن لا يغني عن الحق . والله أعلم .

وذلك يوم مشهود الآية ١٠٣ - ١٠٩ :

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ
النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُوَخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ
لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا

فَفي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا
فَفي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ
عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ * فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءَ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا
كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ * نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ *

اللغة :

يوم مشهود يشهده الخلاق . وأجل معدود معين في علم الله . والزفير في
اللغة أول صوت الحمار ، والشهيق آخره ، وقد كُنِيَ بها سبحانه عن آلام اهل
النار وأحزانهم . ومجنوذ مقطوع . والمرية الشك .

الإعراب :

ذلك يوم مبتدأ وخبر ، ومجموع صفة ليوم ، والناس نائب فاعل لمجموع .
ويوم يأت يوم متعلق بلا تكلم نفس ، وحذفت الياء من يأتي للتخفيف ، وفيها
ضمير مستتر يعود الى يوم مجموع ، ولا يجوز ان يعود الى يوم يأت لأنه مضاف
الى الاتيان ، والمضاف اليه بمنزلة الجزء من الكلمة، وفي النار متعلق بمحذوف أي
فيستقرون في النار ، وخالدين حال من ضمير يستقرون . وما دامت (ما) مصدرية
ظرفية اي مدة دوام السموات والأرض، والظرف متعلق بخالدين . وعطاء منصوب
على المصدرية ، وغير مجنوذ صفة للعطاء . ونصيبهم مفعول لموفوهم ، وغير
منقوص حال من نصيبهم .

المعنى :

(ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) . ان في ذلك اشارة الى أخذه تعالى للقرى الظالم أهلها بالعذاب الشديد ، والمعنى ان في هذا الأخذ الأليم عبرة لمن آمن بالله ، وتذكيراً لمن يخاف عذاب يوم تشهد جميع الخلائق حين يجمعهم الله فيه للحساب والجزاء .
وتسأل : ان الطوفان او الزلزال ونحوه كثيراً ما يحدث لأسباب طبيعية ، والطبيعة عمياء لا تميز بين المؤمن والجاحد ، والمجرم والبريء ، فمن الجائز أن يكون الذي حدث لأقوام الأنبياء من هذا الباب ؟

الجواب : لقد كان النبي ينذر قومه بحدوث العذاب ، ويحدد نوعه ووقته قبل حدوثه ، فيأتي قوله على وفق الواقع ومن صلبه ، ولا يمكن تفسير ذلك بالتنبؤ العلمي حيث لا مراصد ولا أدوات للعلم في ذاك العهد ، وأيضاً لا يمكن تفسيره بالبدية والحدس لأن النبي كان يخبر عن ثقة ولسان الجزم ، ويقول : هذه هي الحقيقة وسترون ، ولا بالصدفة لمكان التكرار ، واذا بطلت جميع هذه الفروض والتفسيرات تعين التفسير بالوحي ومشية الله لأنه هو وحده القرض الصحيح .

(وما نؤخره الا لأجل معدود) . لكل شيء عند الله مدة وأجل لا يسبقه ولا يتجاوزه ، ومن ذلك فناء الدنيا ومجيء الآخرة (يوم يأتي لا تكلم نفس الا بإذنه) فيؤذن لها بالكلام والدفاع في موقف دون موقف ، كما هو الشأن في الكثير من محاكم الدنيا (فنههم شقي وسعيد) وشقاوة الانسان غداً أو سعادته انما تكون بعمله في الدنيا ، لا بقضاء الله وقدره ، أما خبر « الشقي شقي في بطن أمه ، والسعيد سعيد في بطن أمه » فشكوك فيه ، وظاهره يناقض عدل الله ورحمته .. الى جانب انه من اخبار الآحاد ، وهي حجة في الأحكام الشرعية كالحلال والحرام والطاهر والنجس ، لا في أصول العقيدة وما يتصل بها .

ثم حدد أهل الشقاوة بقوله: (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق). وبديهة ان الله لا يعذب إلا من تمرد وأفسد ، فالشقاوة – اذن – تكون بالكسب والعمل ، لا بالقضاء والقدر .. والزفير والشهيق كناية عن أحزان أهل النار

وآلامهم (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) . وقد أطال المفسرون الكلام حول التعليق على مشيئة الله هنا ، وذكروا وجوهاً جعلت المعنى من الطلاسم والمتشابهات ، وهو من المحكمات والواضحات ، ويتلخص بأن من يدخل جهنم بأي ذنب من الذنوب فلا يستطيع الخروج منها بنفسه ، ولا بشفع ومعين ، ولا بفداء ، فهو من هذه الجهة خالد فيها .. ولكن إذا شاء الله أن يخرج منه خرج ، وانتفى عنه وصف الخلود في النار ، لأن إرادته تعالى لا يحدها شيء (ان ربك فعال لما يريد) ، وكل شيء يرجع في النهاية الى إرادته ولا ترجع إرادته إلا اليه وحده ، فسبب الخلود يؤثر أثره ما دام الخالق مريداً له ذلك ، وان لم يشأ لم يكن عملاً مبدءاً : « إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » .

وكما حدد أهل الشقاوة بالخالدين في النار حدد أهل السعادة بالخالدين في الجنة (وإما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع . وتساءل : ان من يدخل الجنة فلا يخرج منها ، اذن ، ما هو القصد من التعليق على مشيئة الله تعالى ؟ .

وقيل في الجواب : ان الله يخرجهم من نعيم الجنة الى نعيم مثله أو أحسن .. أما الذي نفهمه نحن من هذا التعليق فهو مجرد الإشارة الى قدرة الله وعظمته ، وان الأسباب المعروفة انما تفعل فعلها إذا لم تصطدم بإرادته تعالى ، فالنار تحرق إذا لم يقل لها الخالق : كوني برداً وسلاماً .

(فلا تلك في مرية مما يعبد هؤلاء) . الخطاب لمحمد (ص) ، وهؤلاء إشارة الى قومه الذين كذبوه ، وما شك محمد ، ولن يشك أبداً في أنهم على باطل في عبادتهم ، ولكن القصد توبيخهم وتحذيرهم (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل) . هذا تعليق لليقين وعدم الريب في بطلان ما يعبد هؤلاء ، لأنه مثل ما عبد الأولون الذين حل بهم العذاب لشركهم وعبادتهم الأصنام . (وانا لموفهم نصيبهم غير منقوص) تماماً كما وفينا لأبائهم النصيب الذي استحقوه من العذاب ، ولم ننقص منه شيئاً .

وتساءل : ان هذا تنقيط من عفو الله ورحمته ، وهو يتنافى مع قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ٥٢ الزمر » .

الجزء الثاني عشر

الجواب : ان المراد بقوله : (لا تقتطوا من رحمة الله) هو الرغبة في التوبة ، وان من تاب تاب الله عليه . والمراد من قوله : (غير منقوص) ان من أصر على الشرك ، ولم يتب فإن الله يجازيه بما يستحق .. ولنا شك في ان الله يعفو ويرحم من يرحم الناس ، ويعمل لصالحهم ، أما الذين يعتدون على حريتهم وحقوقهم فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون .

ولولا كلمة سبقت من ربك الآية ١١٠ - ١١٥ :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُؤْفِقُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *

الآية :

شك مرئب مثل عجب عجب وظل ظليل أي قوي أو دائم ، وقيل : معناه شك أوقع في الرب، وهو ترجيح الكذب على الصدق . وطرفا النهار الضلوة والعشية

سورة هود

والمراد من الطرف الأول الصبح ، والطرف الثاني الظهر والعصر . والزلف من الليل الساعات الأولى منه ، وواحدها زلفة وسميت بذلك لقربها من النهار، والمراد بها هنا المغرب والعشاء .

الإعراب :

اختلف النحاة وأهل التفسير في إعراب لما في قوله تعالى : (وان كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم) . ف قيل : هي بمعنى الا . وقيل : ان اللام داخلة على خبر ان وما بمعنى الذي ، والتقدير ان كلاً للذي هو ليوفينهم أعمالهم ، وقال ابن هشام في كتاب « المعني » : الأولى عندي ان لما بمعنى لم ويجزومها مخوف أي لم يوفوا أعمالهم الى الآن ، وسيوفونها ، وقيل غير ذلك ، وأيسر الأوجه ان تكون بمعنى الا . ومن تاب في موضع رفع عطفاً على الفاعل في استقم ، ويجوز النصب على ان تكون مفعولاً معه . وفتمسك النار منصوب بأن مضمرة جواباً للنهي ، والمصدر المنسبك مبتدأ ، وخبره مخوف أي فس النار كائن أو حاصل لكم . وطرفي النهار ظرف منصوب بأقم . وزلفاً عطف عليه .

المعنى :

(ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) . المراد بالكتاب هنا التوراة ، وقد اختلف فيه قوم موسى ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر ، وهكذا كل أمة قديماً وحديثاً لم تتفق كلمتها على نبيها ومرشدها الناصح الأمين ، بل كان بنو اسرائيل يقتلون أنبياءهم ، حتى الذين آمنوا بموسى حرقوا التوراة من بعده ، وأحيوا البدع والضلالات .. اذن ، فلا عجب إن آمن بك يا محمد قوم ، وكفر بك آخرون .

(ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم) . المراد بكلمة الله قضاؤه بتأخير العذاب ، وضمير بينهم يعود الى المختلفين في كتاب التوراة ، وقد شاعت حكمته تعالى ألا يستأصلهم بعذاب الدنيا (وأنهم لفي شك منه مريب) . ما زال

الكلام عن موسى وقومه وكتابه ، وقد أبعد من قال : انتقل الكلام بهذه الجملة من موسى وبني اسرائيل الى محمد (ص) وقريش .. وشك مريب أي قوي ، مثل عجب عجب ، وقناطير مقنطرة ، والقصد من الآية بمجموعها ان الله سبحانه أخر الى يوم القيامة عذاب من كذب بالتوراة من قوم موسى ، وبالقرآن من قوم محمد (ص) (وان كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما يعملون خبير) أي ان كلاً من المكذب والمصدق سيلقي غداً جزاء عمله كافياً وافياً ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

الاستقامة :

(فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير) . يختلف معنى الاستقامة باختلاف الذي تنسب اليه ، فمعنى قوله تعالى : « ان ربي على صراط مستقيم » أنه يهدي الى هذا الصراط ، ويأمر به ، وعلى أساسه يثيب ويعاقب ، وان جميع أفعاله تعالى على وفق الحكمة والمصلحة : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً - ١١٦ المؤمنون » : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا - ٢٧ ص » .

وإذا وصفت بالاستقامة عيناً من الأعيان ، وقلت : ان هذا الشيء مستقيم فعناه أنه قد وضع في الموضع اللائق به ، أما الانسان المستقيم فأحسن تحديد له قوله تعالى : « الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب - ١٨ الزمر » . وأحسن القول عند الله ومن آمن به هو هذا القرآن : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً - ٢٣ الزمر » . وأحسن القول عند الله والناس أجمعين والجاهدين هو ما يستريح اليه الضمير العالمي ، لا ضمير اللصوص وسفاكي الدماء . وفي الحديث عن رسول الله (ص) انه قال « شيتني سورة هود » . وقيل : انه أراد هذه الآية من سورة هود ، لأن أمته أمرت بالاستقامة ، وهو غير واثق من استجابتها واستقامتها .. ونحن لانستبعد هذا التفسير على أن يكون المراد من الأمة قادتها ، لأنهم أصل الداء ، ومصدر البلاء .. وفي ج ١ ص ٢٦ من هذا التفسير تحدثنا عن الاستقامة ، وان الاسلام بقيدته وشريعته وأخلاقه يتلخص بكلمة واحدة ، وهي الاستقامة .

مسؤولية التضامن ضد الظلم :

(ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون) . ولا يختص الذين ظلموا بالمعتدين على الناس وحرىاتهم ، فقد جاء في الأخبار وفي نهج البلاغة :

« الظلم ثلاثة : ظلم لا يُغفر ، وظلم لا يُترك ، وظلم مغفور لا يطلب ، فاما الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله ، واما الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات - أي صفار الذنوب - واما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم لبعض » .

ومعنى الركون الى الشيء الاعتماد عليه ، ولكن المراد بالركون الى الظالمين في الآية ما يعم السكوت عنهم لوجوب النهي عن المنكر ، وفي الحديث : « اذا رأى الناس المنكر بينهم ، فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بقابه » . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : « نصرة المؤمن على المؤمن فريضة واجبة » . وفي كتاب الوسائل باب « الجهاد عن المعصوم » : ان المسلم يقاتل عن بيضة الاسلام ، أو عند الخوف على ديار المسلمين . واستناداً إلى هذه الأخبار وغيرها قسم الفقهاء الجهاد إلى نوعين :

الأول : جهاد الغزو في سبيل الله ، وانتشار الاسلام . الثاني : الدفاع عن الاسلام وبلاد المسلمين ، والدفاع عن النفس والمال والعرض ، بل الدفاع عن الحق اطلاقاً ، سواء أكان له ، أم لغيره ، قال صاحب الجواهر : « اذا داهم عدو من الكفار يحشى منه على بيضة الاسلام ، أو يريد الكافر الاستيلاء على بلاد المسلمين ، وأسرهم وسبيهم وأخذ أموالهم - إذا كان كذلك وجب الدفاع على الحر والعبد الذكر والأنثى ، والسليم والمريض ، والأعمى والأعرج ، وغيرهم ان احتيج اليهم . ولا يتوقف الوجوب على حضور الإمام ، ولا اذنه ، ولا يختص بالمعتدى عليهم والمقصودين بالخصوص ، بل يجب النهوض على كل من علم بالحال ، وان لم يكن الاعتداء موجهاً اليه ، هذا إذا لم يعلم بأن من يراد الاعتداء عليهم قادرين على صد العدو ومقاومته ، ويتأكد الوجوب على الأقرب من مكان الهجوم فالأقرب » .

الجزء الثاني عشر

ثم قال صاحب الجواهر : « ودفاع الانسان عن نفسه واجب ، وان لم يظن سلامتها ، لأنه معرض للخطر على كل حال ، أما دفاعه عن عرضه وماله فواجب ان غلب على ظنه السلامة بنفسه مخافة ان تذهب النفس مع العرض والمال . وكذا يجب على الانسان أن يدافع عن حياة الغير وماله وعرضه بشرط أن يغلب على ظنه السلامة بنفسه » .

وأفتى الفقهاء بوجوب انقاذ الغريق ، واطفاء الحريق اذا شب في مال الغير ، وبأن على المصلي أن يقطع صلاته ليدفع الخطر عن نفس محترمة أو مال يجب حفظه سواء أكان له أم لغيره ، وان من رأى طفلاً في فلاة لا يستقل بدفع الأذى عن نفسه وجب عليه التقاطه وحفظه . وروي ان ثلاثة نفر رُفِعوا الى الإمام علي (ع) : واحداً أسك رجلاً ، والثاني قتله ، والثالث رأى ولم يحرك ساكناً ، ففضى بقتل القاتل ، وسجن المسك مؤبداً ، وان تُسَمَّلَ عينا المسك . وقد عمل الفقهاء بهذه الرواية . ويجد الباحث المتبع لكُتب الفقه الكثير من هذا النوع ، وفيه الدلالة القاطعة على ان نصرة الانسان لأخيه الانسان ونجدة من هذا النوع ، اذا توقفت عليها صيانة أمر هام . (وأتم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل) . والطرف الأول من النهار الصبح ، والثاني الظهر والعصر ، والزلف من الليل المغرب والعشاء . وفي الآية ٧٨ من سورة الاسراء : « أتم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً » ، ودلوك الشمس زوالها ، وهو وقت صلاة الظهر وبعدها العصر ، وغسق الليل ظلمته ، وهو وقت صلاة المغرب وبعدها العشاء ، وقرآن الفجر يعني صلاة الصبح يشهدها الناس ، والتفصيل في كتب الفقه ومنها الجزء الأول من فقه الإمام الصادق .

(ان الحسنات يذهبن السيئات) . نقل صاحب مجمع البيان عن أكثر المفسرين ان المراد بالحسنات هنا الصلوات الخمس ، وانها تكفر ما بينها من الذنوب . وقال آخرون : بل المراد بها مجرد قول : سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر . وكل من التفسيرين يرفضه العقل والفطرة ، حيث لا ترابط ولا تلازم بين الأحكام والتكاليف لا شرعاً ولا عقلاً ولا قانوناً ولا عرفاً .. فطاعة أي حكم وجوباً كان أو تحريماً لا تناط بطاعة غيره أو معصيته . أما حديث كلما صلى صلاة كفر ما بينها من الذنوب ، وما اليه فهو كناية عن ان الصلاة كفر :

الحسنات ، فإن كان للمصلي سيئات وُضعت هذه في كفة ، وتلك في كفة ، وذهبت كل حسنة بسيئة شريطة ألا تكون كبيرة، ولا حقاً من حقوق الناس. وتقدم الكلام عن هذا الموضوع بعنوان : « الاحباط » عند تفسير الآية ٢١٧ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٦ .

(ذلك ذكرى للذاكرين) . ذلك اشارة الى الأمر بالاستقامة، واقامة الصلاة ، والنهي عن الركون الى الظالمين ، والمراد بالذاكرين المتعظون (واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) . وفيه اشارة الى ان من يستقيم على الطريقة المثلى لا بد ان يلاقي الكثير من أهل الضلال والانحراف. وان الصبر في جهادهم من أفضل الطاعات، وأعظم الحسنات .

فلولا كان من القرون الآية ١١٦ - ١١٩ :

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُنْهِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ * وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبُّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *

اللغة :

القرون جمع قرن، وهو أهل كل عصر، وشاع تقديره بمئة سنة . وبقيّة الشيء ما يبقى منه ، يقال : بقيّة السلف الصالح أي من بقي منهم بعد ذهاب أكثرهم. والترف النعمة والجلدة أي اتبعوا ملذات الدنيا فأبطرتهم وأفسدتهم ، يقال : أترفه النعمة أي أبطرتة وأفسدته .

الإعراب :

لولا حرف يفيد الطلب والحث على الفعل مثل هلا . وكان هنا تامة بمعنى وجد ، وأولو بقية فاعل . وإلا قليلاً منصوب على الاستثناء المقطع ، أي ولكن قليلاً . وهلك منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المنسبك مجرور بها ، ومتعلق بخبر كان المحنوف أي وما كان ربك مريداً لهلاك أهل القرى . وأهلها مصلحون الواو للحال . وإلا من رحم (من) في موضع نصب على الاستثناء المتصل من وار لا يزالون . ولذلك خلقهم أي للرحمة . ولاملأن اللام جواب لقسم محنوف أي يميناً لاملأن . وأجمعين حال مؤكدة ، وصاحب الحال الجنة والناس .

المعنى :

(فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض) . بعد ان ذكر سبحانه ما حل بقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الهلاك والدمار بسبب تمردهم وفسادهم في الأرض قال عز من قائل : ما وجد في تلك الأمم - وكان ينبغي ان يوجد - أهل خير وصلاح يصلون الظالم عن الظلم ، والمفسد عن الفساد .. ولكن ظلم المترفون: وسكت عنهم آخرون ، فاستحق الجميع عذاب الله وغضبه (الا قليلاً ممن انجيناهم منهم) . المراد بهؤلاء القليل الانبياء ومن آمن معهم ، ومن الجسارة في (ممن) بيان للقليل ، وفي (منهم) للتبويض ، وضمير الجماعة يعود الى القرون ، والمعنى ان الفئة المؤمنة التي أنجاها الله من الهلاك كانت تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، ولكن لا أمر لمن لا يطاع .

(واتب الذين ظلموا ما اتروا فيه وكانوا مجرمين) . المراد بما اتروا فيه أموالهم وأملأهم أي ان البقية الصالحة نهت المترفين عن الفساد في الأرض، ولكن هؤلاء انقادوا الى الترف والنعم ، وآثروا العاجلة على الآجلة ، وأصرروا على الاثم والمصيبة ، ولا سر إلا ترفهم ونعيمهم : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين - ٣٥ سبأ .

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) وإلا تساوى لديه المحسن والمسيء ، والصالح والطالح حاشا لله : « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً علياً » - ١٤٦ النساء .

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة :

منذ ان نزلت هذه الآية ، حتى اليوم ، وأكثر الناس ، أو الكثير منهم يقولون : ولماذا لم يشأ ، ويا ليتة شاء ليريح البلاد والعباد من احزن الطائفة وويلاتها ؟ ويتضح الجواب مما يلي :

١ - ينبغي قبل كل شيء أن نكون على يقين بأن الله سبحانه لا يريد لعباده وعياله ان يتباغضوا ويتناحروا ، كيف ، وهو القائل : « ولا تنازعوا فتفشلوا » . وليس من الضروري إذا لم يكرههم على الوثام والوفاق ان يريد لهم النزاع والصراع .. فإذا قلت - مثلاً - لا أحب أن يكون أولادي على رأي واحد في السياسة فليس معنى هذا انك تريد لهم متقاتلين متناحرين .

٢ - ان للاكراه على الدين - بمعنى الاعتقاد - طريقين : الأول استعمال القوة . الثاني ان يخلق الله الايمان في القلب كما خلق اللسان في الفم ، والطريق الأول يتناقض مع مبدأ الدين نفسه ، بل ومنطق العقل أيضاً ، لأن القوة لا تصنع الايمان والاعتقاد ، بل العكس هو الصحيح فان الايمان الحق طريقه الأدلة والبراهين ، ومن أجل هذا عرض القرآن هذه الأدلة في أساليب شتى ، وحض الإنسان على النظر اليها وتدبرها ، ليتهيئ منها مختاراً الى الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر .. أما الأمر بالقتال من أجل الدين فالمراد منه القتال للعمل بشريعة الحق والعدل ، والحفاظ على سلامة المجتمع وأمنه .

أما الطريق الثاني ، وهو ان يخلق الله الايمان في قلب الانسان فإنه يُخرج الانسان عن انسانيته ، ويجعل أفعاله بالنسبة اليه ، تماماً كالثمرة على الشجرة ، لا ارادة له ولا كسب ولا تفكير وتدبر لخلق الكون وما فيه ، ولا استحقاق للمدح أو ذم ، ولا لثواب أو عقاب على شيء . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ٣٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٣ و ٣٨٨ .

الجزء الثاني عشر

والخلاصة ان الله سبحانه لم يشأ بطريق من الطرق أن يكره الناس على الايمان لأنه لو شاء لسلب عنهم صفة الانسانية ، وكانوا أشبه بالحيوانات والحشرات ، لا يتحملون أية تبعة ، ولا يحاسبون على شيء ، ولكن شاء الله سبحانه أن يميز الانسان عن كل مخلوق ، ويرتفع به الى حيث لا شيء فوقه الا خالق الكون والانسان .. ومحال أن يبلغ هذه العظمة من غير جهد واختيار ، ولذا أمد الله بالقدر والادراك والوجدان ، والهداية الى النجدين ، ثم ترك له حرية الاختيار، ليتحمل وحده تبعة ما يختار ، وتحقق له بذلك الانسانية الكافية الوافية .

فجاءت النتيجة أن يختلف الناس في عقائدهم وآرائهم . أنظر فقرة ١ ليس بالامكان أبدع مما كان ، ج ٢ ص ٣٨٤ : وفقرة ١ الاختلاف بين الناس ، ج ١ ص ٣١٨ (ولا يزالون مختلفين) أي ان الناس اختلفوا فيما مضى ، وسيستمررون على هذا الاختلاف الى الأبد ، لأنه نتيجة حتمية لجعل الإنسان مخيراً غير مسير ، يتجه الى حيث شاء وأراد (الا من رحم ربك) والمراد بالمرحومين الذين يتوحدون الحقيقة باخلاص وتجرد، وهؤلاء لا يتطاحنون ويتناحرون على الخطام ، واذا اختلفوا فلأنما يختلفون في الرأي ووجهة النظر ، واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية . وتعدد وجهات النظر شيء مفيد ، لأن القول القوي هو الذي يكون قوياً رغم وجود الأقوال الأخرى .

(وللك خلقهم) أي أن الله خلقهم لرحته ولتراحم فيما بينهم، وانما تشملهم رحمة تعالى اذا طلبوا الحق وعملوا به لوجه الحق. وقال أبو بكر المعافري الأندلسي في أحكام القرآن : ان الله خلق الناس ليختلفوا فيما بينهم، لا ليتراحوا ويتعاطفوا، لأن الله بزعمه يريد الشر والكفر والمعصية - على حد تعبيره - ولا ينطق بهذا الا شر الناس وأجرأهم على الله . لأن من يعبد رباً يريد الشر فالأولى أن يكون هو مريداً له .. وان أراد الله الشر والكفر والمعصية كما يقول هذا المعافري فلأي فرق بينه وبين من قال : « لأغوينهم أجمعين »؟ سبحانه وتعالى عما يصفه الظالمون . (وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أي أنه تعالى يملأ جهنم بالعصاة أتباع الشيطان من الجن والإنس ، وفي هذا المعنى قوله تعالى خطاباً لإبليس : « فالحق والحق أقول لاملأن جهنم منك ومن تبك منهم أجمعين - ٨٥ ص » .

وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

اللغة :

ثبت نقوي . ومكانة الانسان حاله التي تمكنه من العمل .

الإعراب :

كلاً مفعول به لنقص عليك ، والتنوين عوض المضاف اليه المحذوف، والتقدير وكل نبأ نقص ، ويجوز ان تكون كل مفعولاً مطلقاً على تقدير وكل القصص نقص عليك . ومن أنباء الرسل متعلق بمحذوف صفة لكل . وما ثبت به (ما) في موضع نصب بدلاً من كل . وبغافل الباء زائدة اعراباً ، وغافل خبر ربك .

المعنى :

(وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما ثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) . هذه اشارة الى السورة ، والذكرى التذكرة والاعتبار والمراد بشييت فؤاد الرسول (ص) أن يصبر ويتحمل الأذى في سبيل رسالته وتبليغها

الجزء الثاني عشر

الى الناس ، والمعنى ان الذي قصصناه عليك من أنباء الرسل مع أقوامهم هو حق لا ريب فيه ، وان الغرض منه أن نخفف عنك ما تلاقيه من الأذى ، فإن من رأى مصيبة غيره خفت مصيبته ، وأيضاً في هذه القصص عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر .

وتجدر الإشارة الى أن المؤرخين القدامى كانوا يهتمون بالأحداث السياسية والدولية، ثم اهتم الجدد بالاقتصاد والعلم والفن والأدب وغيره من نشاط الانسان ، أما القرآن الكريم فإنه يستخلص من الأحداث العبر والعظات التي تهدي الانسان الى سواء السبيل ، وقوله تعالى : « وموعظة وذكرى » صريح في ذلك ، ومثله ان في ذلك لعبرة لمن يخشى .

(وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون) مر نظيره في الآية ١٣٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٦٧ . (وانتظروا انا منتظرون) أيضاً مر في الآية ١٥٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٨٩ .

(والله غيب السموات والأرض) فكل سر عنده علانية ، وكل غيب عنده شهادة . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين - ٥٩ الأنعام ج ٣ ص ١٩٩ .

(واليه يرجع الأمر كله) ولا شيء يستطيع الهرب من سلطانه (فاعبده وتوكل عليه) الفاء للتفريع على ما قبلها أي اذا كان هذا شأنه جل وعلا فهو جدير بالعبادة والاعتماد عليه دون غيره ، وأمر الركوع والسجود سهل يسير ، أما الثقة بالله ، والإعراض عن سواه فصعب وعسير الا على المتقين (وما ربك بغافل عما تعملون) فيجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . وفي نهج البلاغة : فلا تغفل فلست بمغفول عنك .. فيا حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة . والله سبحانه المسؤول أن يعصنا عما تعقبه الندامة والكتابة .

سورة يوسف

سورة يوسف

هي مكية ، ونقل الطبرسي عن ابن عباس ان ٤ آيات منها مدنية : الآية ١ و ٢ و ٣ و ٧ ، ومجموع آياتها ١١١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تلك آيات الكتاب المبين الآية ١ - ٣ :

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ *

الإعراب :

تلك آيات الكتاب مبتدأ وخبر . وقرآنًا حال من هاء أنزلناه . وعريباً حال من القرآن أو صفة له . وقال الطبرسي وأبو البقاء : يجوز أن يكون قرآن توطئة للحال مثل مررت بزيد رجلاً صالحاً ، فصالحاً حال ، ورجلاً توطئة له . وأحسن القصص مفعول مطلق لنقص بالنظر الى اضافة أحسن للقصص . وبما أوحينا (ما) مصدرية أي بوحينا ، ويجوز أن تكون موصولة أي بالذي أوحينا . وهذا مفعول أوحينا . والقرآن عطف بيان من هذا . وان كنت (ان) مخففة من الثقيلة ، واللام في (لمن الغافلين) للفرق بين ان المخففة وان النافية .

المعنى :

(الآر) تقدم الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب المبين) . تلك اشارة الى آيات هذه السورة ، والكتاب المبين هو القرآن ، وانما وصف بالمبين لأنه ظاهر على نبوة محمد (ص) ، ومظهر للهداية والرشاد .
(إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) . المعنى ظاهر ، وهو ان الله سبحانه أنزل القرآن بلغة العرب ليدركوا سره وعظمته ، ويعقلوا معانيه ، ويعملوا بها .
وتسأل : ان محمداً (ص) أرسل لجميع الناس كما قالت الآية ٢٨ من سورة سبأ ، ونزول القرآن باللغة العربية يُشعر بأن محمداً مرسل إلى العرب خاصة ، دون غيرهم ، فما هو طريق الجمع بين الآيتين ؟ .

الجواب : أولاً ان نزول القرآن بالعربية لا يستدعي أن يكون العرب وحدهم مكلفين بأحكامه وتعاليمه ، فالقرآن والمؤمنون به يُصدقون بالتوراة التي أنزلت على موسى (ع) ، وبالانجيل الذي أنزل على عيسى (ع) ، مع ان لغتهما غير لغة القرآن ومن آمن بالقرآن .

ثانياً : ان اللغة وسيلة ، والمعاني هي الغاية ، ومحال ان تكون المعاني كاللغة وفقاً على قوم دون آخرين ، فإن القيم الانسانية يؤمن بها الناس ، كل الناس ، وبكلمة ان القوميات تتعدد بتعدد اللغات ، أما المعاني فشاع بين الجميع ، لا قومية لها ولا جنسية .

ثالثاً : إذا لم يُرسل النبي بلغة قومه فبأية لغة يخاطبهم ، مع العلم بأنه لا توجد لغة إنسانية تعرفها جميع القوميات ، وهنا يكمن السر في قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » - ٤ ابراهيم .

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) . المراد بالقصص أنباء الرسل التي جاءت في القرآن الكريم ، وهي أحسن الأنباء لما فيها من العبر والحكم . (وان كنت من قبله لمن الغافلين) عن هذه الأنباء ، لأنها حدثت منذ قرون ، وهي مجهولة على وجه العموم . وهذا دليل قاطع على انها وحي من الله . وما كانت معلومات النبي قبل الوحي تُعد شيئاً بالقياس الى علمه

الجزء الثاني عشر

بعد نزول الوحي عليه : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان - ٥٢ الشورى » . ومن درس القرآن ، وتدبر معانيه ينتهي حتماً إلى الإيمان بأنه لا يعقل ان ينبتق بمجموعه إلا عن أحاط بكل شيء علماً .

رأيت أحد عشر كوكبا الآية ٤ - ٦ :

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَغْفُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *

اللفظة :

الرؤيا للنمام ، والرؤية لليقظة . والاجتناء الاختيار ، وأصله من جبيت الماء في الحوض إذا جمعته ، كما قال الطبرسي . وتأويل الشيء الاخبار بمآله وعاقبه .

الإعراب :

يا أَبَتِ التاء عوض عن الباء ، لأن الأصل يا أباي ، فحلفت الباء ، وجيء

بالتاء بدلاً عنها ، وقال أبو البقاء وأبو حيان الأندلسي : لا يجوز الجمع بين التاء والتاء ، فلا يصح يا أباي ، وقيل : التاء للتخفيف مثل تاء علامة ونسابة . وأحد عشر من الأعداد المركبة ، وهي مبنية على الفتح صدرأ وعجزأ من أحد عشر إلى تسعة عشر، ما عدا (اثنا عشر واثنتا عشرة) فان الصدر يعرب بالألف رفعاً ، وبالياء نصباً وجراً ، أما العجز فيبنى على الفتح . وكوكباً تمييز . ورأيتهم تكرار لرأيت لطول الكلام ، وأعاد ضمير (هم) على الكواكب لأنها سجدت ، والسجود من صفات العقلاء . وساجدين حال لأن الرؤية هنا بصرية ، وليست قلبية كي تتعدى إلى مفعولين . وفكيدوا منصوب باضمار ان على جواب النهي ، وكاد تتعدى بنفسها تارة ، وبغيرها تارة ، تقول : كاده وكاد له ، كما تقول شكرتك وشكرت لك . وكيداً مفعول مطلق . وكذلك الكاف بمعنى مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف أي اجتناء مثل ذلك . وابراهيم واسحق بدلان من أبويك .

المعنى :

(إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) . يوسف هو ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل (ع) ، ويسمى يعقوب اسرائيل أيضاً ، وكان معناه آنذاك عبد الله ، أما اليوم فإن اسرائيل عبد الاستعمار وقاعدته .

وفي ذات يوم رأى يوسف رؤيا قصصها على أبيه يعقوب ، وهي انه رأى في منامه ١١ كوكباً والشمس والقمر ساجداً له، فعلم أبوه ان هذه رؤيا صادقة، واستبشر بمستقبل ولده الذي كان يعزه ويؤثره . وفي جملة من التفسير ان عمر يوسف كان اذ ذاك سبع سنين . ولا نعرف مصدراً صحيحاً لهذا التحديد ، ولكنه كان غلاماً يافعاً بهي الطلعة ، جميل الهيئة ، يضرب المثل بحسنه وجماله ، كما يظهر من مجرى القصة وحوادثها ، أما الكواكب فهم اخوته في التأويل، والشمس والقمر أبواه ، ويشعر بذلك قوله : « هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » ويأتي التفصيل .

(قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً ان الشيطان للانسان عدو مبين) . خاف عليه أبوه من اخوته ان هم سمعوا منه ما سمع ، وفهموا ما فهم ، لأنه يعرف غيرتهم مما خصه به من الحب والاعزاز ، فنصحهم أن لا يحدّثهم برؤياه خشية أن يثير حقدهم وكرهيتهم، وان يغريهم الشيطان بالكيد له ، ونصب الحبال لهلاكه . وستكلم عن الأحلام فيما يأتي من المناسبات .

(وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) . يجتبيك أي يصطفيك على غيرك ، ويفيض عليك بأنواع الكرامات ، وقيل : المراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا ، لأن يوسف قد بلغ الغاية في تفسيرها ومعرفة مآلها .. ولكن ظاهر اللفظ أعم من ذلك ، والأنسب بنبوة يوسف أن يكون تأويل الأحاديث كناية عن معرفة الحقائق ، وان الله سبحانه سيعلمه ما لم يكن يعلم .

(ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق) . ان نعم الله سبحانه لا تعد ولا تحصى، وأكملها اطلاقاً النبوة والرسالة، وقد أنعم الله بها على ابراهيم جد يعقوب، وعلى اسحق جد يوسف، وعلى يعقوب نفسه ، وسينعم بها على يوسف بعد هذه الرؤيا ، وعلى أكثر من واحد من أحفاد يعقوب (ان ربك عليم حكيم) . عليم بمن يجتبيه ويصطفيه للنبوة والرسالة ، حكيم في هذا الاصطفاء وفي جميع قضاياه .

يوسف واخوته الآية ٧ - ١٥ :

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَيْسَرُ وَيَتَجَمَّعُوا فِي بَغْدَادٍ قَوْمًا صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي

غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَيْنَ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

اللغة :

المراد بالآيات هنا العبر . والعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض . والجب البئر . وغيابة الجب غوره وما غاب منه عن عين الناظر . وكل ما غيب شيئاً وستره فهو غيابة . والسيارة جمع سيار ، وهو المسافر . ويرتع أي يتنعم .

الإعراب :

اللام في يوسف في جواب القسم . ويخل مجزوم بجواب الأمر . وتكونوا عطف على يخل . وأرضاً مفعول فيه لاطرحوه . وصالحين صفة للقوم . يلتقطه مجزوم بجواب الأمر ، ومثله يرتع . والمصدر من أن تذهبوا به فاعل يحزني . ومصدر أن يأكله مجرور بمن محذوفة . ومصدر ان يجعلوه مجرور بعلی أيضاً محذوفة .

المصلحة فوق القرابة :

الانسان عبد مطيع لاحساسه وشعوره ، وليس في استطاعته أن ينزل عنه أو

الجزء الثاني عشر

يتجاهله . كيف ؟ وهل يفصل الشيء عن ذاته وهويته ؟ . والمحرك الأول لهذا الشعور هو المصلحة ، أي طلب اللذة ، وطرد الألم ، وهي المثل الأعلى للإنسان ، وبها يستند الدور الحاسم فيما يفعل أو يترك .

أما القرابة فليست بشيء يحرك الإنسان إذا لم تحقق له شيئاً من اللذة ، أو تبتعد به عن الألم ، فحب الإنسان لقريب من أرحامه يقاس بهذه المصلحة ، وعلى نسبتها يضعف الحب أو يقوى ، وأوضح مثال على ذلك أن حزن القريب وأسفه على فقيد من أقاربه يأتي على مقدار نفعه منه في حياته — غالباً — ويصبح القريب من ألد الأعداء إذا تسبب في آلام قريبه ، أو أفسد عليه لذته وراحته .. فكم من والده قضت على حياة ولدها لتشييع شهورها^١ وتمتنع بلذتها^٢ . وكمن ولد استعجل ميراثه من أبيه فأودى بحياته ؟ . وقتل قابيل هابيل ، وهما أول أخوين انبثقا من نطفة واحدة ، وتكوّنا في رحم واحد .. وألقى أولاد إسرائيل يوسف في غيابة الحب ، ولم تأخذهم به رافة على رغم القربى وصلة الدم .

ولذا قال علي أمير المؤمنين (ع) : « القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة » حتى المودة والصداقة مصدرها اللذة الروحية ، ولكن كثيراً ما ينهل الإنسان عن نفسه ، ويسهو عن واقعها ، فيشرح بمنطق القرابة ما يفعله بوحى من مصلحته .

وليس من الضروري أن تكون هذه المصلحة التي تحرك الإنسان شخصيته ، فإن المخلص الواعي يؤمن قولاً وعملاً بأن مصلحته فرع عن مصلحة الجماعة ، فيألم لألمها ، ويفرح لفرحها ، ويرى الخير ، كل الخير ، في احقاق الحق وإقامة العدل .. أما غير المخلص فلا يرى هماً غير هم ، ولا حياة غير حياته ، تماماً كما فعل أبناء إسرائيل بيوسف ، ليتمتعوا وحدهم بعطف أبيهم .. ولكن الله سبحانه عاقبهم بالحرمات ، وبأعوا بغضب على غضب من الله ونيه يعقوب ، وظفر يوسف بالعرز والكرامة ، ووقفوا بين يديه أذلاء يعترفون بالذنب ، ويطلبون

١ قرأت في الصحف أن امرأة كانت مع مشقتها ، وطفلها الصغير نائم بالقرب منها ، ولما بكى أماته خفقاً ، وقرأت أيضاً أن فتاة قتلت أبوها بالسهم ، ولما سلت قالت : أريد أن يخلو البيت لي ولمشيتي . وهكذا يرسل الدين والضمير والرحم إذا جاءت الشهوات .

سورة يوسف

الغزو والصفح بقولهم : ه نائفه لقف آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين .

(لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين) . ألقى أبناء اسرائيل يوسف في الحب ، لا لشيء إلا لأن أباه فضله عليهم بالمطف والحنان ، وشاربت قرش محمداً ، وبالفث في ايذائه ، وهو قرشي مثلهم ، لأن الله فضله عليهم ، وعلى الناس أجمعين ، ونصر الله يوسف على اخوته ، وكذلك نصر محمداً (ص) على عشيرته ، وفي ذلك عبر وعظات لمن أراد معرفة الحقائق ، ويعتبر بها .

(إذ قالوا ليوسف وأخوه احب الى آيينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفي ضلال مبين) . معنى هذه الآية وما بعدها ظاهر ، ومع هذا نقب على كل آية بما يناسبها .. لما رأى أبناء اسرائيل ميل أبيهم الى يوسف وأخيه غلى الحقد والحسد في قلوبهم ، وقال بعضهم لبعض : ما الذي حمل هذا الشيخ على أن يؤثر هذين الصبيين علينا ، ونحن أكبر سنأ ، وأشد قوة ، وأكثر فقأً وخدمة ؟ إن هذا هو الخيف والضلال .. وكان يوسف وأخوه بنيامين من أم ثانية اسمها راحيل ، وكثيراً ما يكون تعدد الأمهات سبباً للحقد والحسد بين بني العلات .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم) . تأمروا على قتله ، لا لشيء باعترافهم إلا ليحتكروا عطف أبيهم من دونه .. وهذا هو منطق الاحتكار والمحكر .. اقتل وشرد .. حتى الأقارب والأرحام حرصاً على الأرباح والمكاسب .

(وتكونوا من بعده قوماً صالحين) . قال كثير من المفسرين : ان المراد بالصلاح هنا صلاح الدين ، وانهم يتوبون الى الله بعد فعلتهم الشقاء . ولكن ظاهر السياق يدل على ان المراد بالصلاح صلاح شأنهم مع أبيهم ، وان يتفرغ لهم وخدمهم . (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الحب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين) . السيارة هم المسافرون . وعن سفر التكوين من التوراة ان الذي أشار عليهم بهذا هو أخوهم روبين ، وانه قد كان في نيته أن يخرج يوسف من الحب بعد ذهاب اخوته .

(قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) . نحبه ونريد له الخير .. وهكذا الغادر الماكر في كل زمان ومكان ، ذئب في جلد حمل (ارسله

الجزء الثاني عشر

معنا غداً يرتع ويلعب وأنا له لحاظون) . لقد علموا ان أباهم يحب يوسف ، ويجب أن يتمتع ويفرح ، وعلموا أيضاً شدة حرصه عليه ، فدخلوا الى نفسه من أبوابها .. يوسف يلعب ، وهم يحرسونه من كل مكروه .. حاميتها حراميتها . (قال اني ليحزنني ان تنهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) . اعتذر اليهم بأنه لا يطيق فراق يوسف . فضاعف هذا العذر من حقدهم على يوسف . وأيضاً اعتذر بأنه يخاف عليه من الذئب ، وعقّب الرازي على هذا العذر بقوله : «وكانه قد لقنهم الحجة ، وفي الأمثال : ان البلاء موكل بالمنطق » .

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) . أي عاجزون لا نصلح لشيء : واغتر الشيخ بقولهم وأرسل معهم يوسف ، وكانوا من القوم الخاسرين (فلما ذهبوا به واجمعوا أن يحمله في غيابة الجب) وتفقوا ما أجمعوا عليه ، وهم يحسبون انهم قد أصابوا ما يريدون .. ولكن يوسف فوّض أمره الى الله فوقاه سيئات مكرمهم (وأوحينا اليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) . فألقى الله في روع يوسف انك ناجٍ من محتك هذه ، وانك سوف تخبرهم بصنيعهم هذا دون أن يعرفوا من أنت .

بن أولاد اسرائيل وأولاد العلماء :

وبهذه المناسبة نذكر أوجه الشبه بين بعض أولاد العلماء بالدين ، وأولاد اسرائيل وهو الاسم الثاني ليعقوب .

قال أولاد اسرائيل : « ان أبانا لفي ضلال مبين » .

وبهذا الوصف ينعت بعض أولاد العلماء آباءهم اذا قالوا كلمة أو تصرفوا تصرفاً لا يعجبهم ولا يتفق مع أهوائهم ، حتى ولو كان وحياً منزلاً .

وقال أولاد اسرائيل : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

وهكذا يفعل بعض أولاد العلماء .. يتآمرون على الناصح الأمين ، ويدسون عليه الدسائس والمقتربات ليخلو لهم وجه أبيهم وللشياطين من أمثالهم ، ثم يوحون اليه

سورة يوسف

بما استحوه من وسطاء الشر وعملاء الشيطان ، ويقبضون الأجر بالعملة الصعبة والنقد النادر ، وكلما كان التأثير بالغاً تضاعف الأجر .

وجاء أولاد اسرائيل على قبص يوسف « بدم كذب » .

وفي كل يوم يحمل بعض أولاد العلماء لأبيهم أحاديث وروايات ابتدعوها ظلماً وزوراً بنالون بها من مقام المخلص الأمين ، ويرفعون من شأن الخائن العميل عند أبيهم ليأخذ منه ومنهم دون مراقب ومعاتب .

وجاء أولاد اسرائيل « أباهم عشاء يكون » يسترّون فعلتهم الشنعاء بالنفاق ودموع التماسيح .

وتظاهر أولاد العلماء أمام أبيهم المقدس بالتقى والقداسة كذباً ورياء ، لينخدع بلسانهم ومؤامرتهم .

وجاموا أباهم عشاء يكون الآية ١٦ - ٢٠ :

وَجَافُوا آبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا
يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ *
وَجَافُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ * وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ
مِنَ الزَّاهِدِينَ *

الغفة :

الاستباق من سبق ، ومنه المسابقة ، ويكون يرمي السهام ، وعلى الخيل والإبل ، وعلى الأقدام . والمراد بالمتاع هنا ما يحمله المسافر من زاد ولباس . وسولت زيت . والوارد هو الذي يتقدم القوم ليستقي لهم . والدلو مؤنث ، وقد يذكر ، وأدلى دلوه أرسلها في البئر . ويا بشرى كلمة تقال عند البشارة ، مثل يا عجباً تقال عند التعجب . وأسروه أي انهم وجدوه في الجب : وقالوا: دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم . وبضاعة أي سلعة ومكسباً . وشروه باعوه . والبخس النقص من الحق ، يقال : بخسه الكيل إذا أعطاه دون حقه .

الإعراب :

عشاء ظرف زمان منصوب بحاموا . وجملة يبكون حال ، ومثلها جملة نستبق . وعلى قيصه حال مقدم من دم كذب . فصبر جميل (صبر) خبر لمبتدأ محذوف ، وجميل صفة لصبر أي فأمرني صبر جميل . ويا بشرى منادى أي احضري يا بشارة فهذا أوانك . وبضاعة حال . ودراهم بدل من ثمن .

المعنى :

(وجاءوا أباهم عشاء يبكون) تمويهاً لما لفقوا من الكذب والتزوير (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو الرمي (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) . وفي الأمثال : براءة الذئب من دم يوسف . ونقل عن أحد القصاصين القدامى انه كان يحكي قصة يوسف لجماعة ، ولما وصل الى الذئب قال : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف (كذا) . فقال له بعض من حضر: ان الذئب لم يأكل يوسف . فقال القصاص : فليكن هذا الاسم للذئب الذي لم يأكل يوسف . (وما أنت بمؤمن لنا) لأنها كذبة مكشوفة (ولو كنا صادقين) . وعن الإمام علي (ع) : كفى بالكاذب عقوبة انه إذا قال الصدق لا يصدق .

سورة يوسف

(وجاءوا على قيصه بدم كذب) المعنى ظاهر ، ولما لم يجد المفسرون ما يقولونه اختلفوا في الدم الذي جاء به أولاد اسرائيل : هل هو دم ظلي أو دم سخلة . وقال آخر : على هنا بمعنى فوق . وقال غيره : لما رأى يعقوب قبص ابنه صحيحاً قال : والله ما رأيت أحلم من هذا الذئب أكل ابني ولم يمزق قيصه ، أما نحن فنؤمن بأن يعقوب (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) . هذا ما نزل به الوحي في جواب يعقوب لأولاده ، ولا دليل على غيره . وتومئ الآية إلى أن يعقوب شعر بكنزهم لحسد هم الشديد ليوسف ، ولكنه صبر مفوضاً أمره الى الله .

(وجاءت سيارة) جماعة من المسافرين ، وفي سفر التكوين من التوراة أنهم كانوا من الاسماعيليين أي من العرب لأنهم ينتهون بنسبهم الى اسماعيل بن ابراهيم (ع) . (فأرسلوا واردهم) أي من يرد الماء ويأتيهم به (فأدلى دلوه) أرسله في البئر ولما رأى الوارد يوسف في البئر (قال يا بشرى هذا غلام) يبشر نفسه أو جماعته بهذه الغنيمة ، فأخرجوه من البئر (وأسروه بضاعة) أي من الناس ، لكلا يتعرف عليه أهله ، واعتبره السيارة رقيقاً من جملة سلعهم التجارية (والله عليم بما يعملون) . هذا تهديد للسيارة لأنهم أخفوا أمره ، وعرضوه للبيع على انه رقيق ، وهو حر .

(وشروه بثمان نجس) . شرى الشيء باعه . واشتراه ابتاعه . والبخس القليل الناقص عن ثمن المثل . وقال كثير من المفسرين : ان أهل ذاك الزمان كانوا يزنون الثمن اذا كان كثيراً ، ويعمدونه اذا كان قليلاً ، وان قوله تعالى : دراهم معدودات يشير الى قلة ثمن يوسف (وكانوا فيه من الزاهدين) حيث تعجلوا التخلص منه بأجس الأثمان ، لكلا يتهموا بسرقة .

وقال الذي اشتراه الآية ٢١ - ٢٢ :

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا

أَوْ تَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *

اللغة :

الثواء الإقامة ، والمثوى موضع الإقامة ، والمراد بأكرمي مثواه أحسن معاملته .
ومكنا له في الأرض جعلنا له مكانة فيها . وبلغ أشده أي استكمل قوته جسماً
وعقلاً .

الإعراب :

مصر لا تنصرف للعلمية والتأنيث . وعسى تامة ، والمصدر من أن ينفعنا فاعل .
ولنعلمه منصوب بأن مضمره ، والمصدر مجرور باللام ، ومتعلق بفعل محذوف أي
ولتعليمه من تأويل الأحاديث مكانه .

المعنى :

(وقال الذي اشتراه لأمرائه أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا) .
عُرِضَ يوسف للبيع في أسواق مصر ، فاشتراه العزيز ، وهو لقب لأكبر وزراء
الملك وأمنائه ، والذي دلنا على أنه هو المشتري قوله تعالى : « وقال نسوة في
المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » .. وقد تومس العزيز في يوسف الذكاء
والنجابة ، فأوصى به خيراً ، وقال لأمرائه : احسني معاملته ، واكرمي اقامته
عندنا ، وعلل ذلك بأنه يرجو إذا بلغ يوسف أشده أن يقوم بتدبير شؤونهم ،

سورة يوسف

أو يتبنوه ، لأن العزيز كان عقيماً ، لا ولد له ، كما قال أكثر المفسرين .
والآية تسمى الى ذلك (أو نتخذ له ولداً) .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولتعلمه من تأويل الأحاديث) . أنعم الله على يوسف بالنجاة من كيد اخوته واخراجه من البئر ، ثم يجعله في بيت العزيز ، بيت الجدة والرفاه ، وبتمكنه في قلب صاحب البيت ، ثم بتعليمه حقائق الأمور ، ومنها تعبير الرؤيا ، وهذه النعم وما اليها قد رفعت من شأن يوسف عند الناس ، وجعلته محلاً لثقة الجميع واحترامهم ، ومهدت له أن يتولى خزائن الأرض في مصر ، وان يقول له ملكها : « انك اليوم لدينا مكين أمين » .
(والله غالب على أمره) . أراد اخوة يوسف له الشر ، وأراد الله له الخير « إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » . (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)
ان الأمر لله وحده ، وان من طغى وبغى مغترأ بحوله وطوله أخذه الله من مأمته أخذ عزيز مقتدر .

(ولما بلغ أشده آتيته حكماً وعلماً) . بلغ أشده أي اشد واشتد واستكمل قوته جسماً وعقلاً ، وفي الغالب يبدأ هذا الاشتداد ببلوغ المراء سن الثلاثين ، ويستمر الاشتداد الجسدي حتى الأربعين ، وفي هذه المدة يتم الاستعداد للنسوة وتلقي الوحي ، والمراد بالحكم هنا الحكمة ، وهي وضع الشيء في موضعه ، ومنها آتيته الحكم صيباً ، والمعنى ان يوسف بعد أن استكمل الرشد منحه الله العلم ، ووفقه الى العمل به .
وقيل : المراد بالعلم هنا النبوة ، وليس هذا ببعيد لأن يوسف من الأنبياء (وكذلك نجزي المحسنين) . لقد أحسن يوسف بصبره وطاعته لله ، فأحسن الله اليه ، لأنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقالت هيت لك الآية ٢٣ :

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *

اللفظ :

المرادة المطالبة برفق ولين مع ضرب من المخادعة . وهيت أقبل أو أسرع .

الإعراب :

هيت اسم فعل بمعنى أقبل أو أسرع . واللام في لك لبيان الفاعل أي أسرع أنت ، مثل سقياً لك ، وشكراً لك . ومعاذ الله منصوب على المصدر . وضمير انه للشأن ، وجملة لا يفلح الظالمون خبر .

المعنى :

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه) . راودته كلمة تدل على ان المرأة خادعت الرجل وراوغته ليريد منها ما تريده منه ، وهذه الكلمة بمفردها غاية في الاحتشام ونزاهة التعبير .. ولكن بعض المفسرين سود في شرحها وتفسيرها صفحات عرض فيها صوراً لاغراء امرأة العزيز يوسف بمحاسنها ومفاتنها ، ولا مصدر لذلك إلا الاسرائيليات . قال صاحب المنار ، ونعم ما قال :

« نقل رواة الاسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة انه كذب ، فان مثله لا يُعلم إلا من الله تعالى ، أو بالرواية الصحيحة ، ولا يستطيع أحد ان يدعي هذا »^١ .

الانسان والمال والجنس :

(وغلقت الأبواب) . وتساءل مصطفى صادق الرافعي : لماذا قال : وغلقت

١ نقل الشيخ المراغي هذه العبارة بالحرف ، ولم يشر الى مصدرها ، او يضمها بين قوسين ، وهكذا فعل في الكثير من أقوال صاحب « تفسير المنار » ، ينقلها موهماً انه هو القائل .. والشيخ رآه .

سورة يوسف

الأبواب ، ولم يقل : وأغلقت الأبواب ؟. وأجاب : « بأن هذا يشعر انها لما يشتت ورأت منه محاولة الانصراف أسرع في ثورة نفسها مهتاجة تتخيل القفل الواحد أقفالاً عدة ، وتجري من باب إلى باب ، وتضطرب يدها في الاغلاق كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط » .

أما نحن فلا نرى أي فرق بين غلقت وأغلقت ، وان دل تصوير الرافي على شيء فلأنما يدل على مكانته في الأدب ، ومقدرته على اخراج شيء من لا شيء . ومهما يكن فقد عاش يوسف مع امرأة العزيز تحت سقف واحد أمدأ غير قصير ، وكان في ريعان شبابه ، وضيء الطلعة ، فتاناً في هيئته ومنظره .. فلا عجب أن تفتن به ، وتهالك « امرأة » . وأيضاً لا عجب أن يصمد يوسف (ع) لوسائلها ، وينجو من حباثلها على رغم ان الجنس صرع كثيراً من العقول .. فليس الانسان عبداً لغريزة الجنس فقط ، كما قال فرويد : ولا للرغبة في المال والاقتصاد ، كما قال ماركس : وانما هو مسير بكثير من الدوافع والمحرضات ، منها الجنس والمال ، ومنها الشهرة والسيطرة ، ومنها الدين والعادات ، وحب الخير والوطن ، ونحو ذلك .

وقد يتنازع الانسان عاملان متضادان : خير يهديه إلى سبيل النجاة ، وشرير يسوقه إلى طريق الهلاك ، ويتذبذب هو بينها أمدأ يطول أو يقصر الى ان يتغلب أحد العاملين على الآخر ، وقد يستمر التوازن بينها إلى النهاية ، فيبقى الانسان حائراً مذبذباً تبعاً لهذا التوازن مدى حياته .

وقد تنازع امرأة العزيز عاملان : شهوتها الحيوانية تدعوها الى مراودة يوسف عن نفسه ، وينهاها العز والكبرياء عن التذلل لمن ابتاعه زوجها بثمان نحس ، وبقيت تنذبذب حائرة بين هذين العاملين أمدأ غير قصير ، ثم انهارت أعصابها ، ووقعت فريسة التزوة وشهوة الجنس التي تجسمت في قولها الثائر الفأجر : « هيت لك » .. ولا تقولوا أنني إلا اذا اشتد احتياجها وغلبيتها حتى بلغ الجنون .

أما يوسف (ع) فلم يكن له الا دافع واحد ، ورغبة واحدة هي التي تقوده وتسيره ، ولا ذرة لغريها في قلبه وعقله .. وهي تقوى الله ومرضاته ، فهي هي لذته ومتعته ، ومطلبه وأمنيته : (قال معاذ الله انه ربي أحسن مثواي انه لا يفلح

الجزء الثاني عشر

الظالمون) .. أعوذ بالله أن أعصي له أمراً ، كيف ؟ وقد أفاض علي الكثير من فضله واحسانه ، اذ أخرجني من البئر ، وسخر لي قلب العزيز الذي أنزلني منه منزلة الأنبياء الأبرار .. كيف أظلم نفسي بمعصية الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ؟. وهكذا يصنع الايمان الصادق بأهله ، يعصمهم من المحرمات ، ويبتعد بهم عن المفوات اذا خاضوا المعارك مع الشيطان وحزبه .

وقال أكثر المفسرين : ضمير (انه ربي) يعود الى العزيز زوج المرأة ، وان المعنى قد أكرمني زوجك وأحسن إليّ فكيف أخونه فيك ؟.. أما السياق فيرجع رجوع الضمير الى لفظ الجلالة لقربه منه في قوله : (معاذ الله انه ربي). وليس للعزيز ذكر في الآية على الاطلاق .. بالاضافة الى أن الدافع لامتناع يوسف عنها هو الخوف من الله ، وليس مجرد الوفاء للعزيز .. وعلى افتراض رجوع الضمير الى العزيز فإن المقصود توبيخها والتعريض بها ، وان الأولى بها أن تكون تقية وفيه لزوجها الذي سمت به الى علو الدرجات .

ولقد همت به وهم بها الآية ٢٤ - ٢٩ :

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَيْصُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ

كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ
كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ *

اللغة :

قال الطبرسي في مجمع البيان اللهم معان ، منها العزم ، ومنها خطور الشيء بالبال دون العزم عليه ، ومنها الرغبة كقول القائل : هذا أهم الأشياء الي .
والقد شق الشيء طولا أي قطعت قيصه طولا من خلف . واستبقا الباب تسابقا اليه ، وألفيا أي وجدا .

الإعراب :

المصدر من ان رأى مبتدأ ، والخبر محذوف ، وجواب لولا محذوف أيضاً ،
والتقدير لولا رؤيته برهانه كائنه لهم بها . كذلك الكاف بمعنى مثل في محل
نصب مفعولاً لفعل محذوف أي أريانه مثل ذلك لنصرف، والمصدر من أن نصرف
مجرور باللام متعلقاً بأريانه المحذوفة . والباب منصوب بترع الخافض أي واستبقا
الى الباب ، مثل واختار موسى قومه أي من قومه . ما جزاء (ما) نافية ،
وجزاء مبتدأ ، والمصدر من أن يسجن خبر ، أي السجن . أو عذاب عطف
عليه . يوسف منادى أي يا يوسف أعرض عن هذا .

المعنى :

(ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهانه) . في المجلد الأول من
هذا التفسير ص ٨٦ و ١٩٦ والمجلد الثاني ص ٣٥٩ تكلمنا عن العصمة ، وان
الأنبياء كلهم معصومون . وعلى هذا تفرع السؤال الآتي : ان يوسف معصوم

الجزء الثاني عشر

لأنه نبي ، وقوله تعالى : (وهم بها) يومئذ الى عزمه على القبيح ، والاستجابة لمراودة التي هو في بيتها ؟.

وأجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة بعضها فيه وقاحة ، وبعضها بعيد عن ظاهر الكلام .. وأقرب الأجوبة الى الظاهر ومقام الأنبياء ان في الآية تقدماً وتأخيراً ، والأصل هكذا (ولقد همّت به ولولا ان رأى برهان ربه همّ بها) . ومعنى هذا انه ما همّ بها اطلاقاً ، تماماً كقول القائل : لولا فلان لهلكت .

وبيان ثانٍ : ان جميع مقتضيات كانت متوافرة للفعل ، فالمرأة باذلة بل متهاكة ، وهو قوي وقادر من حيث الرجولة ، والحلوة تامة بأكمل معانيها ، فلا سامع ولا ناظر .. ولكن هناك مانع ليوسف أقوى من كل زاجر ، وأعظم من كل سامع وناظر ، وهو علمه بحلال الله وحرامه ، وحياؤه منه ، ويقينه بأن الله أقرب اليه من حبل الوريد ، وانه يعلم ما توسوس به نفسه ، بل وما هو أخفى من ذلك .. هذا هو البرهان الذي منع يوسف عن التفكير بالحرام ، ويمنع كل من آمن حقاً وصدقاً بالله واليوم الآخر ، نبياً كان أو غير نبي ، وقال قائل : ان يوسف ما تجلّى له برهان ربه هذا الا حين همّت به ، وهمّ بها .. حاشا للأنبياء والصديقين .. ان برهان الله لازم لا ينفك بحال عن المؤمنين الصادقين منفردين ومجتمعين بالحسان وبغير الحسان .

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين) . السوء كيد امرأة العزيز ، والفحشاء الزنا ، والمعنى ان الله مع المتقين الذين يلتجئون اليه مخلصين ، فيحرسهم ويصونهم ممن أراد بهم سوءاً ، أو حاول ان يوقعهم في الضلالة والغواية ، تماماً كما فعل ييوسف ، التجأ الى ربه ، وخاطبه مخلصاً بقوله : « والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم » .

(واستبقا الباب وقدت قيصة من دبر) . حاول يوسف التخلص منها بالفرار من بيتها ، فعدت خلفه كالجمل المائج ، وأدركته قبل أن يهرب من الباب ، وجذبت قيصة من الخلف فشقتة طولاً .. وهنا وقعت المفاجأة بمجسيء الزوج صدقة (وألفيا سيدهما لدى الباب) . قال صاحب تفسر المنار : « كان النساء

سورة يوسف

في مصر يلقيان الزوج بالسيد ، واستمر هذا الى زماننا . دخل سيدها البيت فرأى يوسف واقفاً ، وقبضه ممزقاً ، وقبل أن يسأل عن الخبر (قالت - له - ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) . قالت هذا بكل هدوء ، ودون أن يظهر عليها أي أثر للمفاجأة ، قالت لزوجها : ما جزاء من أراد بي سوء - وهي نفسها سوء - ومع هذا تنتهم الطهر والقداصة بالسوء ، وتطلب معاقبته عليه .

ويذكرنا هذا بالذين يشيرون الآن الحروب في فيتنام والشرق الأوسط والكونغو وغيرها، ويسلحون الجلادين للفتك بالمستضعفين في أنغولا وجنوب افريقيا وروديسيا، وأمريكا اللاتينية وغيرها ، ويطبقون ضد من يخرج عن طاعتهم أكثر من ألف قاعدة عسكرية في شرق الأرض وغربها مجهزة بأنواع المبيدات البشرية ، ومع هذا يدعون أنهم قتلوا الفيتناميين ، وسلحوا اسرائيل ، ودفعوها الى العدوان والتقتيل والتخريب والتشريد للمحافظة على السلم ، وأمن الشعوب ، وصيانة حقوق الضعفاء . - اذن - أية غرابة بعد هذا إذا انقادت «امرأة» لتزوتها ، وكذبت على زوجها لتسر خطيتها ؟ .

(قال هي راودتني عن نفسي) . وأنا امتنعت عليها ، وفررت منها ، فلحقت بي، وفعلت بشوي ما ترى (وشهد شاهد من أهلها) . تكلم المفسرون ، وأطالوا هذا الكلام حول هذا الشاهد ، فن قائل : انه ابن عمها ، وقائل : انه من أصحاب زوجها ، وذهب آخرون الى انه كان صبياً في المهد .. أما نحن فنقف عند ظاهر الوحي الذي دل على ان الشاهد كان من أسرتها ، وانه كان بالغاً راشداً لقوله : (ان كان قبضه قدس من قبل فصلت وهو من الكاذبين وان كان قبضه قدس من دبر فكذبت وهو من الصادقين) . هذا ما نطق به الوحي ، أما أين كان هذا الشاهد ؟ . ومتى أدلى بشهادته ؟ . وهل جاء صدقة ، أو بدعوة منها أو من زوجها ، اما هذا أو غير هذا فقد سكت الله عنه ، وفي الحديث : ان الله سكت عن أشياء فلا تكلفوها .

(فلما رأى قبضه قدس من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم) . اقتنع الزوج وأيقن بصدق يوسف (ع) وكذبها ، ولكنه رأى السر والكنان

الجزء الثاني عشر

أولى من التشهير والفضيحة ، فاكفى بقوله لها : (ان كيدكن عظيم) .. وهذا الوصف يعجب النساء لأنه شهادة بذكائهن وان الرجال لا يفطنون لمكرهن وحيلهن.

وتسأل : جاء في هذه الآية : (ان كيدكن عظيم) . وجاء في الآية ٧٥ من سورة النساء : (ان كيد الشيطان كان ضعيفاً) . فهل معنى هذا ان كيد النساء أقوى وأعظم من كيد الشيطان ؟.

الجواب : ان كيد النساء من كيد الشيطان ، فكيدهم أصل ، وكيدهم فرع. والمراد بضعف الشيطان في كيده انه لا سلطان له على عباد الله الا من اتبعه من الغاوين ، والمراد بعظمة النساء في كيدهم انهن أقوى جنود الشيطان وأتباعه، فقد روي عن ابليس انه قال : النساء فخورخي ومصائدني ، فإذا اجتمعت عليّ لعنات الصالحين ذهبت الى النساء فطابت نفسي بهن ..

ثم قال العزيز (يوسف اعرض عن هذا) . اكتمه يا يوسف ، ولا تخبر أحداً بما حدث ، وقال لزوجته : (واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين). وهذا دليل قاطع على ان الزوج أبقن براءة يوسف ، وخطيئة زوجته . وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره « البحر المحيط » : « كان العزيز قليل الغيرة ، وهذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ». ورد عليه صاحب « تفسير المنار » بقوله : « هذا كلام غير مبني على علم صحيح » ونضيف اليه ان مبعثه الهوى والغرض .

وانما قال من الخاطئين ولم يقل من الخاطئات ، لأن الخطيئة تصدر من الرجال والنساء،ولفظ خاطئين يصح اطلاقه على الجميع من باب التغليب،أما لفظ خاطئات فيختص بالاناث فقط .

القضاء بشاهد الحال :

ليس المراد بالشاهد في قوله : (وشهد شاهد) من نص الشارع على الأخذ بشهادته في فصل الخصومات، وانما المراد به الخبير الذي يستتج بذكائه من واقعة مطومة لديه معرفة واقعة مجهولة ، فشق القميص معلوم وثابت بالعيان،وقد جرت

العادة اذا أخذ الانسان من خلفه أن يتمزق ثوبه من هذه الجهة ، واذا أخذ من أمامه أن يتمزق من الأمام، وبهذا توصل قريب امرأة العزيز الى التمييز بين الصادق والكاذب .

وهذه المناسبة نشير الى ان ما يمكن الاعتماد عليه لمعرفة الحق المتنازع فيه ينحصر في ثلاثة أنواع :

النوع الأول : كل ما من شأنه أن يفيد العلم بالضرورة واللزوم العقلي ، مثل أن يدعي من بلغ الأربعين انه ابن أو أب لمن هو في هذه السن أو ما دونها بقليل ، أو يدعي بأنه ورث عن أبيه هذه البناية مع العلم بأن أباه عاش ومات فقيراً ، ولم يترك شيئاً لورثته .. وهذه الدعوى وأمثالها ترفض ابتداء ، ولا يفترض ردّها الى نص من الشارع ، لأنها مردودة بطبعها ، وبالإحساس الغريزي عند كل انسان ، وبحكم على مدعيها بكل ما يستدعيه الرد ويلزمه من الآثار .

النوع الثاني : ما نص الشارع صراحة على العمل به ، والاعتماد عليه في الحكم كالإقرار واليد وشهادة العدلين ، ويسمى هذا النوع في اصطلاح فقهاء الشريعة الاسلامية ، بالبيّنة الشرعية ، وعند أهل الشرائع الوضعية بالقريضة القانونية ، واتفق الجميع على ان القاضي يجب عليه أن يتعبد وبحكم بما نص عليه الشارع ، سواء أحصل له العلم منه ، أم لم يحصل .

النوع الثالث : ما يستخرجه القاضي باجتهاده وذكائه من القرائن التي ترافق موضوع الدعوى وظروفها ، وهي لا تدخل تحت حصر ، لأنها قرائن خاصة تستنتج من دعوى خاصة . وبديهة ان لكل دعوى موضوعها وظروفها ، ولكل قاضي فهمه واجتهاده .. ومن هذه القرائن ان كان قبيصة قدّ من قبل الخ، ومنها أيضاً ما نسب لسليمان بن داود ، أو الإمام علي (ع) من الحكم بين المرأتين اللتين ادعتا الولد ، وقوله : اتوني بسكين أشقه بينهما، فسمحت احدهما دون الأخرى ، فقصي به لهنه .

وأغرب ما قرأته في هذا الباب ما نقله « الشاطبي » في « الموافقات » ج ٢ ص ٢٦٧ المسألة الحادية عشرة : « ان أبا بكر أنفذ وصية رجل بعد موته برؤيا

رؤيت ، . أي ان رجلاً مات ولم يوص في حياته ، ثم أوصى بعد موته ، وأبلغ وصيته لمن أراد في المنام ، فنفذ أبو بكر هذه الوصية .

امراة العزيز ونسوة المدينة الآية ٣٠ - ٣٥ :

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُصْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيُصْجَنَّتْهُ حَتَّىٰ حِينٍ *

اللغة :

شغفها أي بلغ شغاف قلبها ، وهو غلاف القلب على هيئة الكيس . والمراد بكيدهن قولن الذي أردن به اغضاها ، واشاعة أمرها . وأعدت أعدت

وهيات . والمتكأ ما يتكأ عليه من فرش ونحوه . وقطعن أيلبين جرحنها . فاستصم طلب العصمة وامتنع عما أرادت منه .

الإعراب :

وقال نوسة أي جمع النسوة . وحباً تمييز محول عن فاعل أي شغفها حبه ، مثل طاب محمد نفساً أي طابت نفس محمد . ومتكأ أصله موتكأ لأنه من توكأ ، فأبدلت السواو تاء وادغمت التاءان . وحاش لله أصلها حاشا ، وحذفت الألف تخفيفاً ، وهي فعل ماضٍ ، والفاعل ضمير مستتر يعود الى يوسف . والله اللام حرف جر : والمعنى بعد يوسف عن المعصية لأجل طاعة الله . وقيل : الله فاعل واللام لبيان الفاعل أي حاشا الله . وما هذا بشرأ (ما) نافية تعمل عمل ليس على لغة أهل الحجاز ، وهذا اسمها وبشرأ خبرها . وان هذا (ان) نافية بمعنى ما . وذلكن (كن) للخطاب ، لا للضمير ولا محل له من الاعراب ، وذا اسم اشارة مبتدأ ، والسذي لمتني فيه خبر . وليكوناً من الصاغرين الأصل ليكونن بالنون الخفيفة ، وكتبت بالألف تبعاً لحط المصحف . مثل لنسفاً بالنافية . ورب أصله يا ربي . والسجن أحب مبتدأ وخبر . وإلا مركبة من كلمتين : ان الشرطية ولا النافية .

المعنى :

(وقال نوسة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لئراها في ضلال مبين) . شاع في مصر ، وبالحصوص على ألسنة النسوة ان امرأة العزيز افتتنت بغلامها ، ودعته لنفسها ، ولكنه عزف عنها وزهد فيها ، وقد اجتاحت بهذا خطيئة لا تغفر .

(فلما سمعت بمكرهن) أي بقولهن ، وأطلق المكر هنا على القول لأنهن ما أردن به وجه الحق ، بل أردن مجرد التشهير بها . وقال بعض المفسرين : لعلهن لنها لانكشاف المراودة وظهورها ، وانه كان الأولى بها ان تحكم الخطئة ليم كل

الجزء الثاني عشر

شيء تحت الستار .. ويصح هذا القول في الفاجرات ، لا العفيفات (أرسلت إليهن واعتمدت لمن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً) . أرادت أن تمكر بهن كما مكرن بها ، فأقامت لمن مائدة في قصرها ، وحاطتهن بهالة من النعم : متكات وثيرة وأرائك مريجة ، وطعام سخي شهي ، وأعطت كل واحدة سكيناً حادة لتقطع بها اللحم والفاكهة .. واستعمال السكين في الأكل آنذاك يومئذ إلى الحضارة . وفي تفسير الطبري ان السكاكين لا تدفع إلى من دعي إلى مجلسٍ إلا لقطع ما يؤكل ، فذكرها يغني عن ذكر المأكول الذي قطعت به .

(وقالت - ليوسف - اخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن) من شدة الدهشة والذهول ، وقال المفسرون : قطعن أي جرحن ، ولكن الظاهر من القطع الابانة ، لا الجرح .. ومهما يكن فإن مثل هذه الحادثة تُفسر بالاجتهاد فيما تستدعيه ظروفها وملابساتها ، لا بالنص الحرفي لدلالة اللفظ (وقلن حاش لله ما هذا بشراً ان هذا إلا ملك كريم) في صورة البشر لهيئته وجاله الذي جر عليه أنواع البلاء والمحن .

(قالت فذلكن الذي لمتني فيه) . قالت هذا بلغة الحرية التي تطالب بها فئة من بنات الجيل الجديد ، حرية بلا مسؤولية ، حتى في التهلكة والتضخ .. ونحن من أنصار الحرية للرجال والنساء ، ولكن في حدود المسؤولية عن الأقوال والأفعال (ولقد راودته عن نفسه) على المكشوف (فاستعصم) انصرف عني وأعرض (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين). قال صاحب التفسير المنار : « والله ما عجبني من يوسف ان راودته مولاته فاستعصم .. وانما عجبني بل اعجابني بيوسف (ع) ان نظره إلى الله لم يدخ في قلبه البشري مكاناً خالياً لنظرات هذه العاشقة التي شغفها حباً » . ونعطف على هذا القول ان الله سبحانه ضرب يوسف مثلاً للمؤمن المخلص ليُعرف به المؤمن المزيف الذي يكيف الدين حسب أهوائه وأغراضه .

(قال رب السجن أحب اليّ مما يدعونني اليه) . ليس المراد بأحب هنا التفضيل ، بل مجرد الاختيار ، تماماً كقولك : الصحة أحب اليّ من المرض . وقال يدعونني بصيغة الجمع لأن النسوة اللاتي رأينه رغبن فيه أيضاً بدليل الآية ٥٠

سورة يوسف

« قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم . قال ما خطبك اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء » .. وآثر يوسف السجن لأنه على مرارته أحلى عاقبة من لفة الحرام ، ومهما اشتدت وطأة السجن فلان الدين أقوى منه .

وتسأل : اذا خيّر المرء بين الزنا والسجن ، ولا مفر له من أحدهما ، فهل يجوز له أن يزني ؟ .

الجواب : لا يجوز لأن الخيار وقع بين الزنا المحرم ذاتاً ، وبين السجن الذي تقع تبعته على الظالم ، لا على المظلوم الا اذا كان السجن علة تامة لمحرم أشد وأعظم ، فيجوز حينئذ أن يزني دفعاً لأشد الضررين ، وارتكاباً لأخف المحذورين ، ولذا اذا خيّر بين الزنا والقتل فعليه أن يختار الزنا .. هذا في غير المعصوم ، لأن المعصوم له حكم آخر .

(والا تصرف عني كيدهن أصبُ اليهن وأكن من الجاهلين) . لما كثر على يوسف الاغراء والتهديد خاف على نفسه أن تضعف في جنب الله ، ففرغ اليه تعالى يطلب المخرج ، ويقول : إلهي لقد نزل بي ما لا طاقة لي به الا بمعونتك ، وأنت القادر على كشفه ، فإن لم تكشفه عني تضعف قوتي ، ونقل حيلتي (فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن) كما استجاب له من قبل وصرف عنه كيد اخوته ، وما أخلص عبد لخالفه الا جعل له فرجاً وغرماً : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين - ٤٧ الروم » (انه هو السميع العليم) بسمع دعاء من تضرع اليه ، ويعلم اخلاص من أخلص له .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) . ضمير لهم يعود الى العزيز وامرأته ومن على رأيها ، وقيل : يعود الى العزيز وحده ، وصح بصيغة الجمع لأنه لم يذكر باسمه ، والمراد بالآيات الدلائل التي دلت على براءة يوسف ونزاهته ، و(حتى حين) أي يسجن سجناً مؤقتاً ، لا مؤبداً .. ولا ذنب له الا الطهر والعفاف ، ولو كان خائناً مثلهم لرفضوه مكاناً علياً .. أبى يوسف ان ينصاع لرغبة المجرمين فعاقبوه كمجرم .. وهكذا في جميع ادوار التاريخ يعاني الحر الكريم اذا ألقى به القدر في بيئة الظلم والفساد ، ولكن الله مع الذين اتقوا

الجزء الثاني عشر

وصبروا على المحول في سبيله ، لا في سبيل أنفسهم ، ويمد للباغي أمداً ، ثم تلور عليه دائرة السوء ، ويؤيد الله بنصره من آمن وصبر ، تماماً كما حدث ليوسف مع اخوته وامرأة العزيز ، حيث قال له اخوته بعد ان آتاه الله الملك : « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين » . وقالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين .

ودخل معه السجن فتيان الآية ٣٦ - ٣٨ :

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثًا بَتَّاءِ عَلَيْهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَآتُكُمَا بَتَّاءِ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كُفْرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِبِرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ *

الإعراب :

فوق ظرف مكان والعامل فيه حمل ، وجملة تأكل صفة للخبز . وهم بالآخرة هم كافرون ، هم الأولى مبتدأ ، والثانية تأكيد وكافرون خبر وبالآخرة متعلق بالخبر . ما كان لنا (ما) نافية ، ولنا خبر كان مقدم ، والمصدر من ان نشرك اسم كان ومن زائدة اعراباً ، وشيء مفعول مطلق . لنشرك . أي شيئاً من الشرك .

المعنى :

(ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما لاني أراني أعصر خيراً - أي عنباً - وقال الآخر اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه) . دخل يوسف الطهر السجن ، وبقيت امرأة العزيز الرجس في قصرها طليقة تأمر وتنهى ، ولكن يوسف دخل السجن طيب النفس ، وهو الذي أحبه وآثره لأن فيه راحة الضمير ، والنجاة من المعصية ، والفوز بمِرْضَاة الله ، أما امرأة العزيز فهي في سجن من العذاب الأليم ، عذاب الضمير والحرام والفضيحة .

ودخل مع يوسف (ع) السجن فيمن دخل اثنان من حاشية الملك : ساقيه ، وخازن طعامه لتهمة ألصقت بهما ، قال الساقى : رأيت فيما يرى النائم اني أعصر خيراً - أي عنباً لأنه يؤول الى الخمر - وقال الخازن : أما أنا فرأيت على رأسي خبزاً يحطفه سرب من الطير ، ويذهب به (نبشنا بتأويله) خبرنا بتفسير ما رأينا (إنا نراك من المحسنين) في سيرتك مع أهل السجن .

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأكما بتأويله قبل ان يأتيكما) . ذكر في تفسيره ستة اقوال ، ويتلخص اقربها الى ظاهر اللفظ بأن يوسف قال للسائلين : انا وانتما محجوبان في هذا المكان لا يعلم احدنا ماذا يجري في خارجه ، ومع هذا فانا اعلم أي طعام يُرسل اليكما ، ما هو نوعه ، وما هي الغاية من ارساله قبل أن يُرسل .

وتسأل : لقد سألاه عن تعبير ما رأيا فأجابهما بأنه يخبر عن الغيب فيما يأتيها من طعام ، وهذا لا يمت الى السؤال بصلة ؟ .

أجل ، ليس هذا تعبيراً للرؤيا ، ولكنه تمهيد له ، فلقد اراد يوسف ان يغتنم هذه الفرصة ليثبت لأهل السجن انه نبي مرسل من عند الله ، واستدل على نبوته بالإخبار عن الغيب ، تماماً كما استدل عيسى (ع) على صدقه بقوله : « وانبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لآية لكم - ٤٩ آل عمران » . وبديهة ان الغرض الأول ليوسف (ع) ان يثبت بين السجناء عقيدة التوحيد والاعتراف باليوم الآخر، كما هو شأن الأنبياء ، ويظهر ذلك من أقواله التالية :

الجزء الثاني عشر

(ذلكما مما علمني ربي) . ذا إشارة الى الاخبار بالغيب و (كما) حرف خطاب للسائلين عن تعبير الرؤيا ، والمعنى ان ما أخبركم به من الغيب ليس كهاته ولا سحراً أو عرافة ، وإنما هو وحي أوحاه الله إليّ كما أوحى الى الانبياء من آياتي (اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) . أي برئت من قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر .. وفي هذا تعريض - ولكن بلطف ورفق - بالسجناء وغيرهم من المشركين ، لتكون دعوته أوقع في نفوسهم ، وفي التاريخ ان المصريين كانوا يومذاك يعبدون آلهة ، منها الشمس ، ويسمونها (رع) ، ومنها عجلهم (ايس) .

(واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) . لقد كان هؤلاء مشهورين مكرمين عند الجميع وبالحصوص ابراهيم الخليل (ع) ، ولذلك أضاف يوسف نفسه اليهم نسباً وديناً ، قال الرازي :

« لما ادعى يوسف النبوة وتحدى بالمعجزة ، وهي علم الغيب قرن به كونه من أهل بيت النبوة ، وان أباه وجدته وجد أبيه كانوا أنبياء ، فإن الانسان متى ادعى حرفة آباءه لم يستبعد ذلك منه ، وأيضاً ان درجة ابراهيم وإسحق ويعقوب كانت معروفة عند الناس ، فإذا ظهر انه ولدهم عظموه ، وكان اتقيادهم له أتمّ ، وتأثير كلامه في قلوبهم أكمل » .

(ذلك فضل الله علينا وعلى الناس) . أي ان اختصاصنا بالنبوة فضل من الله حيث رأنا أكفأً لرسالاته ، وأيضاً فضل على الناس لأنهم بنا اعتدوا الى سواء السبيل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) بل يشركون ويحبدون : وكلما زادوا غنى ازدادوا كفراً وطغياناً .

يا صاحبي السجن الآية ٣٩ - ٤٠ :

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَرْتَابُ مُتَقَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ*

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ
الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ*

اللغة :

الدين القيم هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه .

الإعراب :

أرباب الهمة استفهام انكاري . ومتفرون صفة . وسميتها تتعدى إلى
مفعولين والثاني مخوف أي سميتها آله . وأنتم توكيد للضمير الفاعل ، وآباؤكم
عطف عليه أو على الضمير المتصل . ومن سلطان (من) زائدة إعراباً وسلطان
مفعول أنزل . وإن الحكم (ان) نافية . والا تعبدوا (الا) مركبة من كلمتين
ان المصدرية ولا النافية ، والمصدر المنسبك مجرور بالباء المحذوفة ، أي أمر بعدم
عبادة غيره .

المعنى :

(يا صاحبي السجن أرباب متفرون خير ام الله الواحد القهار) . المراد
بصاحبي السجن الفتيان اللذان دخلا السجن مع يوسف ، وسألاه عن تعبير الرؤيا ،
وأضافها إلى السجن بالنظر لاقامتها فيه ، مثل أصحاب الجنة وأصحاب النار ،
ويحتمل أن يكون يوسف أضافها إلى نفسه أي يا صاحبي في السجن، وحلفت (في)
توسعاً ، والأول أظهر، ومهما يكن فلان يوسف (ع) قد جادلها فيما يعبدان وقومهما
من دون الله ، وأورد الجدال والحجاج في صيغة السؤال والاستفهام لأنه أقرب

الجزء الثاني عشر

الى الطباع من المجاهبة بفساد العقيدة .. وقد ذكرنا الدليل على التوحيد في ج ٢ ص ٣٤٤ عند تفسير الآية ٤٨ من سورة النساء .

ثم خطا يوسف (ع) خطوة ثانية في الدعوة الى التوحيد ، ونبذ الشرك ، وقال : (ما تعبدون من دون الله الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) . انكم تعبدون مجرد أسماء لا وجود لمعانيها اطلاقاً ، وكل ما لا وجود له لا أثر له ، وتستحيل اقامة الدليل عليه .. فعبودكم - اذن - خيال في خيال .. وهكذا العالم الحكيم ينتقل من أسلوب الى أسلوب لاقتناع الجاهل ، يُلوح ثم يصرخ حتى يصل الى ما يبتغيه من الاذعان والتسليم لدعوته .

لا حكم الا لله :

(ان الحكم الا لله أمر ان لا تعبدوا الا إياه) . معنى لا تعبدوا الا إياه واضح ، أما معنى الحكم لله فيحتاج الى تفسير ، ويتلخص بأن حكم الله على قسمين : الأول قضاؤه وقضائه ، وهذا لا مفر منه للانسان . الثاني حلال الله وحرامه المعبر عن كل منها بالحكم الشرعي . ومعلوم ان الله تعالى لا يتصل بعباده بلا واسطة ، وبحكم بينهم مباشرة في هذه الحياة ، وانما يشرع الأحكام ويبلغها لعباده بلسان أنبيائه ورسله والمراد بالحكم لله المعنى الثاني وانه تعالى هو مصدر التشريع ، وليس الأفراد ولا الجماعات ، ولا أية سلطة الا الله وحده لا محلل ولا محرم الا هو ، ومن حكم بشيء فلا يكون حكمه حقاً وعدلاً الا اذا كان على وفق ما أوحى الله ، وأجمع كلمة تعبر عن ذلك قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون - ٤٥ المائدة » ، وفي آية ثانية هم الفاسقون ، وفي ثالثة هم الكافرون ، فأني حكم لا يعبر عن ارادة الله ومرضاته فهو كفسر وظلم وفسق ، وبعبارة ثان ان حكم الله أشبه بالخارطة يضعها المهندس للبناء ، ومن يتولى الحكم ويمارسه أشبه بالبانى .

وقد استوحينا هذا التفسير من قول الإمام علي (ع) ، فإنه لما سمع قول الخوارج : لا حكم الا لله قال : « كلمة حق أريد بها باطل ، نعم لا حكم الا

سورة يوسف

لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة الا الله .. وانه لا بد للناس من أمير بر ، أو فاجر يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر . أي ان حق التشريع لله وحده ، وعلى الناس أن يطبقوا ما شرعه الله ، والذي يحملهم على هذا هو هذا الأمير ، والخوارج خلطوا بين مصدر الشريعة ، وبين من يطبقها ويزاولها ، ولم يميزوا بين الاثنين .

(ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . ذلك اشارة الى حصر التشريع والعبادة بالله ، والمعنى ان الدين المستقيم الذي لا عوج فيه هو الذي يخص الله وحده بالتشريع والعبادة ، وليس لأي انسان أن يستعبد الناس ، أو يشرع لهم الأحكام والحلال والحرام ، فالكل حتى الأنبياء عبيد لله يعملون بأمره ونهيه ، ومعنى هذا ان كل الناس 'خلقوا اخوة متساوين' ، وقد منحهم خالقهم حقوقاً انسانية أبدية لا تقبل التبديل أو التعديل ، وأظهر هذه الحقوق الحياة والحرية والسعي الى السعادة ، ومن وقف في طريق حق منها فهو أعدى أعداء الله ودينه وشرعته .

تعبير رؤيا صاحبي السجن الآية ٤١ - ٤٢ :

يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَاتَّقِ رَبَّ خَرًّا وَأَمَّا الْآخِرُ فَوَيْلٌ لِّكَ
فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ الَّذِي
ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ
فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ *

اللغة والإعراب :

بضع من الأعداد ، ويطلق على الثلاثة الى العشرة ، ونُصب على انه ظرف زمان لاضافته الى سنين ، والعامل فيه لبث .

المعنى :

بعد أن أدى يوسف واجب الدعوة الى الله تعالى عبّر لكل من الساقى وخازن الطعام ما رآه في منامه ، فقال للساقى : تنجو من السجن ، وتعود الى سابق عهدك ساقياً للملك ، وقال للخازن أو للخباز : تُصلب وتأكل الطير من رأسك ، وقد كان يوسف على ثقة من تعبيره لأنه وحي من الله ، ولذا قال لهما: ان هذا الأمر قد بُتَّ فيه ، وانتهى حكمه .

وقال يوسف للساقى الناجي : اذا رجعت الى قصر الملك فقل له : اني سجن من غير محاكمة أو سؤال ، واذا فحص عن الحقيقة ظهر اني أخذت بغير سبب . وعاد الساقى الى القصر ، ونسي في زحمة أعماله في خدمة الملك أن يذكر يوسف ، فلبث في السجن بضع سنين .. وفي رواية انها سبع ، وقيل بل ١٢ والله أعلم .

سبع بقرات سمان الآية ٤٣ - ٤٩ :

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا اضْغَاكُ أَحْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ

فَارْسِلُونِ* يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ* قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ
فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ* ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ
فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ*

اللغة :

سمان جمع سمين وسمينة . والمعجاف ضد السمان ، وهو جمع أعجف للذكر
وعجفاء للأنثى أي هزيل وهزيلة . وعبرت الرؤيا فسرتها ، وقال أبو حيان الأندلسي
في البحر المحيط : المشهور تخفيف الباء وأنكر البعض تشديدها . والاضغاث جمع
ضغث ، وهو الحزمة من كل شيء ، وقيل : من النبات فقط يختلط فيها الرطب
باليابس . واذكر واذكر بمعنى واحد ، قال الطبرسي في مجمع البيان : الأجود
الدال وأصله اذتكار . وبعد أمة أي بعد حين . والدأب العادة والمراد به هنا
الدوام على الزرع . وتحصنون أي تحرزون ، يقال : أحصنه احصاناً إذا جعله في
حرز . ويغاث الناس أي يفرج الله عنهم ، ويطلق الغيث على المطر وعلى ما
ينبت بسببه . ويعصرون أي يستخرجون العصير مما يعصر كالعنب والزيتون ، وهو
كناية عن الحصب .

الإعراب :

لرؤيا اللام زائدة لتقوية الفعل وبيان المفعول ، ومثلها لرهبهم يرهبون . واضغاث

الجزء الثاني عشر

خبر لبتأء محنوف أئ هءه أضغاث . وءأبأ مصءر وضع موضع الحال أئ ءائبن .
وصاحب الحال وار ءزرعون . ومفعول يعصرون محنوف أئ ما من شأنه
أن يعصر .

الأحلام ونظرية فرويد :

الأحلام ظاهرة نفسية ، وقء تناولها بالبحث والتمحيص علماء النفس وكثير
غيرهم من كل مذهب ، وتكلموا عنها كثيراً ، وما أنوا بضابط كلي يمكن
الاعتماد عليه في تفسير الأحلام بشئ أنواعها .. أجل ، لقء اهنءوا الى المصدر
الأول لنوع من الأحلام، وفسروه تفسيراً صحيحاً ، واكتشفوا منه بعض الأمراض
العصبية ، لأنه انعكاس عنها ، ولكن هناك أحلاماً تتكلم بغير لغة الحالم ونفسه
وحياته ، وعجز العلماء عن تفسيرها .

وحاول «فرويد» أن يفرض التفسير الجنسي على جميع الأحلام ، بل وعلى
كل شئ في هءه الحياة أو على أكثر أشيائها..فالأحلام عنءه كلها رموز جنسية،
ءون استثناء ، والأمراض العصبية سببها كبء الغريزة الجنسية ، وحب الولء
لوالءته ناشئ عن التفكير فيها وغيرته من أبيه عليها ، وكذلك تعشق البنت أباها،
وتغار من أمها عليه ، بل كذلك جميع الصءاقات والأشواق .. حتى فكرة ءءءن
والضمير مصدرها الخوف من مضاجعة المحارم .. وعلى هءه فقس ما سواها ..

ورء العارفون هءه النظرية بأن الانسان مسير بالعءءء من الغرائز ، لا بغريزة
الجنس فقط ، وألف «جاسترو» البولنءي كتاباً في جزئين رءأ على فرويد ،
وأسماء: الأحلام والجنس ، وءرجمه فوزي الشءوي ، وما جاء فيه إن العلماء ءرسوا
بضعة آلاف من الأحلام لبضع مءاث من الناس ، فوجدوا أن أقل من ٥٠ بالمئة
منها لا يمكن تفسيرها بنظرية فرويد ، وإن هءه النظرية ءترك كثيراً من الأسئلة
بغير إجابة . وقال أءيب ذكي معاصر .

« إن نظرية فرويد لا ءءن سوى صاحبها ، فهو صاحب الخيال الجنسي الذي
يرى في كل شئ مستءير عضواً انثوياً ، وفي كل مستطيل عضواً مذكراً .. أما

سورة يوسف

الانسانية فهي بريئة من هذا الرأي، ان هذه النظرية الضيقة لا يمكن أن تكون صادقة، فالإنسان ليس عبداً للجنس فقط ، وإنما هو عبد لأكثر من لذة ، لذة الجنس ، ولذة الحب ، ولذة الصداقة ، ولذة الجمال ، ولذة المعرفة ، ولذة السيطرة ، ولذة القوة ، ولذة الحرية ، والسعادة هي ائتلاف هذه اللذات في حياة منسجمة ، وفي نظرة رحة واسعة الأفق .

والذي نراه ان الأحلام على أنواع :

« منها » ما هو انعكاس لعادات الإنسان وتفكيره ، كالفيلسوف يرى انه يناقش أفلاطون وأرسطو ، والمسلم يصلي في المسجد ، والمسيحي يصلب في الكنيسة والفلاح يزرع ، والباني يبني ، وما أشبه ذلك . وهذا النوع واضح ولا يختلف فيه اثنان ، لأنه يحمل تفسيره معه .

و « منها » ما هو غريب عن حياة الحالم وتفكيره ، كرؤيا الملك البقرات والسبلات .. وما هو فلاح ، ولا براعي بقر ، وجاءت رؤياه انذاراً بما حدث من الجذب بعد الخصب .

و « منها » ما يقع في اليقظة ، تماماً كما رآه الإنسان في منامه دون زيادة أو نقصان .. وهذا نادر جداً ، ولكنه حدث قطعاً ، وحتى الآن لم يهتد العلم إلى تفسير هذا النوع والنوع الذي قبله ، وقد يهتدي اليه في المستقبل القريب أو البعيد.. وفسرهما البعض بالصدقة .. وليس من شك ان الصدقة هي ملجأ العجزة ، وقال آخر : انها نتيجة لحاسة في الإنسان نجعل كنهها .. وهذا أيضاً من العجز .

وفي سنة ١٩٥٦ رأيت فيما يرى النائم المرحوم أخي الشيخ عبد الكريم ، وكان قد مضى على وفاته عشرون سنة ، وأخبرني عما سيحدث وعين الوقت ، فكان كما قال .. وبعد هذا بسنوات رأيت رؤيا فصدقت ، وكانت سوءاً كالأولى ، فقلت لصديق لي مداعباً : ان رؤيا الشر تصدق ، دون رؤيا الخير .. وحين وصلت في التفسير الى أول سورة يوسف قرأت هذه العبارة للرازي : « اعلم ان الحكماء يقولون : ان الرؤيا الرديئة يظهر تفسيرها عن قريب » فتعجبت، وتذكرت قول الشاعر البائس :

فإن أر خيراً في المنام فمنازع وإن أر شراً فهو مني مقرب

والخلاصة انه لا يوجد ضابط كلي يمكن الاعتماد عليه في تفسير الأحلام بكاملها لأنها أنواع متضادة متباينة ، فمنها صدى لوساوس النفس وظروفها ، وهذا النوع واضح بوضوح مصدره . ومنها ما هو صورة طبق الأصل عن الحادث الذي يقع في اللحظة بعد الحلم ، وهذا النوع نجعل سره ومصدره . ومنها ما هو رموز وإشارات مسبقة الى الواقع المحسوس قبل وقوعه ، كالكواكب التي سجدت ليوسف ، والخبز الذي حمله القى المسجون فوق رأسه ، والبقرات والسنبلات التي رآها ملك مصر ، وهذا كسابقه لا نعرف له سرّاً ولا مصدرّاً . أما من قال بأن هذا النوع والذي قبله بشرى من الله ، أو حاسة في الانسان فقد ادعى لنفسه العلم بالغيب ، ولا يرضى أن يُنسب الى الجهل ، حتى بما حجب الله علمه عن عباده .

(وقال الملك اني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) . في ذات يوم أصبح ملك مصر على رؤيا غريبة .. رأى بقرات يأكلهن بقرات مثلن ، وما حدث مثل هذا قط ، وبالخصوص ان المهازيل أكلن السماء ، وأيضاً رأى سنابل يابسات تلتوي على سنابل خضر في حقل واحد .. وهذا غريب عن المعتاد .

فدعا رجال حاشيته ، وكهنة دولته ، وقال لهم : (يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون) . فعجزوا عن التفسير و (قالوا اضحاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) . المعنى واضح ، ولكن الرازي هنا كلاماً مفيداً يتلخص بأن الله تعالى جعل رؤيا الملك سبباً لخلاص يوسف (ع) ، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه ، وقد شاهد الملك ان الضعيف يستولي على القوي ، وهذا بعيد عن الفطرة ، فأيقن ان الرؤيا تنذر بالشر ، ولكنه جهل حقيقته وتفصيله ، فتشوّق إلى المعرفة ، وجمع المعبرين وسألهم عن تفسير ما رأى ، ولكن الله أعماه عن الحقيقة ليكون ذلك سبباً لخلاص يوسف من سجنه .. ثم قال الرازي : ان المعبرين ما نفوا عن أنفسهم العلم بالتعبير ، وانما قسموا الرؤيا إلى قسمين : منتظمة يسهل معرفتها ، ومضطربة لا تفسير لها إلا الوهم والخيال ، وقالوا : ان رؤيا الملك من النوع الذي لا تفسير له ، أو لا يعرفون هم له تفسيراً ، وان المتبحر في علم الرؤيا قد يهتدي إلى تفسيره .

سورة يوسف

(وقال الذي نجلسناها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) . سبق ان يوسف حين دخل السجن دخل معه فتيان ، وان أحدهما رأى انه يعصر خمراً ، والآخر يحمل فوق رأسه خبزاً ، فمبر لها يوسف ما رأيا وأحسن التعبير حيث نجا الأول ، وصلب الثاني كما قال .. وهذه الآية تشير الى الذي نجا ، وقال له يوسف آنذاك : اذكرني عند ربك ، فأناست الشيطان وصية يوسف ، ولما رأى حيرة الملك واهتمامه بتعبير رؤياه وعجز المعبرين تذكر يوسف ، فأخبر الملك عنه وعن صلاحه وعلمه بتعبير الرؤيا ، وقال : لو أرسلتني اليه أيها الملك لجئتك بالخبر اليقين .

(يوسف أيها الصديق أفنتا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) . أمر الملك ساقبه أن ينطلق الى الرجل الصالح الذي حدثه عنه ، وان يقص عليه رؤياه ، ثم يأتيه بما يسمع منه ، فانطلق الساق الى يوسف ، وبطبيعة الحال اعتذر له عن نسيانه ، بعد أن لقيه بما هو أهل له من الصدق ، ثم نقل له رؤيا الملك بالحرف ليأتي التفسير على وفق النص (لعلني أرجع الى الناس لعلهم يعلمون) . أي أخبرني عن التأويل لأنقله عنك الى الملك وحاشيته ، فيعلمون بفضلك ومكانتك ، فيخرجونك من السجن .

(قال تزرعون سبع سنين دأباً فاحصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون) قال يوسف للسائل مفسراً رؤيا الملك : تزرعون سبع سنين متوالية ، وتكون هذه السنين خصبة طيبة ، وهي المشار اليها بالبقرات السمان والسنابل الخضر ، كل سنبل وبقرة ترمز الى سنة ، ثم نصح لهم يوسف ، وقال : كل ما تحصدونه من الزرع ادخروا سنبله ، ولا تدوسوه لأن القمح في سنبله يهوان من السوس والرطوبة : أما الذي تريدون أكله فدوسوه ، مع مراعاة الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة .

(ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون) اسند الأكل الى السنين ، والمراد أهلها ، وهذا كثير في كلام العرب ، والمعنى ان السنين المخصبة تعقبها سبع سنين مجدبة ، يتجهم فيها وجه الأرض ، ولا تثبت شيئاً ، فتأكلون كل ما ادخرتموه فيها مضى ، ولا يبقى إلا القليل للبشر (ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه يعصرون) . أي يأتي بعد السبع

الجزء الثاني عشر

الشداد عام خصب يغيث الله فيه الناس من الشدة بالماء ، فينبت الزرع ، وينمو الشجر ، ويحصر الناس من ثمره خيراً وزيتاً وأنواع اللحون والأشربة .. ونجدد الإشارة الى أنه لم يرد في رؤيا الملك أي رمز الى هذا العام ، وانما هو من الغيب الذي لا يطلع عليه إلا الله أو من ارتضى من رسول .

وقال الملك التوني به الآية ٥٠ - ٥٣ :

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ
فَأَسْأَلْهُ مَا بَالُ النُّسُوءِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ*
قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا
عَلَمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا
رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْشَهُ
بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ* وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ
لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ*

اللفظ :

ما بال النسوة أي ما شأنهن ، ومثله ما خطبكن مع الإشعار بأنه شأن عظيم
وجدير بأن يخاطب الانسان فيه صاحبه . وحصحص أي تبين وظهر .

الإعراب :

ما بال النسوة مبتدأ وخبر ، ومثله ما خطبكن . وحاش لله مرّ لإعرابه في
الآية ٣١ من هذه السورة . وذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ذلك . وليلم
منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر مجرور باللام متعلقاً بمحذوف أي اقوله

سورة يوسف

ليعلم . والا ما رحم ربي (ما) اسم موصول بمعنى الذي في محل نصب على الاستثناء أي الا نفساً رحمها ربي . وقيل : يجوز أن تكون مصدرية ظرفية أي الا وقت رحمة ربي .

المعنى :

(وقال الملك اثتوني به) أي بيوسف .. بعد أن عبّر يوسف الصديق للرسول رؤيا الملك ، ونصح كيف يستعدون لمواجهة السنين الشداد، بعد هذا رجع الرسول الى سيده بالتعبير والنصح ، واكتشف الملك ان وراء قول يوسف علماً جماً ، واخلاصاً صادقاً ، فأحب ان يقربه اليه ليتنفع بعلمه واخلاصه ، وقال : اثتوني به ، واكتفى القرآن الكريم من هذه الحادثة بقول الملك لأن القارىء يستحضر منه سائر اللوازم التي لا تنفك عنه .

(فلما جاءه الرسول) ودعاه الى حضرة الملك (قال - يوسف - ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم) . المراد بالرب هنا السيد .. رفض يوسف الخروج من السجن ، ولم يتهالك على الاستجابة لدعوة الملك - كما يفعل الكثير من المتسبين بسمه الدين - بل لم يقم لها وزناً لأمر: ١ - ان المؤمن حقاً لا يرى عظيماً سوى الله : ولا يبالي بشيء في سبيل اظهار الحق واعلانه ، ومن أجل هذا رفض الصديق أن يخرج من السجن بالعفو والتفضل ، وأصر على اعلان الحق قبل كل شيء ، وصمم ان يصبر على السجن وألمه مدى الحياة ، أو يخرج منه مرفوع الرأس مبرأ من كل همة . ٢ - أحب يوسف أن يجري التحقيق ويتم في غيبته ودون أن يتدخل هو فيه لأن ذلك أبلغ في نزاهته وبراءته ، وأدل على عظمته وحلمه واثاته .

٣ - ان يوسف واثق من براءته ، ومطمئن بأن التحقيق سيكون في مصلحته ، وان عدم الاسراع الى الخروج من السجن أدعى الى ثقة الناس واستجابتهم لرسائله .. بالاضافة الى انه يقطع الطريق على من يتوسل بالتهمة الى الطعن فيه عند الملك حين يقربه منه ، وعند غير الملك حين يدعو الى الله والحق . ورجع الرسول الى الملك وأخبره بأن يوسف لا يخرج من السجن الا بعد التحقيق

الجزء الثاني عشر

في شأن التهمة التي سجن من أجلها ، فاهم الملك ، وأحضر النسوة و (قال ما خطبك اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين).. هذا اعتراف جازم قاطع لكل شبهة ، لأنه من الخصم بالذات .. حاشاه من سوء .. انه لمن الصادقين .. وهكذا تتجلى الحقائق - وان طال بها الزمن - ويستلم لها أهل الضلالة مرغين ، حيث لا مجال للفرار والانكار .

(ذلك ليعلم اني لم أخنه بالقيب) . اختلف المفسرون في هذه الآية، فمن قائل انها من كلام يوسف (ع) ، وان المعنى اني طلبت التحقيق مع النسوة ليعلم العزيز اني لم أخنه في زوجته حال غيابه . ومن قائل : ان الآية من كلام امرأة العزيز، ونحن مع هذا القائل عملاً بظاهر السياق من اتصال بعض الكلام ببعض ، وعليه يكون الضمير في لم أخنه ليوسف ، ومرادها بعدم خيانتها عليه حين قالت لزوجها ما غيابه في السجن حتى هذه الساعة ، أما إحالتها الذنب عليه حين قالت لزوجها ما قالت فقد كان ذلك بحضور يوسف، لا بغيابه (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) بل يفضحهم ويهتك سترهم ، وينصر المؤمنين عليهم ، تماماً كما فضح النسوة ، ونصر يوسف : « وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين - ٧٠ الأنبياء » .

(وما ابرئ نفسي ان النفس لأماره بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم). الانسان حيوان عاقل ومتدين، فهو بحبوانيته أو بنفسه الأماره يميل الى الشهوات والملذات، لا يبالي بعقل ولا بدين ، وهو بدينه وعقله يرغم نفسه على الوقوف عند حدود الشرع والعقل اذا حاولت تجاوزها والانحراف عنها .. ومن أطلق العنان لنفسه تعمل ما تشتهي وتريد فهو حيوان في صورة انسان، بل الحيوان خير منه لأنه غير مسؤول عن شيء، ولذا قال تعالى: «ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً» - ٤٤ - الفرقان . أجل، قد يضعف الانسان بعض الأحيان أمام نفسه وشهوته ، ولكن المؤمن العاقل يعود بعدها الى رشده، ويتوب من هفوته، فيغفر له، ويصفح عنه لأن الله غفور رحيم . وقوله تعالى : (الا ما رحم ربي) معناه ان النفس ، اية نفس لا تسلم من العيوب الا نفساً عصمها الله من الخطايا والذنوب كنفوس الأنبياء والأئمة الأطهار .. والمهم ان لا يصير المذنب على ذنبه ويعرض أبداً عن ربه. قال الإمام علي (ع) : أشد الذنوب ما استهان به صاحبه. أي أصر عليه، ولم يستغفر الله منه.

الجزء الثالث عشر

يوسف عزيز مصر الآية ٥٤ - ٥٧ :

وَقَالَ الْمَلِكُ ااتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ *
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا نُجْزِ الْأَخِرَةَ خَيْرٌ
لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ *

اللغة :

أستخلصه أجعله خالصاً لنفسي . والمكين من التمكين أي انت عندنا ذو مكانة
ومترلة . ويتبوا منها يتخذ منها مترلاً .

الإعراب :

فاعل كَلَّمَهُ ضمير مستتر يجوز أن يكون للملك وليوسف أيضاً لأن المعنى يصح
على التقديرين . وضمير قال انك الخ . مستتر يعود الى الملك . وضمير قال
اجعلني الخ . يعود الى يوسف . ومفعول مكنا محذوف أي مكنا الأمر ليوسف ،
ويجوز أن يكون يوسف هو المفعول واللام زائدة . وجملة يتبوا حال من يوسف .
وحيث ظرف منصوب بيتبوا .

المعنى :

(وقال الملك اتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين

أمين). بعد أن شهدت امرأة العزيز والنسوة على أنفسهن ، وعرف الناس جميعاً ان يوسف منزّه عن الاغراض والعيوب ، بعد هذا رضي يوسف بالخروج من السجن ، وطلبه الملك ليكون زعيماً في مملكته وعوناً له على تدبيرها وادارتها . ولما اجتمع به ، وسمع منه وقع حبه واحترامه في قلبه ، وقال له فيما قال : أنت محترم عندنا ومؤتمن على كل شيء في الدولة ، وما قال الملك هذا إلا حين أبقن بمقدرته وعلمه وحكمته . وقيل ان يوسف كان عمره آنذاك ٣٠ سنة، وفي «مجمع البيان» ان يوسف سلم على الملك بالعريضة ، ولما سأله من أين لك هذا اللسان ؟ قال : هو لسان عمي اسماعيل ، وفي تفسير المنار ان ملك مصر كان في عهد يوسف من ملوك العرب المعروفين بالرعاة «المكسوس»^١ وقال الطبري ان هذا الملك كان اسمه الوليد بن الريان .

(قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم) . بعد أن فوض الملك الأمر ليوسف في كل ما يريد ويختار من المناصب اختار الولاية على خزانة الدولة واقتصادها^٢ ، اختار هذه الولاية بعد أن خيّر ، ولم يطلبها ابتداء كي يقال : كيف طلب الولاية .. وعلى افتراض انه طلبها ابتداء فلم يطلبها لمصلحته الخاصة ، بل للصالح العام ، وليحفظ للمستضعفين حقوقهم وبالمخصوص في سني القحط والمجاعة .. لقد علم يوسف ان البلاد مقبلة على بلاء وشدة، فإذا لم يكن صاحب الخزانة حفيظاً عليها عليماً بشؤونها ضاعت حقوق الناس وبخاصة الفقراء والمساكين.. هذا الى أن المال عصب الأمة وحياتها ، فإذا لم يكن زمامه بيد الأكفء علماً وخلقاً كان مصير الأمة الى الهلاك والدمار ، حتى في سني الخصب والرخاء .

أما اذا كانت مقادير الأمة بيد الأكفء والأمناء فلنهم يقودونها الى خيرها وصلاحها دنياً وآخرة ، وقد نقل كثيرون ان يوسف حين تولى أمر الخزانة ، ورأى الناس من عدله وحسن تدبيره ما صان لكل ذي حق حقه آمنوا برسالته ،

١ قرأت في جريدة « اخبار اليوم » المصرية تاريخ ٢٥ - ١ - ١٩٦٩ ان بنة جامعة فيينا المكونة من ٦ من علماء الآثار أعلنت ان المكسوس كانوا عرباً .

٢ في مصر يسمون وزير المالية بوزير الخزانة : وغير بعيد ان يكون مصدر التسمية قول يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض » .

الجزء الثالث عشر

حتى الملك آمن وشهد ان لا إله الا الله وان يوسف رسول الله ، قال اسماعيل حفي في « روح البيان » :

« قال مجاهد : أسلم الملك على يد يوسف ، وجمع كثير من الناس ، وعقب صاحب « تفسير البيان » على قول مجاهد بهذه الكلمة : « اذا كان الاحسان الى يوسف والاكرام له سبباً للإيمان والعرفان فما ظنك بمن آتى رسول الله (ص) وذبح عنه ما دام حياً وهو عمه أبو طالب ، فالأصح انه ممن أحياه الله للإيمان ، كما سبق في المجلد الأول . وسبق الكلام عن اسلام أبي طالب عند تفسير الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(اني حفيظ عليم) . أحفظ المال من الإسراف والضياع ، وأعلم المستحقين له من غيرهم ، وأضع كل شيء في موضعه . وعن الإمام جعفر الصادق انه قال : يجوز للرجل أن يزكي نفسه اذا اضطر الى ذلك ، فلقد قال يوسف : « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » .

وفي بعض التفسير : « لم يقل يوسف للملك : عشت يا مولاي ، أنا عبدك الخاضع ، كما يقول المملقون للطواغيت ، وانما طالب بما يعتقد انه قادر على النهوض به من أعباء الأزمة ، وصيانة الأرواح من الموت، والبلاد من الخراب .. فيا ليت المملقين للطغاة يقرأون القرآن ليعرفوا ان الكرامة والاباء والاعتزاز يدر من الريح أضعاف ما يدر التمرغ والتزلف والانحناء » . قال الرازي : روي ان الملك قال ليوسف : « أحب ان أشركك في كل شيء الا في أهلي والأكل معي . فقال له يوسف : لا آكل معك وأنا يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل » .

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) . صبر يوسف على إلقائه في البئر ، وعلى بيعه في سوق العبيد ، وخلعته في بيت العزيز ، وعلى التهمة بالخيانة، والسجن، والأسر ، صبر على ذلك وأكثر من ذلك ، صبر واحتسب وتوكل على الله .. فاذا كانت النتيجة ؟. لقد خرج من السجن خروج الأبطال من معارك النصر .. خرج ليحكم في الأرض مطلق اليد مسموع الكلمة ، نافذ السلطان .. وهكذا يوفق الصابرون

أجرهم في الدنيا (ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون). وأجر الآخرة الجنة التي لا ينقطع نعيمها ، ولا يظمن مقيمها ، ولا يهرم خالدها ، ولا يبأس ساكنها ، كما قال الإمام علي (ع) .. وأين من هذا النعيم الدائم الذي لا يشوبه بؤس ولا هرم ذلك الملك الزائل المشوب بالأتعاب والآلام ؟. وفي بعض الروايات ان امرأة العزيز أتت يوسف في السنين المجاف تطلب منه قوتاً ، وقد مات زوجها ورماها الدهر بالخطوب ، ونال منها ما نال ، وان يوسف لما رآها قال لها : ما الذي أوصلك الى ما أرى ؟. فقالت له : سبحان من جعل الملوك بمعصيته عبيداً ، وجعل العبيد بطاعته ملوكاً .

وجاء اخوة يوسف الآية ٥٨ - ٦٢ :

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمَ آلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَفِيلَ * وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُؤَاوِذُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهِمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهِمْ يَرْجِعُونَ *

اللغة :

منكرون أي لم يعرفوه . ويختلف معنى الجهاز باختلاف مورده من جهاز العروس الى جهاز الميت ، والمراد به هنا الطعام الذي جاموا من أجله . وخبر

الجزء الثالث عشر

المتزلين أي للضيوف . وقال لفتيانہ أي لخدمہ . والرحال جمع رحل ، وهو ما يوضع على ظهر الدابة كالسرج ، والمراد به هنا أوعيتهم التي توضع فوق السرج ونحوه . وانقلبوا رجصوا .

الإعراب :

ألا ترون (ألا) أداة تنبيه . ولا تقربون أصلها ولا تقربوني ، وحذفت الياء للتخفيف .

المعنى :

(وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون) . امتد القحط الى البلاد المجاورة لمصر ، ومنها فلسطين أرض كنعان ، حيث يقسم نبي الله يعقوب ، وكان قد شاع ان عزيز مصر قد أعد للجوع عدته ، وانه يوزع الخنطة بالقسط بين الناس ، لا فرق عنده بين شعب وشعب ، وكان قد نزل بيت يعقوب من العوز ما نزل بغيره ، فأمر بنيه أن يتجهزوا ، ويلتهبوا الى مصر يشترون الطعام ، فذهبوا ، وهم عشرة ، ولما وصلوا الى مصر دخلوا على يوسف ، وهو في مجلس الولاية ، لأنه كان يشرف على أمر الميرة بنفسه ، فعرفهم وما عرفوه .

(ولما جهزهم بمجهازهم) . بعد أن أعد لهم كل ما حاءاه من أجله ، وما يحتاجون اليه في سفرهم (قال اثوني بأخ لكم من أبيكم) . قال أهل التفسير : ان يوسف أكرم وفادة اخوته ، وأحسن ضيافتهم ، فاطمأنوا اليه ، وحدثوه عن حياتهم وعن أبيهم ، وان لهم אחاً من أبيهم أصغر منهم ، وبعد هذا قال لهم يوسف : اثوني بهذا الأخ الأصغر ، ولا شيء في الآية ولا في غيرها يدل على انهم حدثوه عن أبيهم وأخيه ، أما اكرامه لهم فتدل عليه قرينة الحال وقوله : (ألا ترون اني أوفى الكيل وأنا خير المتزلين) . فإذا جثمتوني بأخبيكم أوفى الكيل له أيضاً ، وأكرمه كما أكرمتكم (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون) .

المعنى واضح ، وبالنسبة نشير الى أن الفقهاء أجمعوا على ان لكل من البائع من المشتري أن يشترط لنفسه ما يشاء على ان لا يخلل شرطه حراماً، ولا يحرم حلالاً، وشرط يوسف على اخوته من هذا النوع .

(قالوا سزاود عنه أباه وانا لفاعلون). أنهم يعلمون بأن أباهم يضمنُ بأخيهم، ولا يأتمنهم عليه بعد فعلتهم بيوسف... ولذا قالوا سزاود أي نجتهد ونتلطف لاقتناع أبيه رغم صعوبة المطلب ومثاله (وقال لفتياته اجعلوا بضاعتهم في رحالهم). أمر يوسف خدمه أن يدسوا بضاعة اخوته التي اشتروا بها الطعام ، يدسوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون .

(لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون) . هذا تعليل لارجاع الثمن الى اخوته ، وان القصد منه ترغيبهم في العودة اليه ثانية ، فانهم اذا فتحوا رحالهم ووجدوا فيها بضاعتهم ، بعثهم ذلك الى الرجوع طمعاً في جوده وكرمه.. وغير بعيد ان من مقاصد يوسف أن يطمئن أبوه، ولا يشغل عليه ارسال أخيه له .

فارسل معنا اخانا الآية ٦٣ - ٦٦ :

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِّعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ
عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا
مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ
بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ
كَيْلُ يَسِيرٍ * قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوُّنَ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتِنِي
بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ *

اللغة :

المراد بالمتاع هنا وعاء الطعام . ونغير أي نجلب الميرة بكسر الميم ، وهي الطعام . والمعاد بكيل البعر حله . وموتقاً أي عهداً . وان يحاط بكم أي ان تغلبوا على أمركم .

الإعراب :

نكمل مجزوم جواباً لأرسل . وحافظاً تمييز ، ويجوز في غير القرآن الجر بالاضافة فنقول : الله خير حافظ ، ونقل الطبرسي عن الزجاج ان حافظاً يجوز أن يكون حالاً ، وهذا خطأ حيث يصير المعنى ان الله ليس بخير الا اذا كان حافظاً .. تعالى الله .. ما نبغي (ما) استفهام في محل نصب مفعولاً مقدماً لنبغي . وتؤتون منصوب بأن بعد حتى ، وأصله تؤتوني بالياء وحذفت تخفيفاً . والمصدر من أن يحاط منصوب على الاستثناء أي حال الاحاطة بكم .

المعنى :

(فلما رجعوا الى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) في المستقبل ، يشيرون بذلك الى ما قاله يوسف لهم : « فلان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي .. » . ثم قالوا لأبيهم : (فأرسل معنا أخانا نكتل وانا له لحافظون) وعدوه بحفظه وصيانته كيلا يضر به عليهم (قال هل آنسكم عليه الا كما أمتكم على أخيه من قبل) الذي فعلتم به ما فعلتم .. ثم انصرف عنهم ، والتجأ الى الله ، وقال : (فاقه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) فأنا أعتمد في صيانة ولدي على حفظ الله ، لا حفظكم ، وهو يرحم ضعفي وشيخوختي . وقيل : ان اسم ولده الأصغر الذي طلبه يوسف كان بنيامين .

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) فأسرعوا الى أبيهم مسرورين و (قالوا يا أبانا ما نبغي) أي ماذا نطلب من عزيز مصر ؟ . وبلي

سورة يوسف

شيء نعتذر له اذا لم نأته بأخيـنا ، وقد أكرمنا بما ترى من رد الثمن ؟ . (هذه بضاعتنا ردت اليـنا) قيل : كانت نعـالاً وجـلوداً ، وقال بعض المفسرين الجـلد : انهم وجدوا بضاعتهم ولم يجدوا قحاً ، وان يوسف لم يعطهم شيئاً ليضطـرهم الى العودة بأخيهم .. وهذا خطأ لأنه يتنافى مع ظاهر القرآن ، وهو قوله : (ألا ترون اني أوفي الكيل وأنا خير المنزـلين) بالاضافة الى ان منع الطعام عن الأهل والأقربـين مع شدة حاجتهم اليه قسوة ولؤم ، ويوسف (ع) أجل وأعظم ، أما قولهم : منع عنا الكيل فالمراد به منع ثانية وفي المستقبل كما أشرنا .

(ونغير أهلكنا) نأتيهم بالميرة ، وهي الطعام (ونحفظ أخانا) من كل مكروه (ونزداد كيل بعير) لأن يوسف كان يعطي للرجل حمل بعير واحد اقتصاداً في الطعام كي ينال منه الجميع ، فإذا صحبوا أخاهم معهم ازدادوا حملاً من الطعام (ذلك كيل يسير) أي ان زيادة الحمل ميسرة مع وجود أخيـنا ، أما بلونه فلا لأن العزيز لا يبيع للرجل إلا حملاً واحداً في هذه الأزمة المجـدبة ..

ورأى يعقوب ان الحاجة ماسة الى الطعام ، لأن ما جاءوا به من مصر أوشك على النفاد ، فاستسلم لضغط الحاجة ، لا لضغط أبنائه ، بالاضافة الى ثقته بالعزيز بعد ان سمع الكثير عنه ، ورأى من صنعه مع أولاده . (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا ان يحاط بكم) . اذن لهم بأخيهم بنيامين على أن يعطوه عهداً أكيداً ان يرجعوه اليه سليماً معافى إلا ان يتزل بهم ما لم يكن في الحساب (فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل) . فأعطوه العهد الذي أراد ، وأكدوا الايمان بأنهم يقدونه بالأرواح ، وعندها قال : الله وحده هو الشاهد على عهدكم هذا ، فان وفيتم جازاكم أحسن الجزاء ، وان غدرتم كافاكم بأشد العقوبات .

لا تدخلوا من باب واحد الآية ٦٧ - ٦٨ :

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ

وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا
كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا
وَأِنَّهُ لَنُو عَلِمَ بِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *

الإعراب :

من شيء (من) زائدة إعراباً وشيء مفعول مطلق لأغني . وفاعل يغني
عنهم ضمير مستتر يعود الى التفريق المفهوم من قوله : أبواب متفرقة . والا
حاجة مفعول من أجله ليغني ، وقيل : نصبت حاجة على الاستثناء المقطع ،
لأن المعنى لكن حاجة .

المعنى :

(وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) . بعد
أن أعطوا أباهم الميثاق المؤكد أذن لهم بصحبة أخيه ، وأوصاهم بوصيته هذه ،
ويظهر منها انه قد كان للمدينة أبواب ، لا باب واحد ، وفي بعض التفسير أنها
كانت أربعة . واختلف المفسرون في الغرض من وصية يعقوب أبناءه ان يدخلوا من أبواب
متفرقة ، وما أتى واحد منهم بما تركز الى النفس .. وقد يكون الغرض أنهم
ان دخلوا مجتمعين ، وهم أحد عشر رجلاً ترامت نحوهم الأنظار ، وكثرت
التساؤلات والاشارات ، أو ان الغرض ان يعرفوا أخبار المدينة ، ويطلعوا على
أحوالها لعلهم يقفون على ما يوميء الى يوسف وأخباره ، ومما يكن فنحن غير
مكلفين بالبحث عن السبب ما دامت الآية لم تشر اليه .. وفي تفسير البحر
المحيط ، ان يعقوب أمر بنيه أن يبلغوا تحياته لعزير مصر ، ويقولوا له : انا

سورة يوسف

أبانا يصلي عليك ، ويدعو لك ، ويشكر صنيعك معنا ، وان يوسف بكى حين سمع هذه الرسالة .. وليس هذا ببعيد عن الموضوع وطبيعته .

(وما اغني عنكم من الله من شيء ان الحكم الا الله) . عند تفسير الآية ٤٠ من هذه السورة ، فقرة « لا حكم الا الله » بينا ان حكمه تعالى يطلق على حلاله وحرامه المبرر عن كل منها بالحكم الشرعي، وأيضاً يطلق على قضائه وقدره الذي لا مفر منه للانسان ، وسياق الآية يدل ان هذا هو المراد بحكم الله هنا ، وعليه يكون المعنى اني حريص عليكم ، ناصح لكم ، ولكن حرصي ونصحي لا يغني عن قضاء الله وقدره .. وغرضه من ذلك أن يبين لأبنائه ان على الانسان ان لا يعتمد على العمل وحده ، ولا على الايمان وحده ، بل عليه أن يعمل ويجتهد متوكلاً على الله ، ومعتقداً بأنه هو الذي يمدّه ويعينه ، ولذا قال : (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) أي أنا مؤمن بالله متوكل عليه ، لا على غيره ، وعلى كل من آمن بالله أن يكون كذلك .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) من الأبواب المتفرقة (ما كان يغني عنهم من الله من شيء) . اسم كان ضمير مستتر يعود الى الدخول المستفاد من قوله : (ولما دخلوا) والمعنى ان أولاد يعقوب دخلوا المدينة من أبواب متفرقة امثالاً لأمر والدهم ، ولكن دخولهم لم يجد نفعاً، ولم يرد بلاء كما قال يعقوب : (وما اغني عنكم من الله من شيء) ، حيث اتهموا بالسرقة ، وأخذ منهم بنيامين ، ورجعوا الى أبيهم منكسرين كما يأتي . (الا حاجة في نفس يعقوب قضاها) . اختلف المفسرون في تحديد هذه الحاجة التي قضاها الله ليعقوب ، فمن قائل : ان لا يصاب أولاده بالعين عند دخولهم الى مصر . وقائل : ان لا ينالهم العزيز بسوء الخ .. والذي نراه - استناداً الى طبيعة الحال ، والى الآيات الدالة على حرصه ولطفه على يوسف وأخيه - ان الحاجة الأولى والأخيرة ليعقوب من هذه الحياة كانت سلامة يوسف وأخيه ، واجتماعهما بهما قرير العين، وقد آتم الله له ما أراد على أحسن حال .

(وانه لنر علم لما علمناه) . ضمير انه وعلمناه يعودان الى يعقوب . وهو نبي ، وكل نبي يؤديه الله بأدابه ، ويعلمه من لدنه علماً ، ومن تأدب يعقوب

الجزء الثالث عشر

بآداب الله صبره على البلاء ، وتوكله على الله ، وعدم يأسه من رحمته ، ومن علمه مما علمه الله إيمانه بأن فوق تدبير العباد لله تدبيراً (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ان الحكم لله ، وان تدبيرهم من غير عناية الله وتوفيقه لا يجديهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضرراً .

انا أخوك فلا تبشس الآية ٦٩ - ٧٦ :

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنُ مُوَذَّنٌ مُبْتَلًى أَلَيْسَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْنَاهُمْ مَآذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ خِلٌ بِعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنْتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاہ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاہ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ *

اللفظ :

آوى إليه أخاه ضمه إليه، ولا تبشس أي لا تحزن مأخوذ من البؤس. والسقاية :

سورة يوسف

وعاء يُسقى به ، والمراد بها هنا الصواع بدليل قوله : نفقد صواع الملك .
والصواع والصاع بمعنى واحد ، وهو المكيال . والعير الابل . وزعيم كخيل .

الإعراب :

تالله النساء للقسم مثل الواو ، ولكنها تختص باسم الله ، فلا يقال تالرحمن
وتالقرآن . وجزاؤه مبتدأ ، ومن وجد خبر أي جزاؤه استبعاد من وجد في رحله .
والمصدر من ان يشاء مجرور بالباء المحذوفة أي الا بمشيئة الله . ودرجات مجرورة
يلى محذوفة .

المعنى :

(ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال اني انا أخوك فلا تبتش بما
كانوا يعملون) . ذكر أهل التفسير، ومنهم الطبري والرازي والطبرسي وأبو حيان
الأندلسي ، ذكروا في شرح هذه الآية تفصيلات لا دليل عليها من القرآن ،
ولا هي من خصائص الواقعة التي لا تنفك عنها ، ولكنها ثلاثها وتناسبها، ومن
أجل هذا نلخص أقوالهم بأن اخوة يوسف لما وصلوا الى مصر دعاهم الى طعامه،
وأجلسهم مثنى مثنى لغاية أرادها ، وهي ان يبقى أخوه بنيامين وحيداً ليجلسه
معه على مائدته ، تماماً كما آخى الرسول الأعظم (ص) بين أصحابه مثنى مثنى ،
وابقى علياً لنفسه ، وبعد الطعام أنزل يوسف كل اثنين من اخوته في حجرة ،
وبات أخوه بنيامين معه في حجرته ، وعندما اختلى به قال له : أتعجب ان اكون
أخاك ؟ فأجابه : ومن يجد أخاً مثلك ؟ . ولكن لم يملك يعقوب ، ولا راحيل ،
وراحيل هي أم يوسف وبنيامين ، فأنقذ وقال : أجل ، لقد ولدني يعقوب
وراحيل ، فأنا أخوك ، ولا تخزن بما كان من اخوتك معي ومعك .. ففرح
بنيامين للمفاجأة السارة ، وحمد الله .

(فلما جهزهم بمهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم اذن مؤذن ابتها العير
انكم لاسرقون) . أراد يوسف أن يفصل بنيامين عن اخوته ، ويبقيه عنده ،

الجزء الثالث عشر

ولم يكن ذلك ممكناً إلا بمجرد ، وكان من شريعة آل يعقوب استرقاق السارق ،
فدس غلمان يوسف بأمرٍ منه المكيال في رحل أخيه بنيامين ، ثم نادى المنادي في
أولاد يعقوب: يا اصحاب العبر انكم سارقون ، فلا ترحلوا حتى ننظر في أمركم .
فدهش أولاد يعقوب لهذه المفاجأة العنيفة (قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون) .
قالوا هذا وهم على يقين من برائتهم .. وهذه هي المرة الأولى التي يسمعون فيها
مثل هذه التهمة . (قالوا - اي غلمان يوسف - نفقد صواع الملك ولمن جاء به
حل بعير وأنا به زعيم) . وهذا الضامن هو الذي قال : أيتها العبر انكم لسارقون
على عهدة المفسرين ، وضمن بشرط ان يُرجع السارق المكيال من تلقاء نفسه ،
وهذه الآية تدخل في بابين من أبواب الفقه : الجمالة والضمان ، والجمالة هي
الالتزام بمال معين لقاء عمل معين لأي عامل كان كقولك : من فعل كذا فله
كيت . والضمان هو التعهد بالوفاء كقول المنادي : وأبا به زعيم أي ضامن للوفاء
بحمل البعير من القمح ، وفي الحديث : « الزعيم غارم » .

(قالوا - أي اولاد يعقوب - تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما
كنا سارقين) . ناقشوا وجادلوا وأقاموا الدليل على برائتهم ونزاهتهم ، وقالوا
فيما قالوا: كيف تتهموننا بالسرقة ، وقد علمتم من نسبنا وسيرتنا في السفرة الأولى
والثانية أننا لم نأت إلى هذا البلد للخيانة والفساد ، وإنما لنشتري الطعام لأهلنا ..
وفي كثير من التفاسير ان اولاد يعقوب لما وجدوا بضاعتهم في رحلهم بعد عودتهم
إلى أهلهم في السفرة الأولى ظنوا أنها وضعت فيه سهواً ، فلم يستحلوها ، بل
حلوها من بلدهم إلى مصر وارجعوها إلى العزيز ، واشتهر ذلك عنهم ، حتى
عرّفوا بالأمانة والصلاح .. وهذا الذي ذكره المفسرون غير بعيد ، بل إليه يومئ
قول أولاد يعقوب : (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض) .

وتسأل كيف استحل يوسف ان يدس المكيال في وعاء أخيه ، ويوجه التهمة
لاخوته ، مع علمه ببرائتهم ؟.

الجواب : أولاً ان هذه واقعة خاصة ، ولها ظروفها ومبرراتها الخاصة ، فلا
يجوز القياس عليها ، ولا النقض بها .. ثانياً : ان المقصود الأول بتهمة السرقة
هو بنيامين أخو يوسف لأمه وأبيه ، وقد جرى ذلك برضا منه ، والاتفاق معه

سورة يوسف

الحكمة اقتضت ذلك ، وهي في نفس الوقت لا تخالف أصلاً من أصول الشريعة ، كتحليل الحرام ، أو تحريم الحلال .. هذا ، الى ان احتيال أولاد يعقوب على أبيهم لانتزاع ولده يوسف منه ، والغدر به ، وإلقاءه في الجب بقصد القتل في أبشع صورة ، ان هذا سرقة وزيادة .

سؤال ثانٍ : كيف استباح يوسف أن يحول بين أخيه وأبيه ، ويزيده كرباً على كربه ؟.

الجواب : ان كل ما فعله يوسف كان لمصلحة أخيه وأبيه ، وهو على يقين بأن أباه يقره، بل ويشكره عليه متى اطلع على الحقيقة .. وقد حدث ذلك بالفعل . وبدية ان الأمور تقاس بعواقبها لا بأسلوبها ، وفي سائر الأحوال فإن الأنبياء لا يُتهمون في جانب الحق .

(قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين) . ضمير قالوا يعود الى غلمان يوسف ، وضمير جزاؤه الى السارق ، والخطاب في كنتم لأولاد يعقوب ، والغرض من هذا السؤال انتزاع الاعتراف منهم بأن السارق يؤخذ عبداً أو أسيراً جزاء على فعله .. ليكون هذا الاعتراف حجة عليهم اذا أخذ يوسف أخاه ، وضمه اليه . (قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين) . فهو جزاؤه زيادة في الايضاح ، تماماً كما تقول : جزاء القاتل القتل فهو جزاؤه .. أجباب اخوة يوسف : من وجدتم الصاع في وعائه فخلوه أسيراً او عبداً ، وهذا هو شرعنا في عقوبة السارقين ، ونحن على يقين من براءتنا ، وطهارة اعراقنا .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه) . بدأ المفتش بأوعيتهم تغطية للحيلة ، حتى اذا انتهى الى وعاء بنيامين استخرج المكيال منه ، وأشهره في وجوههم . وصُنع ابنساء يعقوب لهذه المفاجأة العنيفة .. ولكن أين هذه مما قاساه يوسف في ظلمات الجب وحيداً فريداً ؟.

(كذلك كدنا ليوسف) . اي اوحينا اليه بهذا التدبير ليقول اخوته من تلقائهم : ان للعزيز ان يأخذ أخاهم أسيراً او عبداً ، وسمى هذا كيداً لأن ظاهره غير واقعه، وجاز شرعاً لأنه لا يحلل حراماً ، ولا يحرم حلالاً . (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) المراد بالملك ملك مصر، وبدينه شرعه وقضاؤه، والمعنى لولا هذا

الجزء الثالث عشر

التدبير لتعذر على يوسف ان يضم أخاه اليه. ذلك بأن من شرع ملك مصر وقضائه ان لا يعاقب السارق بالأسر او الاسترقاق ، بل بعقوبة أخرى كالسجن أو الضرب ويوسف لا يريد المكروه لأخيه ، فأوحى الله اليه بهذا التدبير وهو المقصود بقوله تعالى : (الا ان يشاء الله) .

والخلاصة ان الحكمة اقتضت ان لا يقول يوسف : هذا أخي ، ولا ان يأخذه بغير مبرر ، ولو ظاهراً ، وكان من شريعة آل يعقوب أن يسرق السارق ، ومن شريعة الملك وأهل مصر ان يُسجن أو يُضرب ، فاتخذ يوسف هذا التدبير الذي أوحاه الله اليه ليلزم اخوته بما ألزموا به انفسهم . (نرفع درجات من نشاء) بالعلم والنبوة ، كما رفعنا يوسف على اخوته . (وفوق كل ذي علم عليم) حتى ينتهي الى العلي الأعلى . وفيه إيماء الى ان اخوة يوسف كانوا علماء ، ولكن يوسف اعلم واكمل .

ان يسرق فقد سرق اخ الآية ٧٧ - ٨٠ :

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ * فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ *

اللفظ :

استأسأوا ويشوا بمعنى واحد . وخلصوا انفردوا عن الناس . ونجياً أي متناجين متشاورين . وموثقاً أي عهداً . وفرطتم قصرتم . فلن ابرح لن افارق .

الإعراب :

ضمير اسرها يعود الى مقاتلهم انه سرق . ومكاناً تمييز . واباً اسم ان وشيخاً كبيراً صفة ، وله خبر ان . ومكانه ظرف منصوب بخذ . ومعاذ الله منصوب على المصدرية ، والمصدر من ان تأخذ مجرور بمن محذوف ، والمصدر المجرور متعلق بمعاذ الله . وإذا فيها معنى الجزاء اي ان أخذنا غيره فنحن ظالمون . ومن قبل متعلق بفرطتم وما في (ما قرطتم) زائدة اعراباً . ويأذن مضارع منصوب بأن بعد حتى . أو يحكم عطف على يأذن .

المعنى :

(قالوا ان يسرق فقد سرق له أخ من قبل) . ضمير قالوا يعود الى اخوة يوسف ، وضمير يسرق الى أخيه بنيامين ، أما المقصود بأخ له فهو يوسف بالذات .. وكل ما دلت عليه الآية ان اخوة يوسف ألصقوا تهمة السرقة به ، ولا اشارة فيها ولا في غيرها من الآيات الى ان يوسف سرق في طفولته بيضة أو دجاجة أو صنماً لجلده أبي أمه أو منطقة لعمته أو غير ذلك .. ولكن القرآن سجل صراحة الكذب على اخوة يوسف في قولهم : أكله الذئب ، بالاضافة الى حقدهم الذي دفع بهم الى فعل ما فعلوا .. وعلى هذا يسوغ لنا ان نقول : انهم كانوا كاذبين في نسبة السرقة الى يوسف حين طفولته ، وانها من عندياتهم ، وقولنا هذا وان كان مجرد استنتاج فإن فيه شيئاً من المنطق ، أو هو احتمال غير بعيد - على الأقل - .

واخذ المفسرون بقول اخوة يوسف أخذ المسلمات ، حتى كأن الكذب مستحيل .

الجزء الثالث عشر

في حقهم ، وراحوا يبحثون عن الشيء الذي سرقه يوسف ، فن قائل : انه
يضئ سرقها وأعطاها للجائع ، وقائل : بل دجاجة ، وقال ثالث : سرق صنماً
لجلده أبى أمه وكسره ، وذهب رابع الى ان عته بنت اسحق كانت تحضنه
صغيراً ، ولما شب أراد ابوه ان ينتزعه منها ، فأنتمته بسرقة منطقة أبيها اسحق
- وهي ما يُشد به الوسط - ليقبى عندها عبداً ، لأن عقوبة السارق كانت
الاستعباد ، وعلى هذا اكثر المفسرين ، وغريباً ان لا يتنبه واحد منهم الى ان
حكم الأطفال في جميع الشرائع غير حكم الكبار.. وأغرب منه قول بعض الصوفيين:
ان أولاد يعقوب أرادوا بتهمة السرقة ان يوسف سرق منهم قلب أبيهم .
(فأسرهما يوسف في نفسه ولم ييدها لهم) . تجاهل مقاتلهم حلاً وكرماً ،
كما قال الشاعر :

ولقد أمر على اللثم يسبني فأعف ثم أقول لا يعنيني

(قال أنتم شر مكاناً) . قال هذا في سره بدليل قوله تعالى: « ولم ييدها لهم » .
(والله أعلم بما تصفون) من نسبة السرقة إليّ وإلى أخي ، وأنها محض افتراء .
(قالوا يا أيها العزيز ان له أباً شيخاً كبيراً فخذ احداً مكانه انا نراك من
المحسنين) . بعد ان أصبحوا تجاه الأمر الواقع، وان العدل عندهم يقضي باسترقاق
أخيهم بنيامين التجأوا الى التماس الرحمة بالعفو والصفح ، او أخذ الفداء والبدل ،
وان يختار العزيز واحداً منهم ، وهم عشرة بين يديه ، طلبوا هذا وألحوا في
الطلب ، وتشفعوا اليه ببره وصلاحه ، وبشيخوخة أبيهم ، وعظيم منزلته وقدرته ،
وبضعفه وشغفه بولده بنيامين ، فعلوا هذا وأكثر منه لا حباً بأخيهم ، بل لتخلصاً
من أبيهم ومسؤولية العهد الذي أخذه عليهم .

(قال معاذ الله ان نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا اإذا لظالمون) . رفض
يوسف طلبهم ورجاءهم، وأصر على اخذ أخيه لأمرٍ اراد الله ان يتمه بعد الامتحان
والبلى .. وتجدر الإشارة الى أن يوسف عبّر أدق تعبير وأحكمه عن براءة اخيه
من السرقة في قوله : « من وجدنا متاعنا عنده » حيث فهم منه اخوة يوسف
من سرق متاعنا، والمقصود منه من استخرجنا متاعنا من وعائه، والفرق بعيد بينها .

(فلما استياسوا منه خلصوا نجياً) . بعد ان يش أولاد يعقوب من تخليص اخيهم اعتزلوا الناس يتشاورون فيما يعتنرون لأبيهم (قال كبيرهم ألم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقاً من الله) قال بعض المفسرين : المراد كبيرهم عقلاً ، لا سناً . وقال آخرون : بل سناً وعقلاً ، وهذا هو المتبادر إلى الأذهان ، ومهما يكن فان هذا الكبير قال لاختوته : ان اباكم قد اخذ عليكم عهداً ، واستحلفكم ان تأتوه بأخيكم ، فاذا تقولون له إذا أتتم اليه من دونه ؟ . (ومن قبل ما فرطتم في يوسف) يشير الى القائهم اياه في الحب ، وما قاساه أبوه من نتيجة لذلك .

(فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) . قرر كبيرهم أن يبقى في جوار أخيه حياء وخجلاً من أبيه، وان لا يبرح الأرض التي فيها بنيامين الا بإذن من أبيه ، أو بفرج من الله بأي نحو شاء، ولو بالموت . وما طال الأمد ، حتى جاء الفرج ، وانكشف الكرب عن الجميع ، وبأني التفصيل .

وما شهدنا الا بما علمنا الآية ٨١ - ٨٧ :

أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ

مَا لَا تَعْلَمُونَ* يَا بَنِي آدَمَ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا
تَيَاسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَنَاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ*

الغلة :

سَوَّلَ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَي زَيْت . وَايِضْتُ عَيْنَاهُ كِتَابَةٌ عَنْ كَثْرَةِ الْبُكَاءِ ،
وَقِيلَ : أَصَابَ عَيْنِيهِ غَشَاوَةٌ بِيضَاءُ غَطَّتْ عَلَى الْبَصَرِ . وَالْكُظْمُ تَجَرُّعُ الْغَيْظِ وَامْسَاكُهُ
فِي الْقَلْبِ . وَالْحَرَضُ الْمَشْرِفُ عَلَى الْهَلَاكِ ، وَهُوَ لَا يَجْمَعُ وَلَا يَنْفِي لِأَنَّهُ مُصَدِّرٌ .
وَبَثَ الْخَبَرَ أَظْهَرَهُ وَأَذَاعَهُ ، وَالْمُرَادُ بِالْبَثِّ هُنَا الْهَمُّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ صَاحِبُهُ عَلَى
كَمَائِهِ فِيهِ . وَالتَّحَسُّسُ طَلَبُ الشَّيْءِ بِالْحَوَاسِّ كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ .

الإعراب :

وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ أَيِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ وَأَقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ .
وَالْعَبْرَ أَيِ وَاسْأَلِ أَهْلَ الْعَبْرِ . وَصَبَرَ خَبَرَ لِمَبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ ، وَجَمِيلٌ صِفَةٌ لَصَبَرَ
أَيِ فَأَمْرِي صَبَرَ جَمِيلٌ . وَعَسَى اللَّهُ لَفْظُ الْجَلَالَةِ فَاعِلٌ عَسَى ، وَالْمُصَدِّرُ مِنْ أَنَّ
يَأْتِي بِمَجْرُورٍ بِالْبَاءِ الْمَحذُوفَةِ أَيِ عَسَى اللَّهُ بِأَنْ يَأْتِي ، قَالَ ابْنُ النَّازِمِ فِي « شَرْحِ
الْإِلْفِيَةِ » : « وَالْحَقُّ إِنْ أَفْعَالِ الْمَقَارِبَةِ مُلْحَقَةٌ بِكَانَ إِذَا لَمْ يَقْتَرَنَّ الْفِعْلُ بَعْدَهَا
بِأَنْ ، أَمَا إِذَا اقْتَرَنَ بِهَا فَلَا » . وَجَمِيعاً حَالٌ . وَيَا أَصْفَا أَصْلُهَا يَا أَصْفَى ، ثُمَّ
أَبْدَلَتْ الْبَاءَ أَلْفًا ، وَالْأَسْفُ هُنَا مُنَادَى أَيِ احْضُرْ أَيُّهَا الْأَسْفُ . وَقِيلَ : يَجُوزُ أَنْ
تَكُونَ الْأَلْفُ فِي يَا أَصْفَا أَلْفَ التَّنْبِيَةِ . وَتَفْتَأُ أَيِ لَا تَفْتَأُ ، وَحُذِفَتْ (لَا) لِلْعَمَلِ
بِهَا . وَجُمْلَةٌ تَذَكَّرُ خَبَرَ تَفْتَأُ . وَتَكُونُ مَنْصُوبٌ بِأَنْ بَعْدَ حَتَّى ، أَوْ تَكُونُ عَطْفٌ
عَلَى تَكُونُ الْأُولَى .

المعنى :

(ارجعوا الى أبيكم فقولوا يا أبانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) . هذا قول كبيرهم ، فهو يوصي اخوته ان لا يقولوا لأبيهم الا الحق ، وذلك بأن يخبروه بأنهم رأوا غلمان العزيز يستخرجون مكيال الملك من وعاء بنيامين ، وان العزيز أصر على أخذه .. هذا ما شاهدناه ، والله أعلم بما وراء ذلك ، ولو علمنا الغيب ما سألناك ان تسمح لنا به ، ولا اعطيناك العهد بأن نرجعه اليك ، وقد بذلنا المجهود ، واعذرنا الى الله واليك .

(واسأل القرية التي كنا فيها) أي اسأل أهل مصر ، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة (والعر التي أقبلنا فيها) واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معها من مصر ، فقد رأت ما رأينا ، وهي الى جوارك في أرض كنعان (وانا لصادقون) فيما اخبرناك ، وهم في هذه المرة يتكلمون بثقة وجرأة لأنهم على يقين من صدقهم على العكس من موقفهم الأول مع أبيهم حين أتوه بدم كذب على قيص يوسف .

(قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً) . لما رجعوا الى أبيهم وأخبروه بما حدث قال : كلا ، بل زينت لكم أنفسكم الكيد لولدي ، كما فعلتم من قبل بأخيه يوسف . وتساءل المفسرون : كيف اتهم يعقوب بنيه بالكيد قبل ان يثبت من الحقيقة ، وهو نبي معصوم ؟ . ثم أجابوا بوجوه لا تستند الى أساس ، وأحسن الوجوه التي ذكروها على ما فيه - ان مراد يعقوب أن أنفسكم صورت لكم ان بنيامين سارق ، وما هو بسارق .. وفي رأينا ان يعقوب اتهمهم بالكيد قياساً على صنيعهم مع يوسف ، ولكنه لم يجزم بقول قاطع لعدم الدليل على كذبهم ، وأيضاً لم يأخذهم بالظن من حيث العقوبة لأن الظن لا يغني عن الحق شيئاً .. وهذا لا يتنافى مع مقام النبوة ، لأن النبي لا يعلم الغيب ، وهو كأني انسان يحتمل ويظن ، والفرق بينه وبين غيره انه لا يرتب أثراً على ظنه كما يفعل غير المعصوم .

(فصبر جميل) قال هذا حين غاب عنه بنيامين ، ومن قبل قال حين غاب يوسف : (والله المستعان على ما تصفون) . هذا هو شعار الصالحين ، يحزنون ،

الجزء الثالث عشر

وهم في جميع الحالات على الله متوكلون. كما قال سيد الأنبياء وخاتم الرسل (ص):
تدمع العين ، ويحزن القلب، ولا نقول الا ما يرضي ربنا . (عسى الله ان يأتيني
بهم جميعاً) . وهم يوسف وبنيامين ، والأخ الثالث الذي بقي بجوار أخيه في
مصر .. وفي كلمة عسى شعاع من الأمل ، وبالخصوص اذا كانت ممن يؤمن
بالغيب ايمانه بالواقع الملموس كالأنبياء والصديقين ، وفي نهج البلاغة : « لا يصدق
ايمان عبد ، حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده » . وفي هذا المعنى
كثير من الأحاديث (انه هو العليم الحكيم) يعلم حزني وألمي، ويدبر الأمور على
حكيمته .

(وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف) . اعتزل الناس ليندب وحده من
لن ينساه أبداً . يندبه بهذه الصرخة الحزينة : (يا أسفا على يوسف) وزاده
فراق ولده بنيامين حزناً على حزن، وبكاء على بكاء (وابيضت عيناه من الحزن).
أصيبنا بالقرحة من آثار البكاء ، فهو يتنفس منها بالدموع، كما يتنفس من رثيته
بالآهات والحسرات (فهو كظيم) يتجرع الغبط ويتجلد ، ولكن على حساب
جسمه وأعصابه .

(قالوا تالله نفثا تذكر يوسف حتى تكون حرصاً او تكون من الهالكين)
أي الميتين ، والحرص المرض أو المريض الذي لا ينتفع بنفسه ، والمعنى ان أولاد
يعقوب قالوا له : لا تزال تلهج بذكر يوسف ، حتى تمرض او تموت بلا جدوى
لأن يوسف ذهب ولن يعود (قال إنما اشكو بئى وحزني الى الله) لا اليكم لأن
الشكوى لمن لا يدفع ضرراً ، ولا يجلب نفعاً ذل وسفه . قال الإمام علي (ع) :
« الله الله ان تشكو الى من لا يشكي شجوكم - أي يزيل الشكوى - ولا ينقص
برأيه ما قد أبرم لكم » ..

(واعلم من الله ما لا تعلمون) . نكب يعقوب ، وابتلي بفراق يوسف ،
ولكنه في الوقت نفسه يحسن الظن بالله ، ويثق به ، ولا ييأس من رحمته ، ويؤمن
بأن عاقبة الصبر الفرج ، كما دل قوله لبنيه : « ولا تيأسوا من روح الله »
واذا عطفنا نفثته بالله على رؤيا يوسف في صغره جاءت النتيجة ان يعقوب مطمئن
على حياة يوسف الى حد كبير ، ولكنه لا يعلم أين هو ؟. وكيف حاله ؟.

وهل يعيش في عبودية او في حرية ٩. ومن هنا كان حزنه وقلقه .

لا تفاؤل ولا تشاؤم :

(يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله انه لا يأس من روح الله - اي فرجه - الا القوم الكافرون) . اذهبوا وتحسبوا ولا تيأسوا ، قرن الأمل بالعمل ، ومعنى هذا انه اذا انتفى العمل انعكست الآية ، واقرن اليأس بالكسل ، وصحت القاعدة طرداً وعكساً . وكان الأمل والرجاء مع الاهدال جهلاً وسفهاً .. وكلمة تحسبوا توحى بوجود العمل بكل الحواس ظاهرها وباطنها .. وهكذا العاقل اذا نزلت به نازلة دفعت به الى الكفاح والنضال للقضاء على أسبابها ، سواء أكانت هذه الأسباب هي الأوضاع الفاسدة ، أم كان السبب يكمن في نفس الانسان كالتقصير واللامبالاة ، وإذا أصابته حسنة - أي العاقل - خاف من ضربات الدهر وغائلته ، وتحصن بتقوى الله وطاعته ، ولا يظفبه غنى ، ولا يبطره جناه ، قال تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - ٩٩ الأعراف » .

ونخلص من هذا الى ان المتشاؤم الذي يقول : لا جدوى من العمل هو الشؤم بالذات ، ومثله المتفاؤل مع الكسل وترك العمل .. والانسان السوي من كان بين بين ، يعمل ويناضل عند الشدة ، ولا ييأس من روح الله وفرجه ، ويخاف ويحذر عند الرخاء ، ولا يأمن مكر الله وبأسه .

انا يوسف الآية ٨٨ - ٩٣ :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعٍ مُزْتَجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ * قَالُوا

أَلَيْسَ لَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ
مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ
آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ
اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ
أَبِي يَأْتِ بِصِيرٍ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ *

اللغة :

المрад بالضر هنا المجاعة . والبضاعة المزجاة الرديئة أو القليلة ، ويقال : أزجى
الشيء إذا دفعه برفق ، ومنه قوله تعالى : « ان الله يزجي سحاباً » . وآثرك
اختارك وفضلك . وخاطئين جمع خاطيء ، وقيل : الفرق بين الخاطيء والمخطيء
ان الأول يعتمد الخطيئة ، والثاني يريد الصواب فيخطئه . والتثريب التعنيف والعقوبة ،
يقال : ثرّب فلان على فلان اذا عدد ذنوبه عليه .

الإعراب :

هل علمتم استفهام ومعناه التقرير أي ما اعظم ما ارتكبتم . وما فعلتم (ما)
استفهام والمعنى أي شيء فعلتم ، وعملها الرفع بالابتداء ، وجملة فعلتم خبر ،
وعلمتم معلقة عن العمل لفظاً لمكان الاستفهام وعاملة معنى " لأن الجملة من المبتدأ
والخبر محلها النصب بفعلتم . لأنت يوسف اللام للابتداء وأنت ضمير فصل ويوسف
خبر لانتك ، ويجوز ان يكون أنت مبتدأ ويوسف خبر ، والجملة خبر ان .
لا تثريب (لا) نافية للجنس وتثريب اسمها وهو مبني على الفتح لأنه مفرد ،
وعليكم متعلق بمحذوف خبراً للا ، واليوم متعلق بما تعلق به الخبر . ويأت

سورة يوسف

يجزوم بحجاب الطلب ، وهو القوة ، وبصبراً حال من أبي ، وأجمعين
حال من لأهلكم .

المعنى :

(فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة
فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين) أوصى يعقوب بنيه أن
يعودوا الى مصر ، فقبلوا منه ، وعادوا اليها مرة ثالثة .. ودخلوا على العزيز
منكسرين مسترحين ، وبدأوا بالشكوى من الجهد والمجاعة .. مسنا وأهلنا الضر..
تصدق علينا .. ان الله يحب المتصدقين .. واذا جئناك ببضاعة لا تليق فلأن الدر
غير مؤات .. قالوا هذا ، وهم أحفاد ابراهيم الخليل (ع) ، ولكن الشدة بلغت
غايتها .. وجاءت النتيجة فوق ما يتصورون ، وهذه هي :

(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه اذ أنتم جاهلون) . بعد ان استمع
يوسف لاستعطاف اخوته وتضرعهم ، وعرف بؤس أهله وحاجتهم رقّ وتغلبت
عليه عاطفة الرحم وقرباة الدم ، وقال لهم معاتباً أو واعظاً : أتذكرون يوماً
استجبتم فيه لدعوة الشيطان ؛ فالقيتم بأخيكم يوسف في غيابة الجب ، وأذقم أخاه
بنيامين من بعده صنوف الأذى ؟ ألم تقولوا بالأمس القريب : ان يسرق فقد
سرق اخ له من قبل ؟ وهل يفعل الجاهل أكثر من فعلكم هذا ؟ .

(قالوا أثنتك لأنت يوسف) . وللمفسرين هنا كلام لا يتحملة لفظ الآية ،
ولكنه يتفق مع طبيعة الموضوع ، ويساعد الاعتبار عليه ، وملخصه ان اخوة
يوسف حين قال لهم ما قال تذكروا ما كانوا يعرفونه من ملامح وجهه ، ونبرات
صوته ، واشارات يده .. ومهما يكن فقد التمع في خاطرهم أو خاطر بعضهم انه
يوسف (قالوا أثنتك لأنت يوسف) . قالوا هذا وانتظروا الجواب ، فكانت
المفاجأة التي لا تخطر على بال (قال أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا)..
وأريد من القارئ أن يقف هنا قليلاً ، ويقارن بين موقفهم هذا الضعيف الذليل ،
وبين موقفهم يوم ألقوا يوسف في الجب ، لا يأخذهم فيه دين ولا رحم .. ولا

عجب (انه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ذنباً وآخرة ، والمراد بالمحسنين هنا الذين عملوا وثابروا وصبروا على الصعوبات ، وقد يهزمهم المسيئون الأشرار مرة أو مرات ، ولكن العاقبة للمتقين ، والشواهد على ذلك لا تقع تحت حصر من عهد النمرود الى عهد هتلر .. وقد ابتليت الانسانية اليوم بالصهيونية المتجسمة باسرائيل ، وبالاستعمار الجديده بقيادة الولايات المتحدة أعنى عتاة الشر والفساد في هذا العصر.. ولسنا نشك اطلاقاً في ان مصير الاثنين هو مصير كل طاغ وباغ سابق ولاحق .. ولا نقول هذا للمجرد التعبير عما نحب ونرغب .. كلا ، فإنه منطقي طبيعي لتطور الحياة والتاريخ .. ان للحق أهلاً يطالبون به ، ويضحون من اجله ، وان للخير قوى تنصره وتؤازره ، وستحده في يوم من الأيام ضد الظلم والطغيان ، وتدور الدائرة على اهله وانصاره .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين) . اعترفوا بأن الله فضله عليهم علماً وعقلاً ، وكمالاً وجلالاً ، واخيراً بالجاه والسلطان .. واقروا بالذنب ، وطلبوا العفو والصفح ، ويوسف كريم وابن كريم ولذا (قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) عفى يوسف عما مضى بلا تعنيف وتأنيب ، ودعا الله ان يغفر لهم ما فرط منهم (وهو ارحم الراحمين) لمن تاب وأتاب . وفي نهج البلاغة ، « لا يشغله غضب عن رحمة ، ولا تلهه رحمة عن عقاب » وتواتر عن النبي الأعظم (ص) انه حين فتح مكة قال لقريش : ما تظنون اني فاعل بكم ؟ قالوا : نظن خيراً ، اخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم كما قال اخي يوسف .

(اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين) . وتعود بنا هذه الآية الى الآية ١٧ وهي : « قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب .. وجاموا على قيصه بدم كذب.. » . نعود الى هذه الآية لتقارن بين القميص الأول والقميص الثاني ، فالأول جر على يعقوب البلاء والأدواء ، أما الثاني ففيه الشفاء والهناء ، وتقارن ايضاً بين موقف ابنائه حين جاموه بالقميص الأول معزين ، وموقفهم حين أتوه بالثاني مهتين . واذا سأل سائل : كيف يكون إلقاء القميص على البصر سبباً لشفائه ؟ أجبتنا

سورة يوسف

بأنه لا نجد تفسيراً لذلك الا المعجزة الخارقة ، تماماً ككار ابراهيم ، وعصا موسى ، وكلام عيسى في المهد ، فهؤلاء أنبياء ، ويوسف وابوه نبيان .

اني لاجد ربح يوسف الآية ٩٤ - ٩٨ :

وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنُ
تَفْنُدُونَ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ
أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ *
قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *

اللغة :

فصلت العير تجاوزت المكان الذي كانت فيه . والفند ضعف الرأي والمراد
تسفهون رأيي وتقولون قد خرف من الكبر . وفي ضلالك أي خطئك .

الإعراب :

لولا حرف امتناع ، والمصدر من ان تفندون مبتدأ والخبر محذوف . وجواب
لولا محذوف ايضاً اي لولا تفنيذك حاصل لصدقتموني . فلما ان جاء (ان)
زائدة اعراباً .

المعنى :

(ولما فصلت العبر قال أبوهم اني لأجد ريح يوسف لولا ان تفنلون) . فصلت العبر اي تحركت من المكان الذي كانت فيه ، وهو مصر ، وانجحت الى أرض كنعان حيث يسكن يعقوب : وتفندون تنسبونني الى الفند ، وهو الحرف .. وظاهر الآية يدل على ان يعقوب شم رائحة القميص من مكان بعيد ، وبمجرد ان تحرك الركب من مكانه ، وقبل ان يتجاوز أرض مصر ، مع ان المسافة بين يعقوب وحامل القميص كانت مسيرة ثمانية أيام ، وقيل : عشرة .. وأبقى المفسرون اللفظ على ظاهره ، وقالوا : ان يعقوب وجد ريح القميص حقيقة على الرغم من بعد المسافة عنه ، واعتبروا ذلك معجزة خص الله بها يعقوب .

وغير بعيد أن يكون الريح كتابة عن الحدس المصيب الذي يقع للانسان في بعض الأحيان بخاصة لأهل القلوب الطيبة الصافية ، وان يعقوب قد أحس قلبه بدنو اللقاء ، فعبر عنه بريح يوسف ، ويرجح ارادة هذا المعنى ان اليأس من لقاء يوسف ما خامر قلب يعقوب لحظة واحدة ، ويشهد على ذلك قوله : فتحسوا من يوسف وأخيه . وقوله : عسى أن يأتيني بهم جميعاً . وقوله ليوسف : يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك .. وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك . وقوله : اني اعلم من الله ما لا تعلمون .

(قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم) . ضمير قالوا يعود الى من كان حاضراً في مجلس يعقوب حين قال : أجد ريح يوسف ، والمعنى ان الذين حضروا مجلس يعقوب قالوا له : أنت مخطيء في إصرارك وانتظارك يوسف الذي ذهب كما ذهب غيره من الأموات . (فلما ان جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً) .. وما كان يعقوب مخطئاً في حدسه ، فلقد جاء البشير يحمل قميص يوسف ، وما ان مس وجه يعقوب ، حتى عادت اليه نعمة البصر ، وسعادة الحياة ، وقيل : ان الذي حل هذا القميص هو الذي حل القميص الملطخ بدم كذب قبل أربعين سنة ، ليمحو السيئة بالحسنة ، وأيضاً قيل لا عجب ان يرتد بصير يعقوب بمجرد البشري فكثيراً ما شفى السرور والفرح من الأمراض ، وتجارب الطب شاهد صدق على ذلك . (قال ألم أقل لكم اني أعلم من الله ما لا تعلمون) . يشير الى قوله في الآية

٨٦ : « قال انما أشكو بثي وحزني الى الله واعلم من الله ما لا تعلمون » وقد مر شرحها .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين) . ندم اخوة يوسف على فعلتهم ، وتابوا من خطيئتهم ، وسألوا أباهم ان يدعو الى الله ان يقبل منهم التوبة ، ويغفر لهم الذنب ، وشرطوا على أنفسهم ان لا يعودوا الى معصية . (قال سوف استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم) . قال بعض المفسرين الجدد : « ان كلمة سوف لا تخلو من الاشارة الى قلب انسان مكلم » . يريد أن قلب يعقوب ما زال فيه شيء على بنيه رغم توبتهم وطلبهم المغفرة .. وهذا اشتباه وقياس لقلوب الأنبياء على قلوب سائر الناس ، والصحيح ان يعقوب أرجأ الدعاء لهم بقبول التوبة الى خلوته وانقطاعه الى ربه في الظلمات والاسحار ، لأن ذلك ادعى للقبول والاستجابة ، قال سبحانه : « وبالاسحار هم يستغفرون - ١٨ الذاريات » . وقال : « والمستغفرين بالاسحار - ١٧ آل عمران » .

اجتماع يوسف ويعقوب الآية ٩٩ - ١٠٢ :

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتَ رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي

٩ بِالصَّالِحِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
أُجْمِعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ *

اللغة :

آوى إليه أبويه ضمهما إليه . والعرش السرير الذي يجلس عليه الملك أو الرئيس
وتأويل الرؤيا تفسيرها بما تؤول إليه . ونزغ الشيطان افسد . وفاطر السموات
والأرض خالقها على غير مثال سابق .

الإعراب :

سجداً مفعول مطلق مبين للنوع . وابت أصلها بالياء ، وحذفت
للتخفيف . وحققاً مفعول ثانٍ لجعل لأنها بمعنى صير . والمصدر من ان نزغ بجرور
بإضافة بعد . وربُّ أصله يا ربّي . وفاطر السموات أي يا فاطر السموات ،
ومجوز أن يكون صفة لربّي لأنه متاды مضاف . وذلك مبتدأ ومن انباء الغيب
خبر .

المعنى :

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) . حزن يعقوب وارسل الدع
مدراراً على فراق يوسف ، وهو يعلم ان البكاء لا يجديهِ شيئاً ، ولكنه كان
يخفف به من لوعة البعد ، وحرقة الفراق ، وامتد حزنه أمداً طويلاً لأن يوسف
اقام سنوات في بيت الذي اشتراه بثمن بخس ، وسنوات في السجن ، وسنوات
يدبر شؤون البلاد المصرية ، منها سبع رخاء قبل ان يلتقي مع اهله ، حيث كان
اللقاء في سني الجذب ، وكان كلما طال الزمن ازداد حزن يعقوب كما يومئ قول

سورة يوسف

من قال له : « تالله انك لفي ضلالك القديم » .

واذا عرفنا مبلغ الحزن في نفس يعقوب من ألم الفراق عرفنا مبلغ فرحته وسعادته بقاء يوسف ، لأن الفرحه بالشفاء من الاسقام تأتي على قدر ما تركته هذه من الأوجاع والآلام ، أو تزيد أضعافاً .

وقال جماعة من المفسرين : المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن امه ماتت من قبل .. وابتعد البعض في قوله : ان امه ماتت ، ثم نشرت من قبرها لثرى عظمة ولدها وتسجد له .. ولا طائل من هذا التحقيق وامثاله الا تكثير الكلام .

وتسأل : ان صدر الآية لا يتفق مع عجزها ، لأن الصدر يقول : لما دخلوا على يوسف ضم أبويه اليه ، ومعلوم ان يوسف كان في مصر ، والعجز يقول : بعد ان دخلوا عليه ، وهو في مصر قال لهم : ادخلوا مصر - كما هو الظاهر من سياق الآية - ومعنى هذا انهم بعد ان دخلوا مصر قال لهم ادخلوا مصر ؟ .

وقيل في الجواب : ان يوسف أقام لأهله سرادقات بالقرب من الخلود ، وفيها دخلوا عليه ، وضم أبويه اليه ، ولما استأنفوا السير من السرادقات متجهين الى مصر قال لهم : ادخلوا مصر .. وهذا الجواب يُحمّل لفظ الآية أكثر مما يتحمل ، وغير بعيد أن يكون مراده من ادخلوا مصر أقيموا فيها آمنين ، كما حدث ذلك بالفعل ، حيث أقطعهم الملك أرضاً خصبة في مصر ، وظلت سلالة يعقوب فيها أمداً طويلاً .. فقد جاء في مجمع البيان : « وانما قال لهم : آمنين . لأنهم كانوا فيما مضى يخافون ملوك مصر ، ولا يدخلونها إلا بجوازهم - أي بجواز السفر كما هو المتبع في هذا العصر - قال وهب : ان آل يعقوب دخلوا مصر وهم ٧٣ انساناً ، وخرجوا مع موسى الذي هو من نسل يعقوب ، وهم ستمئة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلاً » .. وأيضاً في مجمع البيان ان بين يوسف وموسى ٤٠٠ سنة .

(ورفع أبويه على العرش) أجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه ، وهو يدير شؤون المملكة تعظيماً لهما (وخرروا له سجداً) . ضمير خروا عائداً الى أبوي يوسف وإخوته ، وضمير له الى يوسف ، والمراد بالسجود هنا الانحناء تعظيماً وتكريماً ، وكان الانحناء تحية الناس للعظيم في ذلك العصر ، كما في بعض

الجزء الثالث عشر

التضايير . وقيل : ان ضمير له عائد الى الله ، وان السجود كان شكراً له تعالى على هذه النعمة الكبرى .. وهذا القول يخالف ظاهر السياق ، ولا يتفق مع قول يوسف في الآية ٤ : « رأيتهم لي ساجدين » ، أي له لا لغيره .

(وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً) . يشير إلى قوله في أول السورة : « يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » . وسبق الشرح والتفصيل . وفي تفسير الرازي : « اختلفوا في مقدار المدة بين وقت اللقاء وبين الرؤيا ، فقيل : ٨٠ سنة . وقبل ٧٠ . وقيل : ٤٠ وهو قول الأكثر .. وكان عمره ١٢٠ سنة » . ونحن لا نعلم يقيناً كم كان عمره حين ألقى في الحب ، ولا المدة التي أقامها في بيت الذي اشتراه ، ولا أمد سجنه بحكمه ، لأننا لم نهند إلى أصل يصح الاعتماد عليه، وأقوال المفسرين والرواة متضاربة .. ولكن أثر على انه عاش ١٢٠ سنة.

(وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو) . ان الله سبحانه يبتلي الانسان بالرخاء كما يبتليه بالشدة : « قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر - ٤٠ النمل » . وقال الإمام علي (ع) : « لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظماً » . وقد ابتلي يوسف بالضراء فصبر وبالسراء فشكر ، وما هو يحدث بنعمة الله عليه ، ويعدد احسانه اليه .. اخرجني من السجن ، وسما بي الى الحكم ، وجاء بأهلي من البادية ، حيث كانوا يرعون الإبل والأغنام، حتى هذه أهلكها الجذب والقحط ، وأصبحوا على الأرض البيضاء لا يملكون شيئاً ، ويقولون للعزيز : تصدق علينا ان الله يحب المتصدقين، فأغناهم الله بيوسف وكفاهم شر الفقر والعوز .

ولم يذكر اخراجه من الحب مراعاة لشعور اخوته، وأيضاً نسب ما كان منهم الى الشيطان وقال : (من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين اخوتي) ولم ينسبه اليهم لنفس السبب (ان ربي لطيف لما يشاء) يلطف بالطيبين ، ويبلغ بهم إلى ما يشاء لهم من العز والكرامة (انه هو العليم الحكيم) . والفرق بين حكمة الله وعلمه ان جميع أفعاله وأحكامه تأتي على وفق الحكمة : « ربنا ما خلقت هذا باطلاً » . اما علمه فلا ينفك عن المعلوم ، فتى علم بأن في هذا الشيء

سورة يوسف

حكمة وجد فوراً ، وبكلمةٍ ان علمه هو قوله للشيء كن فيكون .

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) . فاطر السموات والأرض أي خالقها على غير مثال سابق لها ، وذكر السموات بصيغة الجمع ، والأرض بصيغة المفرد لأن الانسان يرى بعينه سموات كثيرة ، ولا يرى الا أرضاً واحدة . أنت وليي أي تتولى جميع أموري في الدارين .. بعد أن حدث يوسف بنعم الله عليه توجه اليه تعالى شاكرًا ما بسط له من الملك ، وما خصه به من النبوة ، متوكلاً عليه في جميع شؤونه ، ومتوسلاً اليه ان يمتنه على طاعته ومرضاته ، وان يلحقه بصالح من مضى من آبائه ، ويجعله من صالح من بقي من أبنائهم .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك) . بعد أن ذكر سبحانه قصة يوسف توجه الى رسوله الأكرم محمد (ص) بهذه الآية ، والغرض منها إلقاء الحجة على من أنكر نبوته ، وملخصها ان ما قصصناه من أمر يوسف بهذا التفصيل لم يشاهده محمد بنفسه ، ولا قرأه في كتاب ، ولا سمعه من انسان ، وانما هو وحي من الله دال على صدقه ونبوته (وما كنت لديهم اذ اجمعوا أمرهم وهم يمكرون) . ضميراً اجمعوا وهم يعود الى اخوة يوسف ، والخطاب موجه الى محمد (ص) وكل الناس يعرفون ان محمداً لم يكن حاضراً حين اجمعوا على إلقاء يوسف في غيابة الحب : وحين مكروا بأبيه وقالوا أكله الذئب .. وأيضاً كل الناس يعرفون ان محمداً ما قرأ كتاباً ولا تتلمذ على أستاذ .. فلم يبق - اذن - من طريق الى معرفته بهذا الغيب الا وحي السماء .. ونظير هذه الآية قوله تعالى : « تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين - ٤٩ هود » .

هل سورة يوسف قصة غرام ؟

قد يُظن من النظرة الأولى ان سورة يوسف أشبه بقصة بطلتها امرأة تحكمت فيها أنوثة حيوانية عشقت فتى وسيماً لم تر رجلاً مثله بين الرجال لحسنه وجماله ، وان هذا الفتى عزف عنها متحصناً بتقوى الله والخوف من حسابه وعقابه ، تماماً كقصة سلامة المغنية مع عبد الرحمن القصي^١ .

وفي الناس من قال : كان الأولى ان لا تذكر هذه السورة في كتاب الله العزيز ، وقال بعض المؤمنين : ان الله حكمة غامضة في هذه السورة لا نعرفها ، وأحسن هؤلاء في تحفظهم كما أساء الميمونية من الخوارج ، حيث أنكروا سورة يوسف لأنها قصة غرام في زعمهم ، وخرجوا بذلك عن جميع المذاهب الاسلامية .

والحقيقة التي انتهينا اليها ، ونحن نفسر هذه السورة الكريمة ان من قرأها بامعان وتدبر ، وأدرك أسرارها وأهدافها يؤمن ايماناً قاطعاً بأنها تقدم أوضح الأمثلة من الحس والتجربة على ان القيم الروحية كثيراً ما يكون الالتزام بها وسيلة للنجاح في هذه الحياة على رغم الأوضاع الفاسدة ، وان من قرأها قراءة سريعة يقول ما قاله الميمونية : انها قصة غرام ، أو ما قاله بعض المؤمنين : « الله حكمة فيها لا نعرفها » . أجل ، لا يعرفها الا من تدبر كلمات الله وآياته .. ونعرض فيما يلي طرفاً من الحقائق التي اشتملت عليها هذه السورة والتي تفرض نفسها وصدقها على كل من يتوخى الحقيقة ويبحث عنها :

١ - ان الصراع بين الحق والباطل قائم ودائم في هذه الحياة لا صلح بينها ولا هوادة .. والنتيجة الطبيعية لذلك ان من يسلك طريق الباطل يقاومه المحقون ، ولكن بالعدل والصدق ، لا بالكذب والفسخ والخديعة ، لأنهم يرفضون أي سلاح لا يقره الحق والعدل .. ومن يسلك طريق الحق يحاربه المبطلون ، ولكن بالافتراء والفساد وأنواع الكيد والمكر ، لأن من يصبر على الباطل لا يملك الا الترييف

١ اتراها في « العقد الفريد » ج ٧ .

والتزوير ، ومن هنا كان الحق غالي الثمن ، كثير التكاليف على من يتبعه ويستمسك به .

وقد ضرب الله مثلاً على هذه الحقيقة يوسف ، راودته امرأة العزيز عن نفسه ، فأبى واستصعب بتقوى الله ، فهددته بالسجن ان لم يفعل ، فأصر ولم يفعل ، وقال : رب السجن أحب إليّ ، فسجن ودفع الثمن غالياً من نفسه ، لأن الدين أتمن وأعلى .. ولكن الذين يصارعون الحق يلقون السلاح في النهاية ، ويستسلمون للمحققين رغم انوفهم ، تماماً كما حدث لاختوة يوسف وامرأة العزيز.

٢ - ان قوله تعالى : « لولا ان رأى برهان ربه » يعطينا ضابطاً عاماً ، ومقياساً صحيحاً للتمييز بين المؤمن وغير المؤمن .. فن استجاب لهذا البرهان ساعة الابتلاء والامتحان ، كما استجاب له يوسف الصديق، فهو من الذين استقر الإيمان واليقين في قلوبهم حقاً وصدقاً ، ومن اندفع وراء رغبته وشهوته ، وتجاهل برهان ربه وأمره بطاعته فما هو من الدين والإيمان في شيء .

٣ - ان الاختيار يقاسون ، ولا شك ، الكثير من الرزايا والخطوب إذا ألقى بهم الدهر في بيئة ظالمة في نظامها ، فاسدة في أوضاعها .. ولكن إذا تعقدت المشاكل ، واستعصى الحل على الجميع اضطروا والتجأوا الى الاكتفاء متضرعين ، كما التجأ ملك مصر الى يوسف، وهو في سجنه ليقى البلاد من شر السنن العجاف.. ان الأوضاع الفاسدة ترفع من شأن الأشرار الفاسدين ، وتخط من شأن الطيبين ، ولكن الشدائد تُظهر كلاً على حقيقته ، وتضعه في موضعه .

٤ - ان ترويض النفس على الاحتمال في سبيل الحق يأتي بأحسن النتائج وأفضلها : فلقد صبر يوسف الصديق على البئر والسجن ، والبيع كالعبيد ، والتهمة بالخيانة ، فكانت النتيجة ان أصبح السيد المطاع ، يقول له الملك : انك اليوم لدينا مكين أمين ، ويقف اخوته بين يديه منكسرين مترحمين : تصدق علينا ان الله يحب المتصدقين ، وفي النهاية يخرجون له ساجدين ..

هذا عرض سريع لبعض العظات والعبر في هذه السورة الكريمة ، ومن أحب التفصيل فليقرأها كاملة مع التفسير .

وما أكثر الناس بمؤمنين الآية ١٠٣ - ١٠٧ :

وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

اللفظة :

النشأ الغطاء ، والمراد بالغاشية هنا العقوبة الشاملة . والمراد بالساعة القيامة
والبغطة الفجأة .

الإعراب :

كأين كلمة واحدة بمعنى كم، وأصلها كلمتان كاف التشبيه وأي المتونة ونونها بدل
عن التنوين ، ومميزها مجرور بمن في الغالب ، وعملها الرفع بالابتداء ، وجملة
يمرون عليها خبر، ولا يكون خبرها إلا جملة . وعليها هنا بمعنى بها مثل اركبوا
على اسم الله . وبغطة مصدر في موضع الحال من الساعة .

المعنى :

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . ان لمحمد (ص) آيات ومعجزات

تدل على نبوته ، منها شريعته وسيرته ، ومنها القرآن ببلاغته وتعاليمه وحقائقه واخباره بالغيب ، ومن هذا الاخبار قصة يوسف بتفاصيلها ، كما ذكرنا في الآية ١٠٢ من هذه السورة .

وقد كان النبي (ص) حريصاً على إيمان الناس وهدايتهم ، بخاصة قومه من قريش ، ولكن الأكثر منهم لم يستجيبوا لدعوة الله ، أما حرصاً على منافعهم الخاصة كالرؤساء والأقوياء ، وأما جهلاً وتقليداً كالضعفاء والتابعين ، وفي هذه الآية قال سبحانه لنبيه الكريم : انك لا تهدي من أحببت على رغم اخلاصك ومعجزاتك ، وأنت في غنى عنهم وعن إيمانهم (وما تسألهم عليه من أجر إن هو الا ذكر للعالمين) . وضمير هو يعود الى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ، ويوجه العقول الى آيات الله ودلائل عدله ووحدانيته ، يهدي ويوجه بلسان الرسول الأعظم (ص) بلا مال ولا جعل .

(وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون) . كأن الله تعالى يقول لنبيه هوّن عليك إذا لم يؤمنوا بك وبدلائل نبوتك فانهم قد كفروا بي وأنا خالقهم ورازقهم . وقد ملأت الكون وأنفسهم بالدلائل على عظمي وقدرتي ، ومع هذا اعرضوا عنها وكفروا بي وبها ، وهي برأى منهم ومسمع فلا عجب إذا كفروا بك ، وأعرضوا عنك وعما أظهرته على يدك من الآيات والمعجزات ..

(وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) . هذه الآية جواب عن سؤال مقدر حول الآية السابقة ، وهي : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » . ومحصل السؤال : كيف قال سبحانه : وما أكثر الناس بمؤمنين مع العلم بأن العرب وأهل الكتاب يقرون بوجود الخالق ، وقد كانوا أكثر الناس يومذاك ؟ بل ان القرآن يعترف صراحة بذلك ، حيث قال في الآية ٦١ من سورة النكبات : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » . فأجاب سبحانه عن هذا السؤال المقدر بقوله : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) . أي انهم يقرون بوجود الخالق ، ولكن أكثرهم يجعل له شريكاً ، فاليهود أو طائفة منهم يقولون : لله ولد هو عزيز . والنصارى يقولون : بل

الجزء الثالث عشر

المسيح ، والعرب يشركون الأصنام في العبادة ، ويخاطبون الله بقولهم : لييك لا شريك لك الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .. ولا فرق بين من جحد وأشرك .

(أقاموا ان تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون) . في الآية ١٠٣ قال سبحانه لنبيه : انهم لا يؤمنون بك ، وفي الآية ١٠٥ قال : انهم كفروا بي وأنا الخالق الرازق ، وفي الآية ١٠٦ قال : حتى أكثر المقرين بي جعلوا لي شريكاً، فكان من الطبيعي أن يعقّب على ذلك بالتهديد والوعيد بالعذاب الأليم .

وتسأل : ان ذكر البغته يغني عن ذكر « وهم لا يشعرون » فاف هو الغرض من التكرار ؟.

الجواب : ان لفظ البغته يومئ الى وقوع العذاب حين يقظة الحواس ، أما عدم الشعور بمجيء العذاب فقد يكون في اليقظة ، والناس منصرفون الى أعمالهم ، وقد يكون في النوم ، ومن ذلك قوله تعالى : « قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً - ٥٠ يونس » .

قل هذه سبيلي الآية ١٠٨ - ١١١ :

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ

نَضْرُفًا فَفُجِّيْ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ
كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ *

اللغة :

السبيل الطريق ، وكلاهما يذكر ويؤنث ، والاسلام طريق الى الخير دنيا
وآخرة . والمراد بالبصرة هنا الحجة الواضحة . استيأس بمعنى يش . وظنوا
هنا بمعنى تيقنوا . والبأس العقاب . والعبرة كل حادثة تعبر لك عما تهتدي به
وتتعظ . والألأاب جمع لب ، وهو عقل الانسان ، وسمي العقل لباً لأنه أفضل
ما في الانسان .

الإعراب :

على بصيرة متعلق بمحذوف حالاً من ضمير ادعو وانا تأكيد له ، ومن اتبعني
عطف عليه ، وسبحان منصوب على المصدرية أي أصبح الله تسيحاً . كيف خبر
مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، والجملة في محل نصب مفعولاً لينظروا . (ما كان)
فيها ضمير مستتر يعود الى القرآن أو المثلو ، وحديثاً خبر كان . وتصديق خبر
لكان محذوفة مع اسمها أي ولكن كان القرآن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيلاً
وهدى ورحمة عطف على التصديق .

المعنى :

(قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) . أمر الله محمداً

الجزء الثالث عشر

أن يقول للمشركين : هذه سبيلي وسنّي ، وحقيقتها ظاهراً وواقعاً هي الدعوة الى الله عن علم وبالحجة والمنطق .. وليس من شك ان كل الأنبياء وأتباعهم المخلصين يدعون الى الايمان بالله واليوم الآخر ، واقامة الحق والعدل ، يدعون الى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومجاهدة الحجة بالحجة ، والفكرة بالفكرة على المنطق السليم الذي تعتمد عليه رسالة النبيين ، ودعوة المصلحين (وسبحان الله وما أنا من المشركين) . هذا بيان وتفسير لدعوة محمد (ص) وانها مترفة عن الشرك بشئ معانيه .

(وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحى اليهم من أهل القرى) . المراد بأهل القرى من يسكن الحضر دون البادية، سواء أكان المصر الذي يسكن فيه الحضريون كبيراً ، أم صغيراً . وقال المفسرون : « تدل الآية على ان الله ما بعث امرأة على الاطلاق ، ولا رجلاً من البدو لأن فيهم غلظة وجفاء » .. ذكر المفسرون جفاء أهل البادية ، ونسوا انهم أصدق لهجة ، وأصفى فطرة من أهل الحضر ، وأيضاً نسوا اهتمام النساء بأحر الشفاء وتبييض الحدود ، وعلى أية حال فان الله أعلم حيث يجعل رسالته .. أما الغرض من الآية فهو لقاء الحجة على من أنكر رسالة محمد (ص) بأنه لم يكن الوحيد في رسالته ، فلقد كان الرسل من قبله رجالاً مثله يأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق ، وكانت دعوتهم تماماً كدعوته ، فكيف عجبتم أيها المشركون من ارسال محمد ، ولم تعجبوا من ارسال غيره ؟! . وتصلح هذه الآية جواباً للذين أشار اليهم سبحانه في الآية ٤١ من سورة الفرقان: « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا » .

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) . مر نظره مع التفسير في الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ (ولداد الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون) . وقوله للذين اتقوا من أوضح الدلالات على ان الطريق الى سعادة الانسان في الآخرة هو العمل الصالح في هذه الحياة ، وأصلح الأعمال فيها ما يهدف الى خير الانسان وهدايته ، وصيانة حقه وحرته من العبث والظلم .

(حتى إذا استأسس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) . دعا الرسل الأمم الى الله فلم يستجيبوا ،

سورة يوسف

فأنذروهم بعذاب أليم في الدنيا قبل الآخرة فسحروا واستهانوا .. وانتظر الرسل نزول العذاب على المستهزئين ، وطال أمد الانتظار الى حد يستدعي اليأس والظن بأن العذاب لن يأتي ، والوعيد به لن يتحقق . ولما بلغ أمد الانتظار هذا المبلغ جاء النصر للأنبياء ، وصدق الوعيد والتهديد ، ووقع العذاب على المجرمين ، ونجا الذين اتقوا لا يمسهم سوء ، ولا هم يحزنون .. فقله تعالى : استيأس الرسل وظنوا الخ إن هو إلا كناية عن ألم الانتظار وطول مدته ، ومثل هذا الأسلوب في الكنايات والمبالغات كثير ومألوف في اللغة العربية ، وللمفسرين هنا أقول وآراء بعيدة كل البعد عن دلالة اللفظ وسياق الكلام ، بالاضافة الى أنها تزيد القارئ حيرة وتضليلاً .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) . الضمير في قصصهم يعود الى يوسف مع اخوته ، ومع امرأة العزيز والمالك .. وقد بينا فيما سبق ان في قصة يوسف ألواناً من العبر والعظات ، وأهمها ان من ييأس من الناس ، ويعتمد على الله وحده فلا بد أن تكون عاقبته الى خير .

(ما كان حديداً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . ان كل ما جاء في القرآن هو حق وصدق ، ومنه قصة يوسف ، وقد جاءت على وفق ما أنزله الله على انبيائه السابقين في الكتب السماوية مع العلم بأن محمداً لم يقرأها بنفسه ولم يسمعها من غيره ، هذا الى جانب ان في القرآن بيان العقيدة والشريعة ، وانه هدى لمن يطلب الهداية لوجهها ، ورحمة لمن يعمل بأحكامه ويتعظ بمواعظه .. وليس من شك ان الذين يتعظون بهدى الله هم الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون - ٨٢ الأنعام .

سورة الرعد

سورة الرعد

وفيها قولان : مدنية ومكية ، وآياتها ٤٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تلك آيات الكتاب الآية ١ :

أَمْرٌ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ*

الإعراب :

تلك آيات الكتاب مبتدأ وخبر . والذي أنزل مبتدأ والحق خبر .

المعنى :

(الأمر) سبق مثله مع التفسير في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب) . أي ان آيات هذه السورة هي من القرآن الكريم ، أما الغرض من هذا الاخبار فهو بيان ان هذه السورة حق لأنها من القرآن ، وهو حق فهي مثله ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (والذي أنزل إليك من ربك الحق) . ويأتي هنا هذا السؤال : ما الدليل على أن القرآن حق ؟ . وتجد الجواب في ج ١ ص ٦٤ - ٦٨ . قال الإمام علي (ع) : ان القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تفي عجائبه ولا تنقضي غرائب ، ولا تكشف الظلمات الا به (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بالقرآن

ولا بغيره من أقوال الحق والعدل الا من يرى خيره في خير الناس ، وشره في شرهم . قيل لرجل من أهل الله : احترق السوق الذي فيه حانوتك ، ولكن سلم حانوتك .. فقال : الحمد لله . ثم تنبه الى انه قد عصى الله ، حيث أراد لنفسه الخير دون الناس ، فاستغفر من ذنبه وتاب ، وأمثال هذا هم الفئة القليلة الذين يقفون في الجانب المضاد للفئة الكثيرة التي عناها الله بقوله : (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) .

رفع السموات بغير عمد الآية ٢ - ٤ :

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

اللفظة :

الرواسي الجبال الرواسخ . ويغشي يغطي . وجنات بساين . وصنوان هي

الجزء الثالث عشر

النخلات الكثيرة يجمعها أصل واحد ، وغير صنوان متفرقات ومن أصول شتى ،
وواحد الصنوان صنو . والأكل بضم الهمزة والكاف ما يؤكل .

الإعراب :

ضمير ترونها يعود الى السموات ، وجملة ترونها صفة للسموات لا للعمد أي
أنها في واقعها تماماً كما ترونها بلا عمد . وجملة يدبر مستأنفة ، ومثلها يفصل .
واثنين تأكيد لزوجين . وفاعل يفشي ضمير مستتر يعود الى الله ، والليل مفعول
أول والنهار مفعول ثانٍ .

المعنى :

(الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) . قلنا في فقرة الإعراب : ان
الماء في ترونها عائدة الى السموات ، وان الجملة الفعلية صفة لها ، لا للعمد ، وعليه
يكون المعنى ان الله رفع السموات بأمره ، وهي مرفوعة في الواقع تماماً كما ترونها
في الظاهر من غير عمد . وفي مستدرك نهج البلاغة ان الإمام علياً (ع) وصف
السماء بقوله : « رفع السماء بغير عمد - أي واقعاً وظاهراً - وبسط الأرض على
المواء بغير أركان » . وفي نهج البلاغة : « أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال ،
وأرساها من غير قرار ، ورفعها بغير دعائم » .

(ثم استوى على العرش) . هذا كناية عن انه تعالى يملك الكون ويدبر أمره
بعلمه وحكمته ، كما قال في الآية نفسها : (يدبر الأمر) ومرت هذه الجملة
في الآية ٥٤ من سورة الأعراف ، والآية ٣ من سورة يونس ، (وسخر الشمس
والقمر كل يجري لأجل مسمى) بانتظام كما ترى أعيننا ، ولغاية معينة كما تدرك
عقولنا .. والشمس تقطع فلكها في سنة ، والقمر في شهر ، كانا كذلك منذ
ملايين السنين ، وسيبقيان كذلك الى ما شاء الله ، لا تختلف سنة عن سنة ، ولا
لحظة عن لحظة ، وهذا دليل قاطع على وجود عليم حكيم ، أما الصدفة فيظلمها
النظام والتكرار .

سورة الرعد

(يدبر الأمر) كل أمر بلا استثناء ومنه تسخير الشمس والقمر ، وارسال الرسل ، وانزال الكتب .. الى ما لا نهاية (يفصل الآيات) يبين الدلائل على وجوده .. ولماذا (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) خلق سبحانه الكون ، وأحكمه على أكمل الوجوه ، والعقول السليمة تدرك هذا التدبير والاحكام ، وتستدل به على وجود المدبر الحكيم ، وقدرته على اعادة الخلق ، لأن من قدر على ايجاد الكون من لا شيء ، ورتب ما فيه من الكواكب وغيرها في غاية الإحكام والدقة فبالأولى أن يقدر على جمعه بعد تفرقه ، فإذا ثبت القدرة على الاعادة بحكم العقل ، وقد أخبر الصادق الأمين عن الوحي بأنها سوف تقع لا محالة كان وقوعها حتماً لا مفر منه .

وبعد ان ذكر سبحانه السموات ذكر الأرض ، والغرض واحد ، وهو تنبيه الغافلين الى الأدلة الكونية على وجود الله وعظمته ، وأن من خلق هذا الكون الضخم بأرضه وسمائه قادر على أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، ويحيي الموتى ، وهذه الأدلة منها سماوية كرفع السموات بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر ، ومنها أرضية كالتي أشار اليها سبحانه بقوله :

١ - (وهو الذي مد الأرض) . أي بسطها ومهدا ، قال تعالى في الآية ١٩ من سورة نوح : « والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » . أي واسعة . وفي الآية ٣٠ من سورة النازعات : « والأرض بعد ذلك دحاها » . ودحو الشيء في اللغة بسطه وتمهيده . ومن الواضح ان بسط الأرض وسعتها وتمهيدها لا يدل من قريب أو بعيد على انها مسطحة أو كرة ، لأن الجسم اذا كبر حجمه كالأرض كانت كل جهة منه ممتدة ومنتعة في الطول والعرض ، وان كان على شكل الكرة ، وعليه فلا شيء في الآية يمنع من القول بكروية الأرض التي لا ريب فيها ، قال الرازي عند تفسير هذه الآية : « انه ثبت بالدلائل ان الأرض كرة ، فكيف يمكن المكابرة في ذلك .. والأرض جسم عظيم ، والكرة اذا كانت في غاية الكبر كانت كل قطعة منها تشاهد كالسطح » . وكان علماء اليونان في عهد ارسطو متفقين على كروية الأرض ، ولكنهم قالوا بسكونها .

الجزء الثالث عشر

٢ - (وجعل فيها رواسي) لفظ الرواسي صفة للثوابت من كل نوع ، ولكنه غلب على الجبال لكثرة الاستعمال ، بحيث اذا أطلق لفظ الرواسي من غير ذكر الموصوف فهم منه الجبال ، والحكمة من وجودها استقرار الأرض وثباتها ، قال تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً - ٧ النبأ » .

٣ - (وانهاراً) قرن سبحانه الأنهار بالجبال لأنها تنحدر من تحتها ، قال تعالى : « وجعلنا فيها رواسي شامخات واسقيناكم ماء فراثاً - ٢٧ المرسلات » .

٤ - (ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) . أي ان كل صنف من الثمر في نباته زوجان : ذكر وأنثى ظاهران كفحول النخل وإناثها ، أو خفيان كسائر النباتات ، قال الشيخ المراغي في تفسيره : « فقد أثبت العلم حديثاً ان الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب الا من اثنين ذكر وأنثى ، وقد يكونان في شجرة كأغلب الأشجار ، أو شجرتين كالنخل » . وفي مجلة «العلوم» اللبنانية عدد آب ١٩٦٧ مقال بعنوان « كيف تبث الحياة في الكائنات » جاء فيه ان الحشرات تحمل على أجسامها اللقاح الضروري الى اكمام الزهر دون أن تخطيء في التبليغ وان الطائر يلقح زهرة الزنبق بمنقاره . انها لمعجزة .. وفي الحرب العلمية الثانية نزل الحلفاء بكورسيكا فرض الزيتون وقلّ ثمره ، وأرادت أمريكا مساعدة الأهالي فرشت الزيتون بمادة د. د. ت. فانت الحشرة الضارة ، ولكن مات معها سائر الحشرات الأخرى ، فكانت النتيجة في السنة التالية لا شيء اطلاقاً لأبنة شجرة من الزيتون والليمون واللوز . وبهذا يتبين ان الثمر لا يكون الا بلفاح الذكر للأنثى .

٥ - (يغشي الليل النهار) مرّ تفسيره في الآية ٥٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٣٩ (ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون) في هذا الكون الذي يسر وفقاً لقوانين ثابتة لا يحميد عنها بحال ، ولولا ثبوتها لاستحال على العلماء أن يرصدوها ويستفيدوا منها قواعد عامة ، ومن الواضح ان الدوام ينفي الصلقة ، ومن أجل هذا آمن الكثير من علماء الطبيعة بوجود الله تعالى .

٦ - (وفي الأرض قطع متجاورات) ان اجزاء الأرض يلتصق بعضها ببعض ومع ذلك تتنوع الى سهل وجبل وصب وريخو وخصب وجذب وتراب ورمسل

وسواد وبياض ، وما أشبه . والسر هو أمر الله وتدبيره في خلقه (وجنات من أعتاب) بساتين من الكرم (وزرع) من أنواع شتى (ونخيل صنوان) هي النخيلات من أصل واحد غير متنوع لأن النخل على أنواع (وغير صنوان) هي النخيلات من أصول متنوعة ، وخص الأعتاب والنخيل بالذكر لأنها الثمر الغالب أو مظهر الثراء أو هما معاً في ذاك العصر ، ويشعر بذلك قوله تعالى : « واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعتاب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً - ٣٢ الكهف » .

(يسقى بماء واحد) كالملطر أو البئر أو النهر ، وأيضاً المكان واحد بالقرب والمجاورة ، ومع ذلك يختلف الثمر لوناً وحجماً ورائحة وطعماً ، والسر تدبير الله وحكمته (ونفضل بعضها على بعض في الأكل) على الرغم من ان وسائل التكوين والنمو واحدة (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) . أي ان في هذا التفاوت مع وحدة المكان والماء والهواء دلائل واضحة على وجود المدير الحكيم عند من لا يؤمن بشيء إلا بعد التفكير والتدبير . ومن أقوال الإمام علي : لا علم كالضكر ، ولا حسب كالتواضع .

السيد الأفغاني والدهريون :

وأحسن شرح لهذه الآية بمجموعها ما جاء في رسالة الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغاني ، قال « إذا سئل داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ إلا ظناً ، وأصولها تضرب في بقعة واحدة ، وفروعها تذهب في هواء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الأخرى في بنيتها وشكلها وأوراقها وطولها وقصرها وضخامتها ورقتها وزهرها وثمرها وطعمها ورائحتها، فأني فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟. أظن انه لا سبيل الى الجواب سوى العجز عنه .. وإذا قيل له : هذه أسماك بحيرة أورال وبحر قزوين مع تشاركها في المأكول والمشرب وتسايقها في الميدان ، نرى فيها اختلافاً نوعياً وتبايناً بعيداً في الألوان والأشكال

الجزء الثالث عشر

والأعمال ، فما السبب في هذا التباين والتفاوت ؟ فلا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر ، أي الضيق .

وتسأل : ان لدارون ان يجيب السيد الافغاني بأن علماء النبات يعرفون الأسباب الطبيعية لهذا الاختلاف ، ويستطيعون الكشف عنها لكل طالب وراغب .. فلا ضرورة ، والحال هذه ، إلى افتراض وجود المدير فيما وراء الطبيعة ؟.

الجواب : لو سلمنا جدلاً بأن علماء النبات يعرفون ذلك فان لمعرفتهم حداً تقف عنده ولا تتجاوزه ، وهو السبب القريب المباشر للتفاوت .. ولو سألوا عن السبب البعيد الذي أوجد السبب القريب لم يجدوا تفسيراً له إلا بأحد فرضين : اما الصدفة ، واما وجود مدير حكيم وراء الطبيعة ، والفرض الأول باطل لأن الصدفة لا تتكرر ولا تسدوم، فتعين الثاني .. وسبق البيان أكبر من مرة ان من عادة القرآن أن يسند لله جميع الحوادث الطبيعية المتولدة من أسبابها الكونية ، من باب اسناد الشيء الى فاعله الأول لهدف التذكير بالله ، وانه خالق الكون بأرضه وسمائه .

وتقول : ان للدهريين أيضاً ان يسألوا بدورهم عن السبب لوجود المدير وراء الطبيعة ؟.

ونجيب بأن هذا السؤال غير وارد من أساسه لأن الفرض ان المدير لا سبب له ، وانه هو سبب الأسباب ، فالسؤال عن سببه تماماً كالسؤال : من خلق الله بعد الفرض انه خالق غير مخلوق ، وكالسؤال عن سبب صدق العين فيما ترى ، والاذن فيما تسمع مع الفرض انها حجة قاطعة لكل شك وشبهة .

اثنا لفي خلق جديد الآية ٥ - ٧ :

وَلَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَيْسَ لَافِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ
مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ *

اللغة :

الأغلال جمع غُل ، وهو قيد تُشد به اليد الى العنق . والسيئة النعمة ،
والحسنة النعمة . والمثلات جمع مثلة بفتح الميم وضم التاء ، وهي العقوبة مع
وجود أثر يدل عليها كجدع الأنف ونحوه .

الإعراب :

فمعجب خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر . وإذا في محل نصب تتعلق بفعل محذوف
دل عليه الكلام أي : إذا كنا تراباً نبث . وأولئك الذين كفروا برهم مبتدأ
وخبر لأن الكلام تام ومفيد . ومثله أولئك الأغلال في أعناقهم . وأولئك أصحاب
النار مبتدأ أول وثان وهم ضمير فصل ، وخالدون خبر الثاني والجملة خبر
الأول ، وفيها متعلق « بخالدون » . وقبل ظرف متعلق يستعجلونك . وهاد مبتدأ
مؤخر وهو مرفوع بضمه مقدرة على الياء المحذوفة لأن أصله هادي كقاضي .
ولكل قوم خبر مقدم ، والجملة مستأنفة .

المعنى :

(وان تعجب فمعجب قولهم إذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد) . الخطاب
لمحمد (ص) ، وضمير قولهم للمشركين الذين أنكروا نبوته ، والمعنى : ان تعجب

الجزء الثالث عشر

من عبادة المشركين للأصنام ، وانكارهم نبوتك فإن تكذيبهم بالبعث أعجب وأغرب ، ذلك انهم يعترفون بأنه تعالى خلق الكون وأوجده ، ومن قدر على ذلك فبالأولى ان يقدر على اعادة الانسان بعد موته .

(أولئك الذين كفروا ببرهم وأولئك الاغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . ذكر سبحانه اولئك ثلاث مرات مبالغة في التهديد والتعير عن غضبه وسخطه .. وقوله : أولئك الذين كفروا ببرهم يدل على ان من آمن بان الله هو خالق الكون يلزمه حتماً أن يؤمن بأنه تعالى قادر على ان يبعث من في القبور ، ومن أنكر ذلك فقد كفر بالله من حيث يريد أو لا يريد ، ومن جمع بين الإيمان بالله وبين الإيمان بعجزه عن احياء الأموات فقد جمع بين النقيضين والمشركون قد أنكروا البعث لأن الله يزعمهم لا يقدر عليه كما يشعر قولهم : إذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد .. اذن ، هم منكرون لله في واقعهم ، وان اعترفوا به بألسنتهم .

الماديون والحياة بعد الموت :

أنكر الماديون وجود الله ، وبالأولى أن ينكروا الحياة بعد الموت ، ودليلهم واحد لا تبديل فيه ولا تعديل ، وهو كل ما يظهر للحواس عياناً ومشاهدة يجب الايمان به ، وكل ما يخفى عليها يجب نفيه وانكاره ، فالحواس هي الأول والآخر ، والظاهر والباطن على حد تعبيرهم .. اذن ، كيف يؤمنون بالجنة ولم يأكلوا ثمارها ؟ وكيف يعتقدون بجحهم ولم تصلهم بنارها ؟ .

ونحن نسألهم بدورنا : من أين لكم هذا العلم أو الايمان بأن الحواس الظاهرة هي وحدها طريق الحق والواقع ، وما عداها لغو وكلام فارغ ؟ على حد تعبيرهم أيضاً . فإن قلتم جاءنا من شهادة الحواس قلنا : نحن عندنا حواس ، وما رأينا أحداً - غيركم - يقول : لا تصدقوا الا الحواس . وان قلتم : جاءنا من غير الحواس فقد ناقضتم أنفسكم بأنفسكم ، حيث آمنتم بما لا شاهد عليه من الحواس . في سنة ١٩٦٢ ألغت كتاباً في الرد على الماديين ، وهو كتاب « فلسفة المبدأ

والمعاد ، طبع ونفدت نسخه في أمد قصير ، ثم قرأت بعده كثيراً عن الماديين والردود عليهم ، من ذلك :

١ - يجب على منطقي الماديين ان لا يوجد أي فرق بين الانسان صانع المعجزات وبين أحقر الحشرات التي تولدت من العفونة والقذارات ، ما دام كل منهما ابناً شرعياً للصدفة والطبيعة العمياء ولم تنله يد العناية والتدبير .

٢ - لقد وجد العلماء في دماغ الانسان ١٤ ألف مليون خط منسقة ومرتبطة ترتيباً محكماً ودقيقاً ، يعجز عنه أعظم المهندسين بل كلهم مجتمعين ، بحيث اذا انحرف واحد منها قيد شعرة عن موقعه ذهب ادراك الانسان أو اضطرب ، تماماً كما يحدث لنور الكهرباء اذا اختلت الأسلاك .. ولا تفسير لذلك عند العقل اذا لم يفرض وجود مدبر حكيم لا يُحس بالعين أو الأذن أو اليد أو الأنف أو اللسان .. ومهما بلغت الصدفة من المعجزات والحوارِق فلإنها لا تنشئ محطة كهرباء واحدة ، وتوصل بها ١٤ ألف مليون خط محكمة الصنع والوضع في آن واحد ، فكيف اذا كانت هذه المحطات على عدد رؤوس الآدميين وأدمغتهم ؟ .. وفوق ذلك أنها تحس وتشعر .

٣ - يقول الماديون : ان دماغ الانسان ، تماماً كالعقل الالكتروني ، كلاهما مجموعة من أجزاء جامدة مرتبة ومنسقة على شكل تترتب عليه تلك الآثار والمعطيات .. وأجابهم العالم الفرنسي «كوسا» بقوله : « اذا زعقت سيارتي القديمة ، وتأوهت مثل المصاب بآلام الروماتزم فهل يمكنني أن أقول : ان سيارتي تعاني من آلام الروماتزم ؟. واذا حشرج فيها الكاربوريتر عندما أضغط على البترين فهل يمكن أن أقول : انه مصاب بالربو ؟ » ..

ونعطف نحن على قول هذا العالم ان الترتيب والتنسيق في العقل الالكتروني جاء من فعل الانسان ما في ذلك ريب ، ولكن من الذي رتب ونسق دماغ الانسان ؟ وإذا اخترع الانسان عقلاً إلكترونياً فهل يستطيع هذا العقل الالكتروني أن يخترع عقلاً مثله أو دونه ولو دبوساً ؟. وفي كتاب « العمل والمخ » للعالم للسوفيتي يوري باخلوف ، ترجمة شكري عازر : « الذين يظنون ان في إمكان الآلة أن تحل محل المخ الانساني يخطئون خطأ جسيماً .. ان المخ الانساني يمتاز بقابليته لتلقي المهارات

الجزء الثالث عشر

والعقوبات والعادات إلى ما لا نهاية ، أما العقل الالكتروني فإنه محدود ، وخاضع لما يقرر له الانسان .

٤ - « ان أعظم اكتشاف للنحل - غير ما هو معروف عنه - انه عرف قبل الانسان جهاز التكيف ، فإذا ارتفعت درجة الحرارة في خلية النحل يذهب فوج منه ويأتي بالماء في خراطيمه ويضعه في خزان ، حتى إذا اجتمع منه قدر الكفاية قام فوج آخر برشه ، وهزّ ثالث أجنحته ليصنع تياراً من الهواء ، فيتبخّر الماء بسرعة ، ومع هذا التبخر تنخفض درجة الحرارة »^١ .

من الذي ألهم النحل الى الاختراع، الصدفة ، أو ان وراء الطبيعة قوة وحقيقة هي المدخل الى الطبيعة ونظامها ؟ .. وللنحل والنمل وغيرها حكايات تفوق التصور ولا تفسير لها إلا بوجود مدبر حكيم .. ونعود الى قول فولتير الذي أشرنا اليه فيما سبق أكثر من مرة ، وهو « امام الفكرة في وجود الله عقبات ، ولكن في الفكرة المضادة حماقات .. وهكذا ينتقل الانسان من شك إلى شك حتى يصل الى ان التصديق بالله هو الأقرب ، وبه تتعلق القوانين الضرورية للعالم » .

(ويستعملونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات) . المراد بالسيئة هنا العقاب، وبالْحَسَنَةُ الثواب ، وبالمثلثات العقوبات .. دعا رسول الله (ص) المشركين إلى التوحيد ، ووعدهم بالثواب ان استجابوا ، وتوعدهم بالعقاب ان استنكفوا ، وبدلاً من ان يستجيبيوا ويتوبوا من الشرك ازدادوا تمرداً وطغياناً ، وأخذتهم العزة بالاثم ، وقالوا : عجل لنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قالوا هذا ولم يعتبروا بالاثم الخالية الذين عصوا رسل ربهم ، فأخذهم الله أخذاً وبيلاً . وتجدر الإشارة الى ان الغفلة عن الاعتبار والاتعاظ لا تختص بالمشركين وحدهم فإن أكثر الناس لا يعتبرون بالغير ، ولا يتعظون بالعبر ، حتى الواعظين .. والسّر أن الاكثريّة الغالبة تنقاد لمصلحتها وعاطفتها ، لا لعقلها ودينها ، وفي الأمثال الغربية : المرأة تقود الرجل من بطنه لا من عقله .

(وان ربك لنو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب) . المراد

١ مجلة روز اليوسف المصرية عدد ٢٧ / ١ / ١٩٦٩ عن كتاب بين الانسان والآلة . السيناطيقا تأليف يلنيا سابارينا .

سورة الرعد

بالمغفرة هنا الامهال وعدم تعجيل العقوبة على الذنب ، والقرينة على ذلك قوله تعالى: (وان ربك لشديد العقاب) لأن المغفرة لا تجتمع بحال مع العقوبة الأخروية فضلاً عن شدتها، والمعنى ان الله سبحانه لا يعاقب العبد بمجرد ان يذنب ويسيء، وانما يؤخره ، ويفتح له باب التوبة على مصراعيه ، عسى أن يرجع عن غيه ، ويثوب إلى رشده .

وقيل في تفسير الآية : ان الله تعالى يغفر الذنوب للعصاة من المسلمين، ويشدد العقاب على الكافرين .. وهذا التفسير خلاف الظاهر ، بالاضافة إلى أنه اغراء بالمعصية ، وتشجيع للعصاة .. والحق ما قلناه ، والدليل قوله تعالى : «ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة - ٦١ النحل » . فلان القرآن ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض .

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد) . مر نظيره في الآية ٣٧ من الأنعام ج ٣ ص ١٨٤ . وتكلمنا مفصلاً عن معجزة محمد (ص) وطلب المكابرين عند تفسير الآية ١١٨ من سورة البقرة ص ١٨٩ .

علم الله الآية ٨ - ١١ :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ *

اللغة :

الغيض ذهاب المائع في جهة العمق ، ومنه غيَضَ الماء أي ذهب في الأرض وغار ، ويستعمل الغيض في النقصان ، وهذا المعنى هو المراد بقريئة قوله تعالى : وما تزداد ، وينبغي أن يكون المقصود زيادة الأرحام ونقصانها في عدد الأولاد . والمتعالي المستعلي على كل شيء . والسارب الجاري . ومعقات جمع معقبة ، والمراد بها هنا حواسه وغرائزه التي تحرس كيانه .

الإعراب :

ما تحمل (ما) اسم موصول في موضع نصب يعلم ، وقال الطبرسي : هي استفهام في موضع نصب بتحمل ، والمعنى أي شيء تحمل ، والجملة معلقة يعلم . وكل شيء مبتدأ ، وبمقدار متعلق بمحذوف . خبراً للمبتدأ ، وعنده ظرف متعلق بما تعلق به الخبر ، والتقدير كل شيء كائن بمقدار عند الله . وعالم الغيب خبر لمبتدأ محذوف أي هو عالم الغيب . وسواء خبر مقدم ، ومن أسراً مبتدأ مؤخر . ومن وال (من) زائدة إعراباً ووال مبتدأ مؤخر ، وما لهم خبر مقدم .

المعنى :

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد) . ذكر سبحانه في الآية السابقة ان المشركين طلبوا من محمد (ص) المزيد من المعجزات الدالة على نبوته ، وفي هذه الآية قال : انه تعالى يعلم ما في أرحام النساء ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو أكثر ، ناقصاً أو تاماً ، ومن يعلم هذا يعلم ان طلب المزيد من المعجزات انما هو لأجل العناد والمكابرة لا بقصد الاسترشاد وطلب الهداية .. وفي نهج البلاغة : ان الله يعلم ما في الأرحام من ذكرٍ أو أنثى ، وقبيح أو جميل ، وشقي أو سعيد .

واتفق المسلمون جميعاً ان الله تعالى يعلم جميع المخلوقات كبيرها وصغيرها ،

لأن كل مخلوق فهو معلوم لدى خالقه . وبتعبير محيي الدين بن العربي : ان ما من موجود في العالم الا وله وجه خاص الى موجد .. ثم اختلف الفلاسفة وعلماء الكلام في ان الله يعلم الجزئيات كأفراد الحيوان والنبات والجماد علماً مباشراً ومن غير توسط ، أو يعلمها بتوسط أسبابها وما تتولد منه ؟. قال المتكلمون بالأول ، وذهب الفلاسفة الى الثاني .

ونحن لا نرى أية جدوى في هذا الخلاف ، لأن على المسلم أن يؤمن بأن علم الله شامل لكل شيء كلياً كان أو جزئياً ، حتى خفقة القلب واللمحة في الذهن ، أما الايمان بأن علمه تعالى على هذا النحو دون ذلك فليس من الدين في شيء .. وهناك أحاديث تنهى عن التفكير في ذات الله ، وتأمّر بالتفكير في خلقه وصنعه .

(وكل شيء عنده بمقدار) فلا يخلقه عبثاً ومن غير أصول ، بل لكل شيء حده ونظامه في الحكم من حيث أجزاؤه ومقوماته وخواصه وآثاره ، وفي الكيف من حيث شكله وصورته ومكانه وزمانه ، وأسبابه وسنته — كل ذلك على ما تستدعيه الحكمة والمصلحة .. وكل ما يستطيعه الانسان هو أن يرى ويراقب ، ويعادل ويقيس ، وقد يخطئ أو يصيب ، لأن علم الانسان مكتسب يقتصر الى سبب ، وكثيراً ما يظن ان هذا الشيء سبب للعلم بكذا ، وهو في واقعه جهل محض ، أما علمه تعالى فهو ذاتي وعين الواقع .

(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) . ليس المراد بالكبر الضخامة ، وبالمعلو المكان المحسوس ، بل هما كناية عن عظمة الله في ذاته وصفاته ، وعالم الغيب ما غاب عنا علمه ، وعالم الشهادة ما نراه ونشاهده .. ان الكون مليء بالمخلوقات من شتى الأجناس والأصناف العلوية والسفلية ، فن الجرائم الى الانسان والملائكة ، ومن المعادن الى النبات والحيوان ، الى الماء والهواء ، وما فيها ، الى ما لا نهاية ، وقد يعلم الانسان طرفاً من أشياء الكون ، ولكن علمه منها بلغ لا يعد شيئاً الى جانب ما غاب عنه ، فأكثر الحقائق وضوحاً تبطن الكثير من الأسرار ، ولا يعلم كل ما في الكون الا خالق الكون ، فهو وحده الذي يتساوى لديه السر والعلن ، والغائب والشاهد وما اوتيتم من العلم الا قليلاً .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب

بالنهار) . مر نظيره في الآية ٧٨ من التوبة، والآية ٣ من الأنعام ج ٣ ص ١٥٩ .
 (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) . ضمير له
 ويديه وخلفه يعود الى الانسان ، كما هو الظاهر من سياق الكلام ، ومعقبات
 كناية عن حواس الانسان وغرائزه التي لها تأثيرها في صيانه وحفظ كيانه ،
 و (من) في قوله تعالى : « من أمر الله » بمعنى الباء مثلها في قوله تعالى : ينظرون
 من طرف خفي - ٤٥ الشورى . أي بطرف خفي ، وفي ذلك رواية عن
 الإمام أبي جعفر الصادق (ع) . وقال المفسرون : المراد بالمعقبات الملائكة ،
 وفي بعض التفاسير ان الله يرسل عشرة من الملائكة بالنهار يحرسون الانسان ،
 وعند الغروب يذهب هؤلاء ، ويأتي عشرة آخرون يحرسونه بالليل ، وهكذا يفعل
 مع كل فرد من أفراد الانسان في كل يوم من الأيام ، اما إبليس فيقوم بدور
 الغواية وتضليل الانسان بالنهار ، وأولاده بالليل .

وبالإضافة إلى ان هذا بعيد عن دلالة اللفظ فإن الافهام والأذواق ترفضه وتأباه
 والذي تصوره نحن ان المراد بالمعقبات حواس الانسان وغرائزه التي بها يحفظ
 وجوده وكيانه ، كما أشرنا ، وان المعنى ان الله سبحانه خلق الانسان ، وجعل
 فيه السمع والبصر والادراك وغيرها من الصفات والغرائز لتحرسه وتصونه ، وهذا
 المعنى وان كان بعيداً عن دلالة اللفظ فإنه يتفق مع الواقع ، ولا ينفيه السياق ،
 فبالادراك يميز الانسان بين النافع والضار ، وبالبصر يعرف طريق السلامة ، وبحسب
 الذات يتحفظ من المهلكات .

لا يغير حتى يغيروا :

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . قال المفسرون : ان
 هذه الآية تدل على ان القوم الذين يعيشون بنعمة المال والأمن الجاه فإن الله لا
 يغيرها عنهم ما داموا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، فان عصوا زالت عنهم
 هذه النعمة .

أما نحن فنفسر الآية في ضوء تعاليم الاسلام ، وواقع الحياة ، وما يتجمله لفظ

سورة الرعد

الآية من معنى .. أما تعاليم الإسلام فمن أهمها وجوب جهاد النفس إذا مالت الى المحرمات والموبقات ، أو رضيت بالذل والفقر ، والجهاد بالنفس والمال في سبيل العدل والتحرر من الظلم والرق .. وليس من شك ان من استتكف عن الهوان ، واستهان بالحياة وأبى إلا الكرامة أو الموت شمله الله بعنايته ، وأخذ بيده إلى ما يبتغيه ويهدف اليه . ومن خلد إلى الراحة والكسل مهما كانت نتائجه بخذله الله ، ويتركه الى ضعفه ، ولا ينظر اليه أو يسمع له ، وان ملأ الدنيا تضرعاً وبكاء ، وعبادة ودعاء .

وبهذا يتضح معنى قوله تعالى : ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وانه جلت عظمته يبقى الانسان في البؤس والهوان ، ما دام في جموده وركوده ، لا يقاوم باطلاً ، ولا يحرك ساكناً للتخلص مما هو فيه .. أجل ، ان الله لا يغير ما بنا من فقر حتى نعتد ان الفقر من الأرض لا من السماء ، وحتى نكافح ونجاهد ضد الاستغلال والاستثمار ، وحتى نقيم المصانع ، وننشئ المزارع ، والله لا يغير ما بنا من جهل حتى نبني الجامعات والمختبرات ، والله لا يغير ما بنا من عبودية حتى نثور على الظالمين والمستبدين ، والله لا يغير ما بنا من شتات حتى نخلص التوايا ، ونزيل ما بيننا من الحدود والحواجز .

(واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ) . المراد بالسوء هنا العذاب ، ومتى أراد الله لانسان أو لفئة فلا منجى مما أراد الا اليه ، وهو عادل لا يريده الا لمن يستحقه ، والوالى من صفات الله لأنه يسلي الأمور ويقوم عليها بالعناية والتدبير .

هو الذي يرىكم البرق الآية ١٢ - ١٥ :

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيَسْجُرُ
الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ

يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِينِهِ إِلَى الْمَاءِ
لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَاللَّهُ
يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ *

اللغة :

السحاب الثقيل لأنها مثقلة بالماء . والمحال بكسر الميم الكيد ، يقال : ماحله
محاولة اذا كاده ومكر به ، والمراد به هنا ان الله سبحانه شديد القوة . والظلال
جمع ظل ، وهو خيال الشيء . والغدو جمع غلوة ، والغلوات جمع غداة ،
وهي الصباح . والآصال جمع أصيل وهو المساء ما بين العصر والمغرب .

الإعراب :

خوفاً وطمعاً مفعول من أجله عند أبي البقاء ، ومصدر وقع موقع الحال من
الخطاب في يريكم عند الطبرسي . وكباسط متعلق بمفعول مطلق مخوف أي الا
استجابة كاستجابة باسط كفيه الى الماء . وليبلغ منصوب بأن مضمرة بعد اللام ،
والمصدر المجرور باللام متعلق بياسط ، وفاعل يبلغ ضمير مستتر يعود الى الماء .
وطوعاً وكرهاً قاتنان مقام المفعول المطلق أي سجوداً طوعاً وكرهاً ، أو في موضع
الحال أي طائعين ومكرهين . وظلالهم معطوف على من في السموات . وبالغدو
متعلق بيسجد .

المعنى :

(هو الذي يرىكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقال) . ان الله سبحانه خلق الكون ، وللكون خصائص وسنن لها آثارها وظواهرها ، ومنها البرق والرعد والسحاب والصواعق ، وما الى ذلك مما يشاهده العالم والجاهل ، والمؤمن والمكذب . ولا يعرف شيئاً من حقائقها وطبيعتها الا أهل الاختصاص .. وأسندها سبحانه اليه ، ولم يسندها الى الأسباب الكونية المباشرة ، أسندها اليه من باب اسناد الشيء الى سببه الأول ، والغرض التذكير بأنه سبب الأسباب ، واليه وحده ترجع الأمور كلها .

وقوله تعالى : خوفاً وطمعاً، اشارة الى ان البرق قد يكون نذيراً بالصواعق ، وقد يكون بشيراً بالغيث ، فيخاف الانسان من ذلك ، ويأمل بهذا في آن واحد . (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) . المراد بتسبيح الرعد ما فيه من الدلالة على قدرة الله وعظمته ، تماماً كدلالة الكتابة على الكاتب ، والبناء على الباني ، وبهذا نحمد تفسير قوله تعالى : « وان من شيء الا يسبح بحمده - ٤٤ الاسراء » . أي يدل عليه ، وبتعبير ثانٍ ان كل فعل حسن ومتقن فهو يدل على فاعله بطبعه ووضعه ، ويحمده ويثني عليه بلسان حاله .. وليس من شك ان كل ما في الكون متقن غاية الاتقان فهو يدل على خالقه بوضعه ويثني عليه بلسان حاله .. ومن الطريف قول بعض المتصوفة : ان الرعد صمقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) . وتساءل : ان كلاً من الصواعق والزلازل ظاهرة من ظواهر الطبيعة وسننها .. ومن الواضح ان الطبيعة عبياء لا تميز بين الأنبياء والأشقياء ، وتعم الجميع بخبرها وشرها ، لا فرق عندها بين أشد المكروبات فتكاً وإلذاءً ، وبين أكثر الناس عبقرية وصلاًحاً ، مع ان قوله تعالى : فيصيب بها من يشاء، يشعر بالفرق ؟.

الجواب : المراد بالصواعق هنا العذاب الذي أنزله سبحانه على الذين أصروا على الشرك ، وعاندوا أنبياءهم ورسلمهم كقوم عاد وثمود بدليل قوله تعالى : « فان أعرضوا قفل انزلتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود - ١٣ فصلت » ،

الجزء الثالث عشر

وقوله : « فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم - ١٥٣ النساء » .
وتقدم أكثر من مرة ان القرآن ينطق بعبءه ببعض ، ويشهد بعبءه على بعض .
(وهم يجادلون في الله) . ضمير (هم) يعود الى المشركين ، والمعنى ان هؤلاء
يجادلون في قدرة الله وعظمته ، وفي محمد (ص) ونبوته ، والبعث وامكانه ،
يجادلون ويكابرون مع ظهور الدلائل على قدرة الله ، والمعجزات الباهرة على
نبوة محمد (ص) ونزول العذاب على من جحد وأنكر البعث والحساب (وهو
شديد المحال) أي شديد القوة والبطش بأعدائه وأعداء أوليائه . وبالاختصار
المشركون يجادلون بالقول ، والله يبطش بالفعل « ان بطش ربك لشديد » .

(له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط
كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال) . ان الله هو
الحق ، فمن عمل له ، وتوكل عليه أجزل له الثواب ، ومن عصى وتمرد حق
عليه العقاب ، ومن دعا غيره كالأصنام ونحوها فقد دعا باطلاً وسراباً ، وحجراً
وجاداً لا يضر ولا ينفع (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) تماماً كالظامئ
يحسب الدخان سحاباً ، والسراب ماء ، فيمد كفيه ليملاهما بالماء ، ويفتح فاه
ليشرب ويبرد من غلته ، واذا بالآمال تتبخر الى حشرات وزفرات .

(والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) . مر نظيره مع التفسير
في الآية ٨٣ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠١ .

(وظلالهم بالغدو والآصال) . الظل خيال الجسم الذي يلازمه ويتحرك
نحركته . تماماً كصورة الشيء في المرأة ، وخص سبحانه الغدوات والعشايا بالذكر
لأن الظل يطول ويمتد في هذين الوقتين ، والمعنى ان من في السماء والأرض يسجد
لله ، وكذلك ظلالمها تسجد له .

وتسأل : ان الظل ما هو بشيء في ذاته ، واسمه يدل عليه ، وانما هو تبع
لصاحبه ، ولذا يضرب المثل به على العدم واللاشيء ، فكيف جعله الله طرفاً مقابلاً
لصاحبه ، وعطف أحدهما على الآخر .

وأجاب الصوفية بأن المراد بمن في السموات والأرض الأجسام ، وبالظلال
الأرواح .. والذي تفهمه نحن ان الظلال كناية عن التعيم لكل شيء ، وان كل

ما في الكون يسجد لله، أي يقر بوجوده من باب دلالة المصنوع على الصانع، حتى الظل يسجد له لو كان شيئاً مذكوراً .

هل يستوي الأعمى والبصير الآية ١٦ :

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ فَنَعَا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ ★

الإعراب :

أم هل (ام) هنا منقطعة بمعنى بل وهمزة الاستفهام، أي بل أهل تستوي
الظلمات الخ وهمزة الاستفهام تنفي عن هل ، ولكنها تجتمعان في كلام العرب مثل
أهل كان كذا . ومثلها أم جعلوا أي بل أجعلوا والاستفهام للانكار .

المعنى :

(قل من رب السموات والأرض) . بعد ان ذكر سبحانه ان كل ما في
الكون خاضع لقدرته عاد الى المشركين ، وسألهم بلسان نبيه الكريم : من الذي
خلق الكون بأرضه وسماؤه ؟. هل خلقه الله أو أصنامكم التي تعبدون ؟. ولما كان

الجزء الثالث عشر

السؤال يحمل معه الجواب ، ولا يستطيع المسؤول انكاره أمر الله محمداً ان يجيب عنهم (قل الله) .

(قل أفتأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً) . مرة ثانية ، وتأكيذاً للحجة بأمر الله محمداً ان يقول للمشركين : انكم تعبدون أحمجاراً لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعا فكيف تملك ذلك لغيرها ؟ .. وليست هذه الآية رداً على المشركين وحدهم بل هي رد أيضاً على من قال : ان في عقول الناس غنى عن ارسال الرسل وإنزال الكتب من السماء ، فلقد كان عبدة الأحمجار ، وما زالوا من أهل العقول عند أنفسهم وعند كثير من الناس .

(قل هل يستوي الأعمى والبصير) المراد بالأعمى الكافر لأنه لم يفرق بين الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرراً ، وبين مالك الضر والنفع .. والمراد بالبصير المؤمن الذي يفرق بينها (أم من يستوي الظلمات والنور) الظلمات كناية عن الكفر ، والنور كناية عن الإيمان ، قال تعالى : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور - ١ ابراهيم » أي من الكفر الى الإيمان .

(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) . هنا رد على المشركين ، وخلاصته ان الأحمجار التي تعبدونها لا تخلق شيئاً مثل خلق الله كي تقولوا : الله يخلق ، والأصنام أيضاً تخلق مثله تماماً ، وإذا كان الله مستحقاً للألوهية والعبادة فهي أيضاً تستحق الألوهية والعبادة ، والتوضيح فيما يلي .

عقول الناس لا تفهم عن دين الله :

تنقسم معرفة الانسان إلى قسمين : فطرية ذاتية ، ونظرية اجتهدية ، والفطرية هي التي لا تحتاج إلى جد واجتهاد ، بل تحصل تلقائياً بمجرد التصور ، كالعلم بأن النور غير الظلام ، والعمى غير البصر ، والطول غير القصر ، والحجر مخلوق غير خالق ، ويشترك في هذه المعرفة العلم والجعل على السواء ، ومن أخطأ فيها

١ فرق البعض بين العلم والمعرفة بأن العلم يتعلق بالكمليات ، والمعرفة تتعلق بالجزئيات ، اما نحن فلا نجد فرقاً بينهما ، قال تعالى : « قد علم كل اناس شربهم » ولم يقل قد عرف ، مع العلم بأن شرب كل سبط من اسباط اسرائيل كان خاصاً .

فهو غير معذور .

أما المعرفة النظرية الاجتهادية فلا تحصل تلقائياً وبمجرد التصور ، بل تحتاج إلى إعمال الفكر والجهد والاجتهاد ، كالعالم بأن الماء بسيط أو مركب ، وأن هذا المرض من الأمراض المعدية أو غيرها ، ويسمى هذه النوع بالقضايا النظرية التي تختلف فيها الأنظار باختلاف الأشخاص ومواهبهم ومعارفهم ، والخطأ فيها مغتفر لصاحبه إذا كان بعد الجهد وبذل الجهد، لأن ادراك الصواب في كل شيء متعذر أو متعسر .

والأصنام التي عبدها المشركون لا شبه بينها وبين الإله في وجهه من الوجوه من قريب أو بعيد كي يعذر من شك أو احتمال أنها شريكة لله في خلقه ، كيف وقد بالت عليها الكلاب والثعالب ؟ . فعبادتها أكثر قبحاً وسفهاً من وصف الظلام بالنور ، والعمى بالبصر .

وتسأل : لا ريب في أن المعرفة منها فطرية لا يختلف فيها اثنان ، ومنها اجتهادية يعذر فيها المخطئ ، وأن لفي الألوهية عن الاحجار من البهائم دون النظريات كما قلت .. ولكن المشركين قد عبدوها بالفعل ، وكانوا عقلاء في تصرفاتهم ، فما هو التعليل ؟

الجواب : ان فريقاً منهم عبدها على حرف ، ويقصد الكسب والمنفعة ، وفريقاً آخر عبدها تقليداً بعامل التلقين والوراثة .. ومن الواضحات الفطرية ان سلطان العقل يضعف ويتراجع أمام التقاليد والعادات ، خاصة اذا طال عليها الزمن ، وتوارثها جيل عن جيل ، ومن هنا كان الدين السليم حتماً وضرورة تفرضها طبيعة الانسان بالغاً ما بلغ من العلم والعقل .. فإن كثيراً من الذين تعودوا أساليب العلم وطرقه الدقيقة في هذا العصر يؤمنون بالخرافات .. قال (غوستاف لوبون) في كتاب « الآراء والمعتقدات » : « ان العلماء تبدو عليهم السذاجة كما تبدو على الجهلة الأميين .. فالعالم قلباً يبدو أسنى من الجاهل في الأمور التي ليست من اختصاصه ، وهذه الملاحظة ندرك السبب في ان أفضل العلماء يؤمنون بأشد الأوهام خطراً » . ثم ضرب على ذلك كثيراً من الأمثلة ، منها ان عالماً كبيراً في عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الا ومعه قطعة من حبل المشنوق تقيه برزعه حسد الحاسدين ، وسحر الساحرين .

الجزء الثالث عشر

(قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) . واحد في ذاته ، وفي صفاته وفي خلقه ، وقاهر لكل معاند وعاصٍ لحكم من أحكامه . وفي ج ٢ ص ٣٤٤ ذكرنا الأدلة على وحدانية الباري ، ونعطف عليها ما جاء في كتاب « دفاع عن الاسلام » تأليف (لورافيشيافاغليري) ترجمة الأستاذ منير البعلبكي ، قالت المؤلفة : « دعا الرسول العربي الى عقيدة التوحيد ، وخاض صراعاً مكشوفاً مع بعض النزعات الرجعية التي تقود المرء الى الشرك .. دعا محمد الناس الى قراءة كتاب الحياة ، والتفكير في الكون وسنته ، اذ كان واثقاً بأن كل عاقل لا بد أن يؤمن آخر الأمر بآله واحد » .

فأما الزبد فيذهب جفاء الآية ١٧ - ١٨ :

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ
النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهٗ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ
جَهَنَّمُ وَفِيهَا هُمْ دَاخِلُونَ *

اللمعة :

الزبد بفتح الزين والباء ما يعلو الماء ونحوه من الرغوة ، ويسمى غشاء . والفرق

بينه وبين الفقايع ان هذه منتخبة كنفاحات الأطفال ، والزبد كمرغوة الصابون .
والرابسي العالي ، أي ان الزبد يعلو فوق الماء والحلية تؤخذ من الذهب والفضة .
والمنازع من الحديد والنحاس والرصاص وشبه ذلك . والجفاء بضم الجيم الباطل .
والمهاد بكسر الميم القراش .

الإعراب :

زبد مثله (زبد) مبتدأ مؤخر ، ومثله صفة له ، وخبر المبتدأ محذوف وهو
الذي تعلق به مما يوقدون ، وابتغاء حلية مفعول لأجله ليوقدون . وكذلك الكاف
بمعنى مثل في محل نصب ييضرب . وجفاء حال من الضمير في يذهب . الذين
استجابوا خبر مقدم ، والحسنى مبتدأ مؤخر . والذين لم يستجيبوا مبتدأ ، وجملة
لو أن لهم خبر . وما في الأرض اسم أن ، والمصدر المنسبك فاعل لفعل محذوف
أي لو ثبت أن لهم الخ . وجميعاً حال ، ومثله عطف على اسم أن .

المعنى :

في الآية السابقة قارن سبحانه بين المؤمنين والكافر ، وضرب لذلك مثلين :
الأول المقارنة بين الأعمى والبصير .. فالكافر كالأعمى ، والمؤمن كالْبصير . المثل
الثاني المقارنة بين الظلمات والنور .. والكافر كالظلمات ، والمؤمن كالنور .
وفي الآية التي نحن بصدها قارن جلّت حكمته بين الحق والباطل ، وضرب
أيضاً لذلك مثلين : الأول المقارنة بين الماء الذي يمتكث في الأرض ، ويجعل
للناس الخير والحياة ، وبين الزبد الذي يعلو ويتنفخ طافياً على وجه الماء ، ثم
يقذف به السيل ، ويذهب مع الريح .. والحق كالماء النافع ، والباطل كالزبد
الذي تبدده الأرياح . وهذا ما أراده سبحانه بقوله : (أنزل من السماء ماء فسالت
أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً) . والمراد بقدرها ان كل وادٍ من الأودية
يحتمل من ماء المطر بمقداره سعة وضيقاً وعمقاً .. وما زاد ينسبط على وجه
الأرض .

أما المثال الذي ضربه سبحانه للمقارنة بين الحق والباطل فهو المقارنة بين المعادن تذاب في النار ليصاغ منها الخلى كالذهب والفضة ، أو يصاغ منها آنية أو آلة كالحديد والرصاص والنحاس ، وبين الزبد الذي يطفو فوق المعدن المذاب ، وهذا الزبد يضمحل تماماً كما يضمحل الزبد الذي يحمله السيل .. والحق كالمعدن النافع أياً كان نوعه ، والباطل كالزبد الخبيث الذي يطفو فوق المعدن حين يذاب في النار ، وهذا هو معنى قوله تعالى : (وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) . فقوله : مما يوقدون معناه ان من المعادن ما يذاب في النار ليصاغ منه الزينة أو الآنية أو الآلة ، وقوله : زبد مثله معناه ان للمعادن زبداً لا جلوى منه تماماً كالزبد الذي يحمله السيل .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) . أي يُمثل الله ويُصور الحق بياناً في صورة الماء والمعادن اللذين يُنتفع بهما ، والباطل في صورة الزبد الذي لا ينتفع به (فأما الزبد) وهو الذي يحمله السيل أو يطفو على المعادن إذا أذيت (فيذهب جفاء) باطلاً (وأما ما ينفع الناس) وهو الماء والمعادن (فيمكث في الأرض) للخير والحياة (كذلك يضرب الله الأمثال) للحق والباطل وغيرهما .

ان كثيراً من المعاني يصعب ادراكها على الافهام ، وبالحصوص عند السواد الأعظم ، والتمثيل من أجلى الوسائل لتوضيحها والكشف عنها ، بالإضافة الى ان التمثيل كثيراً ما يضيف على البيان سموً وجمالاً ، وقد ضرب الله الأمثال في العديد من آياته البانية ، منها تمثيله الكفر والإيمان بالظلمات والنور ، والعمى والبصر ، وتمثيله في هذه الآية الحق بالماء والمعدن ، والباطل بالزبد .

وتصور هذه الآية الاسلام في حقيقته ، والأصح تصور المسلم الحق في انه الذي ينفع الناس ، ويستمر نفعه لهم ويدوم ، تماماً كالذي يجي الأرض بعد موتها ، وكالمعدن الصلب تقام به المعامل والمصانع تنتج الآلات والأدوات ، وتبنى الحضارات ، فتقرب البعيد ، وتنشئ الأساطيل ، وتغزو الفضاء ، وتحث الأرض ، وتملأ الدنيا خيراً وأمناً ورخاءً .. والنتيجة الحتمية لذلك ان كل من نفع وأصلح وعمل من أجل حياة الانسان وحرية وأمنه وهنائه فانه يلتقي بعمله هذا مع أهداف الاسلام ، وان لم يكن مسلماً ، لأنه تماماً كالماء والمعدن اللذين ضربهما الله مثلاً

للحق .. وان كل من عمل لشقاء الانسان فما هو من الاسلام في شيء ، وان صام الدهر ، ووصل صلاة الليل بصلاة الفجر .

(للذين استجابوا لربهم الحسنى) . أي لدعوة ربهم ، وهي العمل لمنفعة الناس ، ولحياة أفضل ، أما الحسنى فالمراد بها الأجر والثواب ، وان أهل الحق يتصفون به ، تماماً كما تنتفع الأرض بالماء .

(والذين لم يستجيبوا له) وهم الذين لا خير فيهم كالزبد (لو ان لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتلوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) . تقدم نظيره في الآية ٥٤ من سورة يونس ، والآية ٩١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٦ .

انما انزل اليك من ربك الحق الآية ١٩ - ٢٥ :

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ

بَعْدَ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ*

اللغة :

الدرء الدفع . والعدن بسكون الدال الإقامة ، يقال : عدنَ في المكان اذا أقام فيه . والعقبى من العاقبة ، وهي النهاية التي تؤدي اليها البداية ان خيراً فخير ، وان شراً فشر .

الإعراب :

أفمن يعلم الممزة للاستفهام ، والمراد به الإنكار ، ومن مبتدأ ، وخبره كمن هو أعمى . وانما كلمتان: (أن) التي تنصب الاسم وترفع الخبر ، و (ما) الموصولة . والذين يوفون عطف بيان أو بدل من أولو الألباب . والذين يصلون وما بعده من الموصولات مبتدأ ، والخبر جملة أولئك لهم عقبى الدار ، ولهم متعلق بعقبى . وصبروا ابتغاء وجه ربهم (ابتغاء) مفعول من أجله . وسراً قائم مقام المفعول المطلق أي اتفاقاً سراً وعلانية معطوف عليه ، ويجوز أن يكونا قائمين مقام الحال أي مسرّين ومعلنين . وجنات عدن بدل من عقبى الدار . وسلام عليكم مبتدأ وخبر ، والجملة مفعول لقول عنوف أي يقولون : سلام عليكم . وبما صبرتم (ما) مصدرية ، والمصدر المنسبك متعلق بما تملقت به عليكم .

المعنى :

(أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولو الألباب) . بعد أن شبه سبحانه الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير في الآية ١٦ ،

ثم شبه الحق بالماء والباطل بالزبد في الآية ١٧ - بعد هذا ذكر هنا ان من يؤمن بمحمد فهو البصير الحق ، ومن كفر به فهو الضال الأعمى ، وأخبر تعالى عن هذه الحقيقة بصيغة الاستفهام لتفريع المنكر وتوبيخه (انما يتذكر أولو الألباب) الذين يصنعون لصوت العقل، ومن لا يصغي اليه الا اذا وافق هواه فهو كمن لا عقل له . ثم ذكر سبحانه أوصاف أولي الألباب، وهي تدل بوضوح على ان المراد بأولي الألباب المؤمنون المتقون .

١ - (الذين يوفون بعهد الله) . وكل ما قام عليه الدليل فهو عهد الله ، وعلى الانسان أن يعمل بمؤداه .. ولكن الأبالسة يحرّفون الحقائق على أهوائهم ، ثم ينسبون هذه الأهواء الشيطانية الى الله والحق .. تعالى الله عما يصف المفترّون (ولا ينقضون الميثاق) هذا تأكيد لقوله : يوفون بعهد الله ، حيث يلزم من الوفاء بالعهد انتفاء نقضه ونقيضه .

٢ - (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) . ذكر المفسرون أقوالاً في تفسير ما أمر الله به أن يوصل ، وأقربها الى روح الاسلام ومبادئه قول من قال : ان المراد به مناصرة الانسان لأخيه الانسان ، والتعاون معه على كشف الضر عنه ، وجلب النفع له قريباً كان أو بعيداً .

٣ - (ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) علياً لا نظرياً، وفعلاً لا قولاً فقط ، قال الإمام علي : بالإيمان يستدل على الصالحات ، وبالصالحات يستدل على الإيمان .

٤ - (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) . يجاهدون في سبيل الله، ويصبرون على جراح الجهاد وآلامه ، لا يبتغون جزاء ولا شكوراً الا مرضاة الله وحده .

٥ - (وأقاموا الصلاة) التي أولها التكبير : الله أكبر ، لا كبير سواه كائناً من كان ، والكل لديه سواء ، وآخرها التهليل والتسليم ، لا إله الا هو ولا يعبد سواه ، فلا المال ولا الجاه ولا الأنساب آفة تُعبد ، ولا قوة تُخضع لها الا قوة الله وحده لا شريك له .

٦ - (وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) . المال هو المحك .. أنظر ما كتبناه تحت هذا العنوان في تفسير الآية ٩٢ من سورة آل عمران ج ٢ ص ١٠٧ .

الجزء الثالث عشر

٧ - (ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقي الدار) . المراد بالحسنة هنا الغفر والصفح، وبالسيئة الحق الخاص يكون بين اثنين كالتقصاص، قال تعالى : « كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف - ١٧٨ البقرة » . أما حق الله فلا هودة فيه ، قال تعالى : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر - ٢ النور » .

(جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) . كل الصالحين والطيبين يدخلون الجنة . وإذا كانوا في الدنيا أرحاماً وأحباباً يزدادون فرحاً وسروراً بجمع الشمل ، ويتذكرون أيام الدنيا ، ويشكرون الله على الخلاص من همومها وأعبائها، وإذا اختلفت الأعمال في الخير والشر تقطعت الأنساب والأسباب بينهم يومئذ ، ولا يتساءلون : « فريق في الجنة وفريق في السعير » .

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقي الدار) . يزور الملائكة أهل الجنة تكريماً وتعظيماً . وقوله : بما صبرتم يومئذ إلى أن الجنة محرمة إلا على من جاهد وصبر وتحمل متاع الجهاد ومشاقه . قال الإمام علي (ع) : « الجنة حفت بالمكاره ، والنار حفت بالشهوات ، واعلموا انه ما من طاعة الله شيء إلا يأتي في كره ، وما من معصية الله شيء إلا يأتي في شهوة » .

(والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) . بعد ان ذكر سبحانه الصالحين وأوصافهم ، وما أعد لهم من حسن الثواب والمآب ذكر الفاسدين والمفسدين .. وبالتعبير الدارج بعد أن ذكر انصار الثورة على الفساد ذكر انصار الثورة المضادة ، وطبعي أن يكون هؤلاء في صفاتهم وأعمالهم على الضد من أولئك ، فالصالحون يوفون بعهد الله ، فيعملون بوحى من العقل والضمير وبكل ما دل عليه الدليل والمفسدون ينقضون عهده جل وعلا فيعملون بوحى من الشيطان ، يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون (ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل) . فيتولون الطغاة المجرمين ، ويناصرونهم على الأحرار الطيبين ، تماماً على العكس مما أمر الله به، ونهى عنه .

(ويفسدون في الأرض) بمظاهرة الظالم الغاشم ، وإثارة الفتن والفتن ،

وتفضيل السذج الأبرياء ، وإشاعة التسخ والانعلال ، ونشر الجرائم والموبقات ، ونحو ذلك من أنواع الفساد والضلال (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) . وإذا كان الأشرار في أعمالهم على العكس من الأخيار فمن الطبيعي أن يكونوا أيضاً على العكس في الجزاء والثواب .. للأخيار الجنة ونعم الدار ، وللأشرار جهنم وبئس القرار .

يسط الرزق الآية ٢٦ - ٢٩ :

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُصِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجَبَ *

اللغة :

يسط يوسع . ويقدر يضيق . والمتاع ما فيه متعة ولكنها قليلة . والآنابة الرجوع الى الحق بعد الضلال ، ويقال : انتاب فلان القوم إذا أتاهم المرة تلو المرة . وطوبى من طاب ، وهي تأنيث الأطيع . والمآب المنقلب .

الإعراب :

وما (ما) نافية ، والحياة مبتدأ ، والدنيا صفة ، وفي الآخرة على حذف

مضاف أي في جنب الآخرة ، والمجرور متعلق بمحذوف حالاً من الحياة ، ومتاع خبر . ولولا أداة طلب بمعنى هلا . والذين آمنوا الأول في محل نصب بدل من (من أناب) . والذين آمنوا الثانية كلام مستأنف ، وعملها الرفع مبتدأ أول ، وطوبى مبتدأ ثانٍ ، ولهم خبره ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . وحسن مآب عطف على طوبى ، ويجوز أن تكون طوبى خبر الذين ولها متعلقة بها .

الانسان والرزق :

عند تفسير الآية ١٠٠ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٣١ تكلّمنا مفصلاً عن الرزق وأسبابه بعنوان : هل الرزق صدقة أو قدر ؟. وذكرنا هذه الآية : (الله يسط الرزق ويقدر) فيما ذكرنا من الآيات ، وأيضاً تعرضنا لهذا الموضوع عند تفسير الآية ٦٦ من سورة المائدة ج ٣ ص ٩٤ ، والآن نعود إليه بأسلوب آخر بالنظر لأهميته .

للانسان صفات كثيرة ، منها ذاتية تلازمه ولا تنفك عنه بحال ، مثل أن يكون طويلاً أو قصيراً ، وابن غني أو فقير ، ومنها غير ذاتية مثل أن يكون فلاحاً أو تاجراً أو موظفاً أو طبيباً ونحو ذلك .

وللغنى أسباب، منها النسب أي الغنى عن طريق الميراث وهو مشروع في الدين ، وإن لم يخل تحت قدرة الانسان ، ومنها الاحتكار والاستغلال كالربا والغش والسلب والنهب ، والتجارة بالمحرمات ، وهذا حرام ، ما في ذلك ريب ، ومنها كد اليمين وعرق الجبين ، كالزراعة والصناعة وما إليها ، وهذا خير الأسباب وأفضلها عقلاً وشرعاً .

وللفقر أسباب أيضاً : منها الإهمال والكسل ، وتقع التبعة فيه على الكسول المهمل ، ومنها فساد الأوضاع التي تجعل القيادة والزعامة للخنوة والأهوية ، وتبعد الشرفاء والضعفاء . وهذا السبب يحكم العقل والشرع بتحريمه وعدم شرعيته . وبكلمة ان كلاً من الفقر والغنى له أسبابه المحسوسة المشاهدة بالعيان .

وبهذا يتبين معنا ان الفقر والغنى من صنع الأرض ، لا من صنع السماء في

سورة الرعد

الأعم الأغلب .. حيث يشذ بعض الموارد عن الأسباب المألوفة ، فيسميها البعض بتوفيق من الله ، والبعض الآخر بالصدفة أو الحظ .. ولكن لا أحد يستطيع القول : ان القضاء والقدر يعاكس بعض الناس في كل شيء ، ويحول أبدأ ودائماً بينهم وبين ثمرة جهدهم وأعمالهم ، وانه يخالف آخرين ويناصرهم في كل شيء ، ويحقق لهم أكثر مما يأملون ، وفوق ما كانوا يتصورون من غير سمي وجد .. لا أحد يستطيع أن يثبت ذلك ، والا بطلت المقاييس ، وتخلفت المسببات عن أسبابها ، وكان العمل والتحفظ والاتقان ألفاظاً بلا معنى .

ونسأل : ان قولك هذا لا يتفق مع ظاهر الآية ، وهي قوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ؟ .

الجواب : ان الناس في حياتهم وواقعهم فريقان : فريق موسع عليهم في الرزق ، وفريق مضيق عليهم فيه، وكل من الغنى والفقر يتولد من أسبابه الخاصة التي أشرنا اليها ، وقوله تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) هو وصف لواقع الناس ، وحكاية لحالهم التي هم عليها ، فكأنه يقول : الناس فريقان : غني وفقير .. وأصاف سبحانه الفقر والغنى اليه لتنبيه الأذهان انه تعالى هو خالق الكون الذي فيه شقاء وهناء ، وبؤس ونعيم .. واذا سأل سائل : ولماذا لم يخلق كوناً لا شقاء فيه ولا بؤس أحلناه على ما كتبنا بعنوان : ليس بالامكان أبدع مما كان ، عند تفسير الآية ٧٨ من النساء ج٢ ص ٣٨٤ .

(وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع) . تقدم نظيره مرات ، منها في الآية ١٨٥ من سورة آل عمران ج٢ ص ٢٢٤ ، ونعطف على ما ذكرنا هناك ان فريقاً من الناس يفرحون بالمال لأنه يستر عيوبهم وقبائحهم ، وكثير منهم لا يرون الفضيلة والخير إلا في المال والثراء، والمعروف عن الأمريكيين انهم لا ينظرون الى شيء الا من خلال الدولار، وبه وحده يقيسون عظمة الرجال، حتى العلماء والعابرة قيمتهم ما في جيوبهم ، لا ما في رؤوسهم .

(ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه) . مر نظيره في الآية ١١٨ من سورة البقرة ج١ ص ١٨٩ ، والآية ٣٧ من سورة الأنعام ج٣ ص ١٨٤ ، والآية ٢٠ من سورة يونس وبالحرف الواحد من السورة التي نحن فيها الآية ٧ .

(قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب) . أنظر « الاضلال من الله سببي لا إيجابى » ج ٢ ص ٣٩٩ عند تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، و « الهدى والضلال » ج ١ ص ٧٠ عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة .
 (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا ما بذكر الله تطمئن القلوب) .
 لما ذكر سبحانه أهل المال ، وفرحهم الناشئ عن اطمئنانهم الى عيشهم وحياتهم ذكر المؤمنين ، وانهم هم الذين يطمئنون بذكر الله .. والاطمئنان معنى زائد على أصل الايمان ، وهو ثبات الايمان واستقراره ، أو هو أعلى درجاته ومراتبه ، فقد جاء في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة : « قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » . وفي الآية ١٠٦ من سورة النحل : « وقلبه مطمئن بالايمان » . أي ثابت ومستقر .

أما الذكر فليس المراد به مجرد الكلام الملفوظ المسموع ، وانما المراد به الذكر الذي يزيد الذاكر يقيناً بالله ، وثقة بوعده ووعيدته ، فإذا لم يتحقق هذا الاثر فلا يعد التلطف بالتقديس والتسبيح ذكراً حقيقياً .. والذكر الذي يزيد الذاكر يقيناً وثقة هو المراد من قوله تعالى : « فاذكروني أذكركم - ١٥٢ البقرة » .
 (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) . المراد بطوبى الجنة ، والمآب المرجع والمقلب ، والآية بمعنى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار - ٢٥ البقرة » .

كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُممٌ لَتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنُّ قُرْآنًا سُمِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَهُ الْمَوْتَى بَلْ هُوَ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَأْنَسِ الَّذِينَ

آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ *

اللغة :

خلت مضت . ومتاب اسم مصدر من تاب . وسيّرت به الجبال أي سارت بسببه . وقطعت به الأرض شقت أنهاراً وغيوناً . وكُتِّم به الموتى جعلها تتكلم . وييش يعلم في لغة هوازن . وقارعة مصيبة .

الإعراب :

هو ربي مبتدأ وخبر ، وجملة لا إله إلا هو خبر ثان . ولو ان قرآنًا جواب لو محذوف دل عليه الكلام ، والتقدير لكان هذا القرآن . والمصدر المنسبك من ان لو يشاء مفعول ييش . وبما صنعوا (ما) مصدرية أي بصنعهم ، ويجوز أن تكون موصولة أي بالذي صنعه . وفاعل تحل ضمير مستتر يعود الى قارعة . وقريباً حال من هذا الضمير المستتر .

المعنى :

(كنلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أم لتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن) . الخطاب موجه لمحمد (ص) ، وضمير عليهم يعود إلى الأمة التي أرسل اليهم . وقد أرسل الله من قبله إلى الأمم الخالية رسلاً مبشرين ومنذرين ، وللأية نفسها أرسل محمداً ، فأبي بدع في ذلك ؟ . فاهم بأول قوم أرسل الله اليهم رسولا ، ولا هو بأول رسول يتلو على الناس ما أوحى اليه من

الجزء الثالث عشر

ربه (قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت واليه متاب) . هذا هو إيمان محمد (ص) ، وهذه هي دعوته : يؤمن بالله وحده ، ويلتجئ إليه في جميع أموره ، ولا يرى لغيره من سلطان ، ويدعو الناس جميعاً الى هذا الإيمان ، وهي دعوة تدل على نفسها بنفسها .

تفكير الطغاة :

(ولو ان قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً) . مر نظير هذه الآية في سورة الأنعام ، وتكلمنا حولها مفصلاً بعنوان طراز من الناس في ج ٣ ص ٢٤٨ . وأيضاً يأتي مثلها في الآية ٩٠ وما بعدها من سورة الاسراء ، ونعطف على ما قلناه ان هذه الآية تصور الطريقة التي يفكر بها الطغاة الذين تقوم حياتهم على استغلال الضعفاء واستعبادهم .. فلا الفطرة والعقل ، ولا الحس والمباشرة ، ولا الخوارق والمعجزات ، ولا شيء يغير من عتو الطغاة المستغلين وضراوتهم .. والدافع الأول والأخير هو اخلاصهم لوجودهم وكيانهم الذي يقوم على السلب والنهب .. ومع هذا يريدون محمد (ص) أن يعترفوا به وبالقرآن .. ولماذا يعترفون ؟. ألأن الجبال تسير - بكتاب من السماء - بلا عجلات ، وتكلمهم الأموات ؟. ثم ماذا ؟. وآية جسدوى لهم في ذلك ، بل وفي رؤية الله وجهاً لوجه ؟. هل تزداد أرباحهم ، وتكثر أموالهم ؟.

هذا هو تفكيرهم ، وهذه هي اللغة التي يفهمونها ويصغون إليها ، ولا يستمعون إلى غيرها .. لغة الكسب والريخ الجنيه والدولار ، اما الحق والعدل . اما المنطق والعقل فحديث خرافة يصدقه الأطفال ، ويؤمن به الجهال .. وهل بعد هذا يسأل سائل : كيف لم يؤمن الطغاة بمحمد ، ودعوته دعوة العدل والاحسان ؟. وأي ذنب أعظم من هذه الدعوة التي تتأصل الظلم والفساد من الجنود ؟. وأي عاقل يوقع بيده الحكم بأعدامه ؟.

بهذه الطريقة وحدها يفكر الذين تقوم حياتهم على السلب والنهب في كل زمان ومكان .. فكر بها أبو جهل وأبو سفيان في عهد محمد (ص) ، وفكر بها في

عصرنا هتلر وموسوليني ، وتفكر بها اليوم وفي عصر الفضاء الدول الاستعمارية بقيادة أمريكا ، وكفى دليلاً على ذلك أنها تضغط بكل قواها على أعضاء الأمم المتحدة كي يتجاهلوا أية قضية تمت الى العدالة بسبب ، فإذا فشلت في هذا الميدان وقفت موقفاً صريحاً ومعادياً لكل شعب يطلب العدل والانصاف من المعتدين عليه ، وناصرت الظلم والطغيان أينما كان ويكون ، وسواء أجهز من اسرائيل أم البرتغال أم الحكومة العنصرية في روديسيا وجنوب افريقيا، أو غيرها .. والسر هو اخلاص الولايات المتحدة لطبيعتها أو لنظامها كقائد للاستعمار الحديث في هذا العصر، ومصير هذه القيادة تماماً كمصير النازية الهتلرية وغيرها ، وقد ظهرت الدلائل في فيتنام ، أما الاستياء من سياسة المستعمرين فقد عم الشرق والغرب ولن يمر هذا الاستياء دون أن يترك أثره الفعال .

وكنت من قبل أعجب من بعض الناس كيف يستهينون بالطيبين المخلصين ، ولا يقدرُونهم حق قدرهم ، وكيف يرونهم كغيرهم من الأناس العاديين ، حتى ولو أتوا بالعجب العجائب ، وضحوا بأعز ما يملكون من أجل احقاق الحق ، عجبت من ذلك حتى وصلت بالتفسير الى هذه الآية فأدركت ان هذا التفسير ليس مقصوداً على من أفسد وطني بالفعل ، فإن كثيراً من الناس قد أسقطوا من حسابهم جميع الفضائل والقيم ، ولم يقيموا وزناً الا للكسب والريخ تماماً كغيرهم من الذين حاربوا محمداً، ووقفوا في هيئة الأمم ومجلس الأمن في جانب اسرائيل وعدوانها سوى ان هؤلاء تمهد لهم السبيل الى الفساد والطغيان فسلوكوه ، ولما عجز عنه الذين يستهينون بالخير وأهله وقفوا موقف الحياذ .

(أفلم ييhs الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً) . قال الطبري: اختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى قوله تعالى : أفلم ييhs .. ثم قال : والصواب ان تأويل ذلك أفلم يتبين ، ونقل هذا التفسير عن جماعة كثر ، منهم الإمام علي (ع) . ونحن من الذين يؤمنون بأن أهل البيت أدري بالذي فيه . ومهما يكن فإن المقصود بالذين آمنوا صحابة الرسول الأعظم (ص) حيث تمنوا مثلهم في ان يؤمن المشركون بالله ورسوله ، فقال لهم جلت عظمتة : إلى متى تطعمون في إيمان المشركين ؟ ألم تعلموا وتبينوا انهم لا يؤمنون بحال حتى ولو كلمهم

الجزء الثالث عشر

الموتى ، وسارت الجبال ؟.. دعوهم وطفانيهم ، ولو شاء الله أن يلجئهم الى الايمان لفعل ، ولكن حكمته تعالى قضت بأن يترك الانسان وما يختاره لنفسه حرصاً على حريته وانسانيته ، ولو سلبه الحرية والارادة لم يكن شيئاً مذكوراً ، ولما استحق مدحاً أو ذمماً ، ولا ثواباً أو عقاباً .. انظر تفسيرنا لقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين - ١١٨ هود » .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله) . المراد بالذين كفروا من كذّاب بنو عمدة (ص)، والمعنى انه تعالى لا يترك في الدنيا هؤلاء المكذبين من غير تأديب ، بل ينزل عليهم الكوارث والبلايا الحين بعد الحين بسبب موقفهم من رسول الله (ص) ، أو ينزل مصيبة من حولهم تملأ قلوبهم خوفاً ورعباً ، ويتابع ذلك حتى ينجز الله وعده لنييه بالنصر (ان الله لا يخلف الميعاد) . كيف ؟. ووعدته أصدق الوعد ، والصحابة وكل مؤمن على ثقة بأن الله منجز وعده ، وناصر جنده لا محالة .

وقد استهزى برسول من قبلك الآية ٣٢ - ٣٤ :

وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ
الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ *

اللفظة :

امليت امهلت . وقائم على نفس أي رقيب عليها ومدبر لأموها .

الإعراب :

كيف خبر مقدم لكان ، وعقاب اسمها ، والأصل عقابي . والجملة مفعول لفعل محذوف أي فانظر كيف الخ . أفن (من) اسم موصول مبتدأ والخبر محذوف أي كمن ليس كذلك . وهو قائم مبتدأ وخبر ، والجملة صلة الموصول . أم تنبئونه (أم) منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل أنبئونه . ومن يضل (من) مبتدأ وفا نافية ، وله متعلق بمحذوف خبراً لها ، ومن الداخلة عليه زائدة اعراباً ، والجملة خبر من يضل الله .

المعنى :

(ولقد استهزى برسلك من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) . يقول سبحانه لنبيه محمد (ص) : اصبر وامض في دعوتك ، وهون عليك أمر الذين كذبوك وسخروا منك وابعدوا في اقتراحاتهم عليك ، فلقد فعل فعلهم من كان قبلهم ، فأطلت لهم ومددت الأجل ، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، وهذه بالذات عاقبة الذين كذبوا برسالتك .

وما أرسل الله نبياً الا وهو مزود بأمرين : العلم بالأدلة الكونية والعقلية على وجود الخالق ووحدانيته ، ومعجزة تظهر على يده ، وتدل على نبوته ، وبالأولى يُقنع الناس بالتوحيد ، وبالثانية يقنعهم بأنه رسول من ربه ، وكان الذين لا يؤمنون الا بمنافعهم وأرباحهم يستهزئون ويسخرون من الأنبياء وأدلتهم ومعجزاتهم ، والله يمد لهم الأجل ليؤبوا الى رشدهم ، وليُعذر اليهم بالاملاء ، كما اعذر اليهم بالحجج .

الجزء الثالث عشر

(أفن هو قائم على كل نفس بما كسبت) يحرسها ويراقبها ويحصى عليها كل شيء ويجازيها بالثواب ان أحسنت ، وبالعقاب ان أسأت ، أفن يكون بهله الصفات يُجمل الأبحار شريكة له ؟.. (وجعلوا لله شركاء) لا يشبهونه بشيء (أفن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون - ١٧ النحل) ؟.. (قل سموهم) أي اذكروا أيها المشركون صفة واحدة لأصنامكم تستحق بها العبادة .. وهذا التحدي يشبه السخرية والتهمك ، تماماً كما لو قال الجبان : أنا أشجع الشجعان . فتقول له : اذكر لنا شاهداً واحداً على شجاعتك .

(أم تبتئونه بما لا يعلم في الأرض) . الله يقول : لا شريك لي . وهم يقولون له ، بل لك شركاء كثيرون .. ومعنى قولهم هذا في واقعه ان الله لا يعلم وهم يعلمون ، وانهم يخبرونه بشيء يجهله .. تعالى الله عما يصفون ، وبتعبير أهل المنطق اذا وجد الملزوم وجد اللازم ، واذا انتفى اللازم انتفى الملزوم - اذا وجدت الشمس وجد النهار ، واذا انتفت الشمس فلا نهار ، واذا انتفى النهار فلا شمس أيضاً ظاهراً وواقعاً .. وكذلك اذا وجد الشريك علم الله بوجوده حقاً ، وحيث ان الله لا يعلم به فلا شريك ، والا يلزم جهله تعالى الله عن ذلك .

وانما خص سبحانه الأرض بالذكر مع انه تعالى لا شريك له في الأرض ولا في السماء ، لأن الحديث يتعلق بالأصنام ، وهي في الأرض لا في السماء .

(أم بظاهر من القول) . وضعت الكلمات لتدل على معنى موجود ، وأية كلمة لا تدل على ذلك فهي شيء في الظاهر ، ولا شيء في الواقع ، وكلمة شركاء الله من هذا الباب أسماء بلا مسميات : « ان هي الا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن - ٢٣ النجم » ، ومر نظيره في الآية ٧٠ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٤٨ ، والآية ٤٠ من سورة يوسف .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) . معنى المكر في اللغة الخداع ، وقد خُذع المشركون بالأصنام ، فظنوها شريكة لله في خلقه ، وزينت لهم أنفسهم هذا المكر والخداع (وصُودوا عن السبيل) بالبناء للمجهول أي ان الذي زينته له أنفسهم صداهم عن الحق والإيمان بالله ووحدايته (ومن يضلل الله فما له من هاد) . أنظر

سورة الرعد

تفسير الآية ٨٨ من سورة النساء ، فقرة : الاضلال من الله سلبى لا ايجابى ، ج ٢ ص ٣٩٩ .

(لهم عذاب في الحياة الدنيا) بالخزي والهوان (ولعذاب الآخرة أشق) لأن كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه ، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه ، كما قال الإمام علي (ع) . (وما لهم من الله من واق) بقيهم العذاب ويدفعه عنهم .

مثل الجنة الآية ٣٥ - ٣٨ :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ
وَوَظْلُهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ* وَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ
بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ
مَآبٍ* وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا وَعَرَبِيًّا وَلَكِنَّ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرُّسُولِ أَنْ
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ*

اللفظ :

الأكمل بضم الهمزة المأكول . والمراد بالكتاب القرآن وبالذين آتيناهم الكتاب

الجزء الثالث عشر

صحابة النبي (ص) لأنهم هم الذين فرحوا به عند نزوله ، والمراد بالأحزاب أهل الأديان الذين تحزبوا وتعصبوا ضد الاسلام ، فإنهم يكفرون ببعض القرآن ويؤمنون ببعض . والمآب المرجع . والوأي الحافظ .

الإعراب :

قال المفسرون : ان سيويه أعرب مثل الجنة مبتدأ ، والخبر محذوف أي فيها ينزل عليكم مثل الجنة ، والمعنى ان وصف الجنة هو ما ذكرناه في القرآن . والتي عطف بيان من الجنة ، والعائد على الاسم الموصول محذوف أي وعد بها المتقون ، وجملة تجري حال من الجنة . وأكلها دائم مبتدأ وخبر ، وظلها أي وظلها دائم . ومن الأحزاب خبر مقدم ، ومن ينكر مبتدأ مؤخر . وحكماً حال من هاء أنزلناه ، وعربياً صفة للحكم . والمصدر المنسبك من ان يأتي اسم كان .

المعنى :

(مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها) . لما ذكر سبحانه عقاب الكافرين ذكر ثواب المتقين ، كما هو شأنه تعالى في المقارنة بين الضدين والمتشابهين ، وثواب المتقين الجنة بنعيمها الدائم أنهاراً وثماراً وظلالاً (تلك عقبى الذين اتقوا) . تلك إشارة الى الجنة ، والعقبى المنقلب والمصير ، والمتقون هم الذين يناصرون الحق وأهله ، ويقاومون الباطل وأهله ، وفي بعض الأخبار : ان الإيمان فوق الاسلام ، والتقوى فوق الإيمان ، واليقين فوق التقوى والمراد باليقين الثقة بالله ، والتوكل عليه .

(وعقبى الكافرين النار) . وليس المراد بالكافر هنا خصوص من جحد بالله أو اشرك به ، بل كل من عاند الحق ، وهو به علم .. فقد جاء في كثير من الأخبار ان النفاق كفر ، والرياء شرك . وقد وصف سبحانه الظالمين بالكفر في الآية ٩٩ من الاسراء : « فأبى الظالمون إلا كفوراً » كما وصف الكافرين والمشركين بالظلم في العديد من الآيات .

الشعة الإمامية والصحابة :

دأب بعض الماجورين والجاهلين على إثارة الفتن والنعرات بين المسلمين لتشتيت وحدتهم وتفريق كلمتهم ، دأبوا على ذلك عن طريق الدس والافتراء على الشيعة الامامية ، وذلك بأن نسبوا اليهم النيل من مقام الصحابة : وتأليه علي ، والقول بتحريف القرآن الذي يهتز له العرش .. وما إلى ذلك من الكذب والبهتان .. وكتب المقالات الطوال في الرد على هؤلاء الأدعياء والعملاء ، ثم وضعت في الشيعة الامامية كتاب « مع الشيعة الامامية » . و « الشيعة والحاكمون » . و « الاثنا عشرية وأهل البيت » . و « الشيعة والتشيع » وهو أكبر وأضخم من الجميع ، وغرضي الأول من المقالات والمؤلفات جلاء الحقيقة لمن يرغب في معرفتها ، وابطال ما قيل أو يقال حول هذه الطائفة من الافتراءات والأكاذيب .

وأشرت هنا إلى ما كتبت وألفت في هذا الموضوع لمناسبة تتضح مما يلي :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل اليك) . قال أبو حيان الأندلسي والزنجشري والشيخ المراغي والبيضاوي وغيرهم من علماء السنة قالوا : المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بمحمد من اليهود والنصارى .. وقال الطبرسي في مجمع البيان ما نصه بالحرف : « يريد الله سبحانه أصحاب النبي (ص) الذين آمنوا به ، وصدقوه وأعطوا القرآن ، وفرحوا بإنزاله » . والطبرسي من أجل علماء الشيعة الامامية وثقاتهم (ت ٥٤٨ هـ) .. فالكثير من علماء السنة فسروا الآية بمن أسلم من أهل الكتاب ، وفسرها الشيعة الامامية بصحابة الرسول الأعظم (ص)، ولو كانوا ينالون من مقام الصحابة لاتجه شيخهم الطبرسي في تفسير هذه الآية الى غير هذا الوجه .. وبهذا يتبين الدس ممن نسب اليهم هذه القرية .

وكان ابان بن تغلب أحد الكبار في تلامذة الإمام جعفر الصادق (ع) ، حتى ان الإمام كان يأمر الشيعة أن يأخذوا الدين عنه ، وفي ذات يوم سأله رجل عن الشيعة ؟ . وكان يدعى هذا السائل « أبو البلاد » . فقال له ابان : انهم الذين اذا اختلف الناس في الرواية عن النبي (ص) أخذوا برواية علي عن النبي ، واذا اختلف الناس في قول علي (ع) أخذ الشيعة بقول جعفر الصادق عن علي ..

الجزء الثالث عشر

فالمسألة - إذن - عند الشيعة الامامية مسألة ثقة بالرواية عن محمد (ص) لا مسألة سب وشتم أصحاب محمد .. والسر لاعتماد الشيعة على أهل البيت فيما ثبت عن جسدكم ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي (ص) باب « من فضائل علي بن أبي طالب » انه قال : « انا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي ، فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : وأهل بيتي اذكركم الله في أهل بيتي كررها ثلاثاً » .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) . المراد بالأحزاب أهل الملل والأديان الأخرى كاليهود والنصارى وغيرهم ممن أنكروا ما يخالف أهواءهم ، واعترفوا بما يوافقها من القرآن .. ومن الواضح ان اعتراف هؤلاء ، وانكارهم سواء ، لأنه اعتراف بما يهون ، لا بالقرآن (قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به اليه ادعو اليه مآب) . هذا هو الاسلام : لا إله إلا الله له الملك واليه وحده الدعوة الى العبادة ، واليه المرجع والمصير .

(وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) . المراد بالحكم القرآن لأنه حكم الله ، وما عداه حكم الجاهلية ، كما قال سبحانه : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون - ٥١ المائدة » . وكما أرسل الله كل نبي بلغة قومه فقد أرسل محمداً كذلك : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم - ٤ ابراهيم » . وعند تفسير الآية ٢ من سورة يوسف بيتنا السبب لتزول القرآن بلغة العرب مع ان محمداً رسول الله الى الناس جميعاً .

(ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جامعك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق) . الخطاب لمحمد ، والضمير في أهوائهم الى الأحزاب من أهل الملل والأديان - غير الاسلام - والله يعلم ان النبي لا ولن يتبع أهواءهم .. والغرض من هذا النهي ان يثبت ويستمر في الدعوة الى الحق ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، وقدمنا أكثر من مرة ان الأمر من الأعلى لا يلحظ فيه مقام المأمور بها بل من العظمة ما دامت دون عظمة الأمر .

(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية) . اذا أفهم المبطل

ولم يجد حجة يتذرع بها أخذ باللف والدوران ، وقاس الأشياء بخياله وأوهامه ، وهذه هي بالذات حال المشركين مع محمد (ص) .. أتاهم بالدلائل والبيّنات، ولما عجزوا عن ردها قالوا : كيف يكون نبياً ، وله نساء وأولاد ؟. وهذا المنطق العليل يتفق تماماً مع منطق الذين آمنوا بالرهبانية وقد رد الله عليهم بأن محمداً كنوح وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم من الأنبياء والرسل الذين لهم نساء وأبناء ، فأني عجب في ذلك ؟. وفي الحديث عن النبي (ص) انه قال : « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام ، وأكل اللحم ، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) . وهذا رد أيضاً على المشركين الذين اقترحوا على رسول الله أن يأتيهم بما يهونون من المعجزات .. ووجه الرد ، ان الله سبحانه قد زود نبيه محمداً بما هو كاف واف في الدلالة على نبوته لمن تدبر واعتبر ، وطلب الحق لوجه الحق ، أما الاستجابة لأهواء العنود المكابر فلا يحتملها عقل ولا عرف ، وأمرها متروك الى الله وحكمته جل وعز (لكل أجل كتاب) . لكل شيء أجل معجزة كان أو عذاباً أو غيرهما ، ولأجل محنوم لا يتقدم ولا يتأخر ، وهو مكتوم أيضاً لا يعلمه الا الله .

بحر الله ما يشاء ويثبت الآية ٣٩ - ٤٣ :

يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ * وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضُ
الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيْنِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ
وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ
عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ *

الجزء الثالث عشر

اللغة :

المراد بالمحو ها نسخ الأحكام . وأم الكتاب أصله ، وعلمه تعالى هو الأصل لجميع الكتب السماوية . وأطراف الأرض جوانبها . وقيل : الأطراف هنا جمع طَرف بكسر الطاء ، وهو الشيء الكريم ، وإن الأرض تنقص بموت كرامها . وهذا المعنى بعيد عن سياق الآية . ولا معقب لحكمه أي لا راد له .

الإعراب :

أما مركبة من كلمتين : ان الشرطية وما الزائدة اعراباً . ونرينك مضارع مبني على الفتح لانصاله بنون التوكيد . وجواب الشرط لأنما عليك البلاغ . وجملة تنقصها حال من ضمير نأتي . ولا معقب (لا) نافية للجنس ومعقب اسمها ولحكمه خبر . والجملة حال من ضمير يحكم . وكفى بالله الباء زائدة اعراباً ولفظ الجلالة فاعل كفى ، وشهيداً حال أو تمييز على معنى من شهيد . ومن عنده (من) اسم موصول في محل جر عطفاً على لفظ الجلالة ، أي وكفى بمن عنده ، وعنده خبر مقدم ، وعلم الكتاب مبتدأ مؤخر ، والجملة صلة الموصول .

المعنى :

(يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) . أم الكتاب كناية عن علمه تعالى بما كان ويكون ، ولو جاز لنا تفسير الألفاظ بالذوق والاستحسان لفسرنا الكتاب بالكون ، والأم بعناصره وأسراره ، لأن الله كتابين وفي كل منها آيات بينات على وجوده ووحدانيته ، وجلاله وعظمته : أحدهما ينطق بلسان الحال ، وهو الكون . والآخر بلسان المقال ، وهو القرآن .

أما المحو والاثبات فقد نقل الطبرسي في معانها ثمانية أقوال ، وأقربها ان المراد بالمحو نسخ الشريعة كالشرائع القديمة ، أو نسخ بعض أحكامها كنسخ الصلاة الى بيت المقدس من الشريعة الإسلامية . أما الاثبات فالمراد به إقرار الأحكام

سورة الرعد .

ورسوخها إلى يوم القيامة ، وعليه يكون المعنى ان الله سبحانه ينسخ أو يقر الشريعة كلاً أو بعضاً حسبما تستدعيه الحكمة والمصلحة ، وهو جلت عظمته عالم بما يصلح العباد وما يفسدهم ، فينهاهم عن هذا ، ويؤمرهم بذلك دوماً أو مؤقتاً على مقتضى علمه بأمد المضار والمنافع .. وتكلمنا عن النسخ عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٩ .

(وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) .
هذه الآية تتصل بالآية ٣١ من هذه السورة ، وهي قوله تعالى : « ولا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله » . ووجه الاتصال ظاهر حيث قال الله لبيته : انه سينزل العذاب على من كذبه لا محالة ، ثم قال له في الآية التي نحن بصدها : سواء أريناك عذابهم أم توفيناهم قبل ذلك فان مهمتك الأولى والأخيرة ان تؤدي رسالتك على وجهها وكفى وما عدا ذلك علينا ، لا عليك .

(أو لم يروا أنا أنأتي الأرض ننقصها من أطرافها) . الأرض كرة لا أطراف لها كما للجسم المسطح ، ولكنها كبيرة تتسع للملايين الأجناس والأنواع من الكائنات والمخلوقات ، وهي في تغير دائم .. فيينا يرى الانسان أو يسمع ان هذه البقعة من الأرض أهلة بالسكان وأسباب الحضارة وأنواعها ، وتلك البقعة صحراء جرداء واذا بالآهلة خراب يباب ، وبالصحراء جئات وعيون .. وأهل الأرض كذلك : حضارات تحيا ، وأخرى تموت ، وملك يقوم ، وآخر يزول .. وهكذا قوايك ، لا يدوم بؤس ولا نعيم في هذه الأرض .. قال الإمام علي (ع) : « احزنوا الدنيا فانها غدارة غرارة ، خدوع معطية منوع ، ملبة نزوع ، لا يدوم رخاؤها ، ولا ينقضي عناؤها » . وقوله تعالى : (ننقصها من أطرافها) يشير الى هذا المعنى ، وان العاقل يتعظ ويعتبر بهذه التقلبات والتغيرات : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم - ١٠٩ يوسف » .

(والله يحكم لا عقب لحكمه وهو سريع الحساب) . وقد حكم بالهلاك على القوم المجرمين ، فنفسد فيهم حكمه وبأسه : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » - ١١ الرعد .

(وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً) . والمراد بمكر الله ابطال مكر الماكرين وتدبيرهم . انظر تفسير الآية ٥٤ من سورة آل عمران ، فقرة الله خير الماكرين ج ٢ ص ٦٨ (يعلم ما تكسب كل نفس) لأنه واسع علم (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) يوم يتقلبون الى ربهم ، ويقولون : هذا يوم عسير .

(ويقول الذين كفروا لست مرسلًا) . أنكروا رسالة محمد (ص) رغم البينات والدلائل .. لأنها حرب وثورة على الظلم والطغيان ، وعلى كل تقليد يحول دون الانسان وحرية وأمنه وسعادته .

راحة الضمير والوجدان :

(قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) . أمر الله نبيه في هذه الآية ان يقول للمشركين : اذا انكرتم رسالي فإن الله يشهد بأنني رسول من عنده ، وأيضاً المنصفون من علماء التوراة والانجيل يشهدون بذلك .. هذا هو المعنى الظاهر ، وهو المراد ، وعليه جميع المفسرين ، ونحن معهم ، ولكننا نلمس من وراء هذا الظاهر معنى كبيراً وجليلاً ينطبق على كل من آمن بالحق وعمل به ، وأنكره عليه المفسدون في الأرض ، ولاقى منه ما لاقاه الأنبياء والمصلحون ، ويتلخص هذا المعنى الكبير الجليل الذي ترمز اليه الآية بأن كل من استراح ضميره الى شيء وشهد معه الوجدان السليم فإن الله أيضاً يشهد وملائكته والمنصفون من عباده بأنه على حق . نبياً كان أو غير نبي .

وتسأل : متى يكون الانسان مرتاح الضمير ، ويشهد معه الوجدان السليم ؟ .
الجواب : ان الانسان لا يكون من أهل الضمير الحي والوجدان السليم الا اذا آمن بقيم انسانية كالعدالة والحرية والصدق والأمانة ، وما الى ذلك مما يعود خيره على الجميع ، ومتى آمن الانسان بالقيم ، ولازم بين تصرفاته وإيمانه استراح ضميره وشهد له وجدانه ، ومتى وقع الانفصال بين التصرف والإيمان تأرق ضميره ، وأنحى عليه لوماً وتقريعاً .

وأهل الضمير والوجدان لا يهتمون الا بقيمتهم أمام ضميرهم ، وأمام الناس الطيبين من أمثالهم الذين يشاركونهم الإيمان بالمثل والقيم الانسانية ، أما قيمتهم عند من لا ضمير له ، ولا يرى الا نفسه وصالحه فلا يهتمون بها على الاطلاق ، بل يتهمون أنفسهم ، ويتوبون الى الله اذا رضي عنهم المفسدون .

وفي يقيني ان أكثر الناس سعادة هم أهل المبادئ الحقّة الذين لا يعملون الا بما استراحت اليه ضمائرهم .

وتقول : ان كثيراً من الناس يشعرون بالسعادة اذا وجدوا ما يبتغون ، ومع ذلك لا يؤمنون بقيمة ولا مبدأ .. وهل السعادة الا شعور الانسان بأنه يجد ما أراد؟ وهل الشقاء الا الاحساس بحرمانه مما يريد ؟.

الجواب : أولاً ان حديثنا مقصور منذ البداية على أهل الضمير دون غيرهم ، وهؤلاء لا ضمير لهم . ثانياً : ان كثيراً من الذين يجاهرون بانكار القيم يقرونها في قرارة أنفسهم، ولكن لما غلبت عليهم شقوتهم حاولوا اخفاء هذا القلب والعجز بانكار ما يقرون ويؤمنون، وقالوا كاذبين على أنفسهم : لو كان هناك قيم لالتزمنا بها وحرصنا عليها ، تماماً كما ينكر المجرم جريمته وهو على يقين منها .

سورة ابراهيم

سورة ابراهيم

مكية ، وعدد آياتها ٥٢ ، وقيل : منها آيتان مدنيتان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدين نور الآية ١ - ٤ :

الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَيُؤْتِلُ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ
فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اللغة :

العزيز الغالب . والحميد المحمود .. والويل الهلاك. ويستحبون يختارون ويؤثرون.
وبلسان قومه بلغتهم .

كتاب خبر مبتدأ محذوف أي هذا كتاب . وجملة أنزلناه صفة لكتاب . والى صراط العزيز بدل من قوله الى النور باعادة حرف الجر . والله الذي (الله) بدل من العزيز، والذي له ما في السموات الخ. صفة لله أي مالك السموات والأرض وما فيها . وله خبر مقدم وما مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول . وويل مبتدأ، وللكافرين خبر . والذين يستحبون عطف بيان من الكافرين أو صفة أي المستحبين . وعوجاً مصدر في موضع الحال أي معوجين ضالين. ويجوز أن يكون عوجاً مفعولاً به اذا قدرت ويغنون لها العوج . فيضل بالرفع ، ولا يجوز النصب بالعطف على لينين ، حيث يصير المعنى ان الله أرسل الرسول ليضل .

المعنى :

(آء) تقدم نظيره في أول سورة البقرة. (كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد) . المراد بالكتاب القرآن ، وأنزلناه اليك الخطاب لمحمد (ص) ، وإذن ربهم أي بأمر الله تعالى ، وتدل الآية بوضوح على ان الهدف الأساسي من ارسال محمد (ص) وانزال القرآن عليه هو ان يجند بدعوته كل طاقات الناس للعمل متكاتفين متضامنين من أجل الإنسانية وخيرها واطمئنانها ، لأن اخراج الناس من الظلمات الى النور لا يتم بالدعوات والصلوات ، وانما يكون بالجهاد الجماعي لا الفردي ، وكفاح المنظمات لا الأفراد ، كفاحهم ضد المستغلين والمستثمرين ، وضد الجهل والخرافة ، وضد الأوضاع الفاسدة ، والتقاليد البالية .

وبالفعل آخى محمد (ص) بين أصحابه ، وبث فيهم روح الصفاء والمحبة ، وروح الفداء والتضحية لإعلاء كلمة الله والانسانية، وجعل منهم - وهم الأجلاف الجاهليون - رسل خير وعلم وحضارة .. وبهذه المناسبة ننبه الأذهان الى الدجالين والانتهازيين الذين يشجعون الخرافة ، ويناصرون الطفافة باسم الدين .. ان هؤلاء

الجزء الثالث عشر

من أعدى أعداء الله ورسوله ، لأن الدين نور ، والخرافة ظلمات ، والدين صراط الله الحميد ، والظلم صراط الشيطان الرجيم .

وتسأل : نقول الآية ٣٣ من سورة التوبة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . ومعنى هذا في ظاهره ان الله أرسل محمداً بقصد أن يكون دينه فوق الأديان ، فما هو وجه الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : (لتخرج الناس من الظلمات الى النور) ؟ .

الجواب : أولاً ان المراد بالدين في قوله : ليظهره على الدين هو الشرك بدليل قوله : ولو كره المشركون . ثانياً : ان الأديان في عهد محمد (ص) كانت كلها ظلمات ، حتى السماوية منها لعبت بها أيدي التحريف . ثالثاً : ان اعلاء دين محمد هو اعلاء للحق الذي نعلو ولا يُعلَى عليه ، ومهما يكن فإن أي مبدأ ينتفع به الناس بجهة من الجهات فانه يلتقي في هذه الجهة مع دين الله ، ودعوة محمد رسول الله (ص) .

(الله الذي له ما في السموات وما في الأرض) . تكرر هذا في كتاب الله عشرات المرات ، والقصد التذكير بأن الله هو خالق الكون ، والمسيطر على من فيه وما فيه . ثم ذكر سبحانه جزاء الكافرين ، وطرفاً من صفاتهم :

١ - (وويل للكافرين من عذاب شديد) . هذا وعد ووعد للكافر على كفره ، وان جزاءه الهلاك والعذاب الأليم ، قال الرازي : انما خصهم بالويل لأنهم يولون من العذاب ، ويقولون : يا ويلاه .

٢ - (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) . هذا أول وصف للكافرين وهو انهم يؤثرون الباطل على الحق ، والظلم على العدل ، والفساد على الصلاح .. وكل من كان كذلك فهو كافر ، أو يلتقي مع الكافرين في عمله ، وعليه ما عليهم من اللعنة والعذاب ، وان صلتى وصام ، وحج الى بيت الله الحرام .

٣ - (ويصلون عن سبيل الله) فيمنعون الناس عن طريق الحق والهداية ، وكانوا بذلك ضالين مضلين ، وفاسدين مفسدين .

٤ - (ويغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد) . وعوجاً تشير الى انهم يتوصلون الى غاياتهم بأساليب ملتوية ومحرفة ، كالكذب والغش والمؤامرات والتعاون

سورة ابراهيم

مع الطفلة ، ولا يختص هذا الوصف بالكافرين والمشركين ، فان كثيراً من المسلمين يكذبون ويخونون ويتآمرون مع أعداء الله والوطن على عيال الله ومقدراتهم .. وهؤلاء شر مكاناً من الكافرين وأضل سبيلاً . وقوله تعالى : في ضلال بعيد معناه انهم أمعنوا في الضلال والفساد ، حتى بلغوا غايته .

(وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) فيفهموا عنه ، وتحقق الغاية من رسالته ، ولو وجدت لغة انسانية عامة تفهمها جميع القوميات لأُرسل بها محمد (ص) لأنه رسول الله الى الناس جميعاً في كل زمان ومكان .. وينبغي التنبيه الى الفرق بين قوله تعالى : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ، وبين القول : ما أرسلنا رسولاً الا الى أهل لغته ، فالصيغة الأولى لا تمنع ان يكون الرسول عاماً ، ولغته خاصة ، على عكس الصيغة الثانية ، حيث تنحصر رسالة الرسول بقومه وحدهم .. انظر تفسير الآية ٢ من سورة يوسف .

(فيضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) . أرسل الله رسله الى عباده لانقاذهم من الجحالة والضلالة ، فمن استمع وأطاع فهو المهتدي ، ومن أعرض وعصى فهو الضال ، فالهداية - اذن - تقاس بطاعة الله ، والضلال بمعصيته .. ولو ان الله لم يشرع أحكاماً ، ولم يرسل رسلاً لتبليغها لما كانت الطاعة والمعصية ولا الهدى والضلال ، ولكنه تعالى شرع وأرسل ، فتتج عن ذلك الطاعة والمعصية والهدى والضلال ، وبهذا الاعتبار صحت نسبة الهدى والضلال اليه جلت حكمته . انظر ج ١ ص ٧٠ و ج ٢ ص ٣٩٩ .

ولقد أرسلنا موسى بالآية ٥ - ٨ :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ*
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ

آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنَّ نَكَفَرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَأَبْأَ اللَّهُ لَعْنِي حَيْدُ*

اللغة :

يسومونكم أي يذيقونكم . ويستحيون نساءكم أي يستبقونهن أحياء للاسترقاق . وتأذن من الأذان وهو الاعلام .

الإعراب :

ان اخرج (ان) مفسرة بمعنى أي . وجملة يسومونكم حال من آل فرعون . وفي ذلكم بلاء مبتدأ وخبر . واذ تأذن معطوف على اذ أنجاكم . ولئن شكرتم اللام للتوطئة تدخل على الشرط لتدل على ان الجواب له وللشرط معاً . لأزيدنكم اللام وما دخلت عليه سادان مسد جواب القسم والشرط .

المعنى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا - الدالة على نبوته - ان أخرج قومك من الظلمات الى النور) . عاد الحديث الى موسى (ع) وبني اسرائيل الذين أفرحوا قلبه ، وأدموا فؤاده ، عاد الحديث اليهم ، وقد تكرر فيما سبق عشرات المرات ، ولا أعرف سراً لتكرار الحديث عنهم أكثر من غيرهم الا انهم قد شقوا عن الناس ،

سورة ابراهيم

كل الناس طيبة وعملًا ، كما أشرت فيما تقدم ، ولا أخفي اني أشعر بعبء ثقيل عند تفسير الآيات التي فيها اسم بني اسرائيل .

(وذكرهم بأيام الله) . وأظهر هذه الأيام ، وأعظمها نعمة عليهم يوم أنجاهم الله من عذاب فرعون وحررهم من الرق والعبودية .. لله من حكم .. (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) .. صبراً على بلائك أملاً بنصرك وآلائك .. فلك اشارة الى التذكير ، والمراد بالآيات هنا العبر والعظات ، ومن الواضح ان الذي يتعظ ويعتبر هو المؤمن حقاً الذي يشكر عند الرخاء ، ويصبر عند البلاء ، مع الجلد والاجتهاد في الخلاص مما يعاينه .

(واذا قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاهم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . ذكر موسى (ع) بني اسرائيل بما صنعه فرعون بهم من الذبح والاسترقاق ، وبنعمة الخلاص من ذلك ، وأمرهم أن يذكروا الله ويشكروه على هذه النعمة .. ولكنهم لم يذكروه ولم يشكروه ، بل كفروا بالله، وجحدوا نعمته، وتمردوا عليه وعلى نبيهم موسى ، وقالوا له : أرنا الله جهرة ، وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا .. ومروا على قوم يعبدون أصناماً لهم ، فقالوا ، يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، ثم عبدوا من دون الله عجلاً جسداً له خوار مكافأة لله الذي أنجاهم من عذاب فرعون .. ولما يش منكم موسى ، وضاق بهم ذرعاً توجه الى الله وقال : ربي اني لا أملك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين .. فأني عجب بعد هذا اذا تنكر اليهود لنعمة المسلمين عليهم يوم نبههم العالم ، حيث لا أمريكا ولا انكلترا ولا المانيا الغربية تتخذ منهم سماراً مخلصاً ، وكلباً حارساً للاستعمار والنازية ؟ . ومر نظير هذه الآية في ج ١ ص ٩٨ الآية ٤٩ من سورة البقرة .

(واذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد) . المراد بالكفر هنا الكفران ، وهو عقوق النعم وجحود نعمته ، لأن الحديث عن جحود بني اسرائيل لأنعم الله ، ولأن الشكر يقابله الكفران ، لا الكفر ، وقد ذكروا في آية واحدة . وقال المفسرون أو الكثير منهم : المراد ان الله اذا أنعم

الجزء الثالث عشر

على عبده بنعمة فشكرها واعترف لله بها أدام الله عليه هذه النعمة وضاعفها، قالوا هذا أخذاً بالقول المشهور : « بالشكر تدوم النعم » .

وفي رأينا ان المراد بزيادة النعمة هنا زيادتها في الآخرة ، لا في الدنيا ، لأنه من المؤكد ان المراد بالعذاب الشديد على الكفران عذاب الآخرة ، فيكون الأجر على الشكر كذلك ، وثبت عن رسول الله (ص) انه ساوى في العطاء بين الصالح والطالح ، وقال الإمام علي (ع) : لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وانما المال مال الله ؟.. هذا ، الى أننا نشاهد الأموال تراكم وتتدفق على الطغاة كلما ازدادوا عتواً وطغياناً .. أجل ، لو كان المراد بالشكر المحافظة على المال وحسن تدبيره واستثماره لكان لقول المفسرين وجه ، ولكنه خلاف الظاهر ، ولا قائل به حتى من المفسرين أنفسهم .

(وقال موسى ان تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حيد) .
والحمد لله لا لغیره ، والاستغناء به لا بسواه ، وبدل هذا القول من موسى على حرقته وبأسه من بني اسرائيل وهدايتهم .

الم يأتكم نبا الذين من قبلكم الآية ٩ - ١٢ :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا
إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِئَّةُ اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا

بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى
 اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُتَوَكِّلُونَ *

اللقية :

شك مربب مثل ظل ظليل . وعجب عجب وأعجب أي قوي ، وليلة ليلاء ،
 وليل أليل أي طويل وشديد السواد . والسلطان الحجة والبرهان .

الإعراب :

قوم نوح بدل من قبلكم ، وما بعده معطوف على قوم نوح . وجملة لا يعلمهم
 إلا الله حال من الذين من بعدهم . وقال كثيرون ، منهم الزمخشري والبيضاوي
 قالوا : انها معترضة . ولم ندرك وجه الاعتراض لأنه لا يكون إلا بسين أمرين
 يطلب كل منها الآخر ، ولا شيء من ذلك هنا لأن جملة جاءتهم رسلهم استتاف
 لا محل لها من الاعراب ، فكان سائلاً يسأل : وما هو نبأ الذين من قبلهم ؟ .
 فأجاب : جاءتهم رسلهم الخ . وفي أفواههم قيل : في هنا بمعنى الى ، أي الى
 أفواههم . أي الله شك مبتدأ وخبر ، والاستفهام للانكار ، وفاطر صفة لله .
 والمصدر المنسبك من ان نأتىكم بسلطان اسم كان ، ولنا خبرها . وما لنا (ما)
 استفهام في موضع رفع بالابتداء ، ولنا خبر ، والمصدر من ألا نتوكل مجرور بفي
 محذوفة . وقال أبو البقاء : يجوز أن يكون حالاً أي غير متوكلين .

المعنى :

(أو لم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) . سياق الكلام يدل على ان هذا خطاب من موسى (ع) لبني اسرائيل ، لا من محمد لمشركي العرب أو غيرهم كما قيل . والمعنى ان موسى قال لبني اسرائيل واعظاً محذراً : لقد سمعتم بطوفان نوح ، وبالقواصم والعظائم التي حلت بعاد وثمود ، وكثير غيرهم مما لا يحيط علماً بعدهم إلا الله.. فعل سبحانه بهم ذلك لأنهم عصوا الرسل وتمردوا على دعوتهم ، أفلا تعتبرون وتعتظون بالأمم الخالية ؟. قال هذا موسى لقومه، وأكثر من هذا ، ولكن اسرائيل هي هي أولاً وآخراً .

(جاءهم رسلهم بالبينات) . كل رسول من الله الى عباده لا بد أن يكون مزوداً منه تعالى بحجة قاطعة تدل على انه موفد منه اليهم ، أشبه بالسفير يقدم أوراق اعتماده من دولته للدولة التي انتدب سفيراً لديها ، وعلى هذا يكون المراد بالبينات المعجزات الدالة على نبوة الأنبياء ورسالتهم (فردوا أيديهم في أفواههم) الضمير يعود الى قوم نوح ومن بعدهم ممن تقدم ذكرهم ، ورد اليد الى الفم كناية عن شدة الغيظ والامعان في الاعراض ، ومثله : « عضوا عليكم الأنامل من الغيظ - ١١٩ آل عمران » . (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لنفي شك مما تدعونا اليه مريب) . ارتاب المشركون أو أظهروا الارتياب في صدق أنبيائهم ، وكانوا من قبل يعترفون لهم بالصدق والاخلاص .. ولماذا ؟. لاشيء إلا لأن الأنبياء دعوهم الى التزام الحق والعدل ، وترك الظلم والباطل .. وهذا هو بالذات منطلق الانتهازين قديماً وحديثاً .. ينكرون اليوم ما اعترفوا به بالأمس وبالعكس ، والسر يكمن في الأرباح والمكاسب ، فهم معها أينما كانت وتكون .. (قالت رسلهم أي الله شك فاطر السموات والأرض) ؟. أجل ، انه لأعجب العجب أن يشكوا في موضع الإيمان ، ويؤمنوا في موضع الشك .. لقد جعلوا بخالفهم ووحدانيته ، وآمنوا بالأحجار وعبدوها من دون الله ، وهي نحت أيديهم تبول عليها الكلاب والذئاب .. (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) . تعالى الله ما أكرمهم وأحلمه .. يدعو عباده الى عفوه ورحمته ، ويتولون عنه إلى ما

سورة ابراهيم

يضرهم ولا ينفعهم (ويؤخركم الى أجل غير مسمى) ولا يجعل العقوبة ، بل يمهلكم لتؤوبوا الى الرشد والهداية .

(قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا) يدل هذا القول على مدى تفكيرهم ، وانهم يذهبون فيه الى ان الناس العاديين لا يحق لهم أن يتولوا القيادات والمناصب الرفيعة وان بلغوا من الاخلاص والصدق والتضحية أعلى المراتب (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) .. فأبأؤهم أعز عليهم من الله، وتقليدهم على الضلال أحق وأولى من طاعة الله على الهدى ، حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

(فأتونا بسلطان مبین) . لقد أتاهم الرسل بالحجج البالغة ، والمعجزات الدالة على صدقهم ، ولكن المشركين أرادوا معجزات خاصة من النوع الذي أشار اليه سبحانه بقوله : « لولا أنزل عليه كتز أو جاء معه ملك — ١٢ هود » ، وقوله « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً — ٩٠ الأسراء » . فهم يطلبون المعجزة ولكن من خلال البطون ، لا من خلال العقول .

(قالت لهم رسلهم ان نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) . ان الله حكيم ، ولأنه حكيم وعليم فلا يمن برسالته إلا على من هو كفؤ لها يتحلى بالصفات والمؤهلات لحملها وأدائها : « قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته — ١٢٤ الأنعام » . (وما كان لنا ان نأتىكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) . انظر تفسير الآية ٣٨ من سورة الرعد ، والآية ٣٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٨٤ ، والآية ١١٨ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٩ .

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) . ونلخص المعنى — على وضوحه وغناه عن التفسير — بأن الرسل قالوا للمشركين : نحن نبليغ عن الله ، ندعو اليه ، ولا نكثر بمن أدبر وتولى ، ولا نبالي بما يصيبنا من أذاكم في هذا السبيل ، لأننا على ثقة من ربنا ، وبينه من أمرنا ، وان دل هذا التساؤل : « وما لنا الا نتوكل على الله »

الجزء الثالث عشر

ان دل هذا على شيء فإنما يدل على ان الأنبياء لا يرون شيئاً في الوجود إلا الله وفي الله وحده .

لنخرجكم من ارضنا الآية ١٣ - ١٧ :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ *

اللمعة :

الملة الدين . واستفتحوا طلبوا الفتح والنصر على الأعداء . والجبار اذا وصف به تعالى فعناه العالي الذي لا يناله شيء ، واذا وصف به الانسان فعناه المتعالي المتكبر ، وقد يطلق على من يصلح الأمور ويجبر كسرها . والعنيد مبالغة المعاند وهو الذي يخالف الحق مع علمه به . والصديد القيح المختلط بالدم . ويسيفه يبتلهه .

الإعراب :

أو لتعودن (أو) بمعنى إلا ان ، مثل قولك : لا أذهب أو تفعل كنا أي الا

سورة ابراهيم

ان تفعل كذا . واستفتحوا عطف على فأوحى اليهم ربهم . وما هو بميت (هو) مبتدأ والباء زائدة اعراباً وميت خبر .

المعنى :

(وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) . دعا الأنبياء دعوة الحق والعدل بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يُكرهوا أحداً على دينهم وعقيدتهم لأن دعوتهم تقوم على أساس عدم الاكراه في الدين ، وان كانت في طبيعتها ثورة على المعتدين والمستغلين ، ومن هنا أعلن هؤلاء الثورة المضادة على الأنبياء، وخيروهم بين النفي والارتداد الى الكفر .. وسبق نظير ذلك في الآية ٨٨ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٦٣ .

(فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكتنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف وقامى - أي وجودي وسطوتي - وخاف وعيد) . بعد أن بلغ الأمر بالمشركون الى تهديد الأنبياء بالنفي اذا لم يشركوا مثلهم جاءت ارادته تعالى لتضرب الطواغيت الضربة القاضية ، وتورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم : « واورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم - ٢٧ الأحزاب » .

أنصاف الحلول :

وتجدر الإشارة بهذه المناسبة الى أمرين :

الأول : انه جل وعلا بعد أن ذكر تطاول أهل البغي والفساد ، وتماديهم في الضلال قال : ان مصيرهم الهلاك والدمار نتيجة لبغيهم وضلالهم ، وان عاقبة المتقين النصر والتمكين في الأرض . وهذا هو منهج القرآن في ذكر المسيات مع أسبابها ، والنتائج مع مقدماتها ، ولهذا الطريقة فوائدها ، منها الترغيب في الحق وعمل الخير ، والترهيب من الشر والباطل ، ومنها أن يتفائل الانسان بحسن العاقبة وانتصار الحق ، حتى ولو أخذ الباطل مأخذه وان لا يستسلم لأهله وان تطاولوا وصالوا وجالوا لأن الكرة ستكون عليهم في النهاية وان طال الأمد . وقد جرى

الجزء الثالث عشر

على هذه الطريقة الكثير من الخطباء وأصحاب الأفلام ، فإنهم يذكرون اساءة من أساء ، ثم يعقبون عليها واثقين بأن الشر لا يُجْزى به الا فاعله .

الأمر الثاني : ان الله سبحانه يتدخل بإرادته لنصرة المحقين على شريطة أن لا يرتدوا عن الحق ، ولا يشكوا فيه ، ولا يساوموا عليه ، ولا يرضوا بأنصاف الحلول ، ويلتمسوا القليل من حقهم بالكثير من باطل أعداء الله وأعدائهم ، وقد دلت التجارب على ان أنصاف الحلول لا يستفيد منها الا من اعتدى وأفسد في الأرض ، وانها أبداً ودائماً تأتي في صالح المبطلين ، لأن أي تنازل عن الحق فهو ربح للغاصب المبطل ، وخسران للحق وأهله .. وهنا يكمن السر في صلابة الإمام علي بن أبي طالب في الحق ، ورفضه انصاف الحلول بشئ صورها وأشكالها .

(واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) .
والصديد القيح المختلط بالدم ، وهو هنا كناية عما يصعب شربه وتجبره لنته وقذارته ، أو مرارته وحماوته ، أو لذلك كله ، أما ضمير استفتحوا فقيل : انه يعود الى الرسل . وقيل : الى المشركين . وقيل : اليها معاً . والمعنى يصح على كل الوجوه ، لأن العاقبة كانت كما يجب أن تكون ، نصر المؤمنين ، وخزي الكافرين .. هذا ، الى ان الأنبياء استنصروا الله سبحانه : « قال رب انصرني على القوم المفسدين - ٣٠ العنكبوت » . وقال المشركون يوم بدر : اللهم انصر أعلى الجندين . فأجابهم الله بقوله : « ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تمودوا ندد - ١٩ الأنفال » .

(يتجرعه ولا يكاد يسيغه) لنته وقذارته ، وحرارته ومرارته (ويأتيه الموت من كل مكان) وهنا مضاف مخوف أي تأتيه أسباب الموت تحيط به من الجهات الست : شماله ويمينه وخلفه وأمامه وفوقه وتحت (وما هو بميت) ولو مات استراح ، وانقطع عنه العذاب ، وقد أراد الله له الدوام والخلود فيه : « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها - ٣٦ فاطر » .

(ومن ورائه عذاب غليظ) . وما قيل في تفسير الغليظ هنا : ان العذاب

سورة ابراهيم

يتجدد آناً فآناً ، وحالاً بعد حال ، وكل حال أشد وأسوأ من سابقتها .. اللهم عفواً ولطفاً بمن آمن بك وبمجنتك ونارك ، ولا يبرئ نفسه من معصيتك ، ولكنه بطمع في رحمتك .

أعمالكم كرماد الآية ١٨ - ٢١ :

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ *

اللغة :

برزوا لله ظهوروا له . ومغنون دافعون . ومحيص منجي ومهرب .

الإعراب :

في اعراب مثل الذين كفروا أقوال، أرجحها عندنا وعند أبي حيان الأندلسي

الجزء الثالث عشر

ان (مثل) مبتدأ أول وأعمالهم مبتدأ ثان ، وكرماد خبره، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول . وفي يوم متعلق بمحذوف حالاً من الريح . وعاصف صفة الريح ، وفاعله محذوف أي عاصف ريحه . وذلك مبتدأ والضلال خبر ، وهو ضمير فصل لا محل له من الإعراب . من العذاب متعلق بمحذوف حالاً من شيء ، وقُدِّم الحال على صاحبه لأن صاحبه نكرة ، ومن شيء (من) زائدة عند أبي البقاء، لأنها في سياق الاستفهام ، وهو شبهه بالنفي، وشيء مفعول مغنون لأنه بمعنى تمنعون ، والتقدير هل تمنعون عنا من العذاب شيئاً .

المعنى :

(مثل الذين كفروا يربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) . قال كثير من المفسرين : المراد من الآية ان الكافر لا يثاب على عمل البر ، كالصدقة ونحوها .. وفي رأينا ان كل من فعل الخير بدافع انساني فقد عمل لله أراد ذلك ، أم لم يرد ، وليس من شك ان من عمل لله فأجره على الله لأنه عادل وحكيم ، وأثابه بنحو من الانحاء ، اما في الدنيا ، واما في الآخرة بتخفيف العذاب ، وليس من الضروري ان لا يدخله النار اطلاقاً ، فإن آلاء الله لا تحصى كمأ ولا كيفاً . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة آل عمران بعنوان : « الكافر وعمل الخير » ج ٢ ص ٢١١ .

وعلى هذا يكون معنى الآية ان أي انسان يعمل الخير بدافع تجاري ، لا انساني كالذي يتفق على المشاريع الخيرية أيام الانتخابات ، ان عمل هذا ومن اليه ليس بشيء عند الله ، بل هو أشبه بهواء في شبك ، أو برماد تفرزه الرياح ، سواء أكان العامل مسلماً أو غير مسلم . قال الإمام علي (ع) : « اعملوا بغير رياء ولا سمعة فإنه من عمل لغير الله يكله الله الى من عمل له » .

وتسأل: إذا كان هذا الحكم يعم الكافر وغيره فلماذا ذكرت الآية الكافر وحده؟

الجواب : ان ذكر الكافر بالخصوص لا ينفي الحكم عن غيره ، وانما خصص بالذكر لأنه أظهر الأفراد .

سورة ابراهيم

(لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) . ضمير لا يقدرّون عائد لفظاً على الكافرين ، وعائد معنى على كل من عمل ويعمل البر بقصد تجاري ، والمراد ان من عمل عملاً ليس لله ولا للانسانية فيه نصيب فانه لا ينتفع غداً بعمله ، لأنه تماماً كالرماد المتطاير في الهواء ، وصاحبه ضال ، بسل وممن في الضلال ، لأنه تجرد في عمله هذا عن كل سبب يربطه بالله والانسانية .

(ألم تر ان الله خلق السموات والأرض بالحق ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) . معنى ألم تر ألم تعلم ، والخطاب موجه لكل من يقرأه ويسمعه . وكلمة الحق تشير الى أنه تعالى ما خلق شيئاً إلا لحكمة اقتضت ذلك : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا — ٢٧ ص » .. بعد أن ذكر سبحانه الذين يعملون لغير الله قال انه في غنى عن الناس وأعمالهم ، ولو شاء لأفناهم جميعاً ، وأتى بأمر غيرهم يعملون له وحده ولا يشركون به شيئاً ، لأنه على كل شيء قدير ، ولا شيء أدل على ذلك من خلق الكون وعجائبه .

الظالم والمظلوم :

(وبرزوا لله جميعاً) . برزوا بلفظ الماضي ، والمراد به الاستقبال لأنه محقق الوقوع ، والمعنى ان الانس والجان ، والملائكة والشياطين ، كل هؤلاء يظهرون لله يوم القيامة ، وما من واحد منهم الا وهو يعلم علم اليقين انه قد تكشف لله على حقيقته ، حتى من كان يكفر به وبالبعث .

(فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) . كل عاقل مسؤول عن عمله قوياً كان أو ضعيفاً، رئيساً أو مرؤوساً : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون — ٩٣ الحجر » ، بل وما يقولون أيضاً : « ما بلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد — ١٨ ق » . فالتابع يسأل: هل اتبع الهدى أو الضلال؟ وهل عاصد وسائد المصلحين أو المفسدين؟ وأيضاً المتبوع يسأل ، ومسؤوليته أكبر وأعظم ، لأنه مسؤول عن نفسه وعن

الجزء الثالث عشر

غيره من الاتباع والهمج الرعاع ، فهل يحمل أوزاره وأوزارهم .

ولست أعرف أحداً أعظم وزراً من هذا الطاغية المتبوع الا مَنْ تابعه وأعانه على ظلمه ، وهو يعرفه على حقيقته .. ان ظلم الظالم ليس بأسوأ عند الله من صبر المظلوم على الظلم .. ان قتل المظلوم في سبيل حقه شهادة ، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .. وهل جرأ الظالم على الظلم إلا سكوت المظلوم عنه . ولو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم نفساً «حسنية»^١ لتحاماه .

ومها يكن ، فان المراد بالضعفاء في الآية ضعفاء النفوس الذين يتبعون الظالم الضال ، وهم على علم بظلمه وضلاله ، طمعاً في جاهه أو ماله ، أو جنناً واثاراً للسلامة والراحة ، وفي حكمهم في المسؤولية والجريمة من يتبع الضال على العمى ، وتقليداً للجموع أو للاصدقاء والأقارب .

وقد صور سبحانه موقف التابعين لأهل النفي والضلال عن علم أو جهل أعمى ، صور موقفهم يوم الحساب مع الطغاة بهذا الحوار : قال ضعفاء النفوس والهمم لرؤساء الدنيا والدجالين من رؤساء الدين : كنا نأتمر بأمركم ، وننتهي بنهيكم .. وها نحن الآن كما ترون بين يدي الله لا حول لنا ولا طول ، يحاسبنا ويعاقبنا على طاعتنا لكم في تكذيب الرسل ، وفي معصية الله ، فهل تدفمون عنا ولو يسيراً من عذاب الله ونقمته ؟.

(قالوا لو هدانا الله لهديناكم) . المراد بالهداية هنا النجاة والخلاص من عذاب الله ، لأن الجواب يأتي على وفق السؤال ، وقد سأل التابعون متبوعهم ان يخففوا عنهم يسيراً من العذاب ، فأجابهم المتبوعون : لو استطعنا دفع العذاب لدفعناه عن أنفسنا . هذا هو المعنى المراد من الهداية هنا ولا يستقيم إلا به (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) . حيث انتهى كل شيء ، ولا يجدي جدال أو عتاب ، لأن الدار دار حساب وعقاب ، لا دار أقوال وأفعال .

١ اشارة الى قول الحسين بن علي (ع) : لا أدري الموت الا سعادة ، والحياة مع الظالمين الا برماً .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ *

اللفظة :

المراد بالسلطان التسليط . ومصرخكم مغيثكم ، يقال استصرخني فأصرخته .

الإعراب :

وعد الحق من اضافة الشيء الى نفسه ، مثل حب الحصيد ومسجد الجامع . من سلطان (من) زائدة وسلطان اسم كان . والمصدر من ان دعوتكم منصوب على الاستثناء المنقطع لأن دعاء الشيطان ليس بسلطان . واشركتمون أصلها أشركموني .

خطبة الشيطان :

تكلمنا مفصلاً حول فكرة ابليس والشيطان في أول المجلد الأول ، وفي المجلد

الجزء الثالث عشر

الثاني ص ٣٢٤ ، ومجملًا عند تفسير الآيات التي اشتملت على ذكر الشيطان .. ونعود هنا الى الموضوع بقول أجمع وأوسع ، لأن الآية التي نحن بصددها من أوضح الآيات دلالة على وجود الشيطان ، وانه حقيقة ثابتة ، وان لم تتعرض الى كنهه وهويته ، وفيما يلي نعرض الجهات التي تتصل بهذه الآية :

١ - ذكر الله سبحانه في كتابه العزيز الشيطان بعبارات شتى ، فتارة يقول عز من قائل : ان الشياطين من نوع الانس والجن كما في الآية ١١٢ من سورة الأنعام : « شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول » . وتومىء هذه الآية الى ان كل قول ظاهره الرحمة وباطنه فيه العذاب فهو من عمل الشيطان أياً كان قائله . وتارة يقول : ان للشيطان جنوداً وقبلاً كما في الآية ٩٥ من سورة الشعراء : « وجنود ابليس أجمعون » . والآية ٢٦ من سورة الأعراف : « انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » وتدل هذه الآية ان الشياطين لا يحصى لهم عد ، وانهم ليسوا من الأشياء التي تُرى بالعين ، وتلمس باليد . وثالثاً يقول : ان للشيطان قرناء وأولياء كما في الآية ٣٨ من سورة النساء : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » وفي الآية ٧٥ من سورة النساء : « فقاتلوا أولياء الشيطان » وهذا اللفظ بمفرده يدل على ان قتال الزائغين وجهادهم فرض وحتم ، حتى ولو كانوا « مسلمين » . ورابعاً يقول جلّت حكمته وكلمته : « هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم - ٢٢٢ الشعراء » وتدل هذه الآية ان الشياطين هم الكذابون الأفاكون .

أما وظيفة الشيطان وجنوده كما حددتها القرآن فهي الاضلال والاغواء للصد عن سبيل الحق والخير ، لا بالجبر والاكراه ، بل بالوسوسة والترين ، وبالاغواء والتمويه .. ومن أجل هذا قلنا ونكرر القول : ان أي شيء يزين للانسان عمل سوء ، ويرغبه في الشر والفساد عن طريق المغريات والمشوقات فهو شيطان رجيم وابليس اللعين ، سواء أكان هذا الشيء المزين المفضل انساناً أم ملاً أم جاهاً أم كتاباً أم صحيفة أم وسوسة وحديث نفس أم شيئاً آخر يُرى أو لا يُرى ..

هذه هي صورة الشيطان التي انعكست في ذهننا ، ونحن نتابع ونتدبر آيات

سورة ابراهيم

الله في كتابه، ونؤمن بها إيماناً به وبرسوله .. وما عدا ذلك من الجزئيات والتفاصيل ندعه لعلم الله ، وما نحن بمسؤولين عنه ، ولا مكلفين به ، وكل ما يجب علينا هو ان لا ننخدع بالمغريات، ولا نندفع وراء الشهوات، ولا نستمتع للزائغين والمضللين؛ وإذا حدثتنا أنفسنا بشيء من ذلك ، أو حاول مخادع أن يغرينا بالانحراف عن قصد السبيل نذكرنا الله ووعده ووعيدته ووقفنا عند حدوده ، بحيث نكون المثل الصالح لقوله : « ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - ٢٠٠ الأعراف » . انظر ج ٣ ص ٤٤٠ .

٢ - ان في نفس الانسان شهوات وغرائز ، وهي أقوى من اي عامل يدفع به الى معصية الله ومخالفة أمره ، لأنها تأتي من الداخل لا من الخارج ، ومن الباطن لا من الظاهر ، فإذا لم يكن في داخل الانسان وباطنه قوة اعظم واصلب تردع الميل الشيطانية ، وتكبح جماحها وقع الانسان صريع الأهواء والمطامع لا محالة .. وليست هذه القوة الرادعة هي العبادة والصلاة؛ ولا العلم والتحقيقات، ولا الفضائل والشمال ، لا شيء إلا التقوى مع الوعي على ان ينظر المتقي الواعي الى كل شيء من خلالها معاً ، فالتقوى بلا وعي ، والوعي بلا تقوى كلاهما ليسا بشيء يقاوم المغريات، ويوقف في طريق الشهوات .. فلقد رأينا الكثير من المتقين يجهلون انفسهم وواقعهم، ويحسبون الهوى ديناً، والغرض إيماناً، ويصور لهم الوهم أو ابالسة الانس الحلال حراماً والحرام حلالاً، والى هؤلاء اشار سبحانه بقوله : « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - ١٠٤ الكهف » . أما العلم والعقل بلا تقوى فهما المصدر الأول لكسل رذيلة وفساد في الأرض .. والنتيجة الحتمية لذلك ان الواعي بلا تقوى ، والمتقي بلا وعي كلاهما من مصائد الشيطان وشبائكه ، وهذا الأخير أحب الى قلب ابليس وأعلى لديه مقاماً .

٣ - (وقال الشيطان لما قضي الأمر) . كل شيء ما عدا الله سبحانه له بداية ونهاية ، وقد تكون بدايته خيراً في ظاهرها ، ونهايته شراً في حقيقتها ، وبالعكس .. ومن أجل هذا لا يسوغ الحكم على شيء عند ظهوره وبدايته ما دامت الغاية في عالم الغيب.. فلقد غبط الناس «قارون» لما خرج عليهم في زيته ، وقالوا : انه سعيد وعظيم ، حتى اذا انخفضت الأرض به وبداره وماله قالوا :

الجزء الثالث عشر

انه شقي وذميم .. والدنيا بداية ، والآخرة نهاية ، وفيها ينكشف القناع والغطاء ، ويعرف كل انسان مصيره ومآله ، حيث لا تزيف ولا تحريف . وهذا هو معنى قوله تعالى : (لما قضى الأمر) .

٤ - (ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم) . أما وعد الله فهو البعث والحساب والجزاء : « فوريك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون - ٩٣ الحجر » . أما وعد الشيطان فهو على النقيض من وعد الله : لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار : « ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين - ٢٩ الأنعام » . هذا ما كان يقوله الشيطان لأوليائه في الحياة الدنيا حيث التزوير والتمويه ، أما في اليوم الآخر حيث لا شيء إلا الحق والعدل فإن الشيطان يظهر على حقيقته ، ويصدق في قوله ولهجه . وكان من قبل يعلم الناس الكذب والإفك .

٥ - (وما كان لي عليكم من سلطان إلا ان دعوتكم فاستجبتم لي) أبدأ لا حول ولا طول للشيطان باعترافه الا دعوة الباطل والضلال والمكر والخداع ، ولا يستجيب له ولدعوته إلا ضعفاء العقول والنفوس والإيمان، وقوله : وما كان لي عليكم من سلطان هو بالحرف ما قاله الله له : « ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين - ٤٢ الحجر » .

٦ - (فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) . واذا كان الويل لمن كفره النمرود فكيف بمن كفره ابليس ؟ . واذا تعوذ الناس من الشيطان فكيف بمن وبخه وتعوذ منه الشيطان ؟ .. هذا هو مصير من يخذل الحق والصالحين . ويناصر القصاد والمفسدين ، وينتق مع كل ناعق .. وقد رأينا كثيراً من شياطين الانس يغترون بالماهقين وضعاف العقول ، ويغروهم بالتخريب واشاعة الفوضى ، حتى إذا لقوا ما كسبت ايديهم قال لهم شياطينهم عين ما قاله ابليس لأتباعه وأوليائه عند الحساب والجزاء .

(ما انا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) الصارخ هو المستغيث ، والمصرخ هو المغيث ، والمعنى ان الشيطان يقول غداً لأتباعه : ما أنا بمغنٍ عنكم شيئاً ، ولا أنتم مغنون عني شيئاً ، وليست بيني وبينكم أية صلة (اني كفرت بما أشركمون من قبل) . يقول ابليس لمن استجاب له : لقد اطعتموني فيما دعوتكم اليه ،

سورة ابراهيم

وجعلتموني شريكاً لله في وجوب الطاعة ، وأنا بريء من الشرك ومن يشرك ، حتى ولو جعلني الله شريكاً في شيء ، أي شيء (ان الظالمين لهم عذاب أليم) . هذه جملة مستأنفة وليست من كلام الشيطان ، والمراد بها الوعد والوعيد ، ويجوز أن تكون الخاتمة لخطبة ابليس .. ومن الطريف ما جاء في بعض التفاسير من ان ابليس ألقى خطبته هذه على أهل النار من على منبر نصب له .. ولا بد - بطبيعة الحال - أن يكون قد ألقاها بمكبر عظيم ، لأن المستمعين ، وهم جميع جنوده وأتباعه أكثر من عدد الرمل والحصى والتراب .

(وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) . بعد أن ذكر سبحانه الرائفين وعذابهم ذكر المستقيمين وثوابهم كما هي طريقة القرآن الكريم . ومر نظير هذه الآية في سورة يونس الآية ١٠ .

كلمة طيبة وكلمة خبيثة الآية ٢٤ - ٢٧ :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُفَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ *

اللمعة :

قيل : المراد بالكلمة الطيبة كلمة التوحيد والامان ، وبالكلمة الخبيثة كلمة

الجزء الثالث عشر

الكفر والالحاد . والصحيح ان المراد بالأولى كلمة الحق، أي حق، وبالثانية الباطل أي باطل . وثابت راسخ . وفي السماء كناية عن علو الشجرة وارتفاع فروعها وأغصانها . واجتث اقتلعت واستؤصلت . والقرار الاستقرار .

الإعراب :

كيف مفعول مقدم لضرب ، وهي هنا بمعنى جعل . وكلمة بدل من (مثلاً) طيبة صفة لكلمة . وكشجرة صفة ثانية . وأصلها ثابت مبتدأ وخبر ، والجملة صفة أيضاً لكلمة . وجملة تؤتي أكلها صفة لشجرة . وكل حين نصب على أنها ظرف زمان ، لأن (حين) ظرف فأعطيت حكمه . ولها خبر مقدم ، ومن زائلة اعراباً ، وقرار مبتدأ مؤخر .

المعنى :

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة) . قيل : المراد بالكلمة الطيبة هنا كلمة التوحيد : لا إله الا الله .. وليس من شك ان التوحيد مصدر الحق ومعدنه ، ومن التوحيد والاخلاص لله وحده أن تفسر الكلمة الطيبة بكل كلمة تنفع الناس ، وتعود عليهم بالخير والصلاح ، ولو بجهة من الجهات ، سواء أكانت الكلمة للدين والشرع ، أم للعلم والفلسفة ، أم للأدب والفن .. فأَي انسان انتفع الناس بقوله أو بعمله فهو يلتقي من هذه الجهة مع مبادئ الاسلام والدين أياً كان ويكون .. وأفضل الكلمات والأقوال هي كلمة الثورة ، والصرخة الغاضبة في وجوه حكام الجور ، ومن آزرهم من المأجورين والرجعيين لأنهم أصل الداء ، ومصدر البلاء ، قال الإمام علي (ع) :

« وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الا كنفثة في بحر لجي ، وان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ، ولا ينقصان من رزق ، وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر » لأنه المصدر الأول لكل منكر ، فمن جاهده وأنكر عليه فقد جاهد الآثام

سورة ابراهيم

كلها مجتمعة في شخص هذا الحاكم العاشم .. وفي معنى كلمة الإمام علي هذه أحاديث عن الرسول الأعظم (ص) . وكل ما عند علي أمير المؤمنين فهو شعاع من شمس محمد سيد الخلق أجمعين .

ولا شيء أدل على ان المراد بالكلمة الطيبة الكلمة المفيدة النافعة من تشبيهها بالشجرة الطيبة التي (أصلها ثابت) لا ترعزه الأعاصير ، ولا تقوى عليه المعاول (وفرعها في السماء) بعيد عن أوباء الأرض وأقذارها (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) فلا تجود آنأ ، وتبخل آنأ ، كالتاجر يعطيك ان دفعت، ويمسك ان أمسكت ، بل هي تعطي أبداً ودائماً (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) فيشبه المعنى الغامض بالمعنى الواضح ليفهم الناس ، كل الناس طريق الهدى فيتبعوه ، وطريق الضلال فيجتنبوه .

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) . كل كلمة تضر الناس ولا تنفعهم فهي خبيثة لعينة ، سواء أكانت من مسلم ، أم من غير مسلم عظيم أم حقير ، بل ان سكوت الكبير عن مقاومة الباطل ، ومناصرة الحق يعد من أعظم الجرائم ، وفي الحديث: الساكت عن الحق شيطان أخرس . وكتب غاندي الى طاغور : « انك شاعر عظيم ، ولكنك تلعب واليت يحترق .. ان الأغنية الجميلة لا تشيع جائعاً ، ولا تشفي مريضاً » . (اجثث من فوق الأرض ما لها من قرار) . هذا أصدق مَثَل للباطل وأهله الذين يتعالون ويتعاضمون ، ويخجل للجاهل أنهم شيء ضخم ، وما هم الا كشجرة بلا أصول وجذور، فسرعان ما يصبح عاليها سافلها اذا هبت الريح .

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة) . ليس المراد بالمؤمنين من قال : آمنت بالله ورسوله واليوم الآخر ، ثم لم يقم حقاً أو يدفع باطلاً ، بل المراد بالمؤمنين هنا من عناهم الله بقوله : « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهلوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون - ١٥ الحجرات » . آمنوا وأعربوا عن إيمانهم بالجهاد والفداء . أما اذا ادعوا الإيمان بالله ، ولم يقاوموا الظلم والفساد بجرأة وشجاعة فهم مرتابون لا مؤمنون .

الجزء الثالث عشر

ومعنى تثبيتهم بالقول الثابت في الحياة الدنيا ان الله سبحانه قد أخبرهم في كتابه وعلى لسان نبيه أنهم في رعايته وعنايته ، وأنه هو كفيهم ووليهم وحافظهم وناصرهم ، كما شجعهم وأثنى عليهم بالصدق والاخلاص، وما اليها من الفضائل ، أما تثبيتهم لهم في الآخرة بالقول الثابت فهو قوله عز من قائل لهم يوم القيامة : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون - ٦٨ الزخرف » .

(ويضل الله الظالمين) بكفرهم وكذبهم وطغيانهم .. والقرآن الكريم يستعمل الظلم كثيراً بمعنى الكفر والشرك، ولكن المراد بالظلم هنا من ظلم نفسه بالكفر، وظلم غيره بالعدوان والافتراء، كما ان المراد بالاضلال هنا العذاب ، تماماً كقوله تعالى : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب - ٣٤ غافر » . (ويفعل الله ما يشاء) من ثواب الصالحين وعقاب الفاسدين ، ولا راد لمشيئته .

قرأت ، وأنا بصدد تفسير هذه الآية كلمة في جريدة « الأهرام » المصرية عدد ٢١ شباط ١٩٦٩ بعنوان « هل تشهد الانسانية نهاية حرب الذرة وبداية حرب الجرائم » ، جاء فيها : « لقد ظهر في الأفق سلاح جديد أشد خطراً ، وأكثر قسوة من الأسلحة النووية ، وهو سلاح الجرائم ، ونشر الأوبئة ، وان من آثار هذا السلاح انه اذا مس الانسان ذرة منه تقلصت عضلاته ، وبرزت عيناه، ومات في الحال ، وان لدى أمريكا وبريطانيا معامل ومصانع تنتج هذا السلاح ، وتعدانه الى وقت الحاجة ، فإذا ما اتفقت الدول على حظر انتشار الأسلحة النووية بسبب الضغط العالمي استعملت الدولتان أوبئة الفناء والدمار كبديل عن القنابل الذرية والهيدروجينية .. فهل يجتمع الإيمان بالله مع النية والعزم على استعمال هذا السلاح ؟ . وهل صلاة الذين يؤازرون أصحاب هذه النية والعزم تجديهم نفعاً عند الله ؟ .

بدلوا نعمة الله كفراً الآية ٢٨ - ٣١ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ

قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ * قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا
بِنِعْ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ *

اللغة :

البوار الهلاك . ويصلونها يقاسون حرها . والمراد بالبيع هنا الفدية ، وبالخلال
الصدقة .

الإعراب :

كفرأ مفعول ثانٍ لبدلوا . وجههم بدل من دار البوار . وتمتعوا مجزوم بجواب
الطلب ، وهو قل . ويقيموا الصلاة مجزوم بلام محذوفة أي ليقيموا . وسراً
قائم مقام المفعول المطلق أي انفاقاً سراً وعلانية معطوف عليه ، ويجوز أن يكونا
مصدرين في موضع الحال ، أي مسرين ومعلنين .

المعنى :

(ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها
وبش القرار) . ضمير أحلوا يعود الى قادة الكفر والضلال ، والمراد بنعمة الله
الايمان والهداية ، والمعنى ألا تعجب يا محمد ، أو أيها السامع والقارىء من حال
قادة الكفر والضلال الذين اختاروا الضلالة على الهدى ، والجحيم على النعيم ، فحلوا
فيها هم ومن اتبعهم ، وكانوا لها حطباء . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى :
« اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فا ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين
- ١٥ البقرة » .

الجزء الثالث عشر

ونقل الطبري في تفسير هذه الآية ان عمر بن الخطاب قال : « الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة ، وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفبتهم يوم بدر ، وأما بنو أمية ، ففتعوا الى حين » .

(وجعلوا لله انداداً ليضلوا عن سبيله) . جعلوا لله شركاء يحبونهم كحبه ، ويعبدونهم كعبادته .. ومن الواضح انهم فعلوا ذلك بقصد ان يهتدوا لا ان يضلوا عن سواء السبيل ، ومن أجل هذا تكون اللام في ليضلوا لام النتيجة والعاقبة ، ويكون المعنى ان المشركين عبدوا الأصنام بقصد ان يهتدوا بها ، وتقربهم من الله زلفى ، فكانت النتيجة الضلال والهلاك والبعد عن الله ورحمته ، فاللام هنا تماماً كاللام في : لدوا للموت وابنوا للخراب (قل تمتعوا فان مصيركم الى النار) . أمر الله نبيه ان يحذر المشركين من سوء العاقبة والمصير ، ويقول لهم : ان متاع الدنيا قليل وان راق لكم ، والآخرة خير لمن اتقى .. ولكن .. هل تجدي لغة الحق والواقع مع الذين لا تحركهم الا الأرباح والمكاسب !

(قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة) التي تذكر المصلي بالله وتحذره من العذاب والعقاب ، وتخلق فيه وازعاً ورادعاً عن المآثم والجرائم ، ان كان حقاً من المؤمنين الصالحين (وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية) . الزكاة أخت الصلاة ، هذه تذكر المصلي بالله ، وتلك تقربه عند الله زلفى ، ومر نظيره في الآية ٢٧٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٢٥ (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق) . والبيع هنا كتابة عن الفدية ، والخلال الصداقة ، والمعنى ان من أنفق من ماله في سبيل الله انتفع بهذا الاتفاق في اليوم الآخر ، ومن بخل به كان عليه حسرة وعذاباً ، ولا يجديه شيء في ذلك اليوم حيث لا فدية ولا صداقة ، ومر نظيره في الآية ١٨ من سورة الرعد .

وانزل من السماء ماء الآية ٣٢ - ٣٤ :

أَلَلَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ

مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *

اللفظة :

دائبين أي دائمين ، يقال : فلان دأب في العمل اذا استمر فيه . والكفار
شديد الكفران والجحود للنعم .

الإعراب :

رزقاً مفعول أخرج ، ومن الثمرات حال مقدم ، وصاحب المحال الرزق .
ودائبين حال من الشمس والقمر . والمفعول الثاني لاتاكم محذوف أي آتاكم شيئاً من
كل ما سألتموه .

المعنى :

كل ما جاء في هذه الآيات الثلاث قد مر ذكره، فخلق السموات والأرض ذكر
في الآية ٧٣ من سورة الأنعام وغيرها ، وانزال الماء من السماء ذكر في الآية ٢٢
من سورة البقرة ، والآية ١٨ من سورة الرعد، وجريان الفلك جاء في الآية ١٦٤
من سورة البقرة ، وتسخير الشمس والقمر في الآية ٢ من سورة الرعد ، والليل
والنهار في الآية ٦٧ من سورة يونس .. وقد عدد سبحانه الكثير من نعمه على
عباده في الآية ٣ و ٤ من سورة الرعد ، والآية ١٤٣ و ١٤٤ من سورة الأنعام

وغيرها فيها سبق مراراً مع الشرح والتفسير ، وأعاد سبحانه ذكرها أو ذكر طرف منها هنا لمناسبة الإشارة في الآية الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً . ويتلخص معنى هذه الآيات الثلاث بأن نعم الله وآلائه لا تعد ولا تحصى ، منها خلق السموات والأرض ، وانزال الماء ، وتسخير الفلك والشمس والقمر والليل والنهار ، والإفضال على الناس بشيء مما سألوه ، وما لم يسألوه ومع ذلك يكفر الكثير منهم أو أكثرهم بأنعمه ، ويعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم .

هل الانسان مجرم بطبعه ؟

وبمناسبة قوله تعالى : (ان الانسان لظلوم كفار) نشير الى ان علماء النفس اختلفوا في الانسان : هل هو مجرم بطبعه ، وانه وُلد ليعتدي على من لم يعتد عليه ، ويكفر بأنعم من أحسن اليه ؟.. وفي سنة ١٨٣٢ اجتمع في امريكا ٢٨٥ عالماً من علماء النفس، وناقشوا هذه القضية، فذهب أكثرهم الى انه لا دليل على ان الانسان لا مفر له من ارتكاب الجرائم . وخالف في ذلك جماعة منهم .

أما نحن فلما نؤمن بأن الانسان لم يولد مجرمًا ، والا سقط عنه التكليف، وكان حسابه وعقابه ظلمًا وجورًا ، والأديان والشرائع لغواً وعبثًا ، حيث يكون، والحال هذه ، كريشة في مهب الريح .. وانما يصير الانسان مجرمًا بالعوامل الخارجية كالجوع الذي يحوله الى لص ، والمغريات التي تدفع به الى الخيانة والعالة ، وما الى ذلك .. وهنا يقع التفاوت بين أفراد الناس في أنفسهم ، فبعض النفوس تضعف أمام المغريات ، وتتغلب عليها الشهوات ، كمن يملك الطعام ، ومع ذلك يطلب المزيد منه بكل وسيلة ، أو يزني وله زوجة تغنيه عن الحرام ، أو يكتم الحق أو يحمّد النعم حرصاً على جاه أو أية منفعة من متاع الدنيا ، وليس من شك ان هذا قد أذنب وأجرم بارادته ، لا بطبيعته ، وهو المقصود بقوله تعالى : (ان الانسان لظلوم كفار) . ومن الواضح ان مجرد الميل الى الحرام لا يجعله حلالاً ، ما دامت الفرصة سانحة للصبر والتغلب على هذا الميل . وتقدم ما يتصل بهذا البحث عند تفسير الآية ٩ من هود .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ
الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ
أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ *
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ
يَقُومُ الْحِسَابُ *

الإعراب :

البلد عطف بيان من هذا . وآمناً مفعول ثانٍ لأجعل . والمصدر من أن نعبد
مجرور بمن محذوفه . ومن ذريتي (من) للتبعيض أي بعض ذريتي . وعند بيتك
متعلق بمحذوف صفة لواد . وليقيموا الصلاة اللام للتعليل ، وبقيموا منصوب بأن
مضمرة بعد اللام ، والمصدر مجرور بها متعلقاً بأسكنت . على الكبر حال من
الباء في (لي) . ومن ذريتي عطف على الباء في اجعاني أي واجعل من ذريتي
مقيم الصلاة .

المعنى :

(واذا قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً) . ابراهيم واسماعيل هما اللذان بنيا البيت في مكة المكرمة : « واذا يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل - ١٢٧ البقرة » . ودعا ابراهيم ربه ان يجعل الناس آمنين في مكة على أنفسهم ، واستجاب دعوته ، وكان الاعداء وما زالوا يتلاقون فيها ، ولا يخاف بعضهم بعضاً ، والى هذا أشار سبحانه بقوله : « أو لم يروا انا جعلنا حرمات آمناً ويتخطف الناس من حولهم - ٦٧ العنكبوت » .

(واجنبي وبنيّ ان نعبد الأصنام) . ومحال ان يعبد ابراهيم الأصنام، وكيف وقد حطمها بيده ، وقال لقومه : « أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أفّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون - ٦٧ الأنبياء » . ولكن رسل الله وأنبياءه - على عصمتهم - يخافون المعصية . وهذا الخوف من أعظم الطاعات ، ومن رأى نفسه تقياً نقياً فقد فتح النوافذ فيها للشيطان .

الأنبياء واستجابة الدعاء :

وتسأل : ان ابراهيم طلب من الله ان يجعل ابنائه مؤمنين ، لا يشرك واحد منهم بالله ، وابراهيم نبي مرسل مستجاب الدعوة ، مع العلم بأن الكثير من ذريته قد اشرکوا وعبدوا الأصنام ، ومنهم كفار قريش الذين هم من نسله وسلالته ؟ . ونقل الرازي عن المفسرين خمسة أجوبة ، ولكن السؤال ما زال قائماً يطلب الجواب عنه .. والذي نراه ان حقيقة الدعاء ما هي إلا طلب ورجاء ، سواء أكان من نبي أم غير نبي ، وقد تستدعي حكمته تعالى الاستجابة فيستجيب ، أو الرفض فيرفض ، وليس معنى عدم الاستجابة ان الداعي لا وزن له عند الله كي يضر ذلك بمقام النبوة ، وعصمة الأنبياء على فرض علم الاستجابة لدعائهم .. كلا ، فإن رفض السؤال بمجردة لا يبنى عن غضب المسؤول على السائل ، بل قد يدل على حبه له ، وحرصه على مصلحته ، فلقد طلب نوح (ع) من الله نجاة ولده من الغرق، فأجابه المولى بقوله : « فلا تسألن ما ليس لك به علم - ٤٦ هود » .

سورة ابراهيم

وبكلام آخر ان دعاء النبي لا يعبر إلا عن حبه ورغبته ، وليس من شك ان الأنبياء يحبون ويرغبون في إيمان الناس جميعاً وهدايتهم الى الحق ، ومع ذلك قال الله لسيد المرسلين الأعظم : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين - ٥٦ القصص » . ولو تحقق كل ما يرغب فيه الأنبياء لما وجد على ظهرها كافر ولا مجرم ، ولما قاسى رسل الله من الكفار والفجار ما قاسوه ، وبالحصوص سيدهم وخاتمهم الذي قال : ما أودى نبي بمثل ما أوديت.

(رب انهن أضللن كثيراً من الناس) . ضمير انهن يعود الى الأصنام ، والمعنى ان كثيراً من الناس ضلوا بسبب عبادة الأصنام ، تماماً كما تقول : المال أطفى فلاناً أي انه طفى بسببه (فن تبغي) من ذريتي (فإنه مني) نسباً وديناً (ومن عصاني فانك غفور رحيم) . من عصى ابراهيم (ع) فهو بريء منه ، حتى ولو كان أقرب الناس اليه ، لأن من عصاه فقد عصى الله ، ولكن ابراهيم حلیم اوآه كما وصفه الذي اختاره خليلاً واصطفاه . ومن أجل ذلك لم يطلب العذاب للعصاة من ذريته وغير ذريته ، بل ترك أمرهم لله ومغفرته ورحمته .. ومن الواضح ان العقل لا يمنع من العفو عن المشركين ، لأن العذاب على الشرك حق لله ، ان شاء عذب ، وان شاء عفا ، ولا ضرر بالعفو على أحد . أما قوله تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به » فهو دليل سمعي ، ونحن نتكلم عن حكم العقل . أنظر تفسيرنا لهذه الآية في ج ٧ ص ٣٤٢ .

(ربنا اني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة) . قال ابراهيم (ع) هذا حين ترك اسماعيل وأمه هاجر بمكة ، وهي وادٍ مقفر لا ماء فيه ولا كلاً ، ولا شيء الا بيت الله تقام فيه الصلوات، وتردد التليّات ، ولهذا الغاية أسكن ابراهيم بعض أهله وذريته في هذا المكان المقدس المجذب .. ولكن الانسان لا يحيا بالصلاة وحدها ، بل لا بد له من الخبز أيضاً ، ولذا قال ابراهيم : (فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) . واذا لم يكن عند بيت الله زرع ولا ضرع فلتوافد الناس عليه للعبادة أو التجارة ، ومعهم الخبز والفاكهة ، وعندها تأكل ذرية ابراهيم ويصلّون ويشكرون . قال موسى (ع) : « رب اني لما أنزلت إيلي من خير فقير

الجزء الثالث عشر

— ٢٤ القصص . قال الإمام علي (ع) : « والله ما سأله الا خبزاً يأكله » .
وقال شاعر فقيه :

الفضل للخبز الذي لولاه ما كان يوماً يعبد الإله

(ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) . بعد أن سأل ابراهيم الله أن يتوافد الناس الى بيته يحملون لأهله الخبز والفاكهة ليعبدوا الله حق عبادته بقوة ونشاط ، بعد هذا قال الله : ما سؤالي وطلبي الا تضرعاً لك وخشوعاً ، والا اعترافاً بأنك الخالق الرازق ، أما حاجتنا ومصالحنا فأنت أعلم بها منا . سألناها منك : أو لم نسأل .. فقول ابراهيم : ما نعلن معناه ما نسأل ونطلب ، ومعنى ما نخفي ما لم نسأل ونطلب .

(الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق ان ربي لسميع الدعاء).
هذا الحمد من ابراهيم يتضمن طلب العون من الله لولديه اسماعيل واسحق ، لأن ابراهيم قد تقدمت به السن ودنا أجله ، فأوكل أمر أهله الى رعاية الله وعنايته ، ولم يكن لهم الدور ، ويكتنز مال الله ، ويحرمه عيال الله حرصاً على رفاة ذويه وأبنائه .

(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء) . الصلاة التي عنها ابراهيم ليست من نوع هذه الصلاة التي نصليها نحن ، بل من نوع التي عنها الله بقوله : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر — ٤٥ العنكبوت » . ومن هنا قسّم الفقهاء الصلاة الى قسمين : صلاة يؤدي بها الواجب فقط ، وصاحبها غير مأجور . وصلاة يؤدي بها الواجب ، وصاحبها مأجور عند الله ، وهي التي تثمر الاخلاص في العمل ، والصدق في معاملة الناس .

(ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) . عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢ ذكرنا اختلاف السنة والشيعا في إيمان أبي ابراهيم الخليل (ع) ، وما قلناه : ان هذا النزاع في هذه القضية وأمثالها نزاع عقيم ، وان المطلوب من المسلم هو الاعتقاد بعصمة الأنبياء ، أما الإيمان بأن آباءهم كانوا مؤمنين فليس من عقيدة الاسلام في شيء، ولو قال قائل : أنا أو من بالله ووحدانيته

سورة ابراهيم

وبالأنبياء وعصمتهم ، وبالبعث والحساب ، ولا أثبت ولا أنفي الايمان عن آباء الأنبياء. لو قال هذا أي قائل نقول له: أنت مسلم لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم.

الظالم غافل غير مغفول عنه الآية ٤٢ - ٤٥ :

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْثَدْتُهُمْ هَوَاءً * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ *

اللغة :

شَخَصَ الشيء أي ارتفع ، وتشخص الأبصار تحد النظر ، ولا تغمض لهُول ما ترى . وهطع أقبل مسرعاً خائفاً ، ومهطعين مسرعين الى الداعي . ومقنعي رؤوسهم جمع مقنع بضم الميم وكسر النون، وهو الذي يرفع رأسه كثيراً من الهول. ولا يرتد اليهم طرفهم أي لا يطفون بعيونهم من الخوف والحذر . والهواء في قوله : وافثدتهم هواء، كناية عن ان أفثدتهم ليست بشيء . والزوال الانتقال .

الإعراب :

ليومٍ على حذف مضاف أي يؤخرهم لجزاء يوم أو عذاب يوم . ومهطعين

الجزء الثالث عشر

حال من ضمير يؤخرهم ، ومثله مقني رؤوسهم ، وكذا جملة لا يرتد . والناس مفعول أول لا تذر ويوم مفعول ثان على حذف مضاف أي عذاب يوم . ولا يجوز ان يكون يوم هنا ظرفاً لأن الأنداز لا يكون في يوم القيامة . ونجب مجزوم بجواب الطلب : وهو أخرنا . وفاعل تبين مخدوف أي تبين حالهم لكم . وكيف مفعول فعلنا بهم . وقال النحاة: ان كيف لا تكون إلا مفعولاً أو حالاً أو خبراً.

المعنى :

(ولا تحبين الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) . الظلم أنواع : فالكفر والشرك بالله ظلم ، والاعتداء على حق من حقوق الناس ظلم ، سواء أكان من مادياً أم أدبياً . أيأ كان المعتدى عليه بخاصة إذا كان ضعيفاً . لأن ظلم الضعيف أفحش الظلم . ومن أعان ظالماً أو رضي بفعله أو سكت عنه ، مع القدرة عليه أو على التشهير به فهو شريك له . ومن أجل هذا لا يغفل سبحانه عما يعمل الظالمون .

وتكلمنا عن الظلم عند تفسير الآية ١٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٧٩ ، ونعطف على ما قلناه هناك : ان الله سبحانه ما أرسل الرسل ، ولا أنزل الكتب إلا لمحاربة الظلم والظالمين .. وقد وصف الله نفسه في كتابه العزيز بأنه ذو انتقام ولولا الظلم لما كان لهذا الوصف عين ولا أثر ، ومهما امتد أمد الظالم فان الله سينتقم منه بأشد وأعظم . قال الإمام (ع) : « سينتقم الله ممن ظلم مأكلاً بما كل ومشرباً بمشرب » فمن ظلم انساناً بكلمة واحدة كان جزاؤه مقامع من حديد ، فكيف بمن حول الأرض إلى جحيم ، وأقام في كل جزء منها قاعدة للموت ، وغزناً لأسلحة الفناء والدمار ؟.

(مهطعين مقني رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفلتتهم هواء) . أبصارهم شاخصة لا تغمض ولا تطرف من الدهشة والذهول .. ويسرعون في مشيهم ولا يلوون على شيء تلبية لدعوة الداعي . رافعين رؤوسهم إلى السماء لا يرى واحدهم موطئ قدمه من الدهشة والذهول ، أما قلوبهم فهواء وخواء . قد اذهب الرعب كل ما فيها من شعور وادراك .. وهكذا تجزى كل نفس بما كسبت .

سورة ابراهيم

(وانذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) . أرسل الله أنبياءه ورسله الى عباده مبشرين بثواب الله ، ومنذرين من عقابه ، وكان المجال أمامهم فسيحاً وعريضاً حين التبشير والانذار ، ولكن أبى أكثر الناس الا نفوراً ، وقالوا لرسولهم : أموت ثم بعث ثم نشر ؟. ان هذا الا اساطير الأولين .. حتى اذا وقفوا بين يدي الله وانكشف لهم الغطاء قالوا : ربنا أمهلنا بعض الوقت ، فنسمع ونطيع لك ولرسلك.. قالوا هذا حين فات الأوان .

وقد أمر الله نبيه محمداً (ص) ان ينذر المكذبين ، ويحذرهم من هذا اليوم الذي لا اقالة فيه ولا رجعة قبل ان يصلوا اليه ، وان يحذرهم بمآلهم لو أصروا على العناد ، وانهم سيقولون لله : أخرنا قليلاً لنستجيب لدعوة الرسل ، وقد أدى النبي رسالة ربه ، فأخبر وحذر ، ولكن غلبت عليهم المطامع والمنافع ، فكانوا من القوم الخاسرين .

(أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من روال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) . هذا الكلام بكامله يخاطب الله به غداً المكذبين الذين يقولون لله : أعدنا ثانية الى الدنيا لتتبع الرسل، ومحصل ما يجيبهم به، عظمت كلمته ، انه يسألهم سؤال توبيخ وتقريع : ألم تقسموا وأنتم في الحياة الدنيا انه لا انتقال من دار الدنيا الى دار الآخرة ، وانه لا جنة ولا نار . يشير بهذا سبحانه الى ما حكاه عنهم في الآية ٣٨ من النحل : « واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت » . وبعد هذا السؤال أو التوبيخ يقول سبحانه للمكذبين أيضاً : لقد علمتم حال من كان قبلكم ، كيف أهلكناهم لما عتوا . وأسكنناكم مساكنهم ، وحذرناكم أن تفعلوا فعلهم ، وضربنا لكم بهم الأمثال ، فلم تتعظوا ، وتعتبروا .. والآن حيث لا رجعة ولا تأثر تقولون : أخرنا قليلاً !! فأأي منطق هذا ؟.. وهل أرسل الله اليكم من قبل رسل لعب وهزل ، حتى يعيدكم ثانية : ويرسل اليكم رسل حق وجد ؟..

وقد مكروا مكروهم الآية ٤٦ - ٥٢ :

وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ
الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعْدُهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ *
يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ *
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ
وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ * هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا أُولَ الْأَلْبَابِ *

اللفظ :

برزوا ظهوروا . ومقرنين مشدودين . والأصفاة جمع صفاة ، وهو القيود .
وسراويل جمع سراويل ، وهو القميص . والقطران نوع من الدهن تدهن به الإبل
إذا جربت ، وللنار فيه اشتعال شديد . وتغشى وجوههم النار تعلوها وتغطيها ،
والبلاغ الكفاية ، ومنه البلاغة ، وهي البيان الكافي .

الإعراب :

وعند الله مكروهم مبتدأ وخبر على حذف مضاف أي علم مكروهم . وإن كان
مكروهم نقل اليبساوي عن الكسائي إن (ان) مخففة من الثقيلة ومهملة وجاءت
اللام بعدها في لتزول لتفصل بين ان النافية وإن المخففة . ومخلف وعده رسوله ،

سورة ابراهيم

مخلف مفعول ثانٍ لتحسين ، وفي الوقت نفسه يحتاج (مخلف) الى مفعولين لأنه اسم فاعل بمعنى أخلف ، وقد أضيف الى المفعول الثاني ، وهو وعده ، ومفعوله الأول رسله ، والأصل مخلف رسله وعده ، ومثله هذا معطي درهم زيداً، والأصل هذا معطي زيد درهماً . يوم تبدّل (يوم) مفعول لفعل مخنوف أي اذكر يوم تبدّل . والأرضُ مفعول أول نائب عن الفاعل ، وغير مفعول ثانٍ لأن تبدّل هنا بمعنى تجعل ، والسمواتُ بالرفع عطف على الأرض الأولى : وغير السموات مخنوفة لدلالة ما قبلها عليها . ومقرنين حال من المجرمين لأن ترى هنا بصرية . وليست قلبية لتتعدى الى مفعولين .

المعنى :

(وقد مكروا مكرمهم وعند الله مكرمهم وان كان مكرمهم لتزول منه الجبال). ما أرسل الله سبحانه رسولا الى قومه الا مكر به وتآمر عليه أهل الفساد والضلال من عهد نوح الى عهد محمد (ص) : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً - ١١٢ الأنعام » . ولا تنحصر أسباب العداء بالتضاد بين الايمان والالحاد ، وبين الشرك والتوحيد .. كلا ، فإن هذا العداء مظهر لمعنى كلي ومبدأ عام . وهو العداء بين دعوة الحق وأهل الباطل في كل زمان ومكان .. وبالتعبير الشائع في هذا العصر : العداء والتناقض بين الثورة والثورة المضادة .. وأياً كان سبب المكر والتآمر ، ومهما بلغ من القوة والشدة ، حتى ولو أزاح الجبال الرواسي من مواضعها فإن الله عليم به ويجزي أهله بما يستحقون .

ونشير بهذه المناسبة الى ان كثيراً من الرجال ينتعون النساء بالكيد والمكر ، ويستشهدون بالآية ٢٨ من سورة يوسف : « ان كيدكن عظيم » .. وللنساء ان يجبن الرجال بأن مكروهم لتزول منه الجبال ويستشهدن بهذه الآية .. هذا ، الى ان وصف النساء بالكيد جاء في القرآن الكريم على لسان عزيز مصر ، أما وصف الرجال بالمكر الذي يزيل الجبال فقد جاء على لسان الله بالذات . ومن الطريف ان بعض الرجال يستدل على مكر النساء وشدة بالآية التي نزلت في حق الرجال :

الجزء الثالث عشر

ومحرف لفظها بوضع (هنّ) مكان (هم) جهلاً وتسرعاً، ويتلو الآية هكذا : ان
مكرهن لتزول منه الجبال .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) بنصرة الحق وأهله ، وخذلان الباطل
وأنصاره ، ويشير سبحانه بوعدہ الرسل الى قوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي
ان الله قوي عزيز - ٢١ المجادلة » . (ان الله عزيز ذو انتقام) ينتقم لأوليائه
الحق من أولياء الباطل (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) غير السموات ،
وذلك بأن تتحول الأرض الى غبار منتشر كما في الآية ٦ من سورة الواقعة :
« فكانت هباء منبثاً » . أما كواكب السماء فإنها تتساقط وتتناثر كما جاء في سورة
القيامة والتكوير والانفطار .

(وبرزوا لله الواحد القهار) . على المكشوف لا باب ولا ثياب ، ومما جاء
في أرض المحشر وصفاتها : انها بيضاء قاع صفصف ، لا أشجار فيها ولا جبال
ولا أودية ، أرض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ، ولم ترتكب فيها خطيئة ،
وتصبح السماء كالمهل - أي عكر الزيت - وتذهب شمسها وقرها ونجومها، وتصبح
الجبال كالعهن - أي الصوف المنفوش - .

جهنم والأسلحة الجهنمية :

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى
وجوههم النار) . ذكر الله سبحانه في كتابه صوراً لعذاب أهل النار ، قراءتها
تبعث الرعب في القلوب والنفوس ، والقشعريرة في الجلود والأعصاب ، فكيف
بمن ينفوق ويختبر .. ومن هذه الصور حشر المجرمين مكبلين بالقيود ، يلبسون
ثياباً من مادة شديدة الالتهاب، وعلى وجوههم غطاء وغشاء من نار ، أما طعامهم
فن شجر الزقوم ، وشرايبهم من ماء الصديد ، هذا وهم في جحيم لا يُبقي ولا
يلز ، ويرمي بشرر كالقصور والجبال .

وتسأل : ألا يتنافى هذا النوع من العذاب مع حلم الله ورحمته، وجوده ورأفته؟
ألا يكفي لجزاء هذا الانسان الضعيف بجلده ولحمه ودمه بعض هذا الجحيم الأليم؟
وأجاب بعضهم عن هذا السؤال بأن ما ذكره سبحانه من أنواع العذاب

سورة ابراهيم

وصوره ليس على وجه الحقيقة ، وانما أراد به تخويف الناس وردعهم عن الجرائم . ولو ان هذا المجيب رجع الى القرآن الكريم لوجد ان الله سبحانه قد سبق في علمه ان الكثير من عباده سوف يمر بخاطرهم هذا السؤال فأجاب عنه سلفاً ، وبيّن الحقيقة في العديد من آياته ، منها ما ذكره هنا بعد ذكر القيود وسرايل القطران بلا فاصل ، وهو قوله : (ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب) . ومنها « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون - ١٤٦ الأعراف » . وقوله : « لا يظلمون فتيلاً » .. وما ربك بظلام للعبيد » . ومنها : « ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون - ١٦٠ الأنعام » : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها - ٢٧ يونس » . ومنها : « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم - ١٩٤ البقرة » .

ومعنى هذه الآيات بمجموعها ان الجرائم والسيئات على أنواع : منها الصغيرة الحقة ، ومنها الكبيرة الخطيرة ، وانه تعالى قد أعد لكل جريمة عقوبتها على أساس الحق والعدل ، لا تزيد ، وقد تخفف حسبما تستدعيه حكمته البالغة ، وقوله تعالى : (فلا يجزى الا مثلها) صريح في ذلك ، بل وحصر أيضاً .

أجل ، هنا سؤال ينبغي أن يسأله كل عاقل ، وهو : من الذي يستحق هذا النوع من العذاب الشديد الأليم ؟ . وهل هناك جريمة تستوجب كل هذا النكال العظيم الدائم الذي له أول وليس له آخر ، كما قال تعالى : « لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها - ٣٦ فاطر » .

الجواب : نعم ، ان في الناس مجرمين يستحقون هذا النوع من العذاب الأليم وأكثر منه أيضاً .. ومن هؤلاء الذين يحاربون الحق أو يكتمونه وهم يعلمون ، سواء أكان هذا الحق لله أم للناس .. وأعظم منهم جرماً تجار الحروب الذين أعلوا لسفك الدماء وتدمير الحياة الأسلحة الجهنمية ، كالقنابل الذرية والهيدروجينية والمواد السامة التي تقتل المئات بل والملايين في دقائق معدودات . ان أية عقوبة يعاقب بها السفاحون فهي دون ما يستحقون .. وليست السلاسل والأصفاد وسرايل النيران بشيء في جانب تدمير البلاد وتشريد العباد وتشويههم وتقتيلهم بمئات الألوف .. ثم هل الشرر المتطاير من جهنم أسوأ أثراً من القنبلة الذرية التي ألقيت على هروشيا مع العلم بأن نسبتها من حيث الأثر الى ما يملكه السفاحون الآن من القنابل كنسبة

الجزء الثالث عشر

الواحد الى الألف ؟. وهل طعام الزقوم، وماء الصديد أشد فتكاً بالأجسام والأرواح من سلاح الجرائم الذي يستعمله الآن أعداء الله والانسانية في فيتنام ، ومن قبل في كوريا ؟.

وسبق عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة ان الانسان اذا امسته ذرة من سلاح الجرائم تقلصت عضلاته ، وبرزت عيناه ، ومات في الحال .. فهل بعد هذا يشك عاقل في ان الحلم بأصحاب هذا السلاح ظلم ، وان الرحمة بهم إثم ، وانهم لو عوقبوا بأشد من عذاب جهنم لكان عقابهم حقاً وعدلاً ؟. هل يُستكثر أي نوع من أنواع العذاب على من لا يروي ظمأه الا دماء الألوف، ولا يشبع جوعه الا اقوات الملايين ومقدراتهم ؟. ولو لم يكن دليل على البعث والحساب الا وجود هذه المظالم لكفى ، اذ لو كانت الدنيا هي كل شيء ، وليس من وراءها عالم آخر تُرد فيه الحقوق الى أصحابها ويمجد كل ظالم الجزاء الذي يستحقه لكان الموت خيراً من الحياة ، والظلم أفضل من العدل .

(هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب) . هذا اشارة الى القرآن بكل ما يحويه ، ومنه ما تقدم من التهديد والوعيد ، والمراد بالبلاغ الكفاية، والمعنى ان الله سبحانه أنزل القرآن على نبيه، وهو كاف واف بكل ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم ، وهو أيضاً يعلمهم بوحدانية الله وعدله ، وينذرهم من مخالفة أمره ونهيه .

الجزء الرابع عشر سورة الحجر

سورة الحجر

مكية ، وآياتها ٩٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تلك آيات الكتاب الآية ١ - ٥ :

أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ * رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ
كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْنُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبِعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *
وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا
وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ *

الإعراب :

رب حرف جر ، ولا تجر الا التكرات ، واذا دخلت ما عليها كفتها عن
العمل الا نادراً ، ومتى كفت عن العمل دخلت على الأسماء المعارف وعلى الفعل
كما في الآية ، وقال أبو حيان الأندلسي : « وعلى كثرة مجيء رب في كلام
العرب لم يجيء في القرآن الا في هذا الموضع . ولو كانوا مسلمين (لو) للتمني ،
وقيل : هي مصدرية بمعنى ان : والمصدر المنسبك مفعول يود ، أي يود الذين
كفروا كونهم مسلمين . من قرية (من) زائدة اعراباً ، وقرية مفعول أهلكتنا .
الا ولها كتاب معلوم الواو لتحسين الكلام ، ويجوز حذفها كما في الآية ٢٠٨ ص .

سورة الحجر

سورة الشعراء : « وما أهلكنا من قرية إلا لها منلرون » ولها خبر مقدم وكتاب مبتدأ مؤخر ومعلوم صفة للكتاب .

المعنى :

(الآر) سبق الكلام عن مثله في أول سورة البقرة (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) . تلك اشارة الى نفس السورة التي نفسرها ، والقصد الاخبار بأنها آيات من كتاب الله ، وقرآن واضح يميز بين الحق والباطل (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) . رب هنا للتكثير ، والمعنى ان كل مجرم غداً ينكشف له الغطاء ، ويتمنى لو كان في الدنيا من المتقين الذين سلموا للحق وعملوا به . انظر تفسير قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » الآية ١٩ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢٦ .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) . آثروا التمتع بالحياة على اتباع الحق ، فهددهم سبحانه بما يحل بهم غداً من العذاب الأليم (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) . كأن سائلاً يسأل : لماذا لم يجعل الله العقوبة لمن تمرد عليه وعلى رسله ؟ . فأجاب سبحانه بأن لكل عقوبة أجل ، وانه جلت حكمته ما أهلك أمة من قبل الا عند حلول أجلها ، والجاهل من يفتّر بالامهال (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) . انظر تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ، فقرة : « الأجل محتوم » ج ٢ ص ١٧١ .

انك لمجنون الآية ٦ - ١٨ :

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا

كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ
وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ
يَغْرَجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ *
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ *

اللفظة :

المراد بالذكر هنا القرآن . والشيع جمع شيعة ، وهي الفرقة المتفقة على مبدأ
واحد ديناً وعقيدة . ونسلكه نُكَلِّهه . والعروج الصعود في الدرج . وسكرت
سدت ، والمراد بالبروج هنا منازل الشمس والقمر كما في أكثر التفسير .
والشهاب الشعلة من النار .

الإعراب :

لو ما أداة طلب مثل هلا . واذن حرف جواب وجزاء ، وهي هنا في معنى
الجزاء لشرط مقدر ، أي لو نزلت الملائكة لم يُبْهَل الكافرون ، فأذن هنا تؤدي
معنى لم التي وقعت جواباً للو . كذلك خبر مبتدأ مخوف أي الأمر كذلك . إلا
من استرق السمع (من) في محل نصب على الاستثناء المتقطع أي لكن من استرق
السمع .

المعنى :

(وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون) . ضمير قالوا يعود الى مشركي قريش ، وقد خاطبوا محمداً بالذي نزل عليه الذكر تهكماً واستخفافاً ، لأنه في منطقهم ومقاييسهم مجنون يهذي بغير العقل ، وان كان رحمة للعالمين . وتقدمت به الانسانية مئات السنين .. والقرآن أيضاً من وحي الجنون ، وان كان معجزة المعجز بعلمه وتعاليمه .

وهذا المنطق لا يختص بعبدة الأصنام ، ولا بالزنادقة والملاحدة ، فإنه يشمل كل من اتخذ من ذاته ومنفعته مقياساً للحق وميزاناً للعدل ، حتى ولو قال : لا إله الا الله محمد رسول الله .. أبداً لا فرق بين هذا المسلم النفعي الذي اعترف لمحمد بالنبوة ، وبين المشرك الذي أنكر نبوة محمد ، لا فرق الا ان هذا المسلم آمن بمحمد نظرياً ، وكفر به عملياً ، والمشرك أنكره قولاً وعملاً .. فالنتيجة من حيث العمل واحدة .

(لو ما تأتينا باللائكة ان كنت من الصادقين) . هذا من قول المشركين للنبي (ص) . وقد اشترطوا لايمانهم به أن تنزل عليهم الملائكة من السماء، وتشهد لمحمد بالنبوة ، فأجابهم الله بقوله : (ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين) . وملخص الجواب ان الله ينزل ملائكته على الأنبياء والرسل للتبليغ ، ولا يترهم على المكذبين والجاحدين الا بالعذاب والهلاك ، كما فعل بالأمم الخالية ، ولو ان الله أجاب المشركين بإنزال الملائكة عليهم لهلكوا عن آخرهم . وسبق نظير الآية سؤالاً وجواباً في سورة الأنعام الآية ٨ ج ٣ ص ١٦٤ .

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) . المراد بالذكر القرآن . وقيل : ان ضمير له يعود الى محمد (ص) ، وان الله يحفظه من أعدائه ، وهذا خلاف ظاهر الآية ، فيتعين إعادة الضمير الى القرآن .

وتسأل : من أي شيء يحفظ الله القرآن ؟ . فإن كان المراد ان الله يحفظه من التحريف كما قال أكثر المفسرين فبالأمس القريب طبعت اسرائيل ألوف النسخ من القرآن ، وحرقت ما اشتهت من الآيات، منها الآية ٨٥ من سورة آل عمران

الجزء الرابع عشر

التي صارت في قرآن اسرائيل : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً يقبل منه » . وان كان المراد بالحفظ انه لا أحد يستطيع الطعن فيه فهذا خلاف الواقع .

وذكر الرازي والطبرسي عدداً من الأجوبة ، ولكنها غير مقنعة . والذي نراه ان المراد بحفظ القرآن ان كل ما فيه هو حق ثابت وراسخ مدى الأزمان ، لا يمكن رده والطعن فيه بالحجة ، بل كلما تقدمت العقول والعلوم ظهرت أدلة جديدة على صدق القرآن وعظمته ، وهذا المعنى الذي فسرنا فيه حفظ القرآن تدل عليه أو تشعر به الآية ٤١ من فصلت « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) . الخطاب من قبلك لمحمد ، وشيع الأولين الأمم الماضية ، والمعنى ان شأن المشركين معك الذين كذبوك يا محمد ، وقالوا عنك انك لمجنون ، تماماً كشأن المشركين السابقين ما جاءهم نبي إلا كذبوه وسخروا منه .. ومع هذا صبر الأنبياء السابقون على سفاهة أقوامهم وجهالتهم ، فاصبر وتأس بهم . والقصد من ذلك التخفيف والتسرية عن النبي الأعظم (ص) . ومر نظيره في سورة الأنعام الآية ٣٤ ج ٣ ص ١٨٢ .

(كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين) . ضمير نسلكه يعود الى الذكر في الآية السابقة : « انا نحن نزلنا الذكر » ومثله ضمير به ، والمعنى ان القرآن لا يدخل في قلوب المجرمين دخول ايمان وتصديق ، بل دخول استخفاف وهزاء ، وقوله : (لا يؤمنون به) بيان وتفسير لقوله : (نسلكه في قلوب المجرمين) .. اما قوله : (وقد خلت سنة الأولين) فعناه ان المكذبين اللاحقين كالمكذبين السابقين يدخل الباطل في قلوبهم دون الحق ، والضلالة دون الهداية . أما نسبة السلوك الى الله تعالى فهي من باب نسبة الشيء الى السبب الأول البعيد لا الى السبب القريب المباشر ، وسبق التنبيه الى ذلك أكثر من مرة .

(ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) . طلب المعاندون من محمد (ص) في الآية السابقة ان

ينزل عليهم الملائكة ، فأجابهم الله سبحانه هناك بأن الملائكة تنزل على المكذبين والمعاندين بالعذاب والحلاك ، ثم عقب سبحانه في هذه الآية على الجواب السابق بأن الله لو فتح لهم أبواب السماء وصعدوا فيها بأجسامهم ورأوا الملائكة وغيرها من العجائب لقالوا : ان محمداً سحر أبصارنا وأرانا الخيال واقعاً والواقع خيالاً . وسبق نظيره في سورة الأنعام الآية ٧ ج ٣ ص ١٦٣ .

(ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين) . قال بعض المفسرين : المراد بالبروج النجوم . وقال آخرون ، بل المراد بها منازل الشمس والقمر ، ومهما يكن معنى البروج فليس الغرض من الآية أن ندرس علم الفلك لنعرف حقيقة البروج ، وإنما الغرض الأول أن نتدبر قدرة الله وحكمته في خلق السموات والأرض ، وان ما في الكون من الدقة والتنظيم والجمال لأوضح في الدلالة على وجود الله ووحدانيته من نزول الملائكة ، وكل ما اقترحه المتعنتون من المعجزات .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) . كان أهل الجاهلية يعتقدون ان لكل كاهن من الكهنة شيطان يصعد الى السماء ، فيستمع من الملائكة ما يتحدثون به عن أهل الأرض ، ثم ينزل الشيطان الى الكاهن فيخبره بما سمع ، والكاهن بدوره يفشي بين الناس . والآيات بمجموعها رد وتكذيب لهذه الأسطورة ، وان الشياطين لا يستطيعون الوصول الى السماء بحال ، وقوله : (شهاب مبين) كناية عن ان الشياطين أعجز وأقصر من أن تسترق السمع من الملائكة كما زعم أهل الجاهلية .

والأرض مددناها الآية ١٩ - ٢٥ :

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا

الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ *
وَأَنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ * وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ
مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ *

اللفظة :

الرواسي الجبال . والشيء الموزون المقدر بقدر . واللواحي جمع لواح للشجر
والسحاب .

الإعراب :

الأرض مفعول لفعل محذوف دل عليه المجرور أي ومددنا الأرض مددناها .
ومن لستم له برازقين (من) أيضاً مفعول لفعل محذوف أي ورزقنا من لستم له
برازقين . وقيل : أن (من) عطف على الضمير المجرور ، وهو لكم أي وجعلنا
لكم ولمن لستم له برازقين في الأرض معاش . وإن من شيء (أن) نافية ومن
زائدة إعراباً ، وشيء مبتدأ ، والخبر جملة عندنا خزائنه . ولواحي حال من الرياح .
وإنا لنحن نحيي (نحن) تأكيد لاسم أن ، ويجوز أن تكون مبتدأ ونحيي خبر ،
والجملة خبر أن .

المعنى :

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) .
سبق الكلام مفصلاً عما حوته هذه الآية عند تفسير الآية ٣ من سورة الرعد ،

وقوله تعالى : « كل شيء موزون » في معنى قوله : « وكل شيء عنده بمقدار » - ٩ الرد « . وقوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » - ٢ الفرقان « . أي مراعى فيه كمية المواد والعناصر ، وكيفية الشكل والصورة ، والمهدف الذي وجد من أجله ، ولو كان للصدقة والعشوائية شيء من الأثر في وجود الأشياء لما كان فيها هذا الاحكام والتدبير .

(وجعلنا لكم فيها معاش) . ضمير فيها يعود الى الأرض، والمعاش أسباب العيش من الزراعة والتجارة والصناعة، أما العيش بالسلب والنهب والغش والاحتيال فهو من صنع الشيطان ، لا من جعل الله وخلق .

(ومن لستم له برازقين) . وكل حي في الأرض لستنا نحن له برازقين ولا مكلفين برزقه ، وإنما الغرض من هذه الإشارة أن نعلم ان جميع الأحياء تعيش على رزق الله ، ولا حي يرزق حياً سواء اطلاقاً ، حتى الأطفال الذين نعول ، والدواب والانعام التي نملك .. فإن رزقها جميعاً على الله وحده ، لا على غيره .

(وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) . قال الرازي « اتفق المفسرون : على ان المراد بقوله : (من شيء) هو المطر لأنه سبب الارزاق والمعاش » . والصحيح ان المراد من شيء في الآية المطر وغيره ، لأنها نكرة في سياق النفي ، ومعناها العموم ، تماماً كما لو قلت : ما رأيت أحداً ، والمراد بالانزال العطاء ، وبالقدر المعلوم أسباب الرزق ، والمعنى ان الخير كله عند الله ، وهو يعطيه للعاملين المجدين ، لا للكسالى المخثئين : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » - ١٥ الملك « . أنظر « هل الرزق صدقة أو قدر » في ج ٣ ص ١٣١ .

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين) . الرياح توصف باللواقح لأنها تحمل السحاب الماطر ، فتلقح الشجر بما تنزل عليه من الأمطار، والى هذا أشارت الآية ٥٧ من سورة الأعراف : « وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى اذا أقلت - أي حلت - سحاباً ثقالاً سقناه ليلد ميت » . أنظر تفسر هذه الآية في ج ٣ ص ٣٤٢ . وأيضاً توصف الرياح باللواقح لأنها تنقل لقاح الأزهار الذكور الى الأزهار الاناث لتخرج الثمر والفواكه.

الجزء الرابع عشر

وليس المراد بقوله تعالى : (وما أنتم له بخازنين) ان المساء بكامله مجموع في خزان عظيم عند الله يتزل منه الماء الى الأرض ساعة يشاء كما قال بعض المفسرين بل المراد ان الله ينزل الماء بالأسباب الطبيعية للتزول ، وتحفظه الأرض ، وتخرجه العيون شيئاً فشيئاً لسد الحاجات .

(وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) . نحن الوارثون كناية عن ان كل من عليها فان ، وانه لا يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المتأخرين) ذكر الرازي والطبرسي ستة أقوال في معنى المستقدمين والمتأخرين ، والصحيح ان المراد بهما ان الله لا يخفى عليه شيء من أحوال الأولين والآخريين (وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم) . يحشرهم جميعاً للحساب والجزاء ، وهو حكيم في حشرهم هذا ، حيث يجد فيه المحسن ثواب احسانه ، والمسيء عقاب اساءته ، وأيضاً هو عليم بمن أحسن وأساء .

الانسان من صلصال الآبة ٢٦ - ٣١ :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ *

اللمة :

المراد بالانسان هنا آدم أبو البشر . والصلصال الطين اليابس غير المطبوخ فإذا

سورة الحجر

طبخ فهو فخار . والحما الطين المتغير الى السواد . والمنون المصبوب الذي يمكن تصويره على أية هيئة من الهيئات . ونار السموم شديدة الحرارة ، وتنفذ في المسام . وسويته أعمته .

الإعراب :

من حأ بدل من صلصال بإعادة حرف الجر . والجان مفعول لفعل محذوف أي وخلقنا الجان خلقناه ، وكلهم تأكيد للملائكة ، وأجمعون تأكيد ثان .

المعنى :

(ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حأ مسنون) . تكلم الناس كثيراً حول أصل الانسان ، واشتهر عن درون انه قرد ، وبسطنا الكلام عن درون والانسان عند تفسير الآية ١١ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٠٥ . ونعود الآن الى الموضوع بأسلوب آخر لمناسبة ذكر الانسان والصلصال في الآية التي نحن بصدددها .

ينحصر طريق المعرفة بالتجربة والملاحظة والعقل والوحي ، ومن الواضح أننا بالتحليل في المختبر نعرف ما في الانسان من مواد ، أما كيف وجد الانسان ، وعلى أية هيئة كان فلا تجيب عن هذا السؤال وما اليه المختبرات والمعامل . أما الملاحظة فأني انسان رأى وشاهد بداية خلق الانسان الأول وكيف تكون وجوده؟ ولا شيء في الحفريات يدل دلالة واضحة على أصل الانسان ، وشرحنا ذلك في المجلد الثالث ص ٣٠٥ ، أما سؤال العقل عن أصل الانسان وكيف كان فهو تماماً كسؤاله : من هو أبو فلان ، وهل كان طويلاً أو قصيراً .. فلم يبق من طريق الى معرفة أصل الانسان الا الوحي من خالق الانسان .

ومن تتبع آي الذكر الحكيم يجد بعض الآيات تقول : « وهو الذي خلق من الماء بشراً - ٥٤ الفرقان » . وبعضها يقول : « كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون - ٥٩ آل عمران » . وآية ثالثة تقول : « هو الذي خلقكم

الجزء الرابع عشر

من طين - ٢ الأنعام ، ، والطين هو الماء والتراب وليس بحقيقة ثالثة . والآية التي نحن بصددھا تقول : (ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون) . والصلصال طين يابس . والحمأ طين متغير الى السواد ، والمسنون طين يمكن تكييفه بسهولة . والطين يشق أنواعه ماء وتراب فأصل الانسان الأول ماء وتراب ، خلق الله منها أبا البشر ومنحه الحياة .

(والجان خلقناه من قبل من نار السموم) . أنكر جماعة وجود الجن ، وفسر بعض المؤمنين الجن المذكور في القرآن ، فسرھ بالمكروب الذي لا يرى بالعين ، أي اخذاً بالمعنى اللغوي من جس الشيء إذا استتر عن الأعين . وقال آخرون بوجود الجن، وألفوا كتباً في عدد نفوسهم وبلادهم وعاداتهم وشعرائهم ورؤسائهم، وزواج الانس منهم وزواجهم من الانس ، ونحن نؤمن بوجود الجن ، لأشياء إلا لأن الوحي أثبتھ ، والعقل لا ينفیھ ، ولا نصدق أحداً يدعي رؤية الجن أو يتصل بهم ، ولا نقبل أي حديث عنهم إلا اذا نطق الوحي به صراحة . وقد صرحت هذه الآية والآية ١٥ من الرحمن ان الله خلق الجن من النار . لذا نحن نؤمن بأن أصل الجن من نار ، ولكن أي نار ، وكيف كان الخلق ؟ الله أعلم . وقرأت فيما قرأت ان علماء الاختصاص اكتشفوا نوعاً من الحشرات لا تحيا إلا بالهواء السام ، ونوعاً آخر لا يحيا إلا في آبار البترول والمواد الملتهبة .

وعليه فمن الجائز أن يكون في كوكب الشمس أحياء تنفق في تكوينها مع حرارة الشمس ، كالسلك في الماء ، وتلون الفراشة بلون الورد، والسحفاة بلون الصحراء .

(واذا قال ربك للملائكة اني خالق بشراً) . قال الله هذا للملائكة ، وقال له الملائكة أيضاً : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟. وغرضنا من الاشارة الى قول الملائكة التنبيه الى ما ذكرناه عند تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة من ان الله سبحانه قد أفسح لهم مجال السؤال والحوار الذي يشبه الاعتراض ، ثم أفهمهم الحقيقة ، وتلطف في جوابهم .. فعسى أن يتعظ بهذا من يرى نفسه فوق أن يراجع في شيء من أقواله لمكانته العلمية ومنزلته الاجتماعية . أنظر المجلد الأول ص ٨١ .

سورة الحجر

(من صلصال) طين يابس غير مطبوخ (من حمأ) طين متغير الى السواد (مسنون) مرن يمكن تكيفه وتصويره على هيئة انسان أو غيره (فإذا سويته) أتممته (ونفخت فيه من روحي) أي جعلت الحياة فيه أنظر ج ٢ ص ٥١ (ففعلوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين) سبق نظيره في الآية ٣٤ من سورة البقرة ج ١ ص ٨٢ .

الله يسأل وابليس يجيب الآية ٣٢ - ٤٤ :

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ
لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي
إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *
قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ *

اللفظة :

رجيم أي مرجوم ، والمراد به هنا المطرود من رحمة الله لأن من يطرد بقذف

الجزء الرابع عشر

بالهجارة . وانظرني امهلي . وجزء مقسوم أي لكل فريق من اتباع ابليس جزء معين في جهنم .

الإعراب :

مالك (ما) مبتدأ ، ولك متعلق بمحذوف خبراً للمبتدأ ، والمصدر من ان لا تكون مجرور بحرف جر محذوف ، والمصدر متعلق بما تعلق به الخبر ، والتقدير أي شيء حملك على عدم السجود ؟ . لاسجد اللام تأكيد للنفي ، وان مضمره بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور بها ، وهو متعلق بمحذوف خبراً لأن كان أي لم أكن مستعداً أو مخلوقاً للسجود لبشر . وبما أغويتني الباء للقسم عند البيضاوي ، وما مصدرية وجواب القسم لأزين ومثله فبعتك لاغوينهم أجمعين . وأجمعين تأكيد للضمير أغوينهم . وعبادك منصوب على الاستثناء المتصل من الضمير المذكور ، والمخلصين صفة لعبادك . وهذا مبتدأ وصراط خبر ومستقيم صفة . الا من اتبعك (من) في موضع نصب على الاستثناء المنقطع لأن الغاوين غير المخلصين . وأجمعين تأكيد للضمير في موعدهم .

المعنى :

أمر سبحانه الملائكة بأن يسجدوا لآدم سجود تحية ، لا سجود عبادة ، فأتاعوا جميعاً ، وعصى ابليس . واختلف العلماء في هوية ابليس : هل هو ملك فطرد ، أو شيطان منذ البداية ؟ . وهذا نزاع عقيم ، ما دام ابليس مذموماً مدحوراً على كل حال .. وحين امتنع عن السجود سأله المولى جلّت عظمتة :
(قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين) ؟ . وهل أنت أعلى مكاناً ، وأشرف قدراً ممن سجد لآدم ؟ .

(قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) . عصى ابليس وتمرد لا لشيء إلا تعصياً لأصله وعنصره ، وكل من تعصب لأصل وعنصر فهو ملعون ومذموم ورجيم تماماً كإبليس .

سورة الحجر

(قال فاخرج منها فأنتك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) . ضمير منها يعود الى الدرجة الرفيعة، والمعنى ان الله سبحانه طرد ابليس من رحمته الى عذابه ونقمته ، وجعله ملعوناً على كل لسان حتى قيام الساعة جزاء على تكبره وامتناعه عن طاعة الله تعالى .

(قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون) . طلب هذا الامهال لحاجة في نفسه سيصرح بها قريباً .

(قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم) . وهو ساعة النفخ في الصور الذي دلت عليه الآية ٦٨ من الزمر : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض » .

(قال رب بما اغويتني) أي بما امتحتني به من الأمر بالسجود لآدم الذي أوقعني في الغي والعصيان (لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) . قطع ابليس عهداً على نفسه ان ينتقم لمأساته من هذا المخلوق الذي كان السبب لطرده من رحمة الله الى لعنته .

(قال هذا صراط علي مستقيم) هذه اشارة الى صيانة المخلصين من الشيطان وغوايته ، وعليّ أي ثابت عليه تعالى ، مثل قوله : « كتب ربكم على نفسه الرحمة - ٥٤ الأنعام » . والمعنى ان الله كتب على نفسه ان الاخلاص هو الصراط المستقيم ، فن سلكه نجما ، ومن انحرف عنه هلك (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) الذين يعبدون الدرهم والدينار ، ويبيعون الدين والبلاد والعباد لكل من يدفع الثمن ، أما الطيبون المخلصون فلإبليس أذل وأحق من ان يدنو منهم فضلاً عن تسلطه عليهم . تقدم نظير هذه الآيات في الأعراف الآية ١١ - ١٨ ج ٣ ص ٣٠٦ .

(وان جهنم لموعدهم أجمعين) . هناك في قعر جهنم يجتمعون جميعاً إبليس وأتباعه ، ويتبرأ المتبوع من التابع ، ويلعن كل منها صاحبه . انظر تفسير الآية ٢٢ من سورة ابراهيم ، فقرة : « خطبة الشيطان » .

(لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) . قيل : المراد بالأبواب المعنى الظاهر منها . وقيل : بل المراد منها الطبقات والأدوار ، وان بعض النار

الجزء الرابع عشر

فوق بعض ، وان لكل طبقة اسم يخصها كجهنم والجحيم ولظى وسقر والحطمة وما إلى ذلك .. ومهما كان المراد فان الواقع معلوم ، وهو ان السيات مراتب ودرجات ، منها الكبيرة الخطيرة ، ومنها الصغيرة الخفية ، وما بينها، ولكل سيئة ما تستحقه من العذاب دون زيادة. وتكلمنا عن ذلك مفصلاً في آخر سورة ابراهيم بعنوان « جهنم والأسلحة الجهنمية » .

ان المتقين في جنات الآبة ٤٥ - ٥٠ :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * أُدْخِلُوهُمْ بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا
فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ
وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ
عَذَابِي هُوَ الْأَلِيمُ *

اللغة :

السرر جمع سرير . والنصب التعب . ونبيء خبر .

الإعراب :

ادخلوها أي يقال لهم ادخلوها. وبسلام متعلق بمحذوف حالاً من واو ادخلوها
أي سالمين . وآمنين حال ثانية . وإخواناً حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف
الذي تعلقت به في جنات . أي ان المتقين مستقرون في جنات متصافين متحابين .
ومتقابلين صفة للاخوان ، وعلى سرر متعلق بمقابلين . وما هم (ما) نافية وهم

سورة الحج

مبتدأ وبمخرجين الباء زائدة اعراباً ، ومخرجون خبر . واني أنا الغفور (أنا) ضمير فصل أو توكيد ، والمصدر من اني أنا الغفور مجرور بالباء المحذوفة . وان عذابي هو العذاب (هو) ضمير فصل .

المعنى :

بعد أن ذكر سبحانه عاقبة المجرمين والعاوين ، وانهم يحشرون غداً مقرونين في الأصفاة ، وسرايلهم من قطران ، وتغشى وجوههم النار ، بعد هذا ذكر سبحانه عاقبة المتقين ، وانهم يجازون بالرفاهية والأمان والصفاء والراحة الدائمة ، وفيما يلي التفصيل :

١ - (ان المتقين في جنات وعيون) . حياة طيبة في كل شيء من المأكول والمشرب الى المنظر وحوار العتق . « وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين - ٧١ الزخرف » .

٢ - (ادخلوها بسلام آمنين) . حياة طيبة وآمنة لا خوف فيها ولا حزن .
٣ - (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخواناً على سرر متقابلين) والى جانب الرفاهية الصفاء أيضاً ، حيث لا حقد يغلي في القلوب ، وبذيبيها حسرات ، كما هي حال أهل النار الذين وصفهم سبحانه بقوله : « كلما دخلت أمة لعنت أختها - ٣٧ الأعراف » .

٤ - (لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) .. لا فقر .. لا مرض .. لا خوف .. لا حقد .. وأيضاً لا تعب واعياء .. وكل هذه الأوصاف دائمة لا نقصان فيها ولا زوال لها .

(نبيء عبادي اني أنا الغفور الرحيم وان عذابي هو العذاب الأليم) . جمع سبحانه في هاتين الآيتين بين التبشير والتحذير لكي لا ييأس العاصي من رحمة الله ومغفرته ، بل يرجع اليه تعالى ويتوب . وكلي يحذر المطيع من الزلل وفساد العمل ، فيحافظ ويتواضع ولا يتملكه العجب والغرور . وقال الرازي : لما ذكر الله المغفرة والرحمة بالغ في تأكيدهما بألفاظ ثلاثة هي : (اني) و (أنا) وادخال الألف

واللام على الغفور الرحيم ، ولما ذكر العذاب لم يقل : (اني) و(أنا)، بل قال : ان عذابي هو الخ .

ضيف ابراهيم الآية ٥١ - ٦٠ :

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشِّرْنِي عَلَى أَنْ مَسْنِيَ الْكَبِيرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا بُرْءًا

اللغة :

الرجل الخوف والقنوط اليأس . وما خطبكم ؟ ما شأنكم ؟ . وقدرنا قضينا ، أو علمنا ، والغابر الباقي والماكث ، وقد يستعمل فيمن ذهب ومضى . والمراد بالغابرين هنا ان امرأة نوح من الباقيين في المدينة مع المهلكين .

الإعراب :

قالوا سلاماً منصوب على المصدر أي سلمنا سلاماً . وعلى ان مسني متعلق

سورة الحجر

محذوف حالاً من الباء في بشرتموني أي أبشرتموني كبيراً . ومن يقنط (من) مبتدأ ويقنط خبر . آل لوط منصوب على الاستثناء المنقطع من قوم مجرمين . وامرأته على الاستثناء المتصل من ضمير « لمنجوههم » .

المعنى :

(ونبتهم عن ضيف ابراهيم) . الخطاب الى محمد (ص) ، وضمير (هم) يعود الى عباد الله المذكورين في الآية السابقة . وضيف ابراهيم هم الملائكة الذين دخلوا عليه (اذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً) سلموا عليه ، فرد عليهم ، كما في الآية ٦٩ من سورة هود : « قالوا سلاماً قال سلام » .

(قال انا منكم وجلون) لأنه قدّم لهم الطعام فامتنعوا عنه، فأنكرهم وأوجس منهم خيفة (قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم) ذي شأن ، وفي الآية ١١٢ من سورة الصافات : « وبشّرناه بإسحق نبياً من الصالحين » .

(قال أبشرتموني على ان منسي الكبر فم تبشرون) . لم يقل هذا ابراهيم شكاً في قدرة الله ، ولا يأساً من رحمته ، بل ليتأكد ويطمئن (قالوا بشرك بالحق فلا تكن من القانطين) ظن الملائكة من سؤال ابراهيم انه قانط ، فصحح ظنهم ونفى عنه القنوط (قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) . وفي قوله هذا دلالة قاطعة على انه لم يسأل شاكاً ولا يائساً ، بل متأكداً ومتبئاً على طريقة (ولكن ليطمئن قلبي) .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) ما هي المهمة التي أرسلتم من أجلها - غير التبشير - ؟ . (قالوا إنا أرسلنا الى قوم مجرمين) وهم قوم لوط (الا آل لوط انا لمنجوههم أجمعين) وهم خاصته وأتباعه المؤمنون (الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين) أهلكها الله مع من أهلك لأنها كانت منافقة تتأمر على زوجها لوط مع أعدائه المشركين ، وسبق نظير هذه الآيات في سورة هود الآية ٦٩ وما بعدها .

آل لوط الآية ٦١ - ٧٢ :

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطِ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * قَالُوا بَلْ

جَنَّتَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا
حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنْ دَابرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ
مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا
تَفْضَحُون * وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُون * قَالُوا أَوْ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ *
قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَغْمَهُون *

اللغة :

الاسراء السر في الليل . والقطع من الليل طائفة منه . واتبع ادبارهم أي كن
على أثرهم . وقضينا اليه أوحينا اليه .

الإعراب :

الأمر عطف بيان أو بدل من ذلك . والمصدر من ان دابر هؤلاء بدل من
ذلك الأمر ، أو مجرور بالباء المحلولة أي وقضينا بأن دابر هؤلاء . ومصبحين
حال من هؤلاء . وجملة يستبشرون حال من أهل المدينة . وعن العالمين على
حذف مضاف أي عن ضيافة العالمين . ولعمرك مبتدأ والخبر مخوف أي لعمرك
نسي .

المعنى :

يكرر الله سبحانه قصص الأنبياء وما حدث من عاندهم وقاوم رسالتهم، يكرر

سورة الحجر

ذلك لنتعظ ونعتبر كيف كان عاقبة المكذبين بالحق ، وكل ما جاء في هذه الآيات التي نحن بصدها قد سبق ذكره مفصلاً في سورة هود ، وكذا جاء في المقطع السابق المتعلق بابراهيم (ع) ، ومن أجل هذا نختصر في تفسير هذه الآيات كما اختصرنا في تفسير الآيات السابقة .

(فلما جاء آل لوط المرسلون) . خرج الملائكة من عند ابراهيم وتوجهوا الى لوط ، فلما دخلوا عليه ظنهم ضيوفاً ، فضاقت بهم ذراعاً خوفاً عليهم من قومه الفجرة (قال انكم قوم منكرون) . لا اعرفكم ولا أعرف ماذا تريدون .. وكيف دخلتم هذا البلد ، وأهله مشهورون بما يفعلون ؟ .

(قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) . كشف الملائكة للوط عن حقيقتهم ، وعن المهمة التي جاءوا من أجلها ، وهي اهلاك قوم لوط ، فقد كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وكان نبيهم لوط يحذرهم وينذرهم بعذاب من السماء ، فيشكون ويسخرون .. فقال الملائكة للوط : لقد جئناك بالعذاب الذي حذرهم منه ، وكذبوك فيه ، وانه واقع لا محالة (فاسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون) . بعد ان أخبروه بوقوع العذاب أمروه أن ينجو بنفسه وأهله ، وذلك بأن يسير بهم قبل الصبح على ان يكون هو في مؤخرتهم يرعاهم ويتقدمهم ، ولا يدع أحداً يلتفت الى الوراء لكلا يرى العذاب فيجزع ويفزع . (وقضينا اليه ذلك الأمر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) . أوحى الله الى لوط بأنه سيستأصل الكافرين وقت الصباح عن آخرهم ، ولا يبقى منهم عيلاً ولا أثراً .

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) . قصد الفسقة الفجرة أضياف لوط فرحين يبشر بعضهم بعضاً بهذه الغنيمة الباردة ، واسودت الدنيا في وجه لوط ، حيث لم يكن قد عرف حقيقة أضيافه بعد ، فخاطب قومه برفق (قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون) . خوفهم من الله ، ولا شيء أهون عليهم منه ، واستنجد بمروءتهم ان يفضحوه ويخزوه في ضيفه ، وهم أبعد الخلق عن المروءة والانسانية .

(قالوا أو لم ننهك عن العالين) . أرأيت الى هذه الصلافة والواقحة ؟ . أصبحوا

الجزء الرابع عشر

هم الأبرياء الأتقياء ، ولوط هو المذنب المجرم .. ولماذا ؟. لأنهم نهوه عن معاشره الناس واستقبال الضيوف فلم ينته !.. ألم تنهك ؟.. وهذا المنطق اللوطي هو منطق كل معتد أثم لا يقيم وزناً الا لرغبته ومنفعته . فالفيتناميون دعاة حرب وسفاكو دماء عند الأمريكيين لأنهم يرفضون أن تتحكم بهم الولايات المتحدة كما نشاء ، والعرب وحوش مفترسون عند الولايات المتحدة وانكلترا لأنهم يقولون : فلسطين للفلسطينيين لا للصهاينة ، ودول الاستعمار تردد شعارات السلام والحرية في نفس الوقت الذي تضرب فيه الشعوب المستضعفة بالمدافع وقنابل النابالم .

(قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين) . عبر عن نساء قومه بيناته لأن رسول الأمة كالأب لجميع أفرادها ذكوراً وإناثاً . وقد عرض لوط على قومه أن يتركوا الذكور . ويتزوجوا الإناث حلالاً طيباً . ولكن نفوسهم لا تطيب الا بالحرام ، ولا تميل الا الى الخباث والأتام . (لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون) . قال كثير من المفسرين : ان الخطاب في لعمرك من الله الى محمد (ص) . وقال آخرون : انه من الملائكة للوط ، وربما كان هذا أقرب لظاهر السياق . ومهما يكن فإن المعنى ان قوم لوط يتردون في الهوى والضلالة ، ولا يؤوبون الى الرشده والهداية مهما جد الهادي ونصح المرشد .

أخلفتهم الصيحة الآية ٧٣ - ٨٦ :

فَاَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَابًا مِنْ سَجْجٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ
لظَّالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهَا لِبِأَمَامٍ مُبِينٍ * وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ

سورة الحجر

مِنَ الْجِبَالِ يُؤْتَا آمِنِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ
مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ *

اللغة :

المراد بالصيحة هنا العذاب . ومشرقين أي داخلين في وقت شروق الشمس .
والسجبل طين متحجر . وللمتوسمين جمع متوسم ، وهو صاحب القراسة الصائبة ،
والمراد به هنا العاقل الذي ينتفع بالعظات والعبر . والمراد بأصحاب الأيكة قوم
شعيب، والأيكة الشجر الملتف الكثيف . وللإمام معانٍ شتى، والمراد به هنا الطريق.
واصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح ، والحجر اسم المكان الذي كانوا فيه، وقيل
كل مكان أحيط بالحجارة يسمى حجراً ، والصفح الجميل العفو من غير عتاب ،
كما جاء عن الإمام علي (ع) .

الإعراب :

مشرقين حال من الضمير في أخذتهم ، ومثلها مصبحين . وآمنين حال من
واو ينحتون . وإن كان أصحاب الأيكة (إن) مخففة من الثقيلة ومهملة، واللام بعدها
للفصل بينها وبين إن النافية .

المعنى :

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) . ضمير (هم) يعود الى قوم لوط ، والمعنى
إن العذاب نزل بهم في وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم
حجارة من سجيل) . ضمير عاليها وسافلها يعود الى مدينة لوط ، وتقدمت هذه
الآية بالحرف الواحد مع التفسير في سورة هود الآية ٨٢ .

الجزء الرابع عشر

(ان في ذلك آيات للمتوسمين) المراد بالتوسمين هنا العقلاء الذين يعتبرون ويتفكرون بالعظائم (وانها لبسبيل مقيم) ضمير انها يعود الى مدينة أو قرى لوط التي جعل الله عليها سافها . والسبيل الطريق ، والمقيم الموجود الثابت ، والمعنى ان آثار مدينة لوط التي أهلكتها الله ما زالت قائمة الى عهد محمد (ص) والطريق اليها موجود ومسلك يمر عليه الرائح والغادي، ويشاهد الدمار والآثار .. قال المفسرون: كانت تعرف هذه المدينة باسم سدوم (ان في ذلك آية للمؤمنين) . أي ان المؤمنين بالله واليوم الآخر يعتقدون بأن ما حل بقوم لوط من العذاب كان جزاء على كفرهم وضلالهم، أما الملحدون فيقولون : هي حوادث كونية، وأسباب طبيعية. (وان كان أصحاب الأيكة لظالمين) . الأيكة الشجر الملتف الكثيف، والمراد بأصحابها قوم شعيب .. بعد أن ذكر سبحانه هلاك قوم لوط أشار الى قوم شعيب وانه تعالى أهلكتهم لكفرهم وترددهم على الحق ، وقيل الكلام عن شعيب وقومه عند تفسير الآية ٨٥ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٥ ، وبأنه أيضاً في سورة الشعراء (فانقمنا منهم) فأنقمنا منهم (ليلامام ميين) . ضمير منهم يعود الى أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ، وضمير انها يعود الى مدينة لوط وأصحاب الأيكة ، والمراد بالامام هنا الطريق ، والمعنى ان الدلائل والآثار على هلاك مدينة لوط وبلد شعيب ما زالت قائمة ، والطريق اليها واضح يسلكه كل من أراد أن يشاهد آثار الملاك والعذاب .

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) . أصحاب الحجر هم ثمود، ونبيهم صالح صاحب الناقة ، والحجر اسم المكان الذي كانوا فيه ، وهم لم يكذبوا إلا رسولاً واحداً هو صالح ، وانما قال سبحانه كذبوا المرسلين بصيغة الجمع لأن من كذب رسولاً واحداً لله فقد كذب جميع الرسل (وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) مع انها كافية وافية في الدلالة على الحق ، ولكنها لا تنفخ مع أهوائهم وتقاليدهم الفاسدة (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) . وكانت السكنى في بيت حجر مع الامان من الغزو دليلاً على الحضارة في ذلك العصر .. ومن جملة الآيات التي آتاهم الله على يد الرسل الناقة فقروها وقالوا : يا صالح أئتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين (فأخذتهم الصيحة مصبحين) أي وقع عليهم العذاب وقت الصبح (فاغنى عنهم ما كانوا يكسبون) وقع عليهم العذاب ،

سورة الحجر

ولم يجدهم ما جمعوا من ثروات ، وما نحتوا وبنوا من دور وقصور . وسبق الكلام عن صالح وقومه عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٣٥٠ .

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) . ما من شيء في الكون إلا وجد لحكمة ومنه هلاك الكافرين من الأمم الماضية . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا » ٢٧ ص « (وان الساعة لآتية) المراد بالساعة القيامة ، وفيها يجازي الله كلاً بما يستحق (فاصفح الصفح الجميل) . الخطاب من الله لمحمد يأمره فيه بالاعراض عن المشركين والجاهلين ، وان لا يشغل نفسه بهم ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرأ جميلاً » - ١٠ المزمل . »

السبع الثاني والقرآن العظيم الآية ٨٧ - ٩٩ :

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِّإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَّبُّكَ لَنَسَّاتْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ *

اللفظة :

السبع المثاني سورة الفاتحة لأنها سبع آيات ، وبقرامتها يثنى في الصلاة ، وقيل هي السور السبع الطوال في أول القرآن: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس كما في تفسير الطبري . أو الأتقال مع التوبة بدلاً عن يونس كما في بعض التفسير . ولا تمدن عينيك أي لا تنظر . والمراد بالأزواج الأصناف ، والتوضيح في فقرة المعنى . وخفض الجناح كتابة عن التواضع ، والمراد بالمقتسمين هنا اليهود والنصارى بالنظر إلى أنهم جعلوا القرآن عضين أي أجزاء ، حيث آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض . فاصدع بما تؤمر أي اجهر به وانفذه . والمراد باليقين هنا الموت .

الإعراب :

سبعاً من المثاني (من) بيانية أي سبعاً هي المثاني ، ومثلها : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان - ٣٠ الحج ، أي الرجس هي الأوثان . وأزواجاً مفعول متعنا به . وكما انزلنا الكاف بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف أي انزلنا عليك القرآن العظيم انزالاً مثل ما انزلنا على المقتسمين . وهذا الاعراب فيه شيء من التكلف ، ولكنه أهون من بقية الأوجه التي ذكرها المفسرون . والذين جعلوا القرآن عضين صفة للمستهزئين أو عطف بيان .

المعنى :

(ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) . اختلفوا في المراد بالسبع المثاني ، وذكر المفسرون خمسة أقوال ، أرجحها - فيما نرى - أنها سورة الفاتحة ، فهي سبع آيات ، ويثنى بها في الصلاة ، وتجمع بين ذكر الربوبية والعبودية . اذن ، هي سبع بآياتها ، ومثاني بصفاتها .
(لا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم) . يستعمل الزوج بالصف،

ومنه قوله تعالى : « فيها من كل فاكهة زوجان - ٥٢ الرحمن » أي صنفان . وقوله : « وآخر من شكله أزواج - ٥٨ ص » أي أصناف . وقوله : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض - ٣٦ يس » . وعلى هذا يكون المراد بالأزواج في الآية التي نفسرها أصناف الكفار المشركين وأهل الكتاب ، وبكلمة ثانية الكفار بجميع أصنافهم ، وضمير منهم يعود الى الكفار ، ومحصل المعنى لا تنظر يا محمد أو لا تحفل بما تراه من الزينة التي يتمتع بها أصناف الكفار من المشركين وأهل الكتاب (ولا تحزن عليهم) كان النبي (ص) يحزن ويتألم لنعور المشركين وعدم إيمانهم ، فأمره المولى جل وعلا بأن لا يهتم ولا يكثرث ، ومثله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون - ٨ فاطر » (واخفض جناحك للمؤمنين) . تواضع للطيبين المخلصين لأن التواضع لهؤلاء تواضع لله ، والتكبر على الحقوة المفسدين جهاد في سبيل الله : « أذلة على المؤمنين أغرة على الكافرين - ٥٤ المائدة » .

(وقل اني أنا النذير المبين) . دعا محمد (ص) الناس دعوة الحق بالحجج والبيّنات ، وما زالت دعوته قائمة بأدلتها وبراهينها حتى اليوم والى آخر يوم ، وعلى كل عاقل أن ينظرها ويتدبرها ، فإن آمن بها آمن عن بينة ، وان رفضها رفض عن بينة ، أما من ينفر دون أن ينظر فهو ملام ومخاذ (كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين) . المراد بالمقتسمين اليهود والنصارى لأنهم هم الذين جعلوا القرآن عضين أي فترقوه وقسموه أعضاء وأبعاضاً ، حيث آمنوا ببعض ، وكفروا ببعض ، كفروا بما يصطلم مع مصالحهم وتقاليدهم ، وآمنوا بما عدا ذلك ، ومحصل المعنى ان الله أنزل القرآن على محمد كما أنزل التوراة على اليهود ، والإنجيل على النصارى الذين آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعض . فأني صعب أن يتزل على محمد كتاب من ربه مادام قد نزل من قبله أكثر من كتاب . (فوريك لنألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) . قرر القرآن في هذه الآية مسؤولية الانسان عن أعماله ، وفي الآية ١٨ من سورة ق قرر مسؤوليته عن أقواله : « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » . وفي الآية ١٩ من سورة غافر قرر مسؤوليته عن مقاصده ونواياه : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » . ومضى أيقن الانسان بأن عليه رقيباً قادراً عادلاً خاف واتقى .. ومحال أن تنتظم الحياة

الجزء الرابع عشر

الانسانية بدون الشعور بالمسؤولية والالتزام بها .

(فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) ادعُ الى ربك بالحجة والبرهان ، ولا تبالِ بإعراض من أعرض وادبار من أدبر (انا كفيناك المستهزين) . ذكر المفسرون ، ومنهم الطبري والرازي والطبرسي : ان جماعة من مشركي قريش لهم قوة وشوكة كانوا يسخرون ويهزأون من رسول الله (ص) . فأهلكهم الله سبحانه بأهون الأسباب وأيسرها ، ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والاسود بن عبد يغوث .

(ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) . من الطبيعي ان يحزن النبي (ص) ويتألم اذا استهزأ به المشركون ، وقالوا عنه : مجنون ومفتري على الله ، من الطبيعي أن يضيق صدره بما يقول عنه الكافرون لأنه انسان من لحم ودم يفرح بما يفرح به الناس ، ويحزن مما يحزنون، ولكن ما هي العلاقة بين الحزن والعبادة، حتى أمره الله تعالى بأن يلجأ إليها اذا حزن وضاق صدره؟ . الجواب ، ان الله سبحانه لم يأمر نبيه بالعبادة هنا ليبين له ان ضيق الصدر سبب للأمر بالعبادة ، كلا فإن الأمر بعبادة الله غير مقيد بفرح ولا بحزن، وانما الأمر بالعبادة هنا كناية عن الاتكال على الله والفرع اليه وحده اذا ألمّ بالنبي(ص) ما يؤلمه ويزعجه ، تماماً كقوله تعالى : « واما يتزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم - ٢٠٠ الأعراف » . أنظر ج ٣ ص ٤٣٩ .

(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) . المراد باليقين هنا الموت لأنه واقع لا محالة والقصد أن يستمر الانسان في العبادة والاخلاص لله مدة حياته : «وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً - ٣١ مريم » .

سورة النحل

سورة النحل

١٢٨ آية .

بعضها مكّي ، وبعضها مدني ، واختلفوا في عدد كل من المكّي والمدني ، فقيل : أربعون آية من أولها مكّيّة ، والباقي مدني ، وقيل : كلها مكّيّة ما عدا ثلاث آيات في آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اتى امر الله فلا تستعجلوه الآية ١ - ٤ :

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ *

اللمة :

سبحان كلمة تنزيه . وتعالى ارتفع عن كل ما يشن . والمراد بالروح هنا الوحي مثل قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب - ٥٢ الشورى » . أي وكذلك أنزلنا إليك وحياً .

سورة النحل

الإعراب :

سبحانه منصوب على المصدرية . ومن أمره أي بأمره . وان انذروا (ان) مفسرة بمعنى أي . وضمير انه للشأن ، وهو اسم ان ، وجملة لا إله إلا الخ خبر ، والمصدر من ان واسمها وخبرها مجرور بالباء المحذوفة . فأتقون أصلها فأتقوني .

المعنى :

(أنى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون) . كان النبي ينذر المشركين ويخوفهم من عذاب أليم ، وكانوا يجيبونه بالسخرية ويستعجلونه العذاب ، ويقولون له : « فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » - ٣٢ الأتفال . فأجابهم سبحانه بأن عذاب الله آت ، وكل آت قريب . وعبر سبحانه عما يأتي في المستقبل بصيغة أنى الدالة على وقوع الفعل لأن العذاب واقع لا محالة ، وكل ما كان واجب الوقوع فالحال والماضي والاستقبال فيه سواء . وسيقال لهم غداً : هذا الذي كنتم به تستعجلون .. ولا جواب الا ان قالوا : يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين .

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا إله الا انا فاتقون) . المراد بالروح هنا الوحي لأنه للنفوس تماماً كالأرواح للأبدان ، ومحصل المعنى ان الله يصطفي لرسالته من هو أهل لها ، وتتلخص هذه الرسالة بالتوحيد عقيدة ، والاستقامة عملاً ، لأن كل من اتقى الله فهو على صراط الأمان والاستقامة ، وكل من عصاه فهو على صراط الهلاك والضلالة .

(خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) بعد ان ذكر سبحانه في الآية السابقة انه لا إله إلا هو أشار في هذه الآية الى الدليل على ذلك ، وهو ان الله خلق السموات والأرض ، وأحكم خلقها ، ولم يعنه على ذلك معين ، والخلق من لا شيء بهذا الاحكام والابداع دليل الألوهية ، كما ان التفرد بالخلق دليل الوحدانية . انظر ج ٢ ص ٣٤٤ فقرة : « دليل التوحيد والأخايم الثلاثة » .

الجزء الرابع عشر

(خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) . بعد أن أشار سبحانه الى دليل الوحداية قال : ولكن هذا الانسان الضعيف الذي خلقناه من نطفة يكفر بنعمة من أنعم عليه ، ويحمد وجود من أوجده ، ويعبد ما لا يضره ولا ينفعه . وسبق أكثر من مناسبة ان الانسان لا ينحرف عن الطريق القويم إلا جهلاً وتقليداً ، أو لمنفعة شخصية . انظر تفسير الآية ٣٤ من سورة ابراهيم ، فقرة : « هل الانسان مجرم بطبعه ؟ » .

الانعام والحمل والبغال والحمر الآية ٥ - ٩ :

وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْحِثْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ *

اللفظ :

الانعام هي الابل والبقر والغنم والمعر . والدفع ما يتدفأ به ، والمراد به هنا ما يتخذ من جلود الانعام وأصوافها للثياب والفرش . والجمال الزينة . وحين تريحون أي تردون الانعام بالعشي من مراعيها الى مرايحها . وحين تسرحون أي حين تخرجونها من مرايحها بالغداة الى مرايحها . والأثقال الأمتعة . وبشق الأنفس كناية عن التعب والمشقة . وقصد السبيل الطريق المستقيم الموصل الى الحق ، والجائر المائل عنه .

الإعراب :

الانعام مفعول لفعل محذوف أي خلق الانعام خلقها لكم ، ولكم متعلقة بخلقها . وفيها دفة مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الانعام . وحين ظرف منصوب بجمال . وبالفية خبر لم تكونوا . والخيل مفعول لفعل محذوف أي وخلق الخيل . وتركبوا مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والمصدر المجرور متعلق بخلق المحذوفة ، وزينة معطوفة على محل المصدر المجرور لأنه مفعول لأجله في المعنى ، ويجوز أن تكون زينة مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف أي وتزينوا بها زينة .

المعنى :

(والانعام خلقها لكم فيها دفة ومنافع ومنها تأكلون) . نزل القرآن في عصر لا تنتظم فيه الحياة الزراعية وغير الزراعية الا بالحيوان ، وقد ذكر سبحانه أصنافاً من الحيوان وفوائدها في العديد من آياته بقصد التذكير بالله ونعمه على عباده ليتقوه في أعمالهم وأقوالهم ، من ذلك ما تقدم في سورة الأنعام الآية ١٤٢ وما بعدها ج ٣ ص ٢٧٣ ، وذكر في الآية التي نفسرها ثلاث فوائد للأنعام : الدفة والمراد به اتقاء البرد بما يتخذ من جلود الأنعام وأصوافها وأوبارها وأشعارها .. وذكر سبحانه بعد الدفة كلمة منافع بدون الألف واللام ، وتنطبق على اللبن والسمن واثارة الأرض أي حرثها ، أما قوله : ومنها تأكلون فيشمل الأكل من لحومها ولحوم أولادها بالإضافة الى درها الذي أشارت اليه كلمة منافع .

(ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) . المراد بالجمال هنا جمال الأنعام في منظرها رائحة غادية ، وبالحصوص اذا كانت سميكة وكثيرة ، وقوله : حين تريحون معناه حين تردون الأنعام مساء من المرعى الى المراح ، وحين تسرحون أي تخرجونها صباحاً من المراح الى المرعى ، وهذا المنظر الجميل للأنعام الثلاث ، وهي غادية رائحة يبعث الانس والانشراح في نفوس أصحابها ، ويغبطهم الناظر اليها .

(وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه الا بشق الأنفس) . بعد أن ذكر

الجزء الرابع عشر

سبحانه ان من فوائد الأنعام المأكول والملبس ذكر أنها وسيلة للمواصلات ، ونقل الأثقال والأحمال من بلد الى بلد ، ولولاها لتحمل الانسان المتاعب والمشاق (ان ربكم لرؤوف رحيم) ومن رأفته ورحمته تسخير الأنعام لتيسر المصالح وتخفيف الآلام .

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) بعد ان ذكر سبحانه منافع الأنعام الثلاث أشار الى منافع الخيل والبغال والحمير ، وأهمها الركوب والزينة في ذاك العصر (ويخلق ما لا تعلمون) . وقد فسر هذه الجملة كل عالم من خلاله عصره وحياته ، فبعض القدامى قال : المراد ان الله يخلق من أنواع الحيوان والنبات والجماد الكثير الكثير مما لا يعلمه الناس . وقال الطبري : المعنى ان الله يخلق لأهل الجنة من أنواع النعم ، ولأهل النار من أنواع العذاب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .. وقال بعض المفسرين الجدد ، ومنهم الشيخ المراغي ، قالوا : وهذه اشارة الى الطيارة والسيارة ونحوهما . والمعنى المناسب للسياق - فيما نرى - ان الله سبحانه بعد ان ذكر هذه المنافع وامتن بها على عباده قال : ان هذا قليل من كثير ، وان هناك منافع لا تعلمونها ولا يبلغها الاحصاء ، ومنها الطيارة والسيارة ، وبكلمة ان قوله : ويخلق ما لا تعلمون أشبه بقوله : وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

ونقل الشعراني في ميزانه عن أبي حنيفة تحريم لحوم الخيل ، وعن الشافعي ومالك وابن حنبل التحليل ، أما عن لحوم البغال والحمير فنقل تحريمها عن الشافعي وأبي حنيفة وابن حنبل ، وكراهيتها عن مالك . وقال الشعية الامامية: تحل لحوم الخيل والبغال والحمير على كراهية .

(وعلى الله قصد السبيل) . على هنا للوجوب ، مثلها في الآية ١٢ من الليل : (ان علينا للهدى) . والمعنى ان الله سبحانه كتب على نفسه أن يبين للناس على لسان رسله طريق الحق والهداية (ومنها جائز) ضمير منها يعود الى السبيل لأن السبيل تؤث وتذكر ، أي ان من الطرق ما هو مستقيم كالاسلام ، ومنها ما هو مائل معوج كغيره من الأديان (ولو شاء لهداكم أجمعين) أي لو أراد الله ان يلجئ الناس الى الإيمان قهراً عنهم لما كفر واحد منهم، ولكنه تعالى ترك الانسان

سورة النحل

وما يختار بعد ان هداه النجدين حرصاً على انسانيته ، وليستحق الثواب ان اختار الخير ، والعقاب ان اختار الشر . انظر تفسير الآية ١١٨ من هود .

التذكير بنعم الله الآية ١٠ - ١ :

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ* أَفَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ* وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ* وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ*

الغفة :

تسيمون من سامت الماشية اذا رعت أي ترعون أنعامكم من النبات من غير كلفة . وذراً خلق . ومواخر جمع ماخرة ، والمخر شق الماء ، يقال : مخرت

الجزء الرابع عشر

السفينة إذا جرت وانشق الماء يميناً وشمالاً . والرواسي الجبال . ان تميد بكم أي تميل وتضطرب . والسبل الطرق . والعلامات المعالم التي يستدل بها على الطريق .

الإعراب :

منه شراب مبتدأ وخبر ومن للتبويض . ومنه شجر من هنا للشيبة . والنجوم مسخرات مبتدأ وخبر والجملة متأنفة . وبأمره متعلق بمحذوف حالاً من الجميع أي من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم . وما ذراً (ما) اسم موصول في محل نصب بفعل محذوف أي وسخر الذي ذراً لكم . ومختلفاً حال من (ما) وألوانه فاعل لمختلف . ومواخر حال من الفلك لأن ترى هنا بصرية لاقلبية . والمصدر من ان تميد مفعول من أجله لألقى . وأنهاراً مفعول لفعل محذوف أي وأجرى أنهاراً ، وسبلاً أيضاً مفعول لفعل محذوف أي وشق سبلاً وأقام علامات ، فيُقدر لكل منصوب فعل يناسبه . مثل « علفتها تبناً وماءً بارداً » أي وسقيتها ماءً بارداً . أفن يخلق مبتدأ وكمن لا يخلق خبر .

المعنى :

(هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) . كل ما قام على ساق من نبات الأرض فهو شجر ، وتسيمون ترعون فيه مواشيكم ، والمعنى ان الله أنعم على عباده بالماء فجعله شرباً لهم ، وأنبت منه الشجر الذي ترعاه المواشي .

(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) . وأيضاً أنبت الله سبحانه بالماء هذه الأشياء لمصالحنا ومنافعنا ، ولنتذكر ونتدبر قدرة الله وعظمته ونشكر آلامه بطاعته والعمل بمرضاته ، وأشرنا فيما سبق ان الماء يتولد من أسبابه الطبيعية التي أوجدها الله في هذا الكون ، وإنما أسنده اليه تعالى من باب اسناد الشيء لفاعله الأول . وتقدم نظير هذه الآية في سورة ابراهيم الآية ٣٢ وفي سورة الحجر الآية ٢٢ .

سورة النحل

(وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) . تقدم نظيره في سورة الرعد الآية ٢ وفي سورة ابراهيم الآية ٣٣ ، وقوله بأمره يشير الى الرد على الماديين الذين يرجعون جميع الحوادث الكونية الى الطبيعة نفسها .

وتسأل : ألا يغني ذكر الليل عن ذكر القمر ، وذكر النهار عن ذكر الشمس ؟.

الجواب : كلا ، لأن الليل قد يوجد من غير القمر ، أما النهار فهو بعض فوائد الشمس وآثارها ، وليس كلها .

(وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون) . المراد بذرأ خلق وأوجد ، وألوانه أصنافه ، والمعنى ان الله سبحانه سخر لنا ما أودعه في الأرض من معادن جامدة ومائعة ، ونبات وغير ذلك ، ليتذكر متذكر ويشكر شاكر .

(وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) . ذكر سبحانه من فوائد البحر ثلاثة أشياء :

الأول : الأسماك .

الثاني : الحلية كاللؤلؤ والمرجان ، قال تعالى : « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان — ٢٢ الرحمن » . قال المراغي عند تفسير هذه الآية : « توجد حقول من المرجان في البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر، وتحصد هذه الحقول الدولة الفرنسية وتبيعها على أصحابها أنفسهم ، وكأنهم لم يقرأوا القرآن .. وكأنهم لم يخلقوا في هذه الأرض .. وكأنهم لم يؤمروا بالعمل والاستخراج » .

الثالث : السفر بالبحر للتجارة وغيرها .

(وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم) أقام الجبال في الأرض لتثبت ولا تضطرب ، ومر نظيره في الآية ١٩ من سورة الحجر (وأنهاراً) أجرى أنهاراً (وسبلاً) جعل طرقاً (لعلكم تهتدون) بتلك الطرق الى ما تريدون (وعلامات) والمراد بها الدلائل التي تهدي المسافر الى الطريق مثل الجبال والوديان ونحوها

الجزء الرابع عشر

(وبالنجم هم يهتلون) اذا سافروا في الليل برأ وبجرأ ، مر نظيره في الآية ٩٧ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٣ .

(أفن يخلق كمن لا يخلق) بعد أن ذكر سبحانه انه هو الذي خلق السموات والأرض والانسـان والأنعام والحيوانات والماء والأشجار والشمس والقمر الخ . بعد هذا قال : هل الله الذي خلق هذه الأشياء يكون هو والأحجار والأصنام شركاء وسواء بسواء ؟! . وهذا السؤال يحمل جوابه معه . (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) تقدمت هذه الآية بحرفها في سورة ابراهيم الآية ٣٤ (ان الله لغفور رحيم) يغفر لمن قصر في أداء شكره وحقه تعالى ، ولا يسلبه النعمة رحمة به (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون) . واذا كان عالماً بما نسر ونعلن فيجب أن نطيعه خوفاً من غضبه وعذابه .

الذين يدعون من دون الله الآية ٢٠ - ٢٣ :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين *

الإعراب :

وهم يخلقون مبتدأ وخبر ، وأموات خبر ثان ، وغير أحياء صفة مؤكدة لأموات . وإيان استفهام عن الزمان بمعنى متى وعملها النصب يبعثون . إلهكم مبتدأ أول وإله مبتدأ ثان وواحد خبر الثاني ، والجملة خبر الأول . وقيل : ان لا جرم

سورة النحل

كلمة واحدة بمعنى حقاً . وقيل : كلمتان مثل لا شك ، وتقدم الكلام عنها عند تفسير الآية ٢٢ من سورة هود .

المعنى :

(والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) . سبق الحديث عن الشرك والجدال مع المشركين في العديد من الآيات .. والآن وبعدما ان عدد سبحانه أنواعاً من النعم على عباده أشار بهذه الآيات والتي بعدها الى الكافرين بالله وآلائه ، والجاعلين له شركاء في خلقه ، وقال لهم بكل بساطة ، وبأبلغ حجة : ان الإله المعبود يجب أن يكون خالقاً غير مخلوق ، وأنتم أيها المشركون تعبدون مخلوقاً غير خالق (أموات غير أحياء) وأيضاً من شروط المعبود أن يكون حياً لا جماداً ، ومعبودكم جماد لا حياة فيه .

(وما يشعرون ايان يبعثون) . وهذه الجملة يتضح معناها من السؤالين التاليين وجوابيهما :

السؤال الأول : ان واو يشعرون وبعثون تستعمل في العاقل ، والمشركون يعبدون الأصنام ، فكيف أطلق ضمير العاقل على غير العاقل ، ومثله ضمير (هم) في الآية السابقة ؟.

الجواب : ان هذا الاستعمال جاء على وفق عقيدة المشركين الذين يعتقدون بأن الأصنام تعقل وتشعر .. وأي ضمير في هذا الاستعمال وأمثاله ما دامت المسألة مسألة ألفاظ وعبارات .

السؤال الثاني : ان الأصنام لا تُبعث ، فكيف قال سبحانه : وما يشعرون ايان يبعثون ؟.

وأجاب بعض المفسرين بأن ضمير يشعرون يعود الى الأصنام ، وضمير يبعثون الى المشركين ، وعليه يكون المعنى ان الأصنام لا تعلم متى يُبعث المشركون من قبورهم ، واذا لم تعلم الأصنام ذلك ، فكيف تكون أهلاً للعبادة ؟.

(إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) .

الجزء الرابع عشر

ذكر سبحانه في هذه الآية وصفتين لمنكري الآخرة : الأول ان قلوبهم قد أنكرت وحدثت اليوم الآخر ، وهم من أجل ذلك لا يعملون أي شيء طمعاً في ثواب الله ، أو خوفاً من عقابه .. وانما يعملون على أساس الربح والمنفعة في هذه الحياة الدنيا . الوصف الثاني الذي وصفهم الله به في هذه الآية انهم ينفرون من الحق ولا يتقادون له علواً واستكباراً .

(لا جرم) ليس من شك (ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين) . انه تعالى يعلم ان انكارهم كان علواً واستكباراً ، وهو يكره الذين يستكفون عن الحضوع للحق ، ويعاقبهم بما يستحقون .

قالوا أساطير الأولين الآية ٢٤ - ٢٩ :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنْ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَاذْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ *

سورة النحل

اللفظ :

أساطير جمع أسطورة واسطورة ، وهي الشيء المسطور في الكتب من غير دليل على صحته . والأوزار الآثام . والقواعد جمع قاعدة والمراد بها هنا الدعامة . والسلم الاستسلام . والمثوى مكان الثواء والاقامة .

الإعراب :

ماذا يجوز أن تكون كلمتين ما للاستفهام ومحلها الرفع بالابتداء وإذا خبر بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون كلمة واحدة بمعنى أي شيء ومحلها النصب بانزول . وأساطير خبر مبتدأ محذوف أي هذه أساطير والذي أنزله أساطير . وليحملوا مضارع منصوب بأن مضمرة والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلقاً بقالوا ، واللام هنا معناها العاقبة مثل لدوا للموت وابنوا للخراب . أي كان عاقبة قولهم حل الأوزار . وساء ما يزرون أعربها النحاة والمفسرون كما أعربوا بشس ونعم وما بعدهما ، وذكرنا ذلك في ج ٣ ص ١٨٨ . والذي نراه ان ما مصدرية والمصدر المنسبك منها ومن يزرون فاعل ساء أي ساء وزرهم . والذين تتوفاهم نمت للكافرين . وظالمى أنفسهم حال من ضمير تتوفاهم . وخالدين حال من واو ادخلوا . ولبشس اللام للتأكيد ، وبشس فعل ذم ، وفاعلها مستر أي بشس المثوى ، ومثوى التكبرين تمييز ، والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم وهي مبتدأ وجملة بشس وفاعلها خبر .

المعنى :

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) . في الآية السابقة ذكر سبحانه ان الذين أنكروا الآخرة إنما أنكروها علواً واستكباراً عن الخضوع للحق ، وفي هذه الآية حكى عنهم انهم ينعنون القرآن بالخرافات والأساطير .. وفي آيات أخرى حكى انهم ينعنون محمداً تارة بأنه مجنون ، وتارة بأنه شاعر أو كاهن ،

الجزء الرابع عشر

وثالثة بأنه ساحر ، وغرضهم الأول تضليل الناس عن الحق الذي يكشف عن عيوبهم ، ويظهرهم على حقيقتهم .. وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله في العديد من آياته ، ووصفهم تارة بأنهم ييغونها عوجاً ، وأخرى بأنهم يريدون أن يطفثوا نور الله بأفواههم . وهددهم سبحانه في الآية ١٣ من سورة العنكبوت بقوله : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون » وفي معنى هذه الآية الآية التالية :

(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الا ساء ما يوزون) . لقد ضلوا وأضلوا ، وبضلالهم يحملون ذنوبهم كاملة أي لا يغفر الله منها شيئاً ، وباضلالهم يحملون الكثير من ذنوب الذين أضلوهم وأفسدوهم . وفي الحديث : « إنما داعٍ دعا الى الهدى فاتبع — أي تبعه الناس على ضلاله — كان له مثل أجر من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيء » . فيزداد في عذاب التابعين .

(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أتى الله على حذف مضاف أي أتى أمر الله بنيانهم ، وهو الهلاك ، والمراد بالبنیان والقواعد والسقف تشبيه أعمالهم بذلك ، والمعنى ان المشركين الأول دبروا المكائد والحيل ضد أنبياء الله ورسله ، فأبطلها الله جميعاً ، بل كانت السبب في هلاكهم ودمارهم ، تماماً كالذي بنى بيتاً وأحكم بنيانه وقواعده ، حتى إذا سكنه واطمأن فيه انهار عليه من الأساس ، وأصبح أعلاه في أسفله . وهذه هي بالذات نهاية كل من عاند الحق ، وبث ضده الافتراءات والدعابات الكاذبة ، سواء أجاها الحق على لسان محمد (ص) أو لسان غيره .

(ثم يوم القيامة نخزيهم) . المراد بالخزي هنا عذاب النار : « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيت » ١٩٢ آل عمران ، (ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم) . القائل هو الله ، والمقول لهم المشركون ، وتشاقون فيهم معناه تخاصمون في شأن الأصنام ، لأن المشركين كانوا يعبدونها ويدافعون عنها، ويخاصمون من يشتمها أو يذكرها بسوء ، ويقولون : أنها تشفع لنا ، وتقربنا من الله زلفى ..

سورة النحل

فاذا وقفوا غداً بين الله يسألهم عنها ، ويقول موثقاً ومهدداً : أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ وإذا لم يكن شيء من العذاب الا هذا السؤال من العزيز الجبار لكفى .
(قال الذين أوتوا العلم) بالحق وعملوا به : (ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين) . والمراد بالكافرين هنا كل من عاند الحق واستكف عن الخضوع له ملحداً كان أو غير ملحد ، لأن الاثنين الى جهنم وساءت مصيراً .

(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) ظلموا أنفسهم لأنهم ماتوا على الكفر والضلال (فآلقوا السلم) استسلموا وانقادوا حيث لا ينفعهم الاستسلام والانقياد . وكذبوا بقولهم : (ما كنا نعمل من سوء) . ولذا رد سبحانه عليهم بقوله : (بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون) من المظالم والمآثم ، واليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تفترون .

(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبس مثوى المتكبرين) . وكل من رفض العمل بالحق فهو عند الله من المتكبرين ، سواء اتنى الى الاسلام أم الى أي دين من الأديان ، ونهايته الخلود في جهنم ، أما أبوابها فقد سبق الكلام عنها عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الحجر .

قالوا خيراً الآية ٣٠ - ٣٤ :

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤْنَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ اذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ* فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ*

اللفظة :

ينظرون ينتظرون . وحاق بهم أحاط بهم .

الإعراب :

ماذا بمعنى أي شيء ، وعملها النصب بأنزل . وخيراً مفعول لفعل محذوف
أي أنزل ربنا خيراً . للذين أحسنوا خبر مقدم ، وحسنة مبتدأ مؤخر ، والجملة
مستأنفة ، ويجوز أن تكون بدلاً من خير . وجنات عدن مخصوصة بالمدح بنعم .
وجملة يدخلونها حال ، ويجوز أن تكون جنات عدن مبتدأ ويدخلونها خبراً ،
والجملة مستأنفة ، والمخصوص بالمدح محذوف . وطيبين حال من ضمير تتوفاهم .
وجملة يقولون حال من الملائكة .

المعنى :

(وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) . بعد أن ذكر سبحانه
المشركين الذين وصفوا القرآن بالخرافات وأساطير الأولين ذكر في هذه الآية
المؤمنين ، وأنهم إذا سئلوا عن القرآن ذكروه بالتقديس والتعظيم ، ونعتوه بما نعت
الإمام علي في نهج البلاغة : « ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تنفى عجائبه ،
ولا تنقضي غرائب ، ولا تكشف الظلمات إلا به » .

(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة) . هذه الجملة مستأنفة لا صلة لها بما
قبلها ، وقيل : بل هي من كلام المتقين ، وأنها بدل من خير . والمعنى واحد

سورة النحل

على التقديرين ، وهو ان الله سبحانه يجزي المحسنين خيراً في الدنيا ، ولو بالذكر الجميل (ولدار الآخرة خير) من نعيم الدنيا المشوب بالهم والكدر ، والمحدود كماً وكيفاً (ولنعم دار المتقين) لأنها دار الهناء الدائم الذي لا تشوبه شائبة من هم وعناء .

(جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين) . لا يدخل هذه الجنة العظمى الا المتقون ، وهم الذين جاهدوا لنصرة الحق ، وصبروا لتحمل الأذى من أجله ، وقد نص القرآن بوضوح على هذا التحديد للمتقين في الآية ١٤٢ من سورة آل عمران : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . أنظر ج ٢ ص ١٦٥ ، و ج ١ ص ٢٤٢ فقرة « ثمن الجنة » .

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) في مقاصدهم ، وطيبين في أفعالهم وأقوالهم ، وبالخاصة يقاس الانسان ، والسعيد من فارق هذه الحياة والله راضٍ عنه ، ويشهد له بأنه من الطيبين الأخيار (يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) . ضمير يقولون للملائكة ، وخطاب عليكم للمؤمنين المتقين .. تسلم ملائكة الرحمة على الطيبين عند الموت ، وتبشرهم بالجنة ، ليطمئنوا ويستبشروا بما أعد الله لهم من الكرامة وعظيم المرتلة .

(هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك) . مر نظيره في الآية ١٥٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٨٩ (كذلك فعل الذين من قبلهم) . هذا تذكير وتحذير للذين كذبوا محمداً (ص) أن يصيبهم ما أصاب الأمم الخالية الذين كذبوا رسلهم (وما ظلمهم الله) .. حاشا .. كيف ؟.. وقد نهى عن الظلم ، ونعت الظالمين بالضلال في الآية ١١ من سورة لقمان « بل الظالمون في ضلال مبين » . ولعنهم في الآية ٤٤ من سورة الأعراف : « ان لعنة الله على الظالمين » . (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) تكرر هذا المعنى في العديد من الآيات ، وأوضحها جميعاً الآية ٤٤ من سورة يونس : « ان الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . كرر سبحانه لفظ الناس دفعاً لكل شبهة ، ولولا قول الأشاعرة — أي السنة — : ان الانسان مسير ، لا مخير لكنا في غنى عن هذا التطويل أو التأكيد الذي هو أشبه بتوضيح الواضحات .

الجزء الرابع عشر

(فأصابهم سيئات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون). أنكر المشركون رسالة محمد (ص) وسخروا منه ومنها ، وصدوا الناس عنها . وسيلاقون ثمرة أعمالهم بالقسط ، وهم لا يظلمون ، بل ان الكثير منهم لاقى جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة .

وقال الذين أشركوا الآية ٣٥ - ٣٧ :

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ
وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ* وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ
عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ* إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ*

الإعراب :

ان اعبدوا (ان) مفسرة بمعنى أي . فنههم خبر مقدم ومن هدى مبتدا مؤخر ،
ومثله ومنهم من حقت . وكيف خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها .

المعنى :

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا

سورة النحل

ولا حرماً من دونه من شيء) . سبق نظيره مع التفسير في الآية ١٤٨ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٧٧ .

(كذلك فعل الذين من قبلهم) . هذا هو مبدأ الطغاة في كل زمان ومكان ينكرون الحق ويحاربون المحقين ، ثم يحلون ذلك الى مشيئة الله (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) هذه هي مهمة الرسل تبليغ الأوامر والنواهي عن الله تعالى ، أما العمل بها فليس من وظائفهم في كثير أو قليل . وسبق هذا المعنى في كثير من الآيات .

(ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) . تدل هذه الآية على ان الله سبحانه قد أرسل لكل أمة في كل قرن وقطر رسولاً يأمرها بعبادة الله وحده ، وينهاها عن عبادة غيره صنماً كان أو كوكباً أو انساناً ، أو أي شيء ، وليس من الضروري ان يكون هذا الرسول بشراً ، فان العقل رسول من الداخل ، كما ان النبي رسول من الخارج . انظر « الله والفطرة » ج ٣ ص ١٨٨ .

(ففهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) . المراد بالضلالة هنا كلمة العذاب ، مثلها في قوله تعالى : « وفريقاً حق عليهم الضلالة - ٢٩ الأعراف » .. أرسل الله سبحانه رسلاً مبشرين ومنذرين ، فأمن قوم وكانوا من المهتدين المقربين عند الله ، وكفر آخرون وكانوا من المبغضين المعذبين (فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . الخطاب موجه الى مشركي قريش الذين كذبوا محمداً (ص)، وقد أمرهم الله بأن ينظروا آثار غضبه وعذابه فيمن كذبوا رسلهم من الأمم الماضية ليعتبروا ويتعظوا ، وتكرر هذا المعنى في الكثير من الآيات ، منها الآية ١٣٧ من آل عمران ج ٢ ص ١٥٩ .

(ان تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين) . ليس من شك ان رسول الله (ص) يحرص على هداية كل الناس بخاصة قومه قريشاً ، ولكن مجرد حرص النبي ليس سبباً لوجود الهداية ، وانما السبب هو رغبة الانسان في الهدى وقدرته عليه ، كما ان السبب لوجود الضلال رغبته فيه وقدرته عليه ، وأقر الله سبحانه وتعالى كلاً من هذين السببين بمعنى انه جلت

الجزء الرابع عشر

حكيمته قد جعل رغبة الانسان في الهدى وقدرته عليه نتيجة طبيعية لهدايته ، وأيضاً جعل رغبته في الضلال وقدرته عليه نتيجة طبيعية لضلالة ، تماماً كشرب السم المؤدي الى التهلكة ، وتجنب المخاطر المؤدي الى النجاة . وهذا المعنى هو المراد من نسبة الهدى والضلال اليه تعالى في هذه الآية ، وامثالها .. ومن قال : ان الله يخلق الهدى والضلال في الانسان خلقاً فهو بحكم المشركين الذين حكى الله قولهم في الآية السابقة : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا » . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وأقسموا بالله الآية ٣٨ - ٤٢ :

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنْبُوَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا نُجْزِيَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *

الآفة :

الجهد بفتح الجيم التعب ، يقال : جهد في الأمر أي اجتهد فيه وتعب ، وأقسموا جهد إيمانهم أي بالغوا في اليمين واجتهدوا ، والجهد بضم الجيم الاستطاعة يقال : بذل جهده وجهوده أي استطاعته ، وكل ما يطيق . وبوأ المكان حل فيه ، وبوأه وبوأ له المكان هياه له وأنزله فيه .

الإعراب :

جهد إيمانهم مفعول مطلق لأن جهد الإيمان أغلظها ، ويجوز أن يكون مصدرأ في موضع الحال أي جاهدبن في إيمانهم . وبلى حرف جواب ، وتختص بالنفي أو ما في حكمه كالاستفهام ، وتفيد إبطال النفي وإثبات المنفي . وعدأ منصوب على المصدرية ، ومثله حقأ أي وعد وعدأ ، وحق حقأ . ليبين منصوب بأن مضمرة ، والمصدر مجرور باللام ومتعلق بفعل محذوف أي يبعثهم من أجل البيان والافهام ، ومثله ليعلم . وانما قولنا (انما) مركبة من كلمتين انّ وما الكافة عن العمل ، وقولنا مبتدأ ، ولشيء متعلق بقولنا ، وإذا ظرف زمان أي وقت ارادتنا ، وهو متعلق بقولنا . والمصدر من أن نقول له كن خبر المبتدأ ، وكن هنا تامة ، ومثلها فيكون ، وجملة فيكون خبر لمبتدأ محذوف أي فهو يكون.

المعنى :

(وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت) . في الآية ٢٠ من هذه السورة قال تعالى للمشركن : انكم تعبدون مخلوقاً غير خالق ، وفي الآية ٢٤ حكى عنهم القول : انهم يصفون القرآن بأساطير الأولين ، وفي الآية ٣٥ ذكر سبحانه انهم أسندوا شركهم وشرك آبائهم الى الله ، وقال تعالى في الآية التي نفسرها : ان المشركن ينكرون البعث ، ويقسمون الإيمان المغلظة ، ويجتهدون فيها انه من مات فات لأن الشيء متى تفرقت أجزاؤه فلن يعود ثانية كما كان .. وتكلمنا عن ذلك فيما سبق مرات . أنظر : طرق متنوعة لاثبات المعاد ج ٢ ص ٣٩٦ . والماديون والحياة بعد الموت عند تفسير الآية هـ من سورة الرعد .

(بلى وعدأ عليه حقأ ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . كان المشركون يؤمنون بوجود الله ووجود الشركاء له ، وينكرون البعث ، ولأنهم يؤمنون بوجود الله جاء الرد عليهم بأن البعث واقع لا محالة ، لأن الله الذي يؤمنون به هو الذي وعد بالبعث ووعد الحق وقوله الصدق .. أما جمع الأجزاء بعد تفرقها فأهون عليه من خلقها وإيجادها ، لأن من أوجد شيئاً من لا شيء فبالأولى أن يوجد من أجزائه متفرقة .

الجزء الرابع عشر

(لِبَيْنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ) . ان في البعث حِكْماً عديدة : منها تمييز الخبيث من الطيب ، والمحسن من المسيء ، وجزاء كلِّ بما يستحق ، ومنها ان الله سبحانه يبين للخلائق الحق الذي اختلفوا فيه كالتوحيد والنبوة والحلال والحرام (وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين) ومنها أيضاً أن يعلم الذين أقسموا ان الله لا يبعث أحداً ، ان يعلموا ويتأكدوا انهم كانوا كاذبين في إيمانهم .

(انما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . بدأ الله الخلق بكلمة كن ، ويعيده أيضاً بهذه الكلمة : « وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم - ٢٧ الروم » .

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة) . هذه الآية تنطبق تماماً على المهاجرين من صحابة رسول الله (ص) الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرته ، وفارقوا الدنيا والأهل والمال فراراً بدينهم ، واتباعاً لنبيهم ابتغاء مرضاة الله ورسوله ، أما الحسنة التي منحهم الله اياها في الدنيا قبل الآخرة فهي ديارهم وأملاكهم الجديدة بالمدينة فانها خير وأفضل من ديارهم بمكة (ولأجر الآخرة أكبر) من الدنيا وما فيها (لو كانوا يعلمون) . ضمير كانوا يعلمون يعودان الى المشركين الذين أنكروا البعث، أما المؤمنون وبخاصة صحابة الرسول(ص) فانهم يعلمون علم اليقين ان ثواب الآخرة أكبر وأعظم . وتكلمنا عن الهجرة والمهاجرين في ج ٢ ص ٤١٩ وما بعدها ، وعن المهاجرين والأنصار في ج ٣ ص ٥١٠ وما بعدها .

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) . ان للمؤمن الحق صفات وعلامات ، وأهمها انكار الذات ، والتضحية في سبيل الله ، والصبر على تحمل الأذى والمشاق من أجل احقاق الحق ، وابطال الباطل ، والتوكل على الله وحده ، لا على المال والجاه والأنساب تماماً كما كان صحابة الرسول الأعظم (ص) .

فاسألوا أهل الذكر الآية ٤٣ - ٥٠ :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ

كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ
مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ
يَخْفِيَ اللَّهُ بِهِمْ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ *
أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَوْوُفٌ رَحِيمٌ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ
عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ *
يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ *

اللغة :

الزبر بضم الزاء الكتب ، ومنه قوله تعالى : « وانه لفي زبر الأولين - ١٩٦ الشعراء » . والواحد زبور ، ويقال زبرت الكتاب أي كتبت ، والزبور بفتح
الراء الزجر . وفي تقليبهم أي في تصرفاتهم وذهابهم وإيابهم . ومن معاني التخوف
التنقص أي جعل الشيء ناقصاً ، وفي مجمع البيان : « قال أكثر المفسرين : معنى
على تخوف على تنقص اما بقتلهم واما بموتهم » . ويتفأ من الفء ، يقال :
فأ الظل اذا رجع وعاد . وداخرون صاغرون . ومن فوقهم كناية عن قدرة الله
وعظمته تماماً كقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده - ١٨ الأنعام » .

الإعراب :

بالبينات متعلق بنوحي اليهم ، وقيل بفعل مخلوف أي أرسلنا الرسل بالبينات

الجزء الرابع عشر

والزبر . والمصدر من أن يخسف مفعول آمن . وما خلق الله (ما) اسم موصول .
ومن شيء يتفياً ظلاله بيان لما خلق الله أي ان المراد من (ما) كل ما له ظل .
وسجداً حال من الظلال .

المعنى :

(وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحى اليهم) . أنكر المشركون نبوة محمد ،
وقالوا : ما بعث الله بشراً رسولاً .. فأبطل الله زعمهم بأن جميع الأنبياء والرسل
السابقين كانوا رجالاً يوحى اليهم ، كنوح وابراهيم واسماعيل وموسى وغيرهم ،
لأن الغرض من ارسال الرسل لا يتحقق الا اذا كان الرسول من جنس المرسل
اليهم : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه - ٤ ابراهيم » : « قل لو كان
في الأرض ملائكة يمشون مطمئنن لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً - ٩٥
الاسراء » .. (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) المراد بأهل الذكر أهل
العلم المنصفون ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم غيرهم ، والمعنى ان كنتم
أيها المشركون في ريب من قولنا فاسألوا العارفين يخبروكم ان جميع الأنبياء بشروا .

(بالبينات والزبر) أي أرسل الله الرسل الى الناس بالبينات ، وهي الدلائل
والبراهين ، وبالزبر ، وهي الكتب التي فيها بيان الدين عقيدة وشريعة (وأنزلنا
اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلمهم يتفكرون) . الخطاب لمحمد (ص) ،
والمراد بالذكر هنا القرآن ، ومن الواضح ان الغاية من ارسال الرسل ، وانزال
الكتب هداية الناس الى الحق والعدل ، والى حياة الأمن والرخاء ، وقوله :
(ولعلمهم يتفكرون) معناه لعلهم يتدبرون القرآن ويدركون أسرار وأهدافه ،
ويعلمون انه أنزل لخبرهم ومصلحتهم .

(أفأمن الذين مكروا السيئات) . قال المفسرون : المراد بالذين مكروا هنا
مشركو قريش لأنهم هم الذين أساءوا الى النبي (ص) ، ودبروا ضده الحيل
والمؤامرات . وقد خوفهم سبحانه بأربعة أنواع من العذاب :

١ - (ان يخسف الله بهم الأرض) . كما فعل بقارون : « فخسفنا به وبداره

سورة النحل

الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله - ٨١ القصص .
٢ - (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) . فيهلكهم الله بغتة كما فعل
بقوم لوط .

٣ - (أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين) . يهلكهم في حال اشتغالهم
وكدهم في الأرض للرزق .

٤ - (أو يأخذهم على تخوف) . قال أكثر المفسرين - والعهدة على
الطبرسي - : ان المراد بالتخوف هنا التنقص، وعليه يكون المعنى ان الله سبحانه
لا يهلكهم دفعة واحدة ، بل يتلبهم بنقص من الأنفس والأموال شيئاً فشيئاً ،
حتى يأتي على آخرهم . (فإن ربكم لرؤوف رحيم) . ومن رأفته ورحمته أن لا
يعجل للعصاة ما يستحقونه من العقوبة أملاً بتوبتهم وهدايتهم .

(أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله من اليمين والشمائل سجداً لله
وهم داخرون) ضمير يروا يعود إلى الذين مكروا السيئات المذكورين في الآية
السابقة ، ويجوز أن يعود إلى كل معاند ، لأن الله سبحانه يقول موجهاً : ألم ينظر
الجاحدون المعاندون إلى ما خلق الله ؟ . والمراد بقوله : (ما خلق الله من شيء
يتفياً ظلاله) كل شيء له ظل وخيال كالجبال والأشجار والحيوان والعمار ونحو
ذلك ، أما قوله عن اليمين والشمائل فإنه يشير إلى جانبي الشيء الذي له ظل ،
لأن ظل الشيء يكون إلى جهة من شروق الشمس إلى زوالها أي الظهر ، ثم
يتحول الظل إلى جهة ثانية من الظهر إلى الليل ، فعبر سبحانه باليمين عن الجهة
الأولى ، وبالشمائل عن الجهة الثانية ، ومثله قوله تعالى : « وظلالهم بالغدو
والآصال - ١٥ الرعد » . أما قوله : سجداً لله فهو كناية عن الخضوع والانقياد.
وداخرون أي صاغرون .

وتسأل : لماذا قال تعالى : اليمين والشمائل ، فافرد اليمين وجمع الشمائل ،
ولم يساو بينهما جمعاً أو إفراداً ؟ .

وأجاب المفسرون عن ذلك بأجوبة أقربها أن من أساليب البلاغة عند العرب
إذا ذكروا معنيين للجمع أن يعبروا عن أحد المعنيين بلفظ الواحد ، وعن المعنى
الآخر بلفظ الجمع ، كقوله : (وجعل الظلمات والنور) وقوله : (ختم الله
على قلوبهم وعلى سمعهم) .

الجزء الرابع عشر

والخلاصة ان الله سبحانه بعد أن هدد وتوعد المشركين والمعادنين قال في هذه الآية : ان كل ما في الكون - غير المشركين والمعادنين - هو خاضع ومنقاد لأمره .

(والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) . كل المخلوقات والكائنات العلوية والسفلية تدل دلالة واضحة على وجود صانعها وبارئها ، وعلى قدرته وعلمه وحكمته : وهذه الدلالة هي بطبيعتها تسبيح وتمجيد وسجود وركوع للبارئ المصور ، وهذا هو معنى سجود الكائنات - غير العاقلة - وهو أيضاً المراد من قوله : « وان من شيء الا يسبح بحمده » - ٤٤ الاسراء . والفرض من ذكر الدابة والملائكة بعد ذكر ما في السموات وما في الأرض هو بيان الشمول لجميع المخلوقات بشئ أنواعها . وسبق الكلام عن ذلك عند تفسير الآية ١٣ و ١٥ من سورة الر :

(يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) . تدل هذه الآية صراحة على ان من آمن بالله خافه وأطاع أمره ونهيه ، وتدل ضمناً وتلويحاً على ان من يعصي الله ، ثم يدعي الايمان به ، والخوف منه فهو كاذب في دعواه .

انما هو إله واحد الآية ٥١ - ٥٥ :

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ *
وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ *
وَمَا يَكُنْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ * ثُمَّ
إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا
بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ *

سورة النحل

اللفظ :

الواصب الدائم ، يقال : واصب على الشيء وواظب عليه اذا دأب ، وقيل : معنى الواصب هنا الواجب . والجوار الاستغاثة برفع الصوت ، وتجأرون ترفعون أصواتكم مستغيثين .

الإعراب :

اثنين تأكيد لإلهين . وإياي مفعول مقدم لارهبون . وله خبر مقدم والدين مبتدأ مؤخر ، وواصباً حال من الدين والعامل بالحال خبر المبتدأ المحذوف . وما بكم (ما) اسم موصول مبتدأ ، وبكم صلة ، ومن نعمة حال من ضمير بكم ، فن الله خبر لمبتدأ محذوف أي فهو من الله ، والجملة خبر (ما) الموصولة . واذا فريق (فريق) فاعل لفعل محذوف أي فإذا يشرك فريق منكم .

المعنى :

(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فايأي فارهبون) . من القواعد المعروفة عند الفقهاء : ان الضرورة تقدر بقدرها ، وان ما زاد عن الحاجة والضرورة فهو لغو .. وهذه القاعدة يمكن تطبيقها على شريك الباري ، وذلك بأن فرض وجود مدبر حكيم أمر محتوم لا مفر منه في نظر العقل ، حيث لا يمكن تفسير الكون ، وتعليل ما فيه من نظام وانسجام إلا بوجود مدبر حكيم ، ومع هذا الفرض لا يبقى أي داع لفرض إله آخر في نظر العقل ، بل العقل يرفضه ويأباه . انظر دليل التوحيد والأقانيم الثلاثة في ج ٢ ص ٣٤٤ .. ثم ان لوحداية الله آثاراً ولوازم أشار سبحانه الى بعضها بقوله :

١ - (وله ما في السموات والأرض) دون معارض ومنازع لأنه هو خالق السموات والأرض وما فيها .

٢ - (وله الدين واصباً) . المراد بالدين هنا الانقياد والطاعة ، ومعنى

الجزء الرابع عشر

الواصب الدائم ، وإذا كان الله خالق كل شيء ومالك كل شيء . وجب الثبوت والاستمرار في طاعته دون سواء .

٣ - (وما بكم من نعمة فمن الله) لأنه خالق كل شيء مباشرة وبكلمة كن ، أو بالواسطة .

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرههم يشركون) . المؤمن الحق يثق بالله ويعتمد عليه في جميع الأحوال : أما التاجر فيلجأ إليه ساعة العسرة ، ويتجاهله عند اليسرة ، ومر نظير هذه الآية مع التفسير في سورة يونس الآية ١٢ .

(ليكفروا بما آتيناهم) . المراد بالكفر هنا كفران النعم ، ومنها كشف الضر ، واللام في ليكفروا للعاقبة مثل لدوا للموت وابنوا للخراب ، والمعنى ان الله أنعم عليهم ، فكانت نتيجة انعامه وتفضله كفرانهم بأنعمه (فمتعوا فسوف تعاملون) عاقبتكم الوخيمة ، وتندمون حيث لا ينفع الندم .

ويجعلون لله البنات الآية ٥٦ - ٦٠ :

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ مَا كُنتُمْ
تَقْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ
مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ
مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

سورة النحل

اللغة :

يستعمل القرآن كلمة البشارة في الخبر السار والخبر المؤلم ، قال في الآية ٢٥ من سورة البقرة : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات » . وقال في الآية ٣ من سورة التوبة : « وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . وكظم غيظه حبه ، والكظم المغموم المتلى غيضاً ، ولكنه لم يبده . ويتوارى يستخفي . والهُون الهوان والذل . والمثل الصفة .

الإعراب :

ولهم ما يشتهون (لهم) خبر مقدم ، وما يشتهون مبتدأ مؤخر . وظل من اخوات كان ترفع الاسم ، وتنصب الخبر ، ووجه اسمها ، ومسوداً خبرها . وهو كظم حال من الوجه أو من صاحبه . وعلى هون متعلق بمحذوف حالاً من فاعل يمسكه .

المعنى :

(ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون) . واو الجماعة في يجعلون للمشركين . ولما لا يعلمون (ما) اسم موصول ، والمراد بها الأصنام ، والواو في لا يعلمون تعود الى الأصنام تنزيلاً لها منزلة العاقل ، كالواو و (هم) في قوله تعالى : « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » - ٢٠ النحل ، وجاء هذا التنزيل والاستعمال وفقاً لعقيدة المشركين ، والمعنى ان المشركين جعلوا نصيباً من أموالهم للأصنام التي هي جاد لا علم له ولا شعور ، ويجوز أن تكون واو يعلمون للمشركين مثل واو يجعلون ، ويكون المعنى ان المشركين جعلوا نصيباً من أموالهم للأصنام ، وهم يجعلون ان الأصنام لا نصيب لها في أموالهم ولا في غير أموالهم .. ولكن في ارادة هذا المعنى شيء من التكلف لحاجته الى تقدير كلام مخفوف .. ومرة نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ١٣٦ ج ٣ ص ٢٦٩ .

الجزء الرابع عشر

(ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) . سمعوا ان لله ملائكة ، فتوهموها اناثاً بل بناتاً لله تعالى عما يصفون ، فأضافوا اليه ما يكرهونه لأنفسهم ، ولهم البنون الذين يحبون ، قال تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثاً انكم لتقولون قولاً عظيماً » - ٤٠ الاسراء . وفي بعض التفاسير ان العرب الذين اعتقدوا هذا هم خزاعة وكنانة .

(واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) . هذا كناية عن شدة همه وحزنه بالبنات ، وتقول العرب لمن لقي مكروهاً : اسود وجهه . وعلى الرغم من ان هذه عادة جاهلية ، وقد ندد بها القرآن وسفّه أهلها - فإن كثيراً من المسلمين يكرهون البنات ، وتسود وجوههم اذا بشروا بالأنثى .

(يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) . كان الرجل في الجاهلية اذا ظهرت آثار الطلق بامرأته اختفى الى أن يعلم بالمولود ، فإن كان ذكراً ظهر وابتهج وان كان أنثى حزن ، وفكر ماذا يصنع بهذا المولود المشؤوم : (أمسكه على هون) ؟ . فيبقى متحملاً للذلة والمهانة (أم يدسه في التراب) حياً ؟ . ويروى ان بعض العرب كانوا يدفنون البنات وهن أحياء ، وبعضهم كانوا يرمنها من شاطئ ، وآخرون يذبحونها ، ومنهم من كانوا يغرقونها ، إما للغيرة والحمية ، وإما خوفاً من الفقر والاملاق كما أشارت الآية ١٥١ من سورة الأنعام : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واباهم » . أنظر ج ٣ ص ٢٧١ و ٢٨٣ .

وروي ان رجلاً قال : يا رسول الله : ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت ، فقد كانت لي في الجاهلية ابنة ، فأمرت امرأتي أن تربيها ، فأخرجتها اليّ ، فأنتهيت بها الى واد بعيد القعر ، فألقيتها فيه ، فقالت : يا أبني قتلني ، فكلام ذكرت قولها لم ينفعني شيء ..

وقد يظن ان الدافع على هذه القسوة الجهل وتخلّف البيئة عن الحضارة والمدنية ، ولكن نحن الآن في عصر الفضاء ، ومع هذا يلقي المستعمرون والصهاينة قنابل التابالم في فيتنام وفلسطين على الشيوخ والأطفال والنساء .. يلقيونها لا للغيرة والحمية ولا خوفاً من الفقر والاملاق ، بل لزيادة الأرباح ، وتكديس الثروات وتراكمها ، فأى الفريقين أقيح وأسوأ ؟ أهل الجاهلية ، أو المستعمرون والصهاينة في عصر

سورة النحل

العلم والاشماع ؟ . (الا ساء ما يحكمون) ويخترعون ويفعلون . ونحن على يقين ان كل من لجأ وتمادى في الفجس ستدور عليه في النهاية دائرة السوء .
(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء وفه المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم) .
المثل الصفة ، وللطاعة صفة السوء ، وهي الظلم والفساد ، وقتل الأطفال والأبرياء ، والله الصفة العليا ، وهي الوحداية والعدل والعظمة ، وجميع صفات الجلال والكمال . وتجدر الاشارة الى أن الغرض من ذكر الله تعالى مع ذكرهم هو الرد على قولهم : لله البنات ولهم البنون .

انما يعجل من يخاف الموت الآية ٦١ - ٦٤ :

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ*
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَماً أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ* قَالَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِهِمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ*

اللفة :

مفراطون بفتح الراء مع تخفيف الطاء أي معجلون ، وبكسر الراء مع التخفيف من الافراط أي متجاوزون الحد، وبكسر الراء مع التشديد من التفريط أي مقصرون .

الإعراب :

ضمير عليها عائد الى الأرض ، وهي مفهومة من سياق الكلام ، ولفظ دابة يُشعر بها . والكذب مفعول تصف . والمصدر من ان لهم بدل من الكذب فكأنه قال : وتصف ألسنتهم ان لهم الحسنى ، ويجوز أن يكون مجروراً بياء محذوفة أي بأن لهم الحسنى . والمصدر من ان لهم النار مجرور بفي محذوفة أي لا شك في ان لهم النار . ولتين منصوب بأن مضمرة والمصدر المجرور متعلق بأنزلنا ، وهو بمعنى المفعول من أجله ، وهدى ورحمة مفعول من أجله ، أي وأنزلنا عليك الكتاب هدى ورحمة .

المعنى :

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) . ظلم الانسان خالقه مجحوده له ، وبنسبة الشريك والولد اليه ، وأيضاً ظلم الانسان القوي أخاه الضعيف ، فاستعبده وسلبه قوته ومصدر حياته ، وأيضاً ظلم نفسه بالكبرياء والطفيان والغرور ، ومع هذا لم يعاجل الله العاصين بالعقوبة ، ولماذا يعاجل ؟ . هل يخشى الفوت ، أو يتعجل التشفي ، أو يخاف التوبة من العصاة ، وهو الذي أمرهم بها ، وحثم عليها ؟ . وقيل : إنما أخرهم ليراجعوا التوبة . وليس هذا بعيد عن حلمه وكرمه ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً » - ٥٨ الكهف . (فليذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) . تقدم تفسيره في ج ٢ ص ١٧١ فقرة : « الأجل محتم » .

(ويعجلون الله ما يكرهون) لأنفسهم من البنات والشركاء في الرياسة (وتصف ألسنتهم الكذب) وهو قولهم : (ان لهم الحسنى) أي الجنة . وافترؤا على الله بأن له شركاء وبناتاً ، ثم كذبوا بأن لهم عنده الجنة فكذبهم سبحانه بقوله : (لا جرم) لا شك في (ان لهم النار وأنهم مفرطون) أي معجلون اليها . (ناهه لقد أرسلنا - رسلاً - إلى أمم من قبلك) يا محمد ، فلم يستجيبوا

سورة النحل

لرسلهم ، وأعرضوا عنهم وأذوهم ، كما أعرض عنك وأذاك مشركو قريش ، فهوّن عليك ولا تحزن (فزين لهم الشيطان أعمالهم) وهي كفر وضلال ، وطفيان وفساد (فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) . لقد تولى الشيطان أمور الطغاة في الحياة الدنيا بعد أن أسلموه الزمام ، فقادهم إلى المآثم والمهلك ، وكان جزاؤه وجزاؤهم عند الله جهنم وساءت مصيراً . قال الامام علي (ع) : « ان أجل الانسان مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به ، يزين له المعصية ليركبها ، ويمنيه التوبة ليسوفها ، حتى تنجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها » أي يموت على الضلال والمعصية ، وهذه هي ميتة السوء بالذات .

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) . الخطاب لمحمد (ص) والكتاب القرآن ، وهو هدى لمن طلب الهداية ورحمة لمن أرادها ، وهو الحكم الفصل في كل عقيدة وشريعة ، وكل قول وفعل.. اللهم اجعلنا من المستسكين بعروته ، والمهتدين بهدايته .

والله أنزل من السماء ماء الآية ٦٥ - ٦٩ :

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ* وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ* وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ* وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*

اللغة :

العبرة العظة . الفرث ما يبقى من المأكول في الكرش بعد الهضم ، ويسمى بالثفل أيضاً . السائح ما سهل مروره في الخلق . وللسكر معانٍ منها الخمر . ويعرشون يرفعون من الكروم والسقوف . والدلل جمع الذلول، وهو الطائع المتقاد.

الإعراب :

أعاد سبحانه على الأنعام ضمير التأنيث في الآية ١٣٨ من سورة الأنعام : « وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها » . فكيف أعاد سبحانه الضمير على الأنعام هنا مذكراً حيث قال : (نسقيكم مما في بطونه) ؟ . وأجابوا عن ذلك بأن الضمير هنا يعود الى بعض الأنعام وهو الاناث لأن الذكور لا لبن فيها . أما في سورة الأنعام فإن الضمير يعود اليها جميعاً ، لا الى بعضها دون بعض . ومن ثمرات النخيل على حذف مضاف أي عصير ثمرات النخيل والأعناب ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف أي نسقيكم من عصير ثمرات النخيل ، وضمير منه في « تتخذون منه » يعود الى العصير . أن اتخذي (أن) مفسرة بمعنى أي . وذلك حال من السبل ، أو من ضمير اسلكي العائد الى النحل .

المعنى :

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون) سماع تدبر وتعقل للماء وفوائده ، وهذه الآية والتي بعدها من الآيات الكونية التي كررها القرآن بقصد التنبيه الى دلائل التوحيد والبعث ، ومرت هذه الآية بسورة البقرة الآية ٢٢ و ١٦٤ ، وسورة الأنعام الآية ٩٩ ، وسورة الرعد الآية ١٩ ، وسورة ابراهيم الآية ٣٢ ، وبالسورة التي نفسرها الآية ١٠ . (وان لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين) . ذكر سبحانه بعض فوائد الأنعام في الآية ١٤٢ من سورة الأنعام : « ومن الأنعام حولة وفرشاً » وقال في الآية ٨٠ من سورة النحل ،

سورة النحل

وهي السورة التي نفسرها : « وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين » . وأجمع الآيات لفوائد الأنعام ما مر مع التفسير في أول هذه السورة ، وهو قوله تعالى : « والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه الا بشق الأنفس » .

وذكر ، جلت حكمته ، هنا من فوائد الأنعام اللبن بالخصوص ، وقال : انه يخرج من بطون بعض الأنعام أي الاثاث - أنظر فقرة « الإعراب » - وانه مستخلص من بين فرث ودم ، والفرث ما يتبقى في الكرش بعد الهضم . ويقول العارفون : ان الحيوان يأكل النبات ، وبعد الهضم تطرد امعاؤه الفضلات الضارة الى الخارج ، وتمتص العصارة النافعة التي تتحول الى دم يسري في العروق والغدد حتى اذا وصل بعض هذا الدم الى الغدد التي في الضرع تحول الى لبن خالص سائغ للشاربين .

(ومن ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ان في ذلك لآية لقوم يعقلون) . الظاهر من السكر هنا كل شراب مسكر خمرأ كان أو غيره .. ولكن الآية لا توميء من قريب أو بعيد الى حكم المسكر ، وانه كان حين نزول هذه الآية حلالاً أو حراماً ، وانما حكى الآية عن عادة الناس من انهم يتخذون من ثمرات النخيل والأعناب شراباً مسكراً ، أما الرزق الحسن فالمراد به التمر والرطب والزبيب والعنب والخل والرب ، وما إلى ذلك . وجاء في بعض الروايات ان المقصود بالسكر في الآية ما كان حراماً وبالرزق ما كان حلالاً .. وتكلمنا مفصلاً عن الدليل على تحريم الخمر عند تفسير الآية ٢١٩ من سورة البقرة ج ١ ص ٣٢٨ . وفي الجزء الرابع من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق ، باب الأطعمة والأشربة .

(وأوحى ربك الى النحل) المراد بالوحي هنا الفطرة التي منحها الله للنحل (ان اتخذني من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون) أي مما يرفع الناس من الكروم ، قال الرازي : النحل نوعان : نوع يسكن في الجبال والفياض ، ولا يتعهده أحد من الناس ، وهو المراد بقوله : « ان اتخذني من الجبال بيوتا ومن

الجزء الرابع عشر

الشجر ، ونوع يسكن بيوت الناس ، ويكون في تمهدهم ، وهو المراد بقوله
« وما يمرشون » .

(ثم كلي من كل الثمرات) والزهر والنبات التي تشبهن (فاسلكي سبل
ربك ذللاً) ادخلي الطرق التي ذللها وعيدها الله لك (يخرج من بطونها شراب)
وهو العسل تلقبها من الفم كالريق (مختلف ألوانه) بياضاً وحمرة وصفرة تبعاً
للمرعى (فيه شفاء للناس) كغفر الدم ، وسوء الهضم ، والتهاب الفم والريئة
والمثانة ، وأمراض الكبد ، وما إلى ذلك مما ذكره الأطباء (ان في ذلك لآية
لقوم يتفكرون) في خلق الله وما فيه من بدائع وعجائب تدل على وجود حكيم عليم .

وقد وضع أهل الاختصاص المؤلفات في تدبير النحل وتعاونها ونظامها المحكم
في عيشها وبناء بيوتها والدفاع عن نفسها ، وأشرنا فيما سبق الى أنه اكتشف مؤخراً
ان النحل عندما ترتفع درجة الحرارة يبدأ البعض منها بنقل الماء في خراطيمه بينما
يقوم البعض الآخر برشه داخل الخلية ، ويهز البعض الآخر أجنحته ليصنع تيارات
من الهواء ، فيتبخر بسرعة ، ومع التبخر تنخفض درجة الحرارة . وهذا المثال
وحده يفي عن كل ما كُتب في هذا الباب .

فضل بعضكم على بعض في الرزق الآية ٧٠ - ٧٤ :

وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ اِلَىٰ اَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لِاَ
يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا اِنَّ اللّٰهَ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ * وَاللّٰهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِيْنَ فَضَّلُوْا يَرٰدِّيْ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ اَيْمَانُهُمْ فَهُمْ
فِيْهِ سَوَآءٌ اَفَبِئْزَمَةٍ اِلٰهِ يَخْشَوْنَ * وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ اَنْفُسِكُمْ اَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ اَزْوَاجِكُمْ بَنِيْنَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
اَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُوْنَ وَيَنْعِمُوْنَ اِلٰهٌ هُمْ يَكْفُرُوْنَ * وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ

سورة النحل

مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ*
فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ*

اللفظة :

أرذل العمر أخسه وأحقره ، وهو الهرم . وما ملكت إيمانهم العبيد والمالِك .
والحفدة جمع حافد مثل كفرة وكافر ، والحافد والحفيد ابن الابن ، والبسط يكون
ابن الابن وابن البنت ، ولكنه غُلب على ابن البنت مقابل الحفيد . ورزق السماء
المطر ، ورزق الأرض النبات . وفلا تضربوا لله الأمثال أي لا تجعلوا له أشباهاً
ونظائر في شيء .

الإعراب :

فهم فيه سواء مبتدأ وخبر . وشيئاً بدل من «رزقاً» ويجوز أن يكون مفعولاً
مطلقاً ليملك أي لا يملك شيئاً من الملك أو شيئاً ملكاً .

المعنى :

(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم
شيئاً ان الله عليم قدير) . للانسان أدوار وأطوار يمر بها من الطفولة الى المراهقة
والشباب ، ومن الشباب الى الشيخوخة والهرم ، ولكل دور سببه الطبيعي المباشر ،
ويسند اليه تعالى لأنه خالق الطبيعة والكون .. وأرذل العمر هو الهرم الذي يضعف
معه الجسم والعقل والذاكرة ، وبقية الحواس الظاهرة والباطنة، ومتى ضعف عضو
من أعضاء الشيخ أو حاسة من حواسه انتهى أمرها ، ولا يرجى عودتها الى الحال
السابقة ، بل تزداد ضعفاً ووهناً مع الأيام ، وبالحصوص الذاكرة ، حيث يفقدها

الجزء الرابع عشر

تماماً ، ويرجع الى ما كان أيام الطفولة ، حتى كأنه لم يتعلم شيئاً من الدروس ، ولا مر بشيء من التجارب .

(والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فاما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء أفنعمته الله يجحدون) . اقد توهم البعض ان ظاهر الآية يدل على ان الرزق هو بقضاء الله وقدره ، وانه تعالى هو الذي جعل هذا غنياً ، وذاك فقيراً .. ولكن الآية بعيدة كل البعد عن هذا المعنى ، لأنها قد جاءت للرد على المشركين ، وتوضيح ذلك ان المشركين جعلوا لله شركاء . فرد عليهم سبحانه بأنكم لا ترضون أبها المشركون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم ، وأن تكونوا وإياهم سواء في أرزاقكم وأملاككم ، واذا لم ترضوا لأنفسكم المساواة بينكم وبين عبيدكم فيما تملكون ، فكيف صح في افهامكم أن يكون عبيد الله شركاء له في خلقه ؟ . فهل شأن الله تعالى دون شأنكم في ذلك ؟ .

وبكلام آخر ان الله سبحانه احتج عليهم بمنطقهم ومقاييسهم ، وقال لهم : أنتم سادة بزعمكم ، ولكم عبيد لا يملكون معكم شيئاً ، لأن العبد لا يملك مع سيده شيئاً .. إذن ، بأي منطق قلتم : ان الأصنام أو غيرها من عبيد الله تملك معه أو عنده شيئاً ؟ .

وتسأل : ان قوله تعالى : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) ظاهر في ان التفضيل في الرزق بقضاء الله وقدره ؟ .

الجواب : لقد كررنا القول : ان اضافة الرزق وغير الرزق الى الله تعالى انما هو من باب اسناد الشيء الى سببه الأول، ولتنبيه الأذهان الى ان الله هو خالق الكون وما فيه ، وتكلمنا عن الرزق وفساد الأوضاع في ج ٣ ص ٩٤ ، وأيضاً تكلمنا بعنوان : « هل الرزق صدقة » في ج ٣ ص ١٣١ ، وب عنوان : « الانسان والرزق » عند تفسير الآية ٢٦ من سورة الرعد .

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) . من جنسكم ، لا من جنس أدنى أو أرفع ، ليتم الانس للجانبين ، ويحصل التعاون والمشاركة في الحياة من كل الجهات ، وأوضح تفسير لهذه الجملة قوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة - ٢١ الروم » .
(وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) . بعد أن ذكر سبحانه نعمة الزوا-

سورة النحل

ذكر نعمة الأولاد ، وهم كالأموال زينة الحياة الدنيا (ورزقكم من الطيبات)
 مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً ومركباً ، كل أولاء بالاضافة إلى الأزواج والأولاد
 وبعد هذه النعم كلها (أقبالباطل يؤمنون) . المراد بالباطل هنا الشركاء،والإيمان
 بها نسبة النعم اليها بالانفراد أو الاشتراك مع الله (وبنعمة الله هم يكفرون)
 حيث يأكلون رزقه ويعبدون غيره .

(ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا
 يستطيعون) . رزق السماء الغيث ، ورزق الأرض النبات والمعادن ، والمراد بما
 لا يملك رزقاً الأصنام ، ومعنى لا يستطيعون ان الأصنام لا تملك بالفعل : وليس
 لها القدرة والقابلية للتملك . (فلا تضربوا لله الأمثال) بجمل الأشياء له والنظائر :
 « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير - ١٠ الشورى » (ان الله يعلم وانتم
 لا تعلمون) . ومن أجل علمه تعالى وجهلكم يجب أن لا تفعلوا ولا تقولوا شيئاً
 لا ما علمكم الله بلسان أنبيائه ورسله .

التقارر والعاجز الآية ٧٥ - ٧٧ :

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آرِزْقًا
 حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ
 وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَفْحِ النَّفْسِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ *

اللفظة :

الأبكم الأخرس . والكل الثقل أي ان هذا الرجل لا يكسب شيئاً ، بل هو ثقل وحمل على من يعوله ويتولى أمره . والمراد بالساعة هنا الوقت الذي تقوم فيه القيامة .

الإعراب :

عبداً بدل من «مثلاً» . ورزقاً مفعول به لرزقناه لأن المراد بالرزق هنا المال المرزوق ، وليس الحدث الذي هو المصدر بدليل إعادة ضمير منه عليه . ورزقنا بمعنى أعطينا ولهذا تعدت الى مفعولين . وسراً وجهراً مصدران مكان الحال أي مسرين وجاهرين ، أو مكان المفعول المطلق أي اتفاقاً سرراً واتفاقاً جهراً . ورجلين بدل من «مثلاً» واحدهما مبتدأ وابكم خبر ، والجملة مستأنفة . وأين للاستفهام عن ظرف المكان ، وقد تتضمن معنى الشرط فتجزم فعلين مجردة من (ما) مثل أين تذهب أذهب، أو ملحقة بها (ما) كما في هذه الآية. وأو هو أقرب أي بل هو أقرب.

المعنى :

(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو يُنفق منه سرراً وجهراً هل يستون) . بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ان المشركين جعلوا لله أشباهاً وأنداداً - ذكر هنا مثالين يقرب بهما الى افهام المشركين ان الله لا ند له ولا ضد ، وخلاصة المثال الأول الذي تضمنته هذه الآية ان مثلكم في مساواة هذه الأصنام مع الله أيها المشركون تماماً مثل من سوتى بين عبد لا يملك شيئاً ، ويعجز عن كل شيء ، وبين حرٍ غني كريم ينفق سرراً وعلانية ولا يخشى أحداً على الإطلاق .. واذا رفض العقل والظطرة هذه المساواة بين هذا الحر القادر وبين ذاك العبد العاجز فكيف صح في افهامكم ان تساوا بين الله القادر على كل شيء ، وبين الأصنام التي ما هي بشيء ؟ . (الحمد لله) جملة معترضة

سورة النحل

القصد منها انه لا أحد يستحق الحمد والشكر والعبودية الا الله وحده (بل أكثرهم لا يعلمون) ان الحمد لله لا لسواه .

(وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه ابنا يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) هذا هو المثل الثاني، وخلاصته ان الأخرس العاجز الكل لا يكون مساوياً للناطق القادر - اذن - فكيف ساوئتم أيها المشركون في العبادة بين الله الجامع لجميع صفات الجلال والكمال وبين الأحجار التي ليست بشيء ؟..

(والله غيب السموات والأرض) . كل سر عنده تعالى علانية ، وكل غيب عنده شهادة، ونحوه قوله تعالى في الآية المتقدمة ٧٤ (ان الله يعلم وأنتم لا تعلمون) .. (وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب) . هذا تعبير ثانٍ عن قوله : انما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .. وفيه تهديد لمن خالف وعاند (ان الله على كل شيء قدير) . ولا أحد يملك معه شيئاً ان أراد أن يهلك المشركين والخلق أجمعين .

والله أخرجكم من بطون امهاتكم الآية ٧٨ - ٨٣ :

وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللّٰهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَادِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم

سَرَايِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَايِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَغْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ *

اللغة :

يطلق الجو على ما بين الأرض والسماء ، وعلى البر الواسع ، وفي كتب اللغة ان جو كل شيء بطنه وداخله . وسكنأ أي السكون والاستقرار في البيت واليه أيضاً ، والمراد باليوم الوقت ، وبالظعن السفر ، وبالأقامة الحضر، والأصواف من الغنم ، والأوبار من الابل ، والأشعار من المعز، والأثاث هنا متاع البيت كالفرش والسياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع ما يُتَمَتَّع به الى حين. وظلال جمع ظِل ، وهو الشيء ، وكان في بلاد العرب من أعظم النعم لشدة حرها . والأكنان جمع كن ، قال الطبرسي : وهو الموضع الذي يستتر صاحبه فيه ، ويقال : كنت الشيء في كنه أي صنته ، وأكننته أي أخفيت ، وكل ما لبسته من قيص أو درع ونحوه فهو كن . والسراييل واحدها سربال ، وهو القميص. والبأس الشدة ، والمراد به هنا الحرب ، ولباس الحرب الدرع .

الإعراب :

أمهات أصلها أمات لأنها جمع أم ، وزيدت الهاء للتأكيد كما قال الطبرسي ، أو للفرق بين من يعقل وما لا يعقل كما قال غيره . وجملة لا تعلمون شيئاً حال من ضمير المخاطب في امهاتكم . وشيئاً مفعول مطلق أي علماً ، ويجوز أن يكون مفعولاً به، ويكون تعلمون بمعنى تعرفون . وأثنائاً مفعول لفعل محذوف أي وجعل لكم أثنائاً ومتاعاً . فإن تولوا جواب الشرط محذوف أي فإن تولوا لم يلزمك شيء لأن الذي عليك هو البلاغ ، وقد أدبته وقت به .

المعنى :

ذكر سبحانه في هذه الآية طرفاً من الدلائل على وجود الخالق الحكيم لهذا الكون، وهذه الدلائل هي في نفس الوقت من نعم الله تعالى على عباده ، منها :

مع الماديين :

١ - (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) يخرج الانسان من بطن أمه جاهلاً لا يعلم شيئاً بطبيعة الحال ، ولكن الله سبحانه زوّده بأداة المعرفة الحسية ، وهي السمع والبصر ، وأداة المعرفة العقلية أيضاً ، وهي العقل والفطرة التي عبّر عنها بالأفئدة .

وقال الماديون : ان المادة الصماء العمياء هي التي أنشأت لنفسها بنفسها أسماء وأبصاراً وأفئدة، ونحييهم أولاً بأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وثانياً اذا كانت الحياة والادراك من خصائص المادة ولوازمها وجب أن يكون لكل مادة سمع وبصر وفؤاد لأن عموم السبب يستدعي عموم السبب .

واذا قالوا : ان في المادة نوعاً من الأجسام وجد على نحو خاص بحيث يلزمه حتماً أن يكون الجسم سمياً مبصراً مدركاً ، اذا قالوا هذا قلنا لهم : إما أن تقولوا ان المادة بما هي هي تنشئ الحياة والادراك ، وإما أن لا تقولوا ذلك ، وعلى الأول يجب أن لا يكون شيء في المادة الا وهو وحى مدرك ، وعلى الثاني يجب أن لا توجد الحياة في المادة على الإطلاق .. وكل من الفرضين أو الالتزامين باطل بالحس والوجدان ، لأن المشاهد بالعيان ان بعض المادة جامد ، وبعضها حي غير مدرك ، وبعضها حي ومدرك .. وهذا التقسيم والتفاوت دليل قاطع على ان وراء المادة قوة علية حكيمة وهي التي منحت الحياة والادراك لبعض أفراد المادة دون بعض وأوجبت التمييز والتفاوت فيما بينها .

الكون اكبر من الصواريخ :

٢ - (ألم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمكنهن الا الله ان

الجزء الرابع عشر

في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . المراد بمسخرات مهيئات للطيران ، وبالإمساك عدم السقوط على الأرض ، ومثله قوله تعالى : « أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن - ١٩ الملك ، .. ومن الواضح ان الله سبحانه يجري الأمور على أسبابها ، وقد اشتهر على كسل لسان ان الله اذا أراد أمراً هبأ أسبابه ، فعنى قوله تعالى : ما يمسكهن الا الله .. والا الرحمن انه تعالى خلق للطير جناحين ، وزوده بجميع المعدات اللازمة للطيران بين السماء والأرض ، قال تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً - ٢ الفرقان ، .. وقال : « انا كل شيء خلقناه بقدر - ٤٩ القمر ، . وهذا الخلق والتقدير والتدبير دليل واضح وقاطع على وجود الخالق المدبر .

وتسأل : لقد اخترع الانسان طائفة تفوق سرعتها سرعة الصوت ، بل اخترع صواريخ تقطع بالساعة آلاف الأميال ، وتنطلق الى القمر والمريخ ، واخترع الأقمار الصناعية التي تدور حول الأرض والقمر ، وتحدث من هناك الى العلماء بلغتهم عما تسمع وترى ، فأين الطيور من هذه المخترعات ؟.

وغريب ان يسأل عاقل مثل هذا السؤال ، ويدعش لهذه المخترعات ، ويذهل عن العقل الذي اخترعها وأوجدها .. وبالأصح يذهل عن خالق هذا العقل الذي أوجد هذه المخترعات .. ولو انصف الانسان لنظر الى نفسه وعقله ، فإنه أعظم من اختراع الصواريخ والأقمار الصناعية ، لأنه هو مخترعها ومبدعها .. بل لو انصف لنظر الى خلق الكون فهو أعظم من خلق الانسان الذي اخترع الصاروخ والقمر الصناعي ، قال تعالى في الآية ٥٧ من غافر : « نخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، . وخلق الانسان أكبر من خلق الصاروخ والأقمار الصناعية بملايين المرات .

هذا ، الى ان الحديث منذ بدايته انما هو عن الطير ، والطير من الأحياء ، والطائفة والصاروخ والقمر الصناعي من الجماد ، فالنقص بشيء منها في غير محله .. ومن الواضح المؤكد ان علماء الصواريخ ومعهم علماء الانس والجن لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابة ، ولا خلية من جناح ذبابة : « لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب - ٧٣ الحج . وتجدر الإشارة الى ان الله سبحانه أسند اليه إمساك الطير في الجو لأنه تعالى

سورة النحل

هو السبب الأول الذي خلق الطير وزوده بمعدات الطيران .. وأنكر الأشاعرة وجود الأسباب الطبيعية بشئ أنواعها وأشكالها ، وقالوا : كل الأفعال تسند الى الله مباشرة وبلا واسطة ، سواء أظهرت هذه الأفعال من طير أم حشرة أم حيوان أم انسان أم من الطبيعة .. فلا علاقة على الإطلاق بين الاحراق والنار ، ولا بين الري والشرب ، ولا بين الشبع والأكل .. ولكن الله يوجد الاحراق عند مماسة النار للجسم ، ويوجد الري عند شرب الماء ، والشبع عند أكل الطعام .. ويكفي لرد هذا القول انه يخالف الحس والوجدان ، وان اللازم له أن يكون الانسان تماماً كالحیوان والجماد ، لا يوصف بطيب أو خبيث ، وبمجرم أو بريء ، وانه لا يستحق مدحاً ولا ذماً ، ولا ثواباً ولا عقاباً ، لأن المفروض ان الله هو الفاعل والانسان ظرف للفعل ، تماماً كالأناء الذي يوضع فيه ماء .

٣ - (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) . والمراد بالسكن هنا الفعل والاستقرار في البيوت ، والمقصود من هذه البيوت ما يؤخذ من الحجر والخشب والحديد والاسمنت (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم) . تستخفونها أي حملها خفيف عليكم ، والظعن السفر ، والاقامة الحضر .. بعد أن ذكر البيوت الثابتة ذكر البيوت المتنقلة مع الانسان من مكان الى مكان كالخيم ، وذكر سبحانه الجلود ، ولم يذكر الكتان والقنب ونحوه ، لأن الجلود كانت هي الغالبة في بلاد العرب .. ومهما يكن فإن قوائم البيت من أي نوع كانت فإنها تدل على وجود خالقها وصانعها .. وأعجبتني هنا عبارة لفيقه يتفاح ، أنقلها بالحرف الواحد ، قال : « كل ما علاك فأظلك فهو سقف ، وكل ما أفلك فهو أرض ، وكل ما سرك من جهاتك الأربع فهو جدار ، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت » .

احترام البيت في الشريعة :

والبيوت بشئ أنواعها من نعم الله تعالى على عباده ، ولا يعرف قدرها إلا الذين لا بيوت لهم ، ولبيت حرمة في الشريعة الاسلامية ، من ذلك أن لا يدخل الانسان بيتاً حتى يستأذن أهله ، قال تعالى : « فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قبل لكم ارجعوا فارجعوا - ٢٨ النور .

الجزء الرابع عشر

وقال الفقهاء: من تطلع في بيت انسان من ثقب أو شق باب ، ونحوه فلصاحب البيت أن يزجره أولاً ، فإن أصر فله أن يضربه ، أو يرميه بحصاة وما أشبه ، فإذا تضرر المتلصص المتجسس فلا شيء على صاحب البيت ، فقد جاء في الحديث النبوي : « من اطلع عليك ، فحذفته بحصاة ، ففقت عينه فلا جناح عليك » . وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : عورة المؤمن على المؤمن حرام .. ومن اطلع على مؤمن في منزله فعيناه مباحتان للمؤمن في تلك الحال .

٤ - (ومن أوصافها وأوبارها وأشعارها اثناً ومئاً إلى حين) أي وجعل لكم من أوصافها الخ ، والصوف من الغم ، والوبر من الابل ، والشعر من المعز ، والاثاث معناه في الأصل الكثرة ، يقال : أثّ الثبت يثث اذا كثر ، والمراد بالاثاث هنا ما يحتاج اليه المرء من فرش أو لباس ونحوه ، والمتاع كل ما ينتفع الانسان به في مصالحه وقضاء حوائجه ، وقوله : إلى حين اشارة الى ان متع الحياة كلها مؤقتة لا دوام لها ولا قرار .

فكيف بنعمة الذهب الأسود ؟

٥ - (والله جعل لكم مما خلق ظلالاً) . الظلال جمع ظل ، وهو الفيء الذي بقي من حر الشمس .

٦ - (وجعل لكم من الجبال اكثاناً) . الاكثان جمع كن من كهف وثقب ، ونحوه مما بقي من حر الشمس ، وكل ما يحتاج اليه المرء فهو نعمة إذا وجده حتى فيء الغمامة ، والثقب في الجبل .

٧ - (وجعل لكم سراويل تقيكم الحر) . وهنا حذف تقديره والبرد ، وإنما حذف للعلم به (وسراويل تقيكم بأسكم) . هذا كناية عن الدرع والمغفرة وغير ذلك (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) . والمراد بالاسلام هنا الاستسلام والانقياد للحق والعمل به ، والمعنى انه تعالى أنعم عليهم بالبيوت والاثاث والمتاع والسراويل والظل وبالكف ليشكروه ويتقوه ، ولا يعيشوا في الأرض مفسدين .

وإذا آمن سبحانه على عرب الجاهلية بنبي الغمامة والشجرة ، وبالثقب في الجبل ونحوه ، واعتبر ، جلّت عظمته ، هذا الظل، وهذا الثقب من أتمام النعمة عليهم

سورة النحل

وطالبهم لقاء ذلك بالشكر والافتقار للحق ، وهمدهم ان عصوا وتمردوا ، إذا كان الظل نعمة والثقب فضلاً فكيف بالذهب الأسود الذي يتدفق أجراً في البلاد العربية ؟. وكيف بالفتنة التي تتحكم به ، فتبني بشمه ناطحات السحاب ، وتفتني الجوارى والعبيد ، وتمتلك لرفاهيتها أسطولا من الطائرات والسيارات ، وتملأ الأرض اسرافاً وفساداً ؟.

لقد امتن الله على الماضين بالأنعام والخليل والبغال والحمير ، وبالبيوت من الحجر والجلد ، وباللائث من الصوف والوبر والشعر ، وبالسراويل التي تقي من الحر والبرد ، بل امتن عليهم بالظل والثقب ، وطالبهم أن يشكروا ويذكروا ، فكيف بالمترفين المنحرفين في هذا العصر الذين يسكنون الفيلات ، ويؤثثونها بمئات الألواف ، ويكيفون أجواءها كما يشتهون من دفء أو رطوبة، وحولهم خيام اللاجئين وأكواخ المشردين ؟. ومع هذا يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر .

(فإن تولوا فلإنما عليك البلاغ المبين) يا محمد، وعلينا الحساب، وقد أدبت أنت الرسالة على أكمل الوجوه ، وسنوفهم نحن حسابهم وجزاءهم . وتقدمت هذه الآية في سورة آل عمران الآية ٢٠ ج ٢ ص ٣٠ ، وفي الآية ٤٠ من سورة الرعد (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها). المراد بمعرفتهم اياها أنهم يتنعمون بها، وينكرونها أنهم يسندونها الى غير الله، أي أنهم يأكلون رزق الله ، ويعبدون سواه (وأكثرهم الكافرون) يجوز استعمال كلمة الأكثر في معناها الظاهر، ويجوز أيضاً استعمالها بالجمع. والمراد بها هنا كل من بلغه رسالة محمد (ص) وأنكرها عناداً للحق وتمرداً عليه .

نبعث من كل أمة شهيداً الآية ٨٤ - ٨٩ :

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ* وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ* وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ

شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ*
وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ* الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ*
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى
هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ*

اللغة :

المراد بالشهيد هنا الشاهد لهم أو عليهم . ولا يستعجبون أي لا مجال لهم غداً
أن يطلبوا الرضا من الله بقول أو فعل . والسلم الاستسلام والانقياد . والتبيان
البيان .

الإعراب :

يوم نبعث (يوم) مفعول لفعل محذوف أي اذكر يوم نبعث . وجملة انكم
لكاذبون بدل من القول في قوله : فألقوا إليهم القول . : دناهم عذاباً (عذاباً)
تمييز لأنه بمعنى زاد عذابهم . وجئنا بك شهيداً (شهيداً) حال من كاف الخطاب . وتبيناً
حال ، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله أي أنزلناه ليبين للناس كل شيء وليهديهم
وليبرحهم .

المعنى :

(ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا) . هذا تهديد

سورة النحل

ووعيد لمن أشار سبحانه اليهم في الآية السابقة بقوله : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) . ووجه التهديد ان الله يجمع الناس غداً ، ويأتي بكل نبي يشهد على أمته أو لها ، ومتى شهد عليها يأخذ الله بقوله وشهادته ، ولا يؤذن لها بالرد والاعتذار ، قال تعالى : « هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » - ٣٥ المرسلات . (وهم لا يستعتبون) . المراد بالاستعتاب طلب الرضا، والمعنى لا يطلب من المشركين أن يسترضوا الله بقول أو فعل ، لأن الآخرة دار حساب وجزاء لا دار أعمال واسترضاء .

(وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) . المراد بالذين ظلموا كل ظالم ، سوا أظلم خالقه بالوجود أو الشرك ، أم ظلم غيره بالاعتداء ، أم ظلم نفسه بتعرضها للهلكة ، فإنه يعذب على ظلمه وذنبه جزاء وفقاً بلا زيادة أو نقصان ، وبلا تأخير أيضاً .

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا اليهم القول انكم لكاذبون) . ضمير ألحقوا يعود الى آلهة المشركين ، وضمير اليهم يعود الى المشركين أنفسهم ، وتدل الآية بظاهرها على ان الله يحشر معبود المشركين صنماً كان أو غيره لالتقاء الحجة على من اتخذه إلهاً ، وان المشركين حين يرون آلهتهم التي كانوا يعبدون يقولون لله : هؤلاء الذين كنا ندعوهم شركاء لك ، وان الآلهة ترد عليهم بلسان الحال أو بلسان المقال : انكم أيها المشركون لكاذبون ومفترون في جعلنا شركاء لله . وغير بعيد أن تكون هذه الحكاية لقول المشركين وآلهتهم كناية عن تكشف الحقائق غداً ، وانه لا مجال للكذب والتدليس .

(وألقوا الى الله يدمثد السلم) . ضمير ألحقوا يعود الى المشركين وآلهتهم وانهم يستسلمون وينقادون لأمره تعالى (وضل عنهم ما كانوا يفترون) . وكل مفتر في هذه الحياة تعود عليه مفترياتهم بالخزي والعذاب في اليوم العصيب .

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) . فسدوا بكفرهم بالحق ، وأفسدوا بصددهم الغير عن الحق ، فاستحقوا عقابين : أحدهما على الفساد والثاني على الافساد : « وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم - ١٢ العنكبوت » .

الجزء الرابع عشر

(ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم) . تقدم هذا المعنى في الآية ٨٤ واعاده في الآية ٨٩ تهديداً للذين كذبوا محمداً (ص) . (وجئنا بك شهيداً على هؤلاء) . الخطاب لمحمد (ص) ، وهؤلاء اشارة الى أمته .

وتسأل : ان محمداً (ص) رسول الله الى الناس أجمعين بنص الآية ٢٧ من سبأ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . فإذا كانت رسالة محمد في الدنيا عامة للجميع فينبغي أن تكون شهادته في الآخرة على الناس عامة أيضاً ، وإذا كانت شهادته في الآخرة على أمته فقط فينبغي أن تكون رسالته خاصة بأمته فقط ؟.

الجواب : لا تلازم بين عموم رسالته في الدنيا وعموم شهادته في الآخرة ، لأن رسالة الاسلام تبلغها أمة محمد (ص) من بعده لكل الأمم في كل زمان ومكان والنبي يشهد على أمته انها أهدت ولم تبلغ الرسالة للأجيال .

(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) . الخطاب من الله لنبيه محمد ، والمراد بالكتاب القرآن ، وفيه بيان كل شيء يتصل بالعقيدة والشرعية والأخلاق والعبر والعظات (وهدي ورحمة) لمن طلب الهداية والرحمة (وبشرى للمسلمين) . المراد بالبشرى الجنة ، وبالمسلمين كل من استسلم للحق وعمل به .

الله يأمر بالعدل والاحسان الآية ٩٠ - ٩٣ :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ* وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ

مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *

اللغة :

كل ما يلتزمه الانسان باختياره من فعل أو ترك فهو عهد عند أهل العرف ، ولا يكون عهداً يجب الوفاء به شرعاً الا اذا كان العهد لله ومقروناً باسمه تعالى : مثل عاهدت الله ، وعليّ عهد الله . ونقض اليمين الحنث بها . والمراد بتوكيدها هنا عقدها ، ويجوز تأكيدها بالألف ، ولكن بالواو أولى لأنها الأصل . وكفيلاً ضامناً الوفاء . وانكاثاً بفتح الهزلة جمع نِكَثَ بكسر النون بمعنى منكوث أي محلول ومنقوض . والدخل في كلام العرب كل ما هو غير صحيح كما في تفسير الطبري . وأربى أكثر وأوفر .

الإعراب :

انكاثاً حال مؤكدة من غزها . وقيل : منصوب على المصدرية . ودخلاً مفعول من أجله لتخلفون . والمصدر من أن تكون أمة مجرور بباء محذوفة أي بكون أمة .

المعنى :

(ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . أمرت هذه الآية بثلاث خصال حميدة ، ونهت عن ثلاث خصال قبيحة ، أما الثلاث الحميدة فهي :

الجزء الرابع عشر

العدل ، والانسان العادل هو الذي ينصف الناس من نفسه. ويعاملهم بما يجب أن يعاملوه .

والاحسان ، وهو جامع لكل خير ، والناس يفهمون من كلمة محسن من يتبرع بماله أو بسعيه في سبيل الخير .

وايتاء ذي القربى، وهو من الاحسان، وخصه تعالى بالذكر تنويهاً بفضله وعظمته. أما الخصال الثلاث القبيحة فهي الفحشاء كالزنا واللواط والخمر والميسر والكذب والبهتان ، وأظهرها الزنا ، قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلاً » - ٣٢ الاسراء . والخصلة الثانية من الخصال القبيحة هي المنكر، وهو كل ما ينكره العقل والشرع . والخصلة الثالثة البغي ، وهو الاعتداء على الناس بالفعل أو القول ، وحكمه عند الله غداً حكم الشرك بالله ، بل أشد، لأن الشرك اعتداء على حق الله فله اسقاطه ، أما البغي فهو اعتداء على حق الله وحق الناس. ويُطلق المنكر على الفحشاء ، والفحشاء على المنكر ، وهما معاً على البغي .

(يعظكم لعلكم تذكرون) . المراد بوعظه سبحانه أمره بالخصال الحميدة الحسنة ، ونهيه عن الخصال القبيحة السيئة ، والغرض من هذا الوعظ أن نكون مؤمنين أتقياء ، وطيبين أصفياء . ونقل الرواة عن ابن مسعود ان هذه أجمع آية للخير والشر في كتاب الله .

وقال عثمان بن مظعون : أسألت استحياء من رسول الله ، وما قرأ الاسلام في قلبي حتى نزلت هذه الآية ، فأمنت بمحمد (ص) وأنت عمه أبا طالب ، فأخبرته بأمرى ، فقال : يا آل قريش اتبعوا محمداً ترشدوا ، فإنه لا يأمركم الا بمكارم الأخلاق .

(واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم) . اعطاء العهد لله يكون على نحوين : الأول أن يقطع الانسان على نفسه عهداً لله تعالى ان يفعل شيئاً معيناً أو يتركه ، كما لو قال : أعاهد الله أن أفعل كذا ، أو أترك كذا . النحر الثاني أن يؤمن بالله ، لأن من آمن به فقد أعطاء عهداً أن ياتمر بأمره ، وينتهي بنهيه، وكل من المهدين يجب الوفاء به ، والمراد هنا بعهد الله العهد الأول .

(ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) . الايمان جمع يمين ، والمراد بتوكيدها عقدها ، لأن اليمين تنعقد اذا لم تكن على معصية ، ولا تنعقد بحال اذا كانت

سورة النحل

على معصية . وقيل : ان المراد بتوكيدها تشديدها وتغليظها ، وهذا اشتباه ، حيث يصير المعنى على هذا ان اليمين التي لا تشدد فيها لا يجب الوفاء بها .. مع العلم بأن كل يمين متى تمت يجب الوفاء بها سواء أتشدد الحالف وأغلظ بيمينه وعزمه ، أم لم يتشدد ويغلظ .

(وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) . كل من حلف بالله فقد جعل الله كفيلاً وضامناً الوفاء ، فإن أخلف فقد خان الله بالذات ، واستحق العقاب والعذاب (ان الله يعلم ما تفعلون) فمن وفى بمعهده ويمينه أثابه ثواب المطيعين ، ومن نكث وخان عاقبه عقاب العاصين .

وتجدر الإشارة الى ان كلاً من العهد واليمين ينحل بطبعه اذا كان تركه خيراً من فعله ، فمن حلف بالله أو عاهده أن لا يأكل اللحم - مثلاً - وكان في الترك منفعة صحية له ، إذا كان كذلك انعقد العهد واليمين ، فلو طرأ على صحته ما يستدعي أكل اللحم ينحل العهد واليمين ، ويأكل اللحم ولا شيء عليه ، وقد جاء في الحديث : « إذا رأيت خيراً من يمينك فدعها » .

(ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها بعد قوة انكاثاً) . بعد قوة أي بعد ابرامه .. وكل شيء ينقض بعد فتلته وابرامه فهو نكث ، غزلاً كان أو حبلاً ، وقد شبه سبحانه ناقض العهد والایمان بناقضة الغزل بعد ابرامه . وقيل : كان بمكة امرأة حمقاء تنزل صوفها في الصباح ، وتنفضه في المساء ، وان الله شبه بها ناقض اليمين ، ومهما يكن فإن الآية تؤكد لقوله تعالى : (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) .

(تتخلون ايمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) . حذف من الكلام همزة الاستفهام الانكاري ، والتقدير أنتخذون الخ . والدخل هو الشيء الفاسد والمفسد ، ومنه المكر والخديعة ، وأربى أي أكثر ، والمعنى لا تجعلوا ايمانكم وسيلة للفلسر والخيانة ، وذلك بأن تحلفوا للذين هم أكثر منكم وأقوى ليظمنوا اليكم ، ويثقوا بكم ، وأنتم في نفس الوقت تفسدون أن تنقضوا الايمان ، وتركوا الذين حلفتم لهم متى رأيتم أقوى منهم عدة ، وأكثر عدداً ، وتلخص المعنى بكلمة واحدة : لا تغفروا .

(انما يلوكم الله به) . ضمير به يعود الى أمره بالوفاء بالعهد واليمين ،

الجزء الرابع عشر

والمعنى ان الله تعالى يكلف العباد بتكاليف لطيع من أطاع غناراً ، ويعصي من عصي غناراً ، ثم يجازي الله كلاهما بما يستحق، وتكلمنا مفصلاً عن معنى الاختبار من الله عند تفسير الآية ٩٤ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٢٦ (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) . يعيد الله العباد يوم القيامة ليميز المبطل من الحق، ويكافئ كلاهما بما يستحق .

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) . أي ان الله سبحانه لو أراد أن يُكره الانسان على الإيمان لكان الناس كلهم أمة واحدة ، ولكنه ترك الانسان وما يختار ، اذ لو سلبه الحرية والاختيار لكان شأنه شأن الحيوانات والحشرات ، وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١١٨ من سورة هود، والآية ٣٤ من سورة الأنعام . (ولكن يفضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون) . لاشك ولا ريب عند العقل ان الله لا يفضل ولا يهدي أحداً قهراً عنه ، ولو الجأه الجأه إلى الضلالة والهداية لما صح أن يسأله ويحاسبه، مع انه قال صراحة ، وبلا فاصل (ولتسألن عما كنتم تعملون) ، ومعنى الآية ان الله سبحانه يعتبر الانسان ضالاً بعد ان يسلك غناراً طريق الضلال ، ويعتبره هادياً متى سلك سبيل الهداية ، تماماً كما يمتيه إذا انتحر : وينجيه إذا لم يلق بيده الى التهلكة . وسبق الكلام عن الهدى والضلال عند تفسير الآية ٢٦ و ٢٧٢ من سورة البقرة ج ١ ص ٧٠ و ٤٢٦ والآية ٨٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٩٩ .

ما عند الله خبر الآية ٩٤ - ١٠٠ :

وَلَا تَتَّخِذُوا إِيمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشُّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِيمَانًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا

سورة النحل

كَانُوا يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ
سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ
يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ *

اللفظة :

النفاذ الفناء ضد البقاء . واذا قرأت القرآن أي اذا أردت قراءة القرآن مثل
اذا أكلت فقل باسم الله . والمراد بالسلطان التسلط . ويتولونه أي يطيعونه .

الإعراب :

فتزل منصوب بأن مضمرة بعد الفاء لأن الفعل وقع جواباً للنهي ، وتذوقوا
عطف على فتزل . وانما مركبة من كلمتين : ان التي تنصب الاسم وترفع الخبر ،
وما اسم موصول ، وهي اسم ان ، وعند الله صلة الموصول ، وهو ضمير فصل
لا محل له من الاعراب ، وخير خبر ان . وما عندكم مبتدأ ، وينفذ خبر .
وضمير لنحيينه يعود الى من عمل صالحاً باعتبار لفظة (من) المفردة ، وضمير
نجزينهم يعود اليها باعتبار معناها ، وهو الجمع هنا .

المعنى :

قال سبحانه في الآية ٩١ : (ولا تنقصوا الإيمان بعد توكيدها) . وقال في
الآية ٩٢ : (ولا تكونوا كالتي نفقت غزها من بعد قوة انكاثاً تتخذون إيمانكم

الجزء الرابع عشر

دخلاً بينكم) . وقال في الآية ٩٤ ، وهي التي نفسرها : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم) . فإما هو الغرض من هذا التكرار ؟ هل هو التأكيد والاهتمام بالوفاء ، أو هناك غرض آخر ؟ .

نقل الرازي عن المفسرين أن الله سبحانه نهى أولاً عن نقض اليمين الناس أجمعين ، دون أن يقصد جماعة معينين ، ثم نهى جماعة بالخصوص ، وهم الذين بايعوا محمداً (ص) على الاسلام .

وهذا التفصيل بعيد عن مدلول الآيات ، لأن النهي فيها عن نقض اليمين ورد مطلقاً غير مقيد ببيعة أو بغيرها .. والأولى في الجواب أن تكرار النهي هنا إنما ساغ وحسن . لأن الله سبحانه عقّب بعد كل نهى بجملة أفادت معنى جديداً ، فقال بعد النهي الأول : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً) فذكر بقوله هذا الحالفين بأنهم جعلوا الله ضامناً للوفاء بإيمانهم ، فعليهم أن لا ينكثوا ، والا فقد خانوا الله بالذات .. وقال بعد النهي الثاني : « إنما يلوكم به » وهذا تذكير للحالفين أيضاً بأنه يمتحنهم ويختبرهم ليستحقوا الثواب الذي يريده لهم . وقال بعد النهي الثالث : (فترل قدم بعد ثبوتها) وهذا تهديد ووعيد لمن ترك الحق إلى الباطل والهدى إلى الضلال .

(وتذوقوا سوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) . كل من صدّ عن سبيل الله والحق وجب رده بالوعظ والارشاد أولاً ، فإن تاب وأناب فذاك والا وجب جهاده وساغ أسره وقتله ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فله عذاب عظيم .

(ولا تشعروا بعهد الله ثمناً قليلاً) عهد الله هو الالتزام بالحق والعمل به ، ومنه الوفاء بالعهد واليمين ، والمراد بالثمن القليل المنفعة الدنيوية ، وإن كثرت ، والمعنى لا تؤثروا منافعكم الخاصة على الحق ، فتبيعوه بالمال أو الجاه أو بأي متاع من هذه الحياة ، فإن الدنيا بما فيها ليست بشيء في جنب ما أعدّه الله للمطيعين والمحسنين (إنما عند الله هو خير) من المنافع الدنيوية بالغة ما بلغت كيفاً وكماً (إن كنتم تعلمون) الفرق البعيد بين المنفعة الأخروية والدنيوية ، ثم بين سبحانه وجه الفرق بينها بقوله : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) . وليس من شك أن الدائم أفضل وأشرف من الزائل .. وفوق هذا فإن المنفعة الدنيوية ترافقها الآلام

سورة النحل

والمفصلات .. اذا احلولى منها جانب أمرّ منها جانب ، أما المنفعة الاخروية فخالصة من كل شائبة .

(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . ان الدعوة الى الحق ، والثبات عليه وعليها يستدعيان الأذى من الباطلين بطبيعة الحال .. فمن صبر على البلاء في سبيل الحق ، وثبت على جهاد أعدائه الى النهاية أثابه الله ثواب الصابرين المجاهدين .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . ان قوله هذا يومئذ الى انه تعالى يجزي الصابرين بالثواب على أحسن أعمالهم ، أما أعمالهم الحسنة والسيئة فإنه لا يجزيهم عليها بشيء ، فهل هذا المعنى هو المراد من الآية ؟ .

الجواب : ان أعمال الانسان تنقسم الى طاعات واجبة ومستحبة ، ومعاصر ، ومباحات ، وليس من شك ان أحسنها الطاعات ، وأقبحها المعاصي ، والله سبحانه يثيب الصابرين على جميع ما يفعلونه من الطاعات ، ومنها الصبر في طاعة الله ، وهو أفضلها وأشرفها ، أما المباحات فلا يستحق فاعلها ثواباً ولا عقاباً .. فالمراد بأحسن ما كانوا يعملون الطاعات بشئ صورها وأشكالها، وليس المراد الصبر فقط . أجل ، ان الله سبحانه صرح بأنه يجزي الصابرين على حسناتهم ، وسكت عن سيئاتهم ، وفي هذا السكوت وعد أو شبه وعد بأنه تعالى يغفرها برحمته وفضله . (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . في هذه الآية جهات :

- ١ - لقد دلت على ان كلاً من الذكر والأنثى يقاس بعمله عند الله ، وانه لا فضل للرجل على المرأة إلا بالتقوى ، فان اتقت هي وأطاعت ، وعصى هو ولم يتق فهي خير منه وأكرم عند الله .. وتقدم الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة بعنوان : « بين الرجل والمرأة » ج ١ ص ٣٤٣ .
- ٢ - دلت الآية أيضاً على ان الايمان مع العمل الصالح سبب للأجر والثواب ، أما أحدهما دون الآخر فلا يستحق صاحبه الثواب .. ولكن الجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » يقتضي ان الله سبحانه يعوض على الكافر المحسن بالصحة أو المال أو الجاه أو طول العمر في الدنيا ،

الجزء الرابع عشر

أو بتخفيف العذاب عنه في الآخرة . وسبق الكلام عن ذلك بعنوان : « الكافر وعمل الخير » عند تفسير الآية ١٧٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٢١١ .

٣ - اختلفوا في الحياة الطيبة التي ذكرها سبحانه بقوله : (فلنجنيه حياة طيبة) . اختلفوا : هل تحصل هذه الحياة في الدنيا أو في الآخرة ؟ .. وغريب ان يختلف المفسرون في ذلك ، وهم يشاهدون بالحس والعيان ان الدنيا جنة الكافر ، وسجن المؤمن ، ويتلون بل يشرحون قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سفحاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون وزخرفاً وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين - ٣٥ الزخرف » . ومن أجل هذا نرجع ان المراد بالحياة الطيبة هنا الجنة ، وان قوله : ولنجزينهم أجرهم النخ عطف تفسير على قوله : فانجيئه وتأكيده له ، رحمه الله تعالى : « انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون - ١٠٥ النحل » .

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) . الخطاب للنبي (ص)، والتكليف للعموم ، والمعنى ان من أراد ان يقرأ القرآن فليقل قبل القراءة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وفي تفسير الرازي ان مالكاً وداود الظاهري قالا : الاستعاذة بعد قراءة القرآن ، لا قبلها جموداً على ظاهر اللفظ ، ومهما يكن فان الاستعاذة من الشيطان قبل القراءة أو بعدها مستحبة ، وليست واجبة بالاتفاق .

(انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) . ضمير انه ليس له يعود الى الشيطان، أما ضمير به مشركون فيجوز أن يعود على ربهم لتقدم ذكره ، ويجوز أن يعود على الشيطان، على معنى انهم أشركوا بسبب طاعتهم للشيطان ، والمعنى ان الشيطان لا سبيل له على الانسان إلا بالوسوسة والاغراء بفعل الحرام ، ولا يستجيب له الا ضعاف القلوب والايمن . وتقدم نظيره مع التفسير في الآية ٢٢ من سورة ابراهيم والآية ٣٩ وما بعدها من سورة الحجر .

آية مكان آية الآية ١٠١ - ١٠٥ :

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا
يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ *

اللاغة :

التبديل رفع شيء مع وضع غيره مكانه ، وروح القدس جبريل، والمراد باللسان
هنا اللغة . والالحاد الميل . والفرق بين الأعجم والعجمي ان الأعجم من لا يفصح
وان كان عربياً ، والعجمي هو المنسوب الى العجم .

الإعراب :

قالوا جواب اذا ، وجملة والله أعلم معترضة بين اذا وجوابها . ولسان الذي
يلحدون اليه مبتدأ ، وخبره أعجمي .

المعنى :

(واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما يتزل قالوا انما أنت مفتر بل أكثرهم
لا يعلمون) . ضمير قالوا يعود الى المشركين الذين كذبوا محمداً (ص)، وضمير
أنت موجه منهم اليه .. ان الله سبحانه خلق الخلق، وهو العليم الحكيم بما يصلحهم
وفسدهم ، وقد تستدعي الحكمة والمصلحة ان يُشرع سبحانه لعباده
حكماً لأمد معين ، فيفعل ، حتى اذا انتهى الأمد ارتفع الحكم المحدود به ،
وشرع - جلت حكمته - حكماً آخر مكانه على وفق المصلحة أيضاً .. وهذا هو

الجزء الرابع عشر

المسراد من قوله : « واذا بدلنا آية مكان آية » . وكان المشركون ، حين يرون هذا التبديل ، يقولون لمحمد (ص) : انك تفعل ذلك من تلقاء نفسك ، وتنسب الى الله كذباً وافتراء ، والله سبحانه يعلم بأنه هو الذي أنزل هذا التبديل على رسوله الصادق الأمين ، ويعلم انهم هم المقفرون بقولهم للرسول الأعظم : « انما انت مقتر » .

وأوضح تفسير قرأته لهذه الآية ما روي عن ابن عباس انه إذا نزلت آية في شدة ، ثم نزلت آية ألين منها قال كفار قريش : ان محمداً يسخر بأصحابه ، اليوم يأمر بأمر ، وغداً ينهى عنه ، وانه لا يقول هذه الأشياء الا من عند نفسه ، فأنزل الله تعالى : « وإذا بدلنا آية مكان آية الخ . وتكلمنا عن النسخ عند تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٦٩ .

(قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) . روح القدس هو جبريل ، وسمي بذلك لأنه نزل بالقدس ، وهو القرآن من عند الله على محمد (ص) . . .

ونظير هذه قوله تعالى في الآية ٨٩ من هذه السورة : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) . وذكرنا الآية هنا للرد على المشركين الذين نسبوا التبديل إلى النبي ، وذكرنا هناك بمناسبة قوله تعالى ما معناه ان الله يوم القيامة يبعث من كل أمة شهيداً ، ويبعث محمداً ليشهد على أمته انه قد بلغها القرآن الذي هو تبيان لكل شيء .

(ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر) . اتهم المشركون محمداً (ص) بأنه تعلم القرآن من غيره ، ونسبوا الى الله كذباً وافتراء .. وليس من شك ان هذا من حرب الدعايات الكاذبة يعلنها المفسدون في الأرض على مصلح يثور عليهم وعلى فسادهم وافتادهم .. وقد تطورت اليوم أساليب الدعايات ضد المخلصين والمصلحين ، وبلغت النهاية في الدقة والاحكام ، حتى اتخذ بها كثير من الأبرياء الأصفاء .

(لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) . هذا رد لقول المشركين عن محمد (ص) : « انما يعلمه بشر » ، ويظهر من هذا الرد انهم أضافوا التعليم الى رجل معين ، وان هذا الرجل كان أعجمياً يعجز عن الافصاح

سورة النحل

بالكلام ، ولذا قال تعالى : ان القرآن ذو بيان وفصاحة فكيف يمكن أن يصدر عن أحمجي ؟.. ان فاقد الشيء لا يعطيه .

ردد هذا الافتراء أعداء الاسلام في حياة محمد(ص)، ورددوه من بعده أيضاً، وما زال كثير من المبشرين النصارى يجترون هذا الافتراء جاهلين أو متجاهلين بأن في القرآن علوماً وفنوناً وحِكماً لم يكن لها في ذاك العهد عين ولا أثر .. ولو افترض وجودها فلا يمكن أن يجمعها ويعلمها واحد، ولو علمها لتجاوزت شهرته شهرة أرسطو الذي أسماه العرب بالمعلم الأول .. مع العلم بأنه ما ادعى أحد ان رجلاً كان في عهد رسول الله يجمع علوم القرآن .

(ان الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولم عذاب أليم) . المراد بآيات الله الدلائل الناطقة بوجوده ، والمعجزات الشاهدة بنبوة الأنبياء ، والأحكام المنزلة من الله عليهم ، أما الهداية فالمراد بها هنا الثواب ، والمعنى ان الله سبحانه لا يثيب ، بل يعاقب من يكفر بآياته بشئ أنواعها .

الكاذب الكافر :

(انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) ولا بالبعث والحساب والجزاء للمشركين الذين قالوا لمحمد (ص) ما قالوه (وأولئك هم الكاذبون) . انهم يجرأون على الكذب وعلى جميع المفاصد والآثام لأنهم لا يخشون عقاباً على الكذب، ولا يرجون ثواباً على الصدق .

وتسأل: ان قوله تعالى : « انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون »، يغني عن قوله : « وأولئك هم الكاذبون ». فما هو القصد من هذا التكرار؟.

وأجاب المفسرون بأن القصد منه التنبيه الى ان صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة تماماً كما تقول لمن عرف بالكذب: كذبت وأنت الكاذب أي ان دأبك وشأنك الكذب. سؤال ثان : قال سبحانه : « انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون » . وهذا حصر للكذب بالكافرين مع ان كثيراً من الكافرين أصدق وأوثق في أحاديثهم من كثير من الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ؟.

الجواب : ان المسلم الكاذب مؤمن بالله نظرياً ، وكافر عملياً ، فهو بوصفه

الجزء الرابع عشر

مؤمناً نظرياً وفكرياً يعامل في الدنيا معاملة المسلم ، وبوصفه كافرأ في عمله وفعله يعامل في الآخرة معاملة الكافر لهذه الآية ، ولما روي عن النبي من انه سئل : هل يكذب المؤمن ؟ فقال : لا . ثم قرأ هذه الآية .

وقلبه مطمئن بالإيمان الآية ١٠٦ - ١١١ :

مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ
وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ
مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

اللغة :

شرح بالكفر صدراً أي اعتقده عن طيب نفس . واستحبوا الحياة الدنيا أي
آثروها وقدموها، ولا جرم لا شك . والمراد بفتنوا هنا ابتلوا . وتجادل عن نفسها
تدفع عنها وتسعى في خلاصها .

الإعراب :

ذكر الطبرسي وجهين لإعراب (من) في قوله تعالى : (من كفر بالله) .

سورة النحل

وذكر الرازي أربعة أوجه ، واختار ان محلها نصب مفعولاً لفعل محذوف أي أعني من كفر بالله ، أما نحن فنختار ان محلها الرفع بالابتداء ، والخبر محذوف تقديره من كفر بالله من بعد إيمانه فعليهم غضب الله ، وهذه الجملة تدل عليها الجملة الموجودة في نفس الآية ، ومن شرح مبتدأ ، وفعلهم غضب من الله خبر. وصدرأ تمييز محمول عن فاعل لأن أصله من انشرح صدره للكفر، وقال الرازي : صدرأ مفعول ، وأصله صدره ، وحذف الضمير للعلم به . والمصدر من انهم في الآخرة مجرور بمحذوف أي لا جرم في انهم ، وضمير (هم) فصل والخاسرون خبران. ثم ان ربك للذين هاجروا خبرها جملة ان ربك لغفور رحيم . وان ربك من بعدها تأكيد لأن ربك للذين هاجروا الخ .

المعنى :

(من كفر بالله من بعد إيمانه الا من اكراه وقلبه مطمئن بالإيمان) . تدل هذه الآية على الاذن بالتفوه بكلمة الكفر للنجاة من القتل ، على ان يكون لافظها مؤثماً حقاً وصدقاً . وجاء في تفسير الرازي : « أكره أناس على كلمة الكفر ، منهم عمار وأبواه ياسر وسمية ، وصهيب وبلال وخباب وسلم ، وقد عذبوا ، فأما سمية فربطت بين بعيرين ، ووخزت في قلبها بحربة فقتلت ، وقتل ياسر ، وهما أول قتيلين قتلوا في الاسلام، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً . فقال بعضهم : يا رسول الله ان عماراً كفر . فقال الرسول الأعظم (ص) ، كلا ، ان عماراً ملئ إيماناً من قرنه الى قدمه ، واختلط الإيمان ببلحمه ودمه .. فأثنى عمار رسول الله (ص) وهو يبكي ، فجعل الرسول يمسح عينيه ويقول : « ما لك ؟ ان عادوا لك فعد بما قلت » . وتقدم الكلام عن الثقة عند تفسير الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

(ولكن من شرح بالكفر صدرأ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب أليم) بعد أن ذكر سبحانه من آمن واقعاً ، وأظهر الكفر للنجاة من القتل، وانه معذور عند الله — بعد هذا ذكر من كفر ظاهراً وواقعاً ، لا لشيء الا رغبة في الكفر، ولا جزاء لهذا الا غضب الله وعذابه الأليم (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على

الجزء الرابع عشر

(الآخرة) ذلك اشارة الى غضب الله وعذابه، واستحبوا آثروا، والمعنى ان الله سبحانه يطرد الكافرين من رحمته، ويعذبهم بناره لأنهم آثروا الحياة وزيتها على الآخرة ونعيمها. وقوله تعالى : ذلك بأنهم استحبوا الخ. صريح في ان العلة لعذابهم وغضب الله عليهم هي استحبابهم الدنيا على الآخرة ، ومعنى هذا ان كل من آثر الهوى على الحق ، والعاجلة على الآجلة فهو عند الله مثل الكافر والمشرک من حيث استحقاقه الغضب من الله والعذاب .

(وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) بمعنى انه لا يعتبرهم مهتدين بعد ان استحبوا الكفر على الايمان بطبيعة الحال . وأيضاً لا يهديهم بمعنى انه لا يشيهم .. وليس من شك انه قد هداهم بمعنى انه أقام لهم الأدلة الكافية الوافية على وجوده ونبوة أنبيائه : « واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى - ١٦ فصلت » .
(اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) .
تقدم نظيره مع التفسير في سورة البقرة الآية ٦ .

(لا جرم) لا شك (انهم في الآخرة هم الخاسرون) . ولا خسران أعظم من غضب الله وعذابه .

(ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) . بعد ان ذكر سبحانه حكم من آمن في الواقع ، وكفر في الظاهر مكرها ، بعد هذا ذكر هنا من كان قد آمن برسول الله ، ولكنه بقي بمكة ولم يهاجر معه الى المدينة ، وأعطى المشركين بعض ما أرادوا منه ، ثم تاب وهاجر وجاهد بين يدي رسول الله ، وصبر على جهاد المشركين والفاستدين ، وقد بين سبحانه حكم هذا بقوله : (ان ربك من بعدها لننور رحيم) . وضمر بعدها يعود الى فعلتهم التي بدل عليها السياق ، أو الى توبتهم مع الهجرة والجهاد والصبر .

وفي كثير من التفاسير ان هذه الآية نزلت في جماعة من أصحاب رسول الله (ص) كانوا قد تحلفوا بمكة ، ولم يهاجروا مع رسول الله ، فاشتد المشركون عليهم ، حتى قُتِن البعض منهم عن دينه ، وجاروا المشركين ، ثم ندموا ، وخافوا ان لا تقبل لهم توبة ، فأنزل الله هذه الآية .

(يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) . المراد بالنفس الأولى الانسان ،

سورة النحل

وبالنفس الثانية ذاته ، والمعنى ان كل انسان يوم القيامة يدفع عن نفسه ، ولا يهتم بغيره : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - ٣٧ عبس » . (وتوفى كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون) . ونظيره قوله تعالى : « ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون - ٢٢ الجاثية » . وقوله : « لتجزى كل نفس بما تسعى - ١٥ طه » . وقد تكرر هذا المعنى في عشرات الآيات .

قرية كانت آمنة الآية ١١٢ - ١١٣ :

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ *

اللفظ :

الرزق الرغد الواسع ، وأنعم جمع نعمة .

الإعراب :

قرية بدل من (مثلاً) . ورغداً حال من رزقها أي واسعاً .

المعنى :

اختلف المفسرون في المراد بالقرية المذكورة في الآية : هل هي قرية معينة وموجودة بالفعل ، او انها فُرِضت على هذه الصورة لضرب المثل بها ؟ . ونقل

الجزء الرابع عشر

الرازي عن أكثر المفسرين ان المراد بها مكة المكرمة .. ومها يكن فإن هذه الأوصاف تنطبق على مكة وأهلها ، فإن الناس يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم ، ولا يخافون الغزو واللب والنهب ، كما كان يخاف سائر العرب ، ولا يحتاج أهلها ان ينتجعوا الى البلدان ، لأن الرزق كان يأتيها من كل مكان استجابة لدعوة ابراهيم (ع) : « فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات - ٣٧ ابراهيم » وقد كفر أهل مكة بأنعم الله حيث كذبوا محمداً (ص) ، ومروا بقتله ، حتى اضطروه الى الهجرة من بلده .

وأصاب أهل مكة الجوع بدعاء رسول الله (ص) عليهم ، حيث قال : « اللهم أشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسفي يوسف » . فاستجاب الله دعوته ، وأصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والكلاب والعظام المحرقة والقراد والوبر معجوناً بالدم ، وكان أحدهم ينظر الى السماء فيرى شبه الدخان من الجرع ، أما الخوف فقد زلزلت بهم الأرض سرايا رسول الله (ص) .

كلوا واشكروا الآية ١١٤ - ١١٩ :

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنُكَ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَنَّنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا

السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَأْتُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ★

الإعراب :

الكذب مفعول لتصف ، وهو مبالغة في كذبهم لأن المعنى ان ألسنتهم تُعرف الناس بحقيقة الكذب ، فهو تماماً مثل قولك : وجهه يصف للناس الجمال. والمصدر المنسكب من لتفترأوا بدل من لما تصف مع إعادة حرف الجر لأن وصفهم الكذب هو افتراء على الله . ومتاع قليل خبر مبتدأ محذوف أي بقاؤهم متاع قليل .

المعنى :

(فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله ان كنتم تعبدون انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) . تقدم نظيره مع التفسير في الآية ١٧٣ من سورة البقرة ج ١ ص ٢٦٤ ، والآية ٥ من سورة المائدة ج ٣ ص ١٨ .

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) . كان أهل الجاهلية يحللون ويحرمون من عند أنفسهم ، وينسبون ذلك الى الله تعالى، من ذلك انهم كانوا يحللون الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله ، ويقولون ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وما الى ذلك مما ذكر في سورة الأنعام الآية ١٣٧ وما بعدها ، فنهاهم الله سبحانه عن هذا، وقال هو كذب وافتراء (لتفترأوا على الله الكذب) وكل من أسند الى الله حكماً أو قولاً أو أي شيء من غير دليل قاطع فقد افترى على الله الكذب (ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) كيف وقد غضب الله عليهم وأعد لهم عذاباً أليماً؟. (متاع قليل ولهم عذاب أليم) وكل منافع الدنيا لا تعدل أيسر عذاب من عذاب الآخرة فكيف اذا كان أليماً عظيماً؟. : (نعمتهم قليلاً) ثم نصطربهم الى عذاب غليظ - ٢٣ لقمان.

الجزء الرابع عشر

(وعلى الذين هادوا حرماً ما قصصنا عليك من قبل) . الخطاب لمحمد (ص) يذكره الله فيه بما أنبأ به في الآية ١٤٦ من سورة الأنعام : « وعلى الذين هادوا حرماً كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم » .. (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) لأنهم عصوا الله ، وتجاوزوا حدوده ، فعاقبهم بهذا التحريم ، كما جاء في الآية ١٥٨ من سورة النساء : « فبظلم من الذين هادوا حرماً عليهم طيبات أحلت لهم » . (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أن ربك من بعدها لغفور رحيم) مر نظيره مع التفسير في الآية ٥٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٩٧ .

ان ابراهيم كان امة الآية ١٢٠ - ١٢٤ :

إِنِّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ *

اللفظة :

قانتاً مطيعاً . وحنيفاً مستقيماً مائلاً عن الباطل إلى الحق . واجتبه اختاره واصطفاه .

الإعراب :

أمة خبر كان وقانتاً وحنيفاً وشاكراً أخبار متعددة لكان . وحنيفاً حال من ابراهيم

المعنى :

بعد أن أشار سبحانه في الآيات السابقة الى المشركين وانهم حللوا ما حرم الله، وحرّموا ما أحل ، احتج عليهم بابراهيم (ع) الذي يقدمونه ، ويوجبون الاقتداء به ، وقد وصفه بالصفات التالية :

١ - (ان ابراهيم كان أمة) واختلفوا في تفسير الأمة ، ونقل الرازي أربعة أقوال ، أرجحها قولان : الأول ان ابراهيم كان يعدل أمة بما فيها . الثاني انه كان إماماً ، ومهما يكن فإن المراد بالأمة هنا انه كان عظيماً^١ .

٢ - (قانتاً لله) أي مطيعاً له .

٣ - (حنيفاً) مستقيماً متبعاً الحق تاركاً الباطل .

٤ - (ولم يك من المشركين) . هذا رد على المشركين الذين يدعون انهم على ملة ابراهيم .

٥ - (شاكراً لأنعمه) قد أخلص الشكر لله فيما أنعم عليه .

٦ - (اجتبه) اختاره للنبوة .

٧ - (وهدهاه الى صراط مستقيم) وهو دين الاسلام ، لا اليهودية ولا النصرانية : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين - ٦٦ آل عمران » .

٨ - (وآتيناه في الدنيا حسنة) وهي تعظيم جميع أهل الأديان له، واعترافهم بنبوته .

٩ - (وانه في الآخرة لمن الصالحين) تلبية لدعوته حيث قال : « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين - ٨٢ الشعراء » .

(ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) . هذا دليل

١ قال صاحب « روح البيان » عند تفسير هذه الآية : جاء في الحديث « الحسين سبط من الاسباط » أي أمة من الأمم لأن السادات من نسل ولده زين العابدين . ثم قال صاحب « روح البيان » : ان جماعة في زمانه قالوا الحسين نبي .. ونحن لم نسمع بهذا من قبل . ولا ريب انه كفر والحاد .

الجزء الرابع عشر

على ان الاسلام وديانة ابراهيم شيء واحد في العقيدة ونبذ الشرك ، فمن يدعي انه على دين ابراهيم ، وهو ينكر نبوة محمد (ص) فقد ناقض نفسه بنفسه من حيث يريد أو لا يريد .

وتسأل : ان محمداً (ص) سيد الأنبياء ، فكيف يؤمر بمتابعة غيره من الأنبياء؟
الجواب : ان الفرض من المتابعة هنا هو الرد على المشركين الذين يعترفون بدين ابراهيم ، وينكرون دين محمد (ص) مع انها شيء واحد .. هذا ، الى ان الأمر بالمتابعة الأسبقية ، ومن الواضح ان الأسبقية لا تستدعي الأفضلية في كل شيء .

(انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) . ضمير فيه يعود الى السبت ، كما هو الظاهر من السياق ، وجعل هنا بمعنى فرض ، والسبت على حذف مضاف أي فرض الله تعظيم السبت وترك العمل فيه على اليهود وحدهم ، وما فرض تعظيم السبت على أحد قبلهم ولا بعدهم .. وقيل في سبب ذلك ان جماعة منهم رفضوا الجمعة ، وأبوا الا السبت ، فاستجاب الله لهم على شريطة أن لا يصطادوا فيه ، فقبلوا الشرط ، وخالفوه كما هو شأن اليهود في كل زمان ومكان .. ومما يكن فلان الله سبحانه لم يبين وجه اختلاف اليهود في السبت : هل اختلفوا في جواز العمل فيه ، أو اختلفوا في السبت نفسه ، فمنهم من قال : هو العبد ، ومنهم قال : بل غيره العبد؟ والأرجح انهم اختلفوا في تحريم الصيد فيه بطريق الاحتمال الذي أشرنا اليه عند تفسير الآية ١٦٤ من سورة الأعراف ج ٣ ص ٤١٠ لأنهم جميعاً كانوا متفقين على ان السبت عيد .

(وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) . وحكمه آنذاك هو أن يثيب المطيعين ، ويعاقب العاصين .

الحكمة والموعظة الحسنة الآية ١٢٥ - ١٢٨ :

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَدِينَ*
وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنَّ صَبْرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِلصَّابِرِينَ* وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ
فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ* إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ*

الإعراب :

بمثل ، قال أبو البقاء الباء زائدة . ولئن اللام تدل على قسم محذوف . وهو
خير اللام واقعة في جواب القسم والجملة ساد مسد جواب القسم وجواب الشرط .
والا بالله على حذف مضاف أي الا بعون الله .

المعنى :

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)
وترشدنا هذه الآية الى ما يلي :

١ - ان الدعوة يجب أن تكون للحق خالصة من كل شائبة ، فأني انسان
يدعو الى غير الحق فدعوته فساد وضلال ، وأعظم الناس جرماً من اتخذ من الدعوة
الى الله والحق وسيلة لتدعيم جاهه وكيانه كما يفعل طلاب الزعامة والرئاسة من رجال
الدين والدنيا .

٢ - أن تكون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن الواضح ان قوام الحكمة
العلم والعقل ، فبالعقل يميز الداعي بين الحق والباطل ، والخير والشر ، وبالشر
يعرف أحوال المخاطبين والطريقة التي ينبغي أن يخاطبهم بها من اللين والشدّة ،
أما الموعظة الحسنة فنّها ، بل من أحسنها، أن يخاطب المرشد المخطيء بأسلوب يشعر

الجزء الرابع عشر

منه تلقائياً انه مخطيء ، ومن الحق أن يفاجئه بالتأنيب والتوبيخ ، وقديماً قيل :
التلويح أبلغ من التصريح . وبكلمة ان الموعظة الحسنة هي التي تحقق الغرض المطلوب
كما قال تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي
حميم - ٣٣ فصلت » .

٣ - الجدل بالتي هي أحسن ، وذلك بأن يكون الغرض منه اظهار الحق ،
واقناع المنكر ، لا مجرد افحامه والتغلب عليه .

(ان ربك أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) . بعد ان أمر الله
بنبيه الأكرم ان يبلغ بالحكمة ، ويجادل بالأحسن قال له : هذا ما عليك ، أما
هداية الناس فأتت غير مسؤول عنها .. وفي هذا النص إيماء الى ان الحماس في
الدعوة لا يحسن في كل الأمور وعلى كل حال ، قال تعالى : « وقل الحق من
ربكم فن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر - ٢٨ الكهف » .

(وان عاقبتهم فاعقبوا بمثل ما عوقبتهم به) . هذا مثل قوله تعالى : « فن
اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم - ١٩٤ البقرة » . وقال جماعة
من المفسرين : ان هذه الآية مدنية أدرجت في سورة مكية ، وان السبب لتزولها
ان المشركين مثلوا بقتلى المسلمين في وقعة أحد ، وبالحصوص حزة بن عبد المطلب ،
فإنهم شقوا بطنه ، واخذت هند أم معاوية كبده فلاكته ، وجدعوا أنفه وصلموا أذنيه
وقطعوا مذاكيره ، فقال المسلمون : لئن أمكننا الله من المشركين لنمثلن بالأحياء
فضلاً عن الأموات : فنزلت الآية .

(ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) . بعد أن أشار سبحانه الى ان القصاص
لا يجوز إلا بالمثل قال : الأفضل العفو وكظم الغيظ ومثله قوله تعالى : « ولن
صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور - ٤١ الشورى » .

(واصبر وما صبرك إلا بالله) . أي بعونه تعالى وتوفيقه ، والخطاب لمحمد (ص)
والمراد به العموم . وتكلمنا عن الصبر عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة
ج ١ ص ٢٤٣ .

(ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون) . ما من أحد يدعو الى
الخير الا ويلاتي الأذى والعت من أهل الشر دينياً كان أو زمنياً ، وقد أوصى

سورة النحل

سبحانه كل من دعا ويدعو الى سبيله أن لا يحزن لتكذيب من كذبِ واعراض
من أعرض عن دعوته ، لأن العاقبة لمن اتقى (ان الله مع الذين اتقوا) محارمه
خوفاً منه (والذين هم محسنون) بجهد الباطل وأهله ، وبالعفو عن الناس فيما
يعود الى الحق الخالص دون العام .

تم تفسير هذا المجلد في الليلة الثامنة من المحرم سنة ١٣٨٩ هـ الموافق ٢٧ آذار
سنة ١٩٦٩ م، وكتبت الملزمة الأخيرة منه في مدرسة المقدس السيد الشيرازي بسامراء،
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

فهرست

سورة التوبة

٧	برائة من الله ورسوله الآية ١ - ٤
١١	فاذا انسلخ الأشهر الحرم الآية ٥ - ٨
١٤	اشترؤا بآيات الله الآية ٩ - ١٥
١٨	أم حسبم ان تركوا الآية ١٦ - ١٨
٢٠	سقاية الحاج الآية ١٩ - ٢٢
٣٢	لا تتخلفوا آباءكم واخوانكم أولياء الآية ٢٣ - ٢٤
٢٣	لقد نصركم الله الآية ٢٥ - ٢٧
٢٤	قصة حنين
٢٧	المشركون نجس الآية ٢٨
٢٩	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله الآية ٢٩ - ٣٣
٣٤	والذين يكتزون الذهب والفضة الآية ٣٤ - ٣٥
٣٥	أبو ذر والاشتركية
٣٨	ان عدة الشهور الآية ٣٦ - ٣٧
٣٩	الأشهر القمرية هي الأشهر الطبيعية
٤١	مالككم إذا قيل لكم الآية ٣٨ - ٤٠
٤٥	انفروا خفافاً وثقالاً الآية ٤١ - ٤٣
٤٦	التغير العام
٤٩	لا يستأذنك الذين يؤمنون الآية ٤٤ - ٤٨

٥١	ومنهم من يقول ائذن لي الآية ٤٩ - ٥٢
٥٣	صدقات المنافقين الآية ٥٣ - ٥٧
٥٧	فإن أعطوا منها رضوا الآية ٥٨ - ٥٩
٥٨	مستحقو الزكاة الآية ٦٠
٦٠	ويقولون هو اذن الآية ٦١ - ٦٣
٦٣	يحذر المنافقون الآية ٦٤ - ٦٦
٦٥	المنافقون والمنافقات الآية ٦٧ - ٧٠
٦٨	والمؤمنون والمؤمنات الآية ٧١ - ٧٢
٦٩	جاهدوا الكفار والمنافقين الآية ٧٣ - ٧٤
٧٢	ومنهم من عاهد الله الآية ٧٥ - ٧٨
٧٤	الذين يلمزون المطوعين الآية ٧٩ - ٨٠
٧٦	فرح المخلفون بمقعدهم الآية ٨١ - ٨٣
٧٨	ولا تصلّ على أحد منهم الآية ٨٤ - ٨٩
٧٩	الصلاة على جنازة المنافق
٨٢	وجاء المعذرون الآية ٩٠ - ٩٣
٨٩	يعتذرون اليكم الآية ٩٤ - ٩٦
٩١	الأعراب أشد كفراً ونفاقاً الآية ٩٧ - ٩٩
٩٣	والسابقون الأولون الآية ١٠٠ - ١٠٢
٩٧	خذ من أموالهم صدقة الآية ١٠٣ - ١٠٦
٩٩	مسجد ضرار الآية ١٠٧ - ١١٠
١٠٤	الله يشتري ويبيع الآية ١١١ - ١١٢
١٠٦	أبو طالب والاستغفار للمشركين الآية ١١٣ - ١١٤
١٠٨	طبيعة الحال
١١١	وما كان الله ليضل قوماً الآية ١١٥ - ١١٦
١١٢	لقد تاب الله على النبي الآية ١١٧ - ١١٩
١١٥	ما كان لأهل المدينة الآية ١٢٠ - ١٢١
١١٧	فلولا نفر من كل فرقة الآية ١٢٢ - ١٢٣
١٢١	واذا ما انزلت سورة الآية ١٢٤ - ١٢٧
١٢٣	بالمؤمنين رؤوف رحيم الآية ١٢٨ - ١٢٩

سورة يونس

١٢٩	تلك آيات الكتاب الحكيم الآية ١ - ٢
١٣١	الخلق في ستة أيام الآية ٣ - ٤
١٣٢	الحساب والجزاء حتم
١٣٤	عدد السنين والحساب الآية ٥ - ١٠
١٣٦	أين المتقون ؟.
١٣٧	ولو يعجل الله الشر الآية ١١ - ١٤
١٤٠	انت بقرآن غير هذا الآية ١٥ - ١٧
١٤٣	ويقولون هؤلاء شفعاؤنا الآية ١٨ - ٢٠
١٤٥	قل الله أسرع مكرراً الآية ٢١ - ٢٣
١٤٨	مثل الحياة الدنيا الآية ٢٤ - ٢٥
١٥٠	للذين أحسنوا الحسنى الآية ٢٦ - ٣٠
١٥٣	من يرزقكم من السماء الآية ٣١ - ٣٤
١٥٦	من يهدي الى الحق الآية ٣٥ - ٣٩
١٦١	ومنهم من يؤمن به الآية ٤٠ - ٤٤
١٦٣	ويوم يحشرهم الآية ٤٥ - ٤٧
١٦٥	متى هذا الوعد الآية ٤٨ - ٥٦
١٦٨	بالله عليك يا محمد أنت نبي ؟.
١٧٠	جاءكم موعظة الآية ٥٧ - ٦٠
١٧٣	وما تكون في شأن الآية ٦١ - ٦٤
١٧٥	ان العزة لله جميعاً الآية ٦٥ - ٧٠
١٧٨	نبأ نوح الآية ٧١ - ٧٣
١٨٠	بعثنا من بعده رسلاً الآية ٧٤ - ٨٢
١٨٢	حول الهداية والضلال
١٨٣	فا آمن لموسى الآية ٨٣ - ٨٩
١٨٧	وجاوزنا ببني اسرائيل البحر الآية ٩٠ - ٩٣
١٨٨	نهاية الطاغية
١٩٠	فان كنت في شك الآية ٩٤ - ٩٧
١٩٢	قوم يونس الآية ٩٨ - ١٠٠

	القصة
١٩٣	وما تنفي الآيات والنذر الآية ١٠١ - ١٠٦
١٩٥	وان بمسك الله بضر الآية ١٠٧ - ١٠٩
١٩٨	سورة هود
٢٠٣	كتاب أحكمت آياته الآية ١ - ٤
٢٠٥	يشنون صدورهم الآية ٥
٢٠٩	وما من دابة في الأرض الآية ٦ - ٨
٢١١	حول الانسان الآية ٩ - ١١
٢١٤	اولا انزل عليه كثر الآية ١٢ - ١٤
٢١٦	من كان يريد الحياة الدنيا الآية ١٥ - ١٧
٢١٩	أولئك يعرضون على ربهم الآية ١٨ - ٢٤
٢٢٢	رسالة نوح الآية ٢٥ - ٢٦
٢٢٣	بين نوح وقومه الآية ٢٧ - ٣١
٢٢٦	قالوا يا نوح قد جادلتنا الآية ٣٢ - ٣٥
٢٢٨	وأوحى الى نوح الآية ٣٦ - ٣٩
٢٣٠	وفار التنور الآية ٤٠ - ٤٤
٢٣٤	ونادى نوح ربه الآية ٤٥ - ٤٩
٢٣٦	أسطورة حول العاشر من المحرم
٢٣٧	الطوفان ثابت عند الأمم
٢٣٧	هود الآية ٥٠ - ٥٦
٢٤١	فإن تولوا الآية ٥٧ - ٦٠
٢٤٣	صالح الآية ٦١ - ٦٣
٢٤٥	ناقة الله الآية ٦٤ - ٦٨
٢٤٧	الملائكة يبشرون ابراهيم الآية ٦٩ - ٧٣
٢٥٠	ابراهيم يجادل في قوم لوط الآية ٧٤ - ٧٦
٢٥٢	لوط الآية ٧٧ - ٨٠
٢٥٤	لن يصلوا اليك الآية ٨١ - ٨٣
٢٥٦	شعيب الآية ٨٤ - ٨٦
٢٥٨	أصلاتك تأمرك الآية ٨٧ - ٩٠

٢٥٩	الاشتراكية والرأسمالية عبر التاريخ
٢٦٢	ولولا رهطك لرجعتك الآية ٩١ - ٩٥
٢٦٤	موسى الآية ٩٦ - ٩٩
٢٦٥	ذلك من أنباء القرى الآية ١٠٠ - ١٠٢
٢٦٦	وذلك يوم مشهود الآية ١٠٣ - ١٠٩
٢٧١	ولولا كلمة سبقت من ربك الآية ١١٠ - ١١٥
٢٧٣	الاستقامة
٢٧٤	مسؤولية التضامن ضد الظلم
٢٧٦	فلولا كان من القرون الآية ١١٦ - ١١٩
٢٨٠	وكلاً نقص عليك الآية ١٢٠ - ١٢٣

سورة يوسف

٢٨٥	تلك آيات الكتاب المبين الآية ١ - ٣
٢٨٧	رأيت أحد عشر كوكباً الآية ٤ - ٦
٢٨٩	يوسف واخوته الآية ٧ - ١٥
٢٩٠	المصلحة فوق القرابة
٢٩٣	بين أولاد اسرائيل وأولاد العلماء
٢٩٤	وجاءوا أباهم عشاء يبكون الآية ١٦ - ٢٠
٢٩٦	وقال الذي اشتراه الآية ٢١ - ٢٢
٢٩٨	وقالت هيت لك الآية ٢٣
٢٩٩	الانسان والمال والجنس
٣٠١	ولقد همت به وهم بها الآية ٢٤ - ٢٩
٣٠٥	القضاء بشاهد الحال
٣٠٧	امراً العزيز ونسوة المدينة الآية ٣٠ - ٣٥
٣١١	ودخل معه السجن فتيان الآية ٣٦ - ٣٨
٣١٣	يا صاحبي السجن الآية ٣٩ - ٤٠
٣١٥	لا حكم الا لله
٣١٦	تعبير رؤيا صاحبي السجن الآية ٤١ - ٤٢
٣١٧	سبع بقرات سمان الآية ٤٣ - ٤٩

٢١٩	الأحلام ونظرية فرويد
٣٢٣	وقال الملك اثنوني به الآية ٥٠ - ٥٣
٣٢٩	يوسف عزيز مصر الآية ٥٤ - ٥٧
٣٣٢	وجاء اخوة يوسف الآية ٥٨ - ٦٢
٣٣٤	فارسل معنا أخانا الآية ٦٣ - ٦٦
٣٣٦	لا تدخلوا من باب واحد الآية ٦٧ - ٦٨
٣٣٩	أنا أخوك فلا تبتس الآية ٦٩ - ٧٦
٣٤٣	إن يسرق فقد سرق أخ الآية ٧٧ - ٨٠
٣٤٦	وما شهدنا الا بما علمنا الآية ٨١ - ٨٧
٥٥٠	أنا يوسف الآية ٨٨ - ٩٣
٣٥٤	اني لأجد ربح يوسف الآية ٩٤ - ٩٨
٣٥٦	اجتماع يعقوب ويوسف الآية ٩٩ - ١٠٢
٣٦١	هل سورة يوسف قصة غرام ؟
٣٦٣	وما أكثر الناس مؤمنين الآية ١٠٣ - ١٠٧
٣٦٥	قل هذه سبيلي الآية ١٠٨ - ١١١

سورة الرعد

٣٧١	تلك آيات الكتاب الآية ١
٣٧٢	رفع السموات بغير عمد الآية ٢ - ٤
٣٧٦	السيد الأفغاني والدهريون
٣٧٧	اثنا لفي خلق جديد الآية ٥ - ٧
٣٧٩	الماديون والحياة بعد الموت
٣٨٢	علم الله الآية ٨ - ١١
٣٨٥	لا يغيروا حتى يغيروا
٣٧٦	هو الذي يرزقكم البرق الآية ١٢ - ١٥
٣٩٠	هل يستوي الأعمى والبصير الآية ١٦
٣٩١	عقول الناس لا تغنيهم عن دين الله
٣٩٣	فاما الزبد فيذهب جفاء الآية ١٧ - ١٨
٣٩٦	انما أنزل اليك من ربك الآية ١٩ - ٢٥

- يسط الرزق الآية ٢٦ - ٢٩ ٤٠٠
الانسان والرزق ٤٠١
كذلك أرسلناك في أمة الآية ٣٠ - ٣١ ٤٠٣
تفكير الطفلة ٤٠٥
ولقد استهزىء برسل من قبلك الآية ٣٢ - ٣٤ ٤٠٧
مثل الجنة الآية ٣٥ - ٣٨ ٤١٠
الشيعية الامامية والصحابه ٤١٢
يمحو الله ما يشاء ويثبت الآية ٣٩ - ٤٣ ٤١٤
راحة الضمير والوجدان ٤١٧

سورة ابراهيم

- الدين نور الآية ١ - ٤ ٤٢١
ولقد أرسلنا موسى الآية ٥ - ٨ ٤٢٤
ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم الآية ٩ - ١٢ ٤٢٧
لنخرجنكم من أرضنا الآية ١٣ - ١٧ ٤٣١
أعمالكم كرماد الآية ١٨ - ٢١ ٤٣٤
الظالم والمظلوم ٤٣٦
وعد الرحمن ووعد الشيطان الآية ٢٢ - ٢٣ ٤٣٨
كلمة طيبة وكلمة خبيثة الآية ٢٤ - ٢٧ ٤٤٢
بدلوا نعمة الله كفرأ الآية ٢٨ - ٣١ ٤٤٥
وأنزل من السماء ماء الآية ٣٢ - ٣٤ ٤٤٧
هل الانسان مجرم بطبعه ؟ ٤٤٩
رب اجعل هذا البلد آمناً الآية ٣٥ - ٤١ ٤٥٠
الأنبياء واستجابة الدعاء ٤٥١
الظالم غافل غير مغفول عنه الآية ٤٢ - ٤٥ ٤٥٤
وقد مكروا مكروهم الآية ٤٦ - ٥٢ ٤٥٧
جهنم والأسلحة المجهنية ٤٥٩

سورة الحجر

- تلك آيات الكتاب الآية ١ - ٥ ٤٦٥

٤٦٦	انك لمجنون الآية ٦ - ١٨
٤٧٠	والأرض مددناها الآية ١٩ - ٢٥
٤٧٣	الانسان من صلصال الآية ٢٦ - ٣١
٤٧٦	الله يسأل وإبليس يجب الآية ٣٢ - ٤٤
٤٧٩	ان المتقين في جنات الآية ٤٥ - ٥٠
٤٨١	ضيف إبراهيم الآية ٥١ - ٦٠
٤٨٢	آل لوط الآية ٦١ - ٧٢
٤٨٥	أخذتهم الصيحة الآية ٧٣ - ٨٦
٤٨٨	السبع المثاني والقرآن العظيم الآية ٨٧ - ٩٩

سورة النحل

٤٩٥	أتى أمر الله فلا تستعجلوه الآية ١ - ٤
٤٩٧	الأنعام والحيل والبغال والحمير الآية ٥ - ٩
٥٠٠	التذكير بنعم الله الآية ١٠ - ١٩
٥٠٣	الذين يدعون من دون الله الآية ٢٠ - ٢٣
٥٠٥	قالوا أساطير الأولين الآية ٢٤ - ٢٩
٥٠٨	قالوا خيراً الآية ٣٠ - ٣٤
٥١١	وقال الذين أشركوا الآية ٣٥ - ٣٧
٥١٣	واقسموا بالله الآية ٣٨ - ٤٢
٥١٥	فاسألوا أهل الذكر الآية ٤٣ - ٥٠
٥١٩	انما هو إله واحد الآية ٥١ - ٥٥
٥٢١	ويجعلون لله البنات الآية ٥٦ - ٦٠
٥٢٤	انما يجعل من يخاف الموت الآية ٦١ - ٦٤
٥٢٦	والله أنزل من السماء ماء الآية ٦٥ - ٦٩
٥٢٩	ففضل بعضكم على بعض في الرزق الآية ٧٠ - ٧٤
٥٣٢	القادر والعاجز الآية ٧٥ - ٧٧
٥٣٤	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم الآية ٧٨ - ٨٣
٥٣٦	الكون أكبر من الصواريخ
٥٣٨	احترام البيت في الشريعة

٥٣٩	فكيف بنعمة الذهب الأسود ؟
٥٤٠	نبعث من كل أمة شهيداً الآية ٨٤ - ٨٩
٥٤٣	الله يأمر بالعدل والاحسان الآية ٩٠ - ٩٣
٥٤٧	ما عند الله خير الآية ٩٤ - ١٠٠
٥٥١	آية مكان آية الآية ١٠١ - ١٠٥
٥٥٤	الكاذب الكافر
٥٥٥	وقلبه مطمئن بالايمان الآية ١٠٦ - ١١١
٥٥٨	قرية كانت آمنة الآية ١١٢ - ١١٣
٥٥٩	كلوا واشكروا الآية ١١٤ - ١١٩
٥٦١	ان ابراهيم كان أمة الآية ١٢٠ - ١٢٤
٥٦٣	الحكمة والموعظة الحسنة الآية ١٢٥ - ١٢٨